الوسيط

في

الأدب العربي وتاريخه

تأليف

الشيخ أحمد الإسكندري و الشيخ مصطفى عنانى

الوسيط

في

الأدب العربي وتاريخه

الوسيط

فى

الأدب العربى وتاريخه

تأليف

الشيخ أحمد الإسكندرى و الشيخ مصطفى عنانى

الطبعة السادسة عشرة

تاريخ آدب اللغة

تاريخ

التاريخ — هو معرفة أخبار الماضين وأحوالهم من حيثُ معيشتهم ، وسياستهم ، واعتقادهم ، وأدبهم ولغتهم .

الأدب

والأدب — (كل رياضة[١] محمودة يتخرجُ[٢] بها الإنسانُ في فضيلة من الفضائل) وهذه الرياضة كما تكون بالفعل . وحسن النظر[٣] ، والمحاكاة . تكون بمزاولة الأقوال الحكيمة التي تضمنتها لغةُ أيّ أمة .

اللغة

اللغة[٤] — ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

---

(١) الرياضة — التذليل والتمرين والمعالجة .

(٢) خرجته فتخرج — دربته فتدرب ، والأدب بهذا التعريف نقله المصباح عن أبي زيد .

(٣) التعقل والاستنباط .

نشأة اللغات

(٤) المعروف بشهادة العقل والاستقراء وتتبع نطق الأطفال والأمم المتوحشة والراقية . أن لغات العالم (على كثرتها التي لم تتناه ولن تتناهى) ترجع إلى أمهات أصلية تولدت وتتولد عنها ؛ وأن كل واحدة من هذه الأمهات هي المنشأ الأول لفروعها . وأنها كلها تنشأ من جدة عنيا مجهولة هي لغة الإنسان الأول . وتلك الجدة هي الكلمات القليلة التي كان يعبر بها الإنسان عن رغائبه القليلة أو عن الأشياء المحيطة به . وبعض هذه الكلمات مقتبس من محاكاة الأصوات التي تصدر من الحيوان والإنسان والريح وغيرها : كما تفعل الببغاء التي هي دون الإنسان في الإدراك ؛ وبعضها مرتجل بطبيعة القوة الناطقة التي أودعها الله الإنسان وميزه بها من سائر الحيوان ؛ وهي فيه إلهام فطري أسمى من الإلهام المودع الحيوان الأعجم ، فإنا نسمع الهرة مثلا تموء ببضعة أصوات مختلفة تظهر بها انفعالاتها ومطالبها . فصوت الاستعطاف غير صوت الزجر والغضب إلخ . فعند ما يجيش صدر الإنسان بإظهار رغبة أو رهبة يصيح بصوت مصور بصورة ما على حسب ما يلهمه الله فيسمعه غيره ويفهم منه مراده بإضافة قرينة حال أو إشارة (كما تشاهد ذلك كثيراً في بعض الأطفال عند محاولتهم النطق) فإذا وجد أنه أدى غرضه استعمله ثانية وثالثة في إفهام رفقائه فيذاع بينهم ويعرف ، ولا يحتاج في استعماله إلى قرينة ، وهكذا يفعل غيره فعله ، ويقلدهما ثالث ورابع حتى تتكون اللغة الأولى الضرورية للبيئة التي يعيشون فيها ويتفق عليها من غير تعمل ولا قصد إلى الاتفاق . ثم تتسع هذه اللغة بطرق النمو المعروفة كالاشتقاق والزيادة والنقص والتحريف والتحويل من الحقيقة إلى المجاز ثم يصير حقيقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمودُ اللهُ جلَّ جلالُه والمصلَّى عليه محمدٌ وآلُه. والمدْعوُّ له الوطنُ ورجالُه.

وبعدُ. فإنا رأينا النَّشْءَ من طلاب الأدب العربيِّ في حاجة إلى مختصر مُلِمٍّ بفنونه. مؤثِرٍ لعيونه. مؤرخ لشئونه؛ فوضعْنا هذا الكتاب؛ لعلَّنا نُقرِّب إليهم القصْدَ. ونُسهِّلُ عليهم الصَّعبَ. وعلى الله قصدُ السبيلِ! وهو حسبنا ونعمَ الوكيلُ!

أحمد الإسكندرى مصطفى عنانى

٩ من ذى القعدة سنة ١٣٣٥

٦ من أغسطس سنة ١٩١٦

وأدب لغة أى أمة — هو ما أودع نثرَها وشعرها من نتاج عقول أبنائها ، وأمثلة طبائعهم ، وصُوَر أخيلتهم[١] ومَبلغ بيانهم ، مما شأنُه أن يهذّب النفس ، ويُثقف[٢] العقل ، ويُقوّم اللسان .

وتاريخ أدب اللغة — هو العلم الباحث عن أحوال اللغة ، نثرِها ونظمها فى عصورها المختلفة من حيث رفعتها وضَعتها ، وعما كان لنابغيها من الأثر البيِّن فيها . وهو على النظام الآتى بعدُ حديث النشأة فى مصر .

هذا . والأظهر أن الإنسان نطق أولا بأسماء المحسوسات ، ثم بأسماء بعض المعقولات ، وبالمصادر وبالأفعال ، وبأسماء الإشارة والضمائر والموصولات ، ثم بالحروف والمشتقات ، ويعرف ذلك من تتبع لغات الأمم الوحشية ، ومشاهدة كلام الأطفال عند ابتداء نطقهم .

أما اللغات الفرعية فتنشأ من هجرة بعض طوائف أهل اللسان الأصلى إلى جهات متباعدة ، فيدفعهم انتقاطع إلى نسيان بعض الكلمات ، لعدم استعمالها فى وطنهم الجديد ، أو إلى تحريفها على طول الزمان ، ثم هم يرون فى هذا الوطن ما لم يروه من قبل ، من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون إلى وضع كلمات على الوجه الآنف الذكر وهكذا ، فتتباعد اللغة الفرعية عن الأصلية كلما تباعد الزمان والمكان . ويزيد مدى التباعد إذا جاوروا أمماً تتكلم بغير لسانهم الأصلى ، فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين فى بنية لغتهم . ثم إذا طال الأمد على أهل لغة وكثر عددهم وارتقت الصفات الإنسانية فيهم ، اتسعت هذه اللغة وتعددت أساليب التعبير فيها وضاق حفظ أى فرد من علمائها عن أن يحيط بها .

فظهر من هذا أن اللغات وضعها البشر من غير سابقة اصطلاح واتفاق ، وأن قول من يقول إنها توقيفية لا يعقل منه إلا أنها متوقفة على إلهام من الله واهب النطق للإنسان .

أما من يقول إنها توقيفية بمعنى أن الله أوحى بها إلى أنبيائه (عليهم صلواته) وهم علموها الناس فماذا يقول فى اللغات التى نشأت وتنشأ بعد الأنبياء كلغاتنا العامية ولغات أهل أوربة الحديثة ؟ أم ماذا يقول فى اللسان العام (الإسبرنتو) الذى ارتجله أحد علماء أوربة ليكون لسان العالم ويرفع به العصبية الجنسية من الأرض ، ويستعمله الآن كثيرون فى أغراض خاصة .

واحتجاجه بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » ليس بقطعى لجواز أن يكون معنى علمه : ألهمه وأقدره ، لأنه قد فسرت الأسماء بأسماء الملائكة بدليل إعادة ضمير العقلاء عليهم ، ولجواز أن تلك خصوصية لآدم فكما خلقه ابتداءً علمه ابتداء . ولو أريد بالأسماء أسماء جميع الموجودات فهل تعلمها بجميع ألسنة أولاده وهى ألوف مؤلفة ، ومنها المخترعات ذوات الأسماء المرتجلة . هذا ما ظهر لنا والله أعلم .

(١) الخيال والخيالة ما يتراءى لك من ظل أو شبح أو صورة ، والمراد هنا الصورة الباهرة المنتزعة من محسوس متعدد بقصد تمليحها فى النفس أو تشويهها فيها ولو لم تقع فى الخارج .

(٢) أى يقوم ويعدل .

فوائد تاريخ أدب اللغة

ومن أهم فوائده :

١ — معرفة أسباب ارتقاء (أدب اللغة) وانحطاطه . دينية كانت تلك الأسباب أو اجتماعية أو سياسية . فنستمسك بأسباب الارتقاء . ونتحامى أسباب الانحطاط .

٢ — معرفة أساليب اللغة ، وفنونها . وأفكار أهلها ومُواضعاتهم[١] ، واختلاف أذواقهم في نثرهم ونظمهم . على اختلاف عصورهم . حتى يَتهيأ للمتخرّج في هذا العلم أن يميز بين صُوَر الكلام في عصر وصُوره في آخر ، بل ربما صحّ أن يُلحق القول بقائله عينه .

٣ — معرفة أحوال النابهين[٢] من أهل اللغة في كل عصر . وما كان لنثرهم وشعرهم وتأليفهم من أثر محمود . أو حال ممقوتة . لنحتذى مثال المحسن ، ونتنكب عن طريقة المسيء .

أصل اللغة العربية

واللغة العربية — إحدى اللغات الساميّة[٣] وهي لغة أمة العرب القديمة العهد الشائعة الذكر . التي كانت تسكن الجزيرة المنسوبةَ إليها في الطرف الغربيّ من آسيا .

ويُظن أنها أقربُ اللغات الساميّة إلى أصلها . لأن العرب لم تُخالط غيرها كثيراً ولم تَدْخل طويلاً تحت حكم أمة أعجميّة .

أمة العرب

وهذه الأمة — منها القدماء . وهم الذين كانوا يسكنون تلك الجزيرة وينطقون باللغة العربية سليقةً وطبعاً .

طبقات العرب

وهم ثلاث طبقات : أولاها العرب البائدةُ . وهؤلاء لم يصل إلينا شيء صحيح من أخبارهم إلاّ ما قصّه الله علينا في القرآن الكريم ، وإلاّ ما جاء في الحديث النبويّ . ومن أشهر قبائلهم طَسْمٌ . وجَدِيسُ[٤] . وعادٌ[٥] ، وثمودُ[٦] وعِمْليق[٧] وعبدُ ضخم[٨] .

---

(١) مصطلحاتهم (٢) المشهورين (٣) أى اللغات التى تكلمت بها الشعوب المختلفة من أولاد سام بن نوح ، ولغة سام أمها مجهولة لم تعلم أصولها ولا قواعدها (٤) كانتا تسكنان اليمامة أيام ملوك الطوائف من الفرس (٥) كانت تسكن الأحقاف (٦) كانت تسكن الحجر (المسمى الآن بمدائن صالح) ووادى القرى بين الحجاز والشام (٧) العمالقة قوم سكن أوائلهم اليمن ثم انحدروا إلى مكة ويثرب وأرض الشام ومنهم فراعنة الرعاة بمصر (٨) كانوا يسكنون الطائف ويقال إنهم أول من كتب بالخط العربى . (راجع مصور بلاد العرب فى هذا الكتاب) .

وثانيتها العرب العاربة — وهم بنو قحطانَ الذين جلوْا عن سِقْىِ[١] الفُرات ، واختاروا اليمنَ منازلَ لهم ، وامتزجت لغتهم بلغة سابقيهم ، ثم انتشرت فى أنحاء الجزيرة . ومن أمهات قبائلهم كَهْلان[٢] ، وحِمْيَر[٣] .

وثالثتها العرب المستعربة — وهم بنو إسماعيل الطارئون على القحطانيين والممتزجون بهم لغة ونسباً . والمعروفون بعدُ بالعدْنانيين[٤] ومن أمهات قبائلهم ربيعةُ ومضرُ ، وإيادُ ، وأنمار[٥] .

وبقية القبائل المشهورة وبطونها من الطبقات الثلاث مبينة فى الأشكال الآتية بعدُ مُراعًى فى ترتيبها مرتبة الشهرة لا مرتبة البنوّة الحقيقية[٦] .

ومنها المحدثون — وهم سلائل[٧] هؤلاء الأقوام الممتزجون بسلائل غيرهم ، والمنتشرون بعدَ الإسلام فى بقاع الأرض من المحيط الأخضر (الأطلنطى) إلى ما وراء بحر فارسَ ودِجْلةَ ، ومن أعالى النهرين[٨] إلى ما وراء جاوة وسومطرة . ويتكلمون بلهجات عامية مختلفة ترجع إلى اللغة العربية الفصيحة التى يتعرّفونها بالتّعلُّم .

---

(١) سقى النهر ما يسقيه من الأرض وهو المسمى الآن بحوض النهر .

(٢) كهلان بن سبأ وأصل مساكنهم اليمن ثم تفرقوا ببادية جزيرة العرب .

(٣) قبيلة تنسب إلى حمير بن سبأ ، وكانوا يسكنون أول أمرهم غربى صنعاء ، وأكثر قبائل اليمن متفرعة من حمير وكهلان .

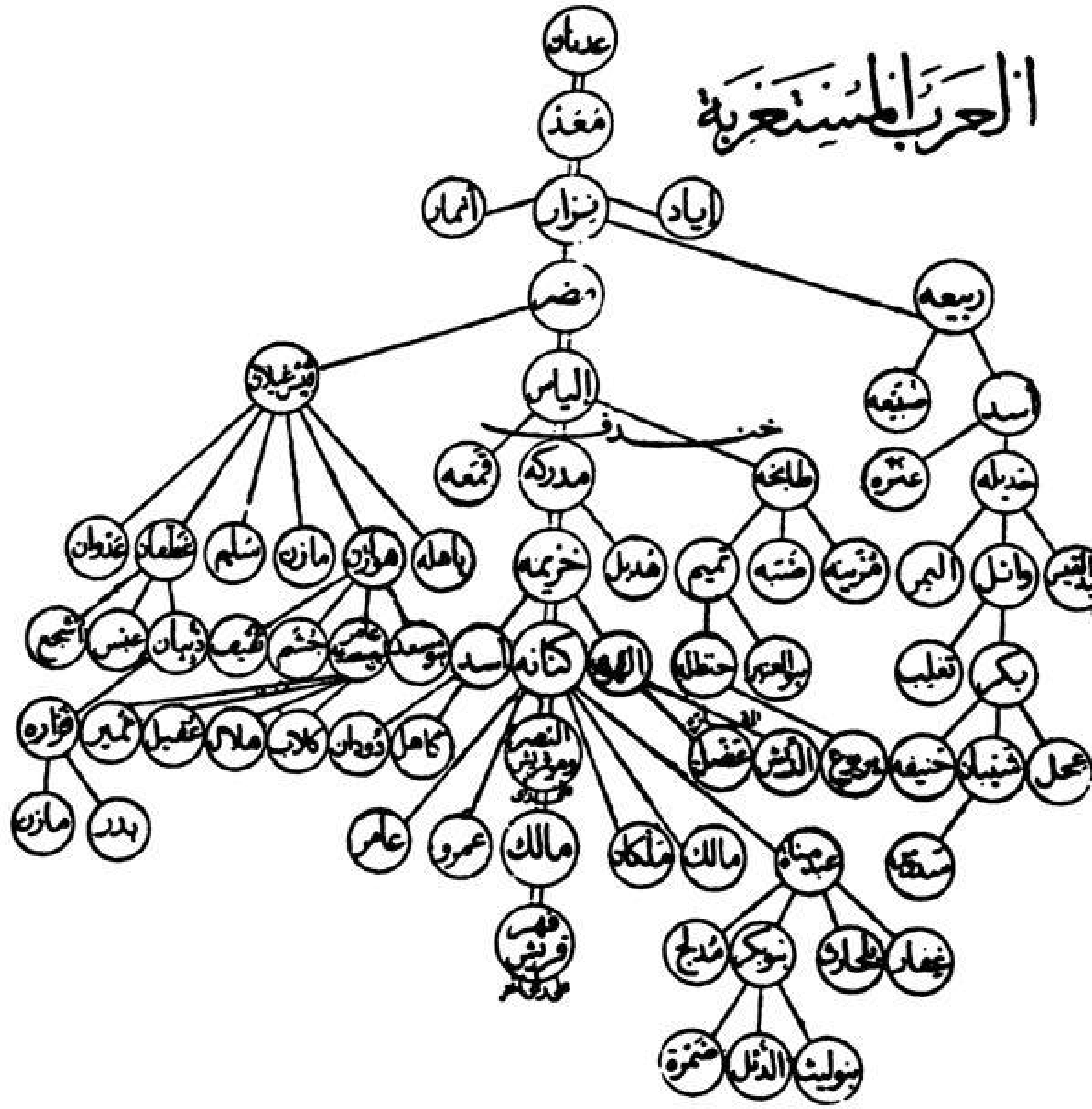
(٤) نشأوا بمكة والعراق والحجاز وانتشروا ببادية جزيرة العرب أواسطها وشماليها ممتزجين بالقحطانيين .

(٥) هؤلاء هم الشعوب الأربعة الكبرى التى تفرعت منها قبائل العدنانية وأكثرهم عدداً ، مضر ، ثم ربيعة ، وهم أولاد نزار بن معد بن عدنان .

(٦) أخذنا أشكال الأنساب الثلاثة فى هذه الطبعة من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى صاحب كتاب (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب) وهو أشهر كتب النسب عند المتأخرين ومنه رسم جداوله صاحب سبائك الذهب المشهور . وأخذت فى الطبعة الأولى من تاريخ أبى الفداء ، واعتمدنا هنا بعض زياداته فى الشكل الثالث . والخلاف بينهما إنما هو فى الزيادة والنقص أو ترتيب البطون باعتبار الشهرة أو باعتبار البنوة الحقيقية . هذا واضطراب النسابين فى الأنساب طويل عريض .

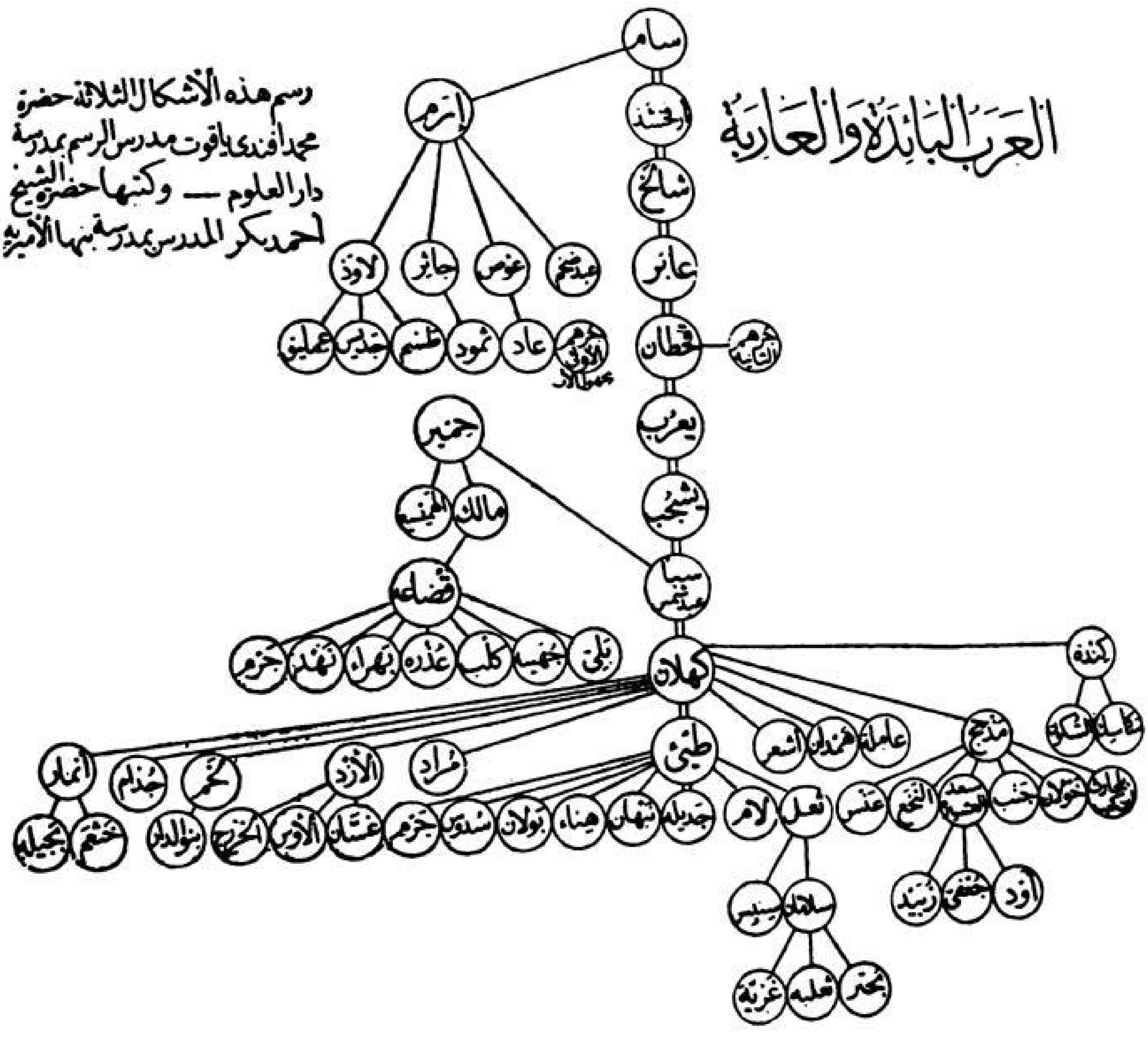
(٧) أولاد .

(٨) دجلة والفرات .

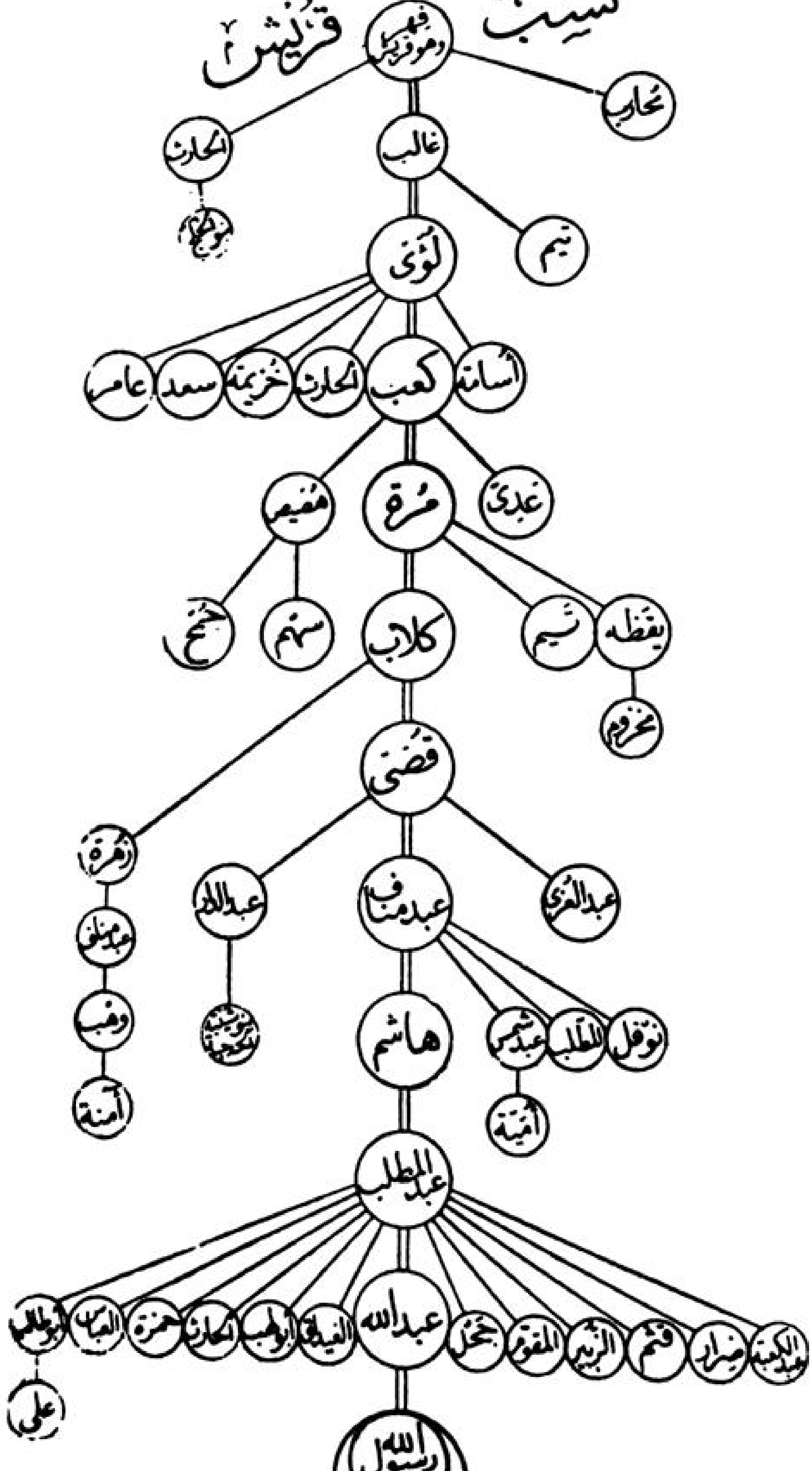

العرب المستعربة
عدنان
معد
نزار
أنمار
إياد
مضر
ربيعه
قيس عيلان
الياس
ضبيعه
أسد
خندف
قمعه
مدركه
طابخه
عنزه
جديله
عدوان
غطفان
سليم
مازن
هوازن
باهله
خزيمه
هذيل
تميم
ضبه
مزينه
النمر
وائل
عبد القيس
أشجع
عبس
ذبيان
ثقيف
جشم
بنو سعد
أسد
كنانه
حنظله
تغلب
بكر
فزاره
نمير
عقيل
هلال
كلاب
عضل
الديش
عجل
شيبان
حنيفه
بدر
مازن
عامر
عمرو
مالك
ملكان
مالك
عبد مناة
فهر
قريش
غفار
الحارث
مدلج
بنو بكر
ضمرة
الدئل
بنو ليث

العرب البائدة والعاربة

رسم هذه الأشكال الثلاثة حضرة
محمد أفندي ياقوت مدرس الرسم بمدرسة
دار العلوم — وكتبها حضرة الشيخ
أحمد بكر المدرس بمدرسة بنها الأميرية



نسب قريش


فهر
وهو قريش
محارب
الحارث
غالب
تيم
لؤى
أسامة
كعب
الحارث
خزيمة
سعد
عامر
عدى
مرة
هصيص
يقظه
تيم
كلاب
سهم
جمح
مخزوم
قصى
زهرة
عبد الدار
عبد مناف
عبد العزى
عبد مناف
وهب
آمنة
هاشم
نوفل
المطلب
عبد شمس
أمية
عبد المطلب
عبد الكعبة
ضرار
قثم
الزبير
المقوم
حجل
عبد الله
الغيداق
أبو لهب
الحارث
حمزة
العباس
أبو طالب
على
رسول الله
محمد
صلعم

عصور اللغة العربية وآدابها

لما كان تاريخُ لغة أى أمة وأدبها يرتبط كل الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التى تقع بين ظهرانَى(١) هذه الأمة — ناسبَ ، لذلك ، ولسهولة الدرس وضبطه — أن نقسم أدب اللغة العربية خمسة أعصر :

الأول — عصر الجاهلية — وينتهى بظهور الإسلام ، ومدته نحو خمسين ومائة سنة .

الثانى — عصر صدر الإسلام — ويشمل بنى أمية — ويبتدئ بظهور الإسلام وينتهى بقيام دولة بنى العباس (سنة ١٣٢ هـ) .

الثالث — عصر بنى العباس — ويبتدئ بقيام دولتهم ، وينتهى بسقوط بغداد فى أيدى التتار(٢) (سنة ٦٥٦ هـ) .

الرابع — عصر الدول المتتابعة التركية(٣) — ويبتدئ بسقوط بغداد ، وينتهى بمبدأ النهضة الأخيرة (سنة ١٢٢٠ هـ) .

الخامس — عصر النهضة الأخيرة — ويبتدئ من حكم أسرة محمد على بمصر ويمتد إلى وقتنا هذا .

---

(١) مثنى ظهر ، وزيدت الألف والنون فى الصيغة لزيادة المعنى والتأكيد ، ومعناه أن ظهراً منها قدامها ، وظهراً منها وراءها ، فهى مكنوفة من جانبيها ، ثم استعمل فى معنى الإقامة والحلول بين القوم مثلا .

(٢) هى إحدى الأمم الطورانية التى كانت تسكن شمال الصين ثم انتشرت فى غربى آسيا وشرقى أوربة .

(٣) وتشمل دولتى المماليك بمصر والشام ، والدول المتخلفة عن التتار فى آسيا ، وممالك الدولة العثمانية فى القارات الثلاث القديمة .

العصر الأول عصر الجاهلية

حالة اللغة وآدابها فى ذلك العصر

وصف اللغة العربية ومزاياها

لغة العرب من أغنى اللغات كلماً ، وأعرقها[١] قِدَماً ، وأخلَدِها أثراً ، وأرحبها[٢] صدراً ، وأدوَمها على غِيَر[٣] الدهر مُحاسنةً وصَبراً ، وأعذَبها منطقاً ، وأسلسها أسلوباً ، وأروَعها[٤] تأثيراً ، وأغزَرِها مادّةً ، وأوسعها لكل ما يقع تحت الحِس ، أو يجول فى الخاطر : من تحقيق علوم ، وسنّ قوانين ، وتصوير خيال ، وتعيين مَرافق[٥] . وهى على هَنْدَمَة[٦] أوضاعها ، وتناسق أجزائها ، لغة قوم أميين ، لم يكونوا فى حكمة اليونان ، ولا صنعة الصين ، بادوا وبقيت بعدهم سائرة مع كل جيل ، ملائمة لكل زمان ومكان ، لولا روحٌ عظيم ما خلَدَت ودَرَج[٧] أقرانُها ، وأنِفَت[٨] واستخذى[٩] سلطانها[١٠] . ولا عجب أن بلغت تلك المنزلة : من بَسطة الثروة وبُعْد المدَى[١١] ، إذ كان لها من عوامل النموّ ، ودواعى البقاء والرقىّ ، ما قلما يتهيأ لغيرها ، وذلك لما فيها من اختلاف طرق الوضع والدلالة ، وغلبة اطراد التصريف ، والاشتقاق وتنوُّع المجاز والكناية ، وتعدّد المترادفات ، إلى النحت والقلب ، والإبدال والتعريب ، ولما تشرفت به من ورود القرآن الكريم ، والسنة النبوية بلسانها .

عوامل نمو اللغة

توحيد اللغة العربية المروية

وما رواه لنا منها أئمة اللغة ، وجاء به القرآن الكريم ، والحديث النبوىّ ، هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التى سكنت جزيرة العرب . ولا يعلم بالضبط الوقت الذى تمثلت فيه بصورتها المعروفة لنا ، ولا كل الأسباب التى أدت إلى اندماج لغات بعض هؤلاء الشعوب فى بعض ، وغاية ما علم من الآثار الحجرية وبعض الروايات أنه كان جنوبىّ الجزيرة وشماليها لغات متميزة كل التميز من

---

(١) أصلها (٢) أوسعها (٣) حوادث (٤) أشدها إعجاباً وهزة فى النفس (٥) جمع مرفق كمنبر ومجلس : كل ما ارتفقت به أى انتفعت (٦) الهندمة إصلاح الشىء على مقدار خاص ونظام بين (٧) انقرض (٨) استكبرت (٩) خضع (١٠) السلطان : الغلبة والقهر والمراد سلطان أهلها (١١) الغاية أو مد البصر .

العربية التي رُويت لنا ، دَرَست وبقيت لنا منها أشباح [١] تتراءى أحياناً في بعض لهجات العربية الأخيرة وأوجه إعرابها واشتقاقها وترادف ألفاظها ، كما أنه لا شك عندنا في أن من أسباب امتزاج هذه اللغات ما يأتي :

مراتب تهذيب اللغة

(١) هجرة القحطانيين إلى جزيرة العرب ومخالطتهم فيها العرب البائدة باليمن ، ثم تمزقهم في بقاع الجزيرة كلَّ ممزّق بظلمهم أنفسهم وتخرّب بلادهم بسيل العرم [٢] .

(٢) هجرة إسمعيل عليه السلام إلى جزيرة العرب واختلاطه وبنيه بالقحطانيين بالمصاهرة والمجاورة في المنازل والمرابع [٣] ، والمحاربة ، والمتاجرة .

وأظهر مواطن هذا الامتزاج مشاعر [٤] الحجّ وخاصةً بيتَ الله الحرامَ بمكة بَلد قريش [٥] الأمين ، والأسواق التي كانت تقيمها العرب في أنحاء بلادها ، ومن هذه الأسواق عكاظ [٦] ومَجَنّة [٧] وذو المجاز [٨] .

سوق عكاظ

وأهمها سوق عكاظ — وكانت تقام من أوّل ذى القعدة إلى اليوم العشرين منه . وأقيمت تلك السوق بعد عام الفيل [٩] بخمسَ عشرة سنةً ؛ وبقيت إلى ما بعد الإسلام وإن لم تكن في شأنها الأوّل حتى سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يجتمع بهذه السوق أكثرُ أشراف العرب للمتاجرة ، ومفاداة الأسرى ،

---

(١) جمع شبح وهو سواد الإنسان وغيره تراه من بعد (٢) العرم جمع عرمة كفرحة وهى سد يعترض به الوادى ، أو هو جمع بلا واحد ، أو هو الأحباس والسدود تبنى في الوادى لحبس المياه خلفها وهى المسماة الآن بالخزانات . وحادثة سيل العرم أنه كان لسبأ في اليمن عرم تحبس المياه خلفها لتوزع بنظام فتهدمت العرم بسيل عظيم أغرق البلاد ودمر القرى أمامه فكان هو مع كثير من الفتن والحروب الأهلية سبباً في تفرق قبائل سبأ في أنحاء جزيرة العرب حتى ضرب بهم المثل في التفرق فقيل (تفرقوا أيدى سبا) (٣) جمع مربع وهو في الأصل المكان الخصيب يقيم فيه القوم زمن الربيع (٤) معالم الحج وأماكن نسكه (٥) قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى بطن من كنانة من المضرية (٦) موضع قرب الطائف (٧) موضع قرب مكة (٨) سوق على فرسخ من عرفة بناحية كبكب ، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف . (٩) عام الفيل هو العام الذى ولد فيه النبي عليه الصلاة والسلام وهو سنة ٥٧١ من الميلاد — وملخص حادثة الفيل أن الحبشة طمعت في الاستيلاء على مكة وقريش وهدم الكعبة فتجرد لذلك أحد ملوكهم المسمى أبرهة بجيش ومعه فيل عظيم فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول .

والتحكيم فى الخصومات ، وللمفاخرة[١] والمنافرة[٢] بالشعر والخطب فى الحسب والنسب والكرم والفصاحة والجمال والشجاعة ، وما شاكل ذلك حتى فى عظم المصائب والأرزاء[٣] . وكان من أشهر المحكمين بها فى الشعراء النابغة الذبيانى ، ومن أشهر خطبائها قسّ بن ساعدة الإيادى. وقد لهج الشعراء بذكرها فى شعرهم[٤] ، وحضرها منهم الرجال والنساء .

ولقريش عظيم الأثر فيما نجم عن اجتماع العرب فى مشاعر الحج والأسواق بتهذيب لغتهم أنفسهم ، لأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم ما خف على اللسان وحسُن فى السمع حتى لطفت لهجتهم ، وجاد أسلوبهم ، واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خير الكلام كلام الله ولمكانهم من الفصاحة والرياسة حاكاهم شعراء القبائل وخطباؤها فى استعمال لغتهم ليكون مقالُهم أسيرَ ، وخبرهم أشهرَ .

وما نشأ من الهجرتين السابقتين وغيرهما من تداخل اللغات واندماج بعضها فى بعض حتى تكونت اللغة الفصيحة هو ما يسمى طورَ تكوين اللغة وتهذيبها .

اختلاف لهجات[٥] العرب

قدّمنا أن الأمة العربية تألفت أخيراً من شَعبين[٦] عظيمين : القحطانيين أو (اليمانيين) والعدنانيين أو (النزاريين) . وتشعّب من كليهما شعوب وقبائل لها لهجات مختلفةُ الفروع متحدة الأصول غير أن لغة حِميَرَ من القحطانيين غلبت على أخواتها[٧] ، ثم دخل فيها من اللغة العدنانية ألفاظ وأساليب اختلفت

---

(١) المفاخرة المحاكمة فى الحسب . والحسب ما تعده من مفاخر آبائك (٢) المنافرة أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يحكما بينهما رجلا ، وسميت منافرة لأن المتنافرين كانا يسألان الحكم : أينا أعز نفراً (٣) وتسمى المفاخرة بذلك (المعاظمة) ومنها معاظمة هند بنت عتبة الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمى المصابة بموت أبيها وأخويها صخر ومعاوية ، فقرنت هند جملها بجمل الخنساء وتعاظمتا فى مصائبهما نظماً بسوق عكاظ .

(٤) قال حسان : (سأنشر إن بقيت لهم كلاماً ينشر فى المجامع من عكاظ)

وقال طريف بن تميم : (أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم)

(٥) لهجة القبيلة لسانها مراعى فيه الترقيق والتفخيم ، والتتميم والترخيم ، والهمز والتليين والسرعة والبطء ، والوصل والقطع ، والإمالة وعدمها ، وما إلى ذلك من النبرات الصوتية (٦) الشعب بالفتح القبيلة العظيمة (٧) كالمعينية والسبئية .

قلةً وكثرةً باختلاف الجهات ، وعمرت حتى ظهور الإسلام ؛ وزالت بعده ، وبقيت منها ألفاظ امتزجت بالعدنانية .

أسباب اختلاف اللهجات

ولغة عدنان الممثلة بعدُ فى المضرية ظهرت أيضاً على أخواتها بل على الحِمْيرية فى مواطنها . ولكننا لا ننسى أن البيئة ، ونزوح الديار ؛ ووسائل المعيشة . واختلاف المرئيات ، وتنوّع طرق الوضع والارتجال ؛ كل ذلك قد أبقى فى كلام كل قبيلة مِيزاتٍ هى ما يسمى مجموعها باسم لهجة القبيلة أو لغتها . وتنحصر طرق الاختلاف فيما يأتى : الإبدال[١] ، وأوجه الإعراب[٢] ، وأوجه البناء والبنية[٣] ، والتردد بين الإعراب والبناء[٤] ؛ والتصحيح والإعلال ، وما يشبههما[٥] ، والإتمام والنقص[٦] ، والإدغام والفك[٧] ؛ والترادف[٨] .

اللهجات

ولكل لهجة من لهجات العرب عدا القرشية هَنَةٌ أو أكثر . واشتهر من هذه الهنَوات عَنْعَنة[٩] قضاعة ؛ وعَمْعَمتها[١٠] ، وشَنْشَنةُ[١١] اليمن ، ووَتْمهم[١٢]

---

(١) مثل إبدال الميم باء والباء ميماً فى لغة مازن فيقولون بااسمك فى ما اسمك ، ومكر فى بكر
(٢) كنصب خبر ليس عند الحجازيين مطلقاً ، ورفعه عند تميم إذا اقترن بإلا حملا لها على ما
مثل ليس الطيب إلا المسك (٣) كتسكين شين عشرة عند الحجازيين وفتحها وكسرها عند
تميم ، وكبناء الهاء من أيها على الضم عند بنى مالك من بنى أسد إذا لم يتلها اسم إشارة فيقولون
يأيه الناس ، وبنائها على الفتح ووصلها بألف عند غيرهم يأيها الناس (٤) كإعراب لدن عند
قيس بن ثعلبة وبنائها عند غيرهم (٥) كإعلال الأفعال الثلاثية التى من باب علم كرضى وبقى
عند طيئ بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة فيقولون رضى وبقى وغيرهم يصححها ، وكقلب الألف
المتطرفة همزة عند تميم مثل الملأ فى العلى وغيرها يبقيها على حالها (٦) كحذف نون من الجارة
عند خثعم وزبيد إذا وليها ساكن وإبقائها عند غيرهم فيقولون فى خرجت من البيت خرجت
ملبيت كلغة العامة فى مصر (٧) مثل فك المثلين فى المضارع المجزوم بالسكون المضعف وأمره
عند الحجازيين مثل إن يغضض طرفه فاغضض طرفك ، وإدغامهما عند تميم ، مثل إن يغض
طرفه فغض طرفك (٨) هذا النوع كثير ، فى اللغة المروية لأنها جمعت من لغات قبائل شتى ،
وذلك كالمدية عند اليمانيين والسكين عند الحجازيين (٩) وهى تحويل الياء جيما إذا وقعت بعد
العين فيقولون الراعج خرج معج يريدون الراعى خرج معى ، وفى المزهر هى قلب الياء المشددة
جيما فيقال فقيمج فى فقيمى ومرج فى مرى (١٠) وهى عدم تميز حروف الكلمات وظهورها فى
أثناء الكلام (١١) وهى جعل الكاف شيناً مطلقاً كلبيش ، وشلنى فى لبيك وكلنى
(١٢) وهو جعل السين تاء فيقولون النات فى الناس .

وطُمْطمانية(١) حمير . وتَلْتَلة بهراء(٢) . وفَحفَحة(٣) هذَيل . وعَنْعَنة(٤) تميم ، وكشْكشة(٥) أسد أو ربيعة ، ووَهْم(٦) كلب . ووكم(٧) ربيعة كلب ، ولَخْلَخانة(٨) الشِّحر وعُمان ، وقطعة طيئ(٩) . واستنطاء(١٠) سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار .

كلام العرب

الغرض من كلام العرب كغيره الإبانةُ عما فى النفس من الأفكار ، ليكون مدعاةً إلى المعاونة والمعاضدة . وذريعة إلى تسهيل أعمال الحياة .

ولما كانت هذه الأفكارُ لا تزال متجددةً غير متناهية ، كانت صور الكلام الدال عليها لا تزال كذلك متجددةً خاضعة لقوى الاختراع والابتداع ، على حسب ما يقتضيه المقام . فقد تصل صورة الكلام إلى الغاية القصوى فى البلاغة من حيث إيجازُ اللفظ ، وصحة المعنى . وحسن البيان ، ولطف الإشارة ، وإصابة الغرض وصدق التجربة ، فترتاح النفوس لها وتنشط لحفظها ، ليسير مئونتها ، وحسن وقعها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تورث ما تتخلله من الكلام رواجاً وتكسبه قبولاً .

---

(١) وهى جعل أم بدل ال فيقولون طابَ امهواء ، فى طاب الهواء .

(٢) وهى كسر أحرف المضارعة مطلقاً . وهم بطن من قضاعة .

(٣) وهى جعل الحاء عيناً مثل العسن أخو العسين فى الحسن أخو الحسين .

(٤) وهى إبدال العين من الهمزة المبدوءة بها فيقولون فى أن ، عن ، وفى أمان ، عمان .

(٥) وهى إبدال الشين من كاف الخطاب المؤنث كمليش فى عليك ، أو هى زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش فى عليك ، وأشهر ما يكون ذلك فى الوقت .

(٦) وهو كسر هاء الغائب إذا وليها ميم الجمع وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون منهم وعنهم و بينهم .

(٧) وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع إذا كان قبلها ياء أو كسرة فيقولون عليكم و بكم . وكلب بطن من قضاعة .

(٨) كقولهم مشا الله فى ماشاء الله .

(٩) وهى حذف آخر الكلمة يقولون (يا أبا الحكا) يريدون يا أبا الحكم كما فى لغة بنى سويف الآن وشمال مديريتى الغربية والبحيرة .

(١٠) وهو جعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء مثل أنطى فى أعطى .

المثل والحكمة

وهذا ما يسمى (بالمثل أو الحكمة) وقد تنحط صورة العبارة إلى الدرك الأسفل من الإبانة ، بحيث لو انحطت عن ذلك لكانت عند الأدباء بأصوات العجماوات أشبه ، وبين الحالين مراتب تتفاضل فيها العقول ، وتتبارى [1] الفحول . وجُلُّ بحث علم الأدب وتاريخه فى التفاوت بين هذه المراتب ورجالها وسنتكلم بعد فيها .

تعريف المثل والحكمة

ونشير هنا إلى أن المثل قول محكيّ سائر يقصد منه تشبيه حال الذى حُكى فيه بحال الذى قيل لأجله ، والحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مُسلماً ، وكما يكون كل منهما نثراً يكون نظماً فمن أمثال الجاهلية النثرية :

طائفة من الأمثال

إن البغاث [2] بأرضنا يَستنسِرُ — إذا عزَّ أخوك فهن [3] — رُبَّ رَمْيَة من غير رام [4] — أنت تَئقٌ ، وأنا مئِقٌ ، فمتى نتفق [5] — جوِّع كلبك يَتْبعك [6] — قد استَنْوَق الجمل [7] — الحديث ذو شجُون [8] — إن العوَان [9] لا تُعلَّم الخِمْرة [10] — سبقَ السيفُ العذَلَ [11] — مايوم حليمة [12] بسِرّ — مواعيد عرُقوب [13] . مكرهٌ أخاك لا بطل [14] — ثُكل أرْامها ولداً [15] — أتبع الفرس لجامها [16] .

---

(١) تتعارض وتتسابق (٢) البغاث مثلث الباء طير أغبر ضعيف ، يستنسر يصير كالنسر فى القوة — يضرب للضعيف يصير قوياً ، وللذليل يعز بعد الذل (٣) قائله هذيل بن هبيرة التغلبى ومعناه كما قال أبو عبيد ؛ مياسرتك صديقك ليس بضيم يركبك منه ، فتدخلك الحمية به ، إنما هو حسن خلق وتفضل ، فإذا عاسرك فياسره — يضرب فى التساهل مع ذوى القربى والأصدقاء .

(٤) أى رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطىء ؛ وأول من قال ذلك الحكم ابن عبد يغوث المنقرى يضرب للمخطىء يصيب أحياناً (٥) التئق السريع إلى الشر ؛ والمئق السريع البكاء — يضرب للمختلفين أخلاقاً (٦) قائله أحد ملوك حمير الجبابرة — يضرب فى معاشرة اللئام وما ينبغى أن يعاملوا به (٧) قائله طرفة بن العبد — يضرب للرجل الواهن الرأى المخلط فى كلامه .

(٨) أى طرق ، قائله ضبة بن أد بن طابخة . يضرب فى الحديث يذكر به غيره (٩) التى سبق لها زوج (١٠) كيفية لبس الخمار (الطرحة) يضرب للعالم بالأمر المجرب له (١١) العذل ، اللوم ، قائله ضبة بن أد بن طابخة يضرب فى استحالة تدارك ما فات (١٢) حليمة بنت الحارث ابن أبى شمر الغسانى — يضرب على كل أمر متعارف مشهور (١٣) رجل من العمالقة — يضرب فى خلف الوعد (١٤) قائله أبو حنش — يضرب لمن يحمل على ما يكره .

(١٥) قائله بيهس الملقب بنعامة لحمقه — يضرب فى استعظام الحقير الحاجة إليه .

(١٦) قائله عمرو بن ثعلبة بن كلب ، يضرب للرجل قضى الحاجة ولم يتمها .

من أمثالهم النظمية :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار(١)

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ... إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا(٢)

إنى وقتلى سليكاً ثم أعقله ... كالثور يضرب لما عافت البقر(٣)

أن ترد الماء بماء أوفق ... لا ذنب لى قد قلت للقوم استقوا(٤)

تقسيم الأمثال

وتسمى الأمثال حقيقية إن كان لها أصل معروف نُقلت عنه وسيقت له ، كالأمثال السابقة ، وفَرْضية إن كانت تُمثَّلُ على لسان حيوان أو نبات أو جماد ، مثل « فى بيته يُؤتى الحكم »(٥) و « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك »(٦) . والأول محكيٌّ على لسان الضب ، والثانى على لسان الحية .

وتكثر الفرضية فى الأيام التى يكثر فيها الجور والاستبداد ، والتضييق على الهداة والمرشدين : فيُضطرُّون إليها للوصول إلى أغراضهم ، مع الأمن على

(١) قائله الصمة بن عبدالله القشيرى — ويضرب فى التمتع من الزائل ، والعرار نبت طيب الرائحة وهو النرجس البرى (٢) قائله أبو أذينة اللخمى يحرض الأسود بن المنذر على قتل أسراه من ملوك غسان ، وألا يقبل منهم فدية ، يضرب فى التحريض على استئصال شأفة الشر (٣) قائله أنس بن مدرك ، يضرب فى عقوبة الكبير ليخضع الصغير (٤) يضرب لمن لا يقبل الموعظة

(٥) هذا المثل مما زعمته العرب على ألسن البهم ثم قالوا : إن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب وأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل . قال سميعاً دعوت — قالت أتيناك لنختصم إليك — قال عادلا حكمتما — قالت فاخرج إلينا — قال فى بيته يؤتى الحكم — قالت إنى وجدت تمرة — قال حلوة فكليها — قالت فاختلسها الثعلب — قال لنفسه بغى الخير — قالت فلطمته — قال بحقك أخذت — قالت فلطمنى — قال حر انتصر — قالت فاقض بيننا — قال قد قضيت — فذهبت أقواله أمثالا (٦) أصل هذا المثل على ما حكته العرب أن أخوين أجدبت بلادهما وكان بالقرب منهما واد خصب فيه حية تحميه فهبط أحدهما الوادى مخالفاً نصيحة أخيه ، فرعى فيه زمناً ثم نهشته الحية فقتلته ، فجاء أخوه الوادى يطلب ثأره ، فقالت له الحية هل لك فى الصلح ، أدعك فى هذا الوادى وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ، فحلف لها ألا يؤذيها ما وفت ، فلما حسن حاله ذكر أخاه فأخذ فأساً ثم تبعها وضربها فأخطأها وأثرت الفأس فى جحرها ، فقطعت عنه الدينار ، فخاف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود كما كنا ، قالت كيف أعاودك وهذا أثر فأسك : يضرب لمن لا يفى بالعهد .

... م ، على ما فيها من الترويح عن الخاطر ، ولطف المدخل ، وجمال
الفكاهة المطلوبة فى تضاعيفها النصيحة ، وذلك أعمل فى النفس وأدعى إلى الاتعاظ .

الأمثال
والأمثال مرآة تريك صور الأمم وقد مضت ، وتقفك على أخلاقها وقد انقضت ، وهى ميزان يوزن به رقى الشعوب وانحطاطها ، وسعادتها وشقاؤها ، وأدبها ولغتها ، ولقد أكثر العرب منها فلم يتركوا باباً إلا ولجوه ، ولا طريقاً إلا سلكوه . وقد أفردها العلماء بالتأليف . وأقدم الأمثال (على ما نعلم) أمثال لقمان الحكيم (١) .

طائفة من الحكم
ومن الحكم النثرية : مصارع الرجال تحت بروق الطمع . من سلك الجدد (٢) أمن العثار (٣) . خير الموت تحت ظلال السيوف . كلم (٤) اللسان أنكى (٥) من كلم السنان . العتاب قبل العقاب . خير الغنى القناعة . قطيعة الرحم تورث الهم . رضا الناس غاية لا تدرك . أول الحزم المشورة . رب عجلة تهب ريثاً (٦) أنجز حر ما وعد . اترك الشر يتركك . من عز بز (٧) . بعض الشر أهون من بعض . إن أخاك من واساك (٨) . يكفيك من شر سماعه .

ومن الحكم النظمية :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً ... فما اعتذارك من قول إذا قيلا
واكذب النفس إذا حدثتها ... إن صدق النفس يزرى بالأمل (٩)
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل
إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شىء سواه بخزان
ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب (١٠)

---

(١) هو لقمان بن عاد أحد حكماء العرب . ومن أمثاله : رب أخ لك لم تلده أمك — الصمت حكم وقليل فاعله — كل امرىء فى بيته أمير — كل امرئ بشأنه عليم — آخر الدواء الكى .
(٢) ما استوى فى الأرض (٣) مصدر عثر بمعنى زل وسقط (٤) جرح (٥) أشد إيلاماً (٦) بطئاً (٧) من غلب سلب (٨) ساعدك (٩) لا تحدث نفسك بأنك لا تظفر فإن ذلك يثبطك (١٠) الشعث انتشار الأمر وخلله . أى لست مستديماً صحبة صديق لا تحتمله على ما فيه من زلل ، بل ينبغى لك لاستدامة صحبته أن تلمه وتصلحه وتجمع ما تشتت من أمره ، إذ لا يوجد رجل خال من العيوب .

حياتهم ، على ما فيها من الترويح عن الخاطر ، ولطف المَدْخَل ، وجمال الفكاهة المطوية فى تضاعيفها النصيحةُ ، وذلك أعمل فى النفس وأدعى إلى الاتعاظ .

أثر الأمثال

والأمثال مرآة تُريك صُور الأمم وقد مضت ، وتقفك على أخلاقها وقد انقضت ، وهى ميزان يوزن به رُقِىّ الشعوب وانحطاطها ، وسعادتها وشقاؤها ، وأدبها ولغتها ، ولقد أكثر العرب منها فلم يتركوا باباً إلا ولجوه ، ولا طريقاً إلا سلكوه . وقد أفردها العلماء بالتأليف . وأقدم الأمثال (على ما نعلم) أمثال لقمان الحكيم [(١)] .

طائفة من الحكم

ومن الحكم النثرية : مَصَارِع الرِّجال تحت بُروق الطمع . من سلك الجَدَد [(٢)] أمِن العِثار [(٣)] . خير الموت تحت ظلال السيوف . كلْم [(٤)] اللسان أنكى [(٥)] من كلم السِّنان . العتاب قبل العقاب . خيرُ الغنى القناعة . قطيعة الرحم تورث الهم . رضا الناس غاية لا تُدرك . أول الحَزْم المشورة . رب عجلة تهبُ رَيْثاً [(٦)] أنجز حرّ ما وعدَ . اترك الشرّ يتركك . من عزّ بزّ [(٧)] . بعض الشر أهون من بعض . إنّ أخاك من واساك [(٨)] . يكفيك من شر سماعه .

ومن الحكم النظمية :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً ... فما اعتذارك من قول إذا قيلا
واكذِبِ النفسَ إذا حدّثتها ... إن صدق النفس يُزرى بالأملْ [(٩)]
إذا المرء لم يَدْنس من اللؤم عرضه ... فكلُّ رداء يرتديه جميل
إذا المرء لم يَخْزُن عليه لسانَه ... فليس على شىء سواه بخزّان
ولستَ بمستبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ ... على شعث أىُّ الرجال المهذّبُ [(١٠)]

---

(١) هو لقمان بن عاد أحد حكماء العرب . ومن أمثاله : رب أخ لك لم تلده أمك — الصمت حكم وقليل فاعله — كل امرىء فى بيته أمير — كل امرئ بشأنه عليم — آخر الدواء الكى .
(٢) ما استوى فى الأرض (٣) مصدر عثر بمعنى زل وسقط (٤) جرح (٥) أشد إيلاماً (٦) بطئاً (٧) من غلب سلب (٨) ساعدك (٩) لا تحدث نفسك بأنك لا تظفر فإن ذلك يثبطك (١٠) الشعث انتشار الأمر وخلله . أى لست مستديماً صحبة صديق لا تحتمله على ما فيه من زلل ، بل ينبغى لك لاستدامة صحبته أن تلمه وتصلحه وتجمع ما تشتت من أمره ، إذ لا يوجد رجل خال من العيوب .

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومن لا يَظلم الناس يُظلمِ

وكلام العرب بمراتبه : (العليا والدنيا وما بينهما) تعتوره كغيره أحوال تتغير بتغير حياة أهله : العقلية والمعاشية والدينية والسياسية ، وتلك الأحوالُ تتجلى فى (أغراض اللغة ، ومعانيها ، وعباراتها) وهى فى اللغة الواصلة إلينا المروية عن العرب أخريات جاهليتهم وبعد تضعضع مدنيتهم القديمة يمكن الإشارة إليها بما يأتى :

أغراض اللغة [١] فى الجاهلية

(١) كانت اللغة تستعمل فى أغراض المعيشة البدوية ، ووصف مرافقها : من حلّ وترحال ، ونَتْج حيوان ، وانتجاع كلأ ، واستدرار غيث .

(٢) وفى إثارة المنازعات والمشاحنات ، وما يتبعها : من الحض على إدراك الثأر ، والتفاخر بالانتصار ، والتباهى بكرم الأصل والنِّجار .

(٣) وفى شرح أحوال المشاهدات ، والإخبار عن الوقائع والقصص ، وغير ذلك مما يلائم بيئتهم ، ويناسب طباعهم .

معانى اللغة فى الجاهلية

تُجمل أحوال معانى اللغة فى الأمور الآتية :

(١) قصر معانى المفردات على ما تقتضيه البداوةُ والفطرة الغضة الخالية من تكلف أهل الحضر وتأنقهم .

(٢) سَيْرُ التعقل — المستنبط من الحس ، والمشاهدة ، أو الطبيعة ، أو التجربة أو الوجدان — فى طريق غير طريق المبالغة والإغراق .

(٣) إرسالُ التخيُّل — المنتزعة صوَرُه من المحسوسات — على وجه قلما يخرج عن الإمكان العقلى والعادى .

---

(١) أغراض اللغة مقاصدها التى تؤديها وتستعمل فيها .

عبارة اللغة فى الجاهلية

تُلخَّص أحوال العبارة فى الجاهلية فيما يأتى :

(١) استعمال الألفاظ فى معانيها الوضعية ، أو فى معان مناسبة للمعنى الأصلىّ بطريق المجاز الذى يُصبح بعد غلبة الاستعمال والإلف حقيقةً جديدة ؛ ولذلك يظهر لنا عند تلاوة الشعر العربىّ القديم أن المجاز فيه أقلّ مما هو فى كلامنا ، وأنه قريب من الحقيقة ، لشدة علاقته بالمعنى الأصلى ، وارتقاء بعضه إلى رتبة الحقيقة .

الترادف (٢) كثرة الترادُف فى المفردات ؛ والحق أن لأكثر الألفاظ المترادفة معنى خاصاً لا يؤديه الآخر بالدقة [١] . وإن تُنُوسى بعض هذه الخصائص . وبعض المترادف آت من اختلاف لغات القبائل الفصيحة التى جُمعت لغاتها وتكوّن منها اللسانُ العربىّ المروىّ لنا المحفوظ فى كتب اللغة .

المعرب (٣) قلة الأعجمى المعبر عنه بالمعرّب ، على أنه لم يقم إلى الآن دليل قطعى على أن كل الألفاظ المشتركة بين لغة العرب ولغات الأعاجم نقلها العرب عن غيرهم ، ولم ينقلها غيرهم عنهم حتى يحكم بأنها أعجمية لا عربية .

(٤) إرسال الأساليب الكلامية على حسب ما تقتضيه البلاغة بدون تكلف ، وبدون مراعاة لما تستلزمه الصناعة البديعية فلم يتعمدو جناساً ، ولم يتكلفوا طباقاً ، ولم يقصدوا إلى تورية[٢] ؛ وما وقع لهم من المحسنات الكلامية على قلته فإنما كان عفواً لا تعمُّل فيه خلا بعضاً من سجع الكهان .

(٥) خلو الكلام العربى من اللحن ؛ لأن الحق أن العربى القُح لا يلحن فى لغته .

٦ — شيوع الإيجاز فى كلامهم كما ترى ذلك واضحاً فى نثرهم وشعرهم .

---

(١) كالحث والحض ، فالأول يكون فى السير والسوق وكل شىء ، والثانى لا يكون فى سير ولا سوق . وكالجلوس والقعود ؛ الأول عن ضجعة ، والثانى عن قيام .

(٢) وأما ادعاء بعضهم — أن فى (سخيناً) من قول عمرو بن كلثوم :

مشعشة كأن الحص فيهـا ... إذا ما المـاء خالطها سخينا

تورية مقصودة بجعله فعلا من السخاء أو اسماً من السخونة ، فتخرص وظن بلا دليل .

تقسيم كلام العرب

ينقسم كلام العرب قسمين : نثراً ونظماً ؛ فالنظم هو الموزون المقفى ؛ والنثر ما ليس مرتبطاً بوزن ولا قافية .

النثر

المحادثة — الخطابة — الكتابة

أقسام النثر

الأصل فى الكلام أن يكون منثوراً ، لإبانته مقاصدَ النفس بوجه أوضح وكلفة أقلّ . وهو إما حديثٌ يدور بين بعض الناس وبعض فى إصلاح شؤون المعيشة واجتلاب ضروب المصالح والمنافع ، وذلك ما يسمى (المحادثة) أو (لغة التخاطب) ؛ وإما خطاب من فصيح نابه الشأن يُلقيه على جماعة فى أمر ذى بال ؛ وهذا ما يسمى (الخطابة) ؛ وإما كلامٌ نفسىّ مدلول عليه بحروف ونقوش ، لإرادة عدم التلفظ به ، أو لحفظه للخلف ، أو لبعد الشقة بين المتخاطبين ، وذلك ما يسمى (بالكتابة) . فأقسام النثر ثلاثة : محادثة ، وخطابة ، وكتابة ، وكلها إما أن تكون كلاماً خالياً من التزام التقفية فى أواخر عباراته ، وذلك ما يسمى (النثر المرسَل) ؛ وإما أن تكون قطعاً ملتزَماً فى آخر كل فقرتين منها أو أكثرَ قافية واحدة ، وهذا مايسمى (السجْعَ) ، وهو نوع من الحلية اللفظية إذا جاء عفواً ولم يُتعمد التزامه . ولحسن وقعه فى الأسماع ، وحَوْكه[1] فى الطباع ، كان أكثر ما يستعمل فى الخطابة ، والأمثال ، والحِكم ، والمفاخرات ، والمنافرات ، وتخرُّصات الكهان ، والكتابة التى من هذا الوجه .

المرسل

السجع

مميزات النثر الجاهلى

ومن مميزات النثر فى الجاهلية :

(١) قلة تأنقهم فى انتقاء الألفاظ المتناسبة الوزن المتشابهة فى النغم والجرْس .

---

(١) حوكه تأثيره وأخذه .

وإنما يعمدون فى تأدية المعنى إلى ألفاظ تطابقه على ما يتفق وكما يكون .

(٢) قلة استعمالهم الجمل والعبارات المتواردة على معنى واحد كما يفعل الجاحظ وأشباهه من المولدين .

(٣) قلة ولوعهم بالتكلف فى صوغ عباراتهم وأساليبهم وسجعهم ، اللهم إلا ما وقع من سجع كاهن ، أو عرّاف .

(٤) قصر الجمل . أو توسطها ، وكثيراً ما يلتزمون ذلك فى الحكم والأمثال والوصايا .

(٥) ميلهم إلى الإيجاز من غير إخلال بالمعنى .

(٦) كثرة استعمالهم الكناية القريبة المنال . اتقاء التصريح بما يستهجن ، أو تحريكاً للنفس فى استحضار صورة المكنىّ عنه بذكر أخص صفاته .

(٧) قلة تعمقهم فى استخراج المعانى البعيدة وفى استقصاء الأفكار العويصة التى تحتاج إلى كد خاطر أو درس علم .

مثال المرسل

ومن أمثلة النثر المرسل ما قاله أبو جُبيل قيس بن خُفَاف البُرْجُمىُّ لحاتم فى دماء [1] حَمَلها : إنى حملت دماء عوّلت فيها على مالى وآمالى ، فأما مالى فقدّمته ، وكنتَ أكبرَ آمالى ، فإن تحملتها فكم من حق قضَيتَ ، وهمٍّ كفيت وإن حال دون ذلك حائل ، لم أذمَّ يومك ، ولم أيأس من غدك .

مثلة السجع

ومن سجع الكهان قولُ سَطِيح [2] بن مازن فى تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمىّ أحد ملوك اليمن :

أحلفُ بما بين الحرَّتين [3] من حَنَش ، ليهبِطنَّ أرضَكم الحبش ، وليملِكنّ ما بين أبْيَنَ [4] إلى جرَش [5] .

وقول شقّ أنمار [6] فى تعبير تلك الرؤيا :

أحلف بما بين الحرّتين من إنسان لينزلنّ أرضكم السودان ، وليغلِبُن على

(١) جمع دم والدم هنا الدية .

(٢) اسمه ربيعة ، مات فى أيام أنو شروان بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) الحرة كل أرض ذات حجارة سود نخرة (٤) مخلاف منه مدينة عدن المشهورة .

(٥) مخلاف باليمن من جهة مكة (٦) كاهن كان فى زمن كسرى أنو شروان .

كل طَفلة [1] البنان ، وليملكنَّ إلى ما بين أبْيَنَ ونجران [2] .

ومن السجع فى غير الكهانة قول لبيد [3] يصف بَقلة [4] تُدْعى التربة : هذه التربة التى لا تذكى [5] ناراً . ولا تؤهل [6] داراً . ولا تسرّ جاراً . عودها ضئيل . وفرْعها كليل [7] . وخيرها قليل . بلدها شاسع [8] . ونبتها خاشع [9] . وآكلها جائع . والمقيم عليها ضائع . أقصر البقول فرعاً . وأخبثها مَرْعى . وأشدّها قلعاً . فتعساً [10] لها وجَدْعاً [11] .

المحادثة أو لغة التخاطب

لغة التخاطب عند عرب الجاهلية بعد أن توحّدت [12] لغاتها هى اللغة المعرّبة المستعملة فى شعرها وخطبها وكتابتها . ولا فرق بينها فى البلاغة إلا بقدر ما تستدعيه حال الخطابة والشعر والكتابة : من نبالة الموضوع والتأنق فى العبارة .

وأكثر ما وصل إلينا منها ما كان شريف المعنى . فصيح اللفظ . وما زعمه بعض باحثى زماننا من أن هذه اللغة لم تكن معرّبة مطلقاً . أو أنها كانت معربة عند الخاصة . غيرَ معربة عند العامة . أو أن غير المعرّبة كانت خاصة بالمحادثة دون الشعر والخطابة والكتابة . أو خاصّة بلغات أطراف الجزيرة . لمجاورتها أممَ الأعاجم دون أواسطها — ظنون لم يقم عليها دليل . نشأت من عدم فهم كلام العلماء ونقلة اللغة .

الخطابة

الخطابة ضرب من التكلم ، وهى — إذا تهيأت داعيتها ، ووفرتْ أداتها ، وقلّت كفاية الكتابة أو ثقلت مئونتها — سبيلُ الإقناع ، وعُدة التأثير ، لما فيها من حضور المتكلم بشخصه . ودفاعه عن رأيه بنفسه ، وإفاضته [13] فى كل ما يؤيد مذهبه . ومن طبيعة القبائل المتبدّية [14] التى تعمها الأمية ،

---

(١) ناعمة (٢) مخلاف شمال اليمن (٣) شاعر ستأتى ترجمته (٤) البقل ما نبت من بزرة لامن أرومة ثابتة والبقلة واحدته (٥) أذكى النار أوقدها (٦) من قولهم ثريدة مأهولة أى فيها إهالة وهى ما يؤتدم به من زيت ونحوه أى لا تؤدم (٧) ضعيف غير صليب (٨) بعيد (٩) دان من الأرض (١٠) هلاكاً (١١) قطعاً (١٢) المراد بتوحيد اللغات توحيدها بعد امتزاج لغات العرب البائدة والقحطانية والعدنانية بعضها ببعض (١٣) اندفاعه (١٤) المقيمة بالبادية .

ولا يربطها قانون عام ، ولا تضبطها حكومة منظمة ، ولا تضمها راية سلطان واحد — كما كانت الأمة العربية فى جاهليتها — أن تكون الخطابة لها ضرورية وفطرية .

فمن الدواعى الطبَعِيَّة للخطابة فى الجاهلية :

(١) غلبة الأمية على العرب غلبةً ألجأتها إلى الاستعانة باللسان أداةِ القول بدلَ القلم أداة الكتابة .

(٢) تملكهم زمامَ الفصاحة ، وانقيادهم لسلطان البلاغة ، واستجابة خاصتهم وعامتهم لدعاء سادتهم وكبرائهم وأولى النجدة فيهم عند الأمر الحافز [١]، والخطب الداهم [٢] ، لما بين الداعى والمدعوّ من وحدة الجنس واللسان ، وتوافر أسباب التفاهم والبيان .

(٣) تفرقهم قبائل مستقلة ، وعشائرَ صغيرة ، وفئاتٍ مُقاتلة ، بحيث يتيسر لكل جمهور منهم الاجتماع فى صعيد واحد، والاستماع إلى خطيب فرد .

(٤) تعذر طرق التواصل المنظمة بينهم : كبريد يحمل رسائلَ ضافية ، وكتباً مطولة ، أو برق يوصل أخباراً هامة ، أو صحف تنشر حوادث عامة ، فكانت الداعية شديدةً إلى رسول مُوفَدٍ نابه الشأن، فصيح اللسان، قوىّ الحجة.

(٥) شن الغارات لأوهى الأسباب ، وإفضاء ذلك إلى الدفاع عن النفس والعرض والمال ، ثم إلى الانتقام ، لفراغ أكثرهم مما يشغل الخواطر والجوارح : من صناعة وزراعة وتجارة، وللخطابة فى ذلك المثل الأعلى والقِدْح المعلى [٣] .

ومن أغراض الخطابة والمقامات التى يخطب فيها ما يأتى :

(١) التحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثأر ، وما إلى ذلك من تهوين لشأن العدوّ، أو تنبيه على غِرَّةٍ [٤] منه ، أو تهيئة تعبئة لملاقاته .

(٢) إصلاح ذات البين عند نشوب القتال ، فيخطب رؤساء القبيلتين فى تعظيم رزايا الحرب ، وتعديد مصائبها ، والتنفير منها ، أو فى إمكان تحمل دماء القتلى ، ومفاداة الأسرى ، ونحو ذلك .

---

(١) الدافع والسائق (٢) دهمه: غشيه (٣) سابع سهام الميسر وهو أكبرها حظا (٤) غفلة

(٣) المفاخرة والمنافرة، والمباهاة بقوة العصبية وكرم النِّجار[1] ، وشرف الخصال وعِظم الفعال ، ترهيباً للطامعين ، وتهديداً للمعادين .

(٤) توضيح المقاصد ، وتربية التواصل بالسفارات ما بين سادات قبائلهم وأقيالهم ، وبينهم وبين الملوك المجاورة لهم فى تأمين سبيل ، أو خَفارة دَرْب ، أو إجازة تجارة ، أو استنجاد ، أو تعزية .

(٥) خطبة الإملاك[2] بترغيب القبيل المخطوب إليه فى قبيل المخطوب له ، وعد فضائله وذكر ما يسوقه من المهر ونحو ذلك .

(٦) التوصية بفعل الرغائب ، واقتناء المحامد ، والتبصر فى العواقب ، والتروى عند الحوادث ، ويكثر ذلك من حكمائهم وكهانهم لعامتهم ، أو من الآباء لأبنائهم وخاصة عند دنوّ آجالهم .

قلة ما ورد من الخطب

وإنما لم تصل إلينا أخبار خُطبائهم الأوائل ، وشىء من خطبهم كما كان ذلك فى الشعر ؛ لحفلهم قديماً بالشعر دون الخطابة ، ولصعوبة حفظ النثر .

وما عُنى الرواةُ بنقل أخبار الخطباء وخطبهم إلاّ عند ما حلت الخطابة بعدُ منزلة أسمى من الشعر : لابتذاله بتعاطى السفهاء والعامة له ، وتلوثهم[3] بالتكسب به والتعرض للحُرَم ؛ فنبُه بذلك شأن الخطابة ، واشتهر بها الأشراف ، وكان لكل قبيلة خطيب ، كما كان لكل قبيلة شاعر .

أداتها وسجعها

وإذ كان جل القصد من الخطابة إثارة الشعور ، وإيقاظ الوجدان كما هو الشأن فى الشعر ، كان جل الاعتماد فيها على الأدلة المؤثرة فى النفوس ، المهيجة للعواطف ، ممثَّلة فى صورَ العبارات الرائعة ؛ وكثرت فيها الفواصل والأسجاع لحسن وقعها ، على ما فيها : من استرواح الخطيب ، وسهولة تدارك المعانى .

قصرها

وخطب العرب منها الطوال ومنها القصار ، ولكلٍّ مكانٌ يليق به ، وهم إلى القصار أميل : لانطباعهم على الإيجاز ، ولأنها إلى الحفظ أسرع ، وفى الأصقاع أشيع ، وكانوا يُعنوْنَ فى خطبهم ولا سيما القصار منها بسرد كثير

---

(١) الأصل (٢) التزوج (٣) تضمخهم .

من الحكم والأمثال والنصائح ، على أنه قلما رُوِيَتْ إلينا خطبة بنصها وفصها[١] : لفشو الأمية فى الجاهلية ، ولعجز الرواة عن استظهار جميعها ، وإنما يحفظون ما كان أشدَّ قرعاً للسمع ، ووقعاً فى النفس ، بعبارة تتفق فى أصل المعنى ، وتفترق فى بعض اللفظ .

قيامهم فيها — وكان من عادة الخطيب فى غير خطب الإملاك[٢] أن يخطب قائماً ، أو على نَشز من الأرض[٣] ، أو على راحلته ، لإبعاد مدى الصوت ، وللتأثير بشخصه وإظهار ملامح وجهه وحركات جوارحه ، ولا غنى له عن لوث[٤] العمامة ، والاعتماد على مِخْصَرة[٥] ، أو عصا ، أو قناة[٦] ، أو قوس ، وربما أشار بإحداها أو بيده .

صفات الخطيب — وقد كانوا يستحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش[٧] ، قليل اللحظ[٨] ، جهيرَ الصوت ، مُتخيِّرَ اللفظ ، قويَّ الحجة ، نظيف البِزَّة[٩] ، كريم الأصل ، عاملاً بما يقول .

أقدم الخطباء — وخطباء العرب كثيرون (من أقدمهم) كعب بن لؤيّ[١٠] . وكان يخطب العرب عامة ، ويحض على البِرّ كنانَةَ خاصّة . ولما مات أكبروا موته وأرّخوا به حتى كان عام الفيل . وذو الإصبع العَدْوانى وهو حُرْثان بن مُحَرِّث ، سمى كذلك لأن حية نهشت إبهام رجله فقطعها .

أشهر الخطباء — (ومن أشهرهم) قيس بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء[١١] ،

---

(١) النص تعيين الشيء والفص مفصل الشيء . والمعنى أنت معينة مفصلة كما قالها صاحبها بالضبط (٢) التزويج (٣) مرتفع من الأرض (٤) عصب (٥) المخصرة السوط ونحوه وما يأخذه الملك ليشير به أو الخطيب إذا خطب (٦) رمح (٧) النفس أى شجاع (٨) اللحظ النظر بمؤخر العين وهو أشد من الشزر ، والمراد قليل التلفت والنظرات (٩) الهيئة والثياب (١٠) هو الجد السابع للنبى صلى الله عليه وسلم .

(١١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس . راهنه حذيفة بن بدر الفزارى على أن يسابقه بفرسيه : الخطار والحنفاء ، وكانت سابقة . فوضعت فزارة كميناً فى طريق السباق فلطم وجه الغبراء فهاجت الحرب بين عبس وفزارة ، ثم بين عبس وذبيان انصرتها فزارة ، وفى القصة روايات أخر .

وخُوَيلد بن عمرو الغطفانيّ خطيب يوم الفِجار (١) ، وقسّ بن ساعدةَ الإياديّ (٢) خطيب عُكاظ ، وأكثم بن صيفيّ زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان — فيما يقال — على كسرى وهم : (أكثم بن صيفي وحاجب (٣) ابن زُرارةَ التميميان ، والحارث بن عُبَاد (٤) وقيس بن مسعود (٥) البكريان ، وخالد بن جعفر (٦) وعلقمة بن علاثة (٧) وعامر بن الطُّفيل (٨) العامريون ، وعمرو بن الشريد السُّلَمى (٩) وعمرو بن معديكرب الزُّبَيدى (١٠) . والحارث ابن ظالم المُرّى (١١)) .

تراجم مختصرة للخطباء

(١) يوم الفجار حرب كانت بين قريش وهوازن حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وكان عمره أربع عشرة سنة ، وسميت كذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم (٢) ستأتي ترجمة قس وأكثم .

(٣) سيد من سادات تميم . وهو الذي وفد على كسرى حين منع تميماً من ريف العراق حتى أصابهم القحط ، فأعجب به ومنحه مطلبه ، وتعهد له حاجب بحسن الجوار ، ورهن عنده قوسه على ذلك فتقبلها منه ، وبقيت عند كسرى حتى أخذها ابن حاجب ثم بيعت بعد بأربعة آلاف درهم .

(٤) كغراب . كان خطيباً مؤثراً ، وشاعراً بليغاً ، وله عمل جليل في الحرب التي نشبت بين بكر وتغلب لمقتل كليب بعد أن اعتزلها ، وله فيها قصيدة مشهورة منها :

قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال

(٥) قيس بن مسعود بن خالد بن ذي الجدين ، كان كريماً عالي الهمة من أفضل العرب حسباً ونسباً وكانت تقر له القبائل كلها بذلك بل هي وكسرى أيضاً . وكان له حظيرة فيها مائة من الإبل ، لأضيافه إذا نحرت ناقة قيدت أخرى مكانها (٦) سيد من سادات بني عامر . خلص قومه من العبودية لغطفان بعد أن قتل سيدها زهير بن جذيمة (٧) خطيب نابه اشتهر في قومه بالعفة والمحافظة على الجوار والعقل الراجح والحسب الواضح (٨) هو ابن عم لبيد الصحابي . شاعر متين ، وفارس من أشهر فرسان العرب نجدة . وأبعدها اسماً ، ولقد بلغ من شهرته أن قيصر كان إذا قدم عليه قادم من العرب قال ما بينك وبين عامر . فإن كانت بينه وبينه رحم وشجة قربه وأكرمه .

(٩) هو أبو السيدة تماضر الخنساء يميل إلى الفخر والصراحة في القول ولقد بلغ من تغاليه في ذلك أنه كان يأخذ ابنيه معاوية وصخراً في المواسم العامة ويقول أنا أبو خيري مضر فمن أنكر فليغير فلا يغير ذلك عليه أحد (١٠) خطيب شاعر ، وفارس قاهر ، وصحابي جليل . شهد اليرموك والقادسية وأبلى فيهما البلاء الحسن على كبر في سنه وضعف في جسمه وستأتي ترجمته في المخضرمين .

(١١) كان شجاعاً فاتكاً ، وخطيباً شاعراً ، يميل إلى معاقرة الخمر . وهو الذي قتل خالد ابن جعفر غيلة لقتله أباه وكثيراً من قومه .

نماذج من الخطب والوصايا

قال هانئ بن قَبيصَة الشيبانى لقومه فى يوم ذى قار وهو يحرضهم :

يا معشر بكر . هالك معذور . خير من ناج فَرور ، إن الحذر لا يُنجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن فى ثُغر (١) النحور ، أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، يا آل بكر ، قاتلوا فما للمنايا من بد .

• • •

وخطب مَرثد الخير أحد أقيال حمير فى الصلح بين سُبيع بن الحارث أخى ذى جدَن . وميثم بن مثوب بن ذى رُعين حين تنازعا الشرف وتشاحنا حتى خيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى جذماهما (٢) . فقال :

إن التخبط (٣) وامتطاء الهَجاج (٤) . واستحقاب اللجاج (٥) ، سيَقِفكما على شفا هُوّة (٦) فى تَورّدها بَوار الأصيلة (٧) . وانقطاع الوَسيلة . فتلافيا أمركما قبل انتكاث (٨) العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السُّهمة (٩) ، وأنتما فى فسحة رافهة (١٠) وقدم واطِدة (١١) ، والمودة مُثرية (١٢) والبُقيا مُعرِضة (١٣) ، فقد عرفتم أنباءَ من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيُّور (١٤) أمورهم . فتلافوا القَرحة (١٥) قبل تفاقم الثأى (١٦) ، واستفحال (١٧) الداء ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سُفكت الدماء ، استحكمت الشَّحناء ، وإذا استحكمت الشحناء ، تقضبت (١٨) عُرى الإبقاء ، وشمِل البلاء .

(١) جمع ثغرة وهى نقرة النحر بين الترقوتين (٢) أصلاهما (٣) السير على غير هدى
(٤) أى ركوب الرأس وعدم التروى (٥) الاحتزام بالخصومة أى التمسك بها (٦) حافة حفرة (٧) هلاك الأصل (٨) انتقاص (٩) القرابة (١٠) ناعمة (١١) ثابتة
(١٢) متصلة (١٣) ممكنة (١٤) عاقبة (١٥) أى الجراح (١٦) الإفساد
(١٧) اشتداده (١٨) تقطعت .

ومن منافرة عامر بن الطُّفيل مع علقمة بن عُلاثة :

قال علقمة : الرياسة لجدى الأحوص وإنما صارت إلى عمك أبى براء من أجله . وقد استسن (١) عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك . وإن شئت نافرتك . وقال عامر : قد شئت ؛ والله لأنا أشرف منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول قَصباً (٢) . قال علقمة : أنافرك ؛ وإنى لبرٌّ وإنك لفاجر ، وإنى لولود وإنك لعاقر . وإنى لوافٍ وإنك لغادر . قال عامر : أنافرك ؛ وإنى أنشر منك أمَّة (٣) وأطول قِمَّة ، وأحسن لِمَّة (٤) ، وأجعد جُمَّة (٥) وأبعد همة . قال علقمة : أنا جميل وأنت قبيح ، ولكن أنافرك ، أنا أولى بالخيرات منك . فخرجت أم عامر وقالت : نافره ، أيكما أولى بالخيرات ! ففعلوا على مائة من الإبل وحكّموا هَرِماً الفزارىّ . فلم يفضل أحدهما على الآخر حتى لا تكون فتنة بين الحيَّيْن .

• • •

وخطب أبو طالب حين تزوج النبى صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم . وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً . وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى مَن لا يُوازَن به فتى من قريش إلاّ رجح (٦) عليه برًّا وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونُبلاً (٧) ، وإن كان فى المال قُل (٨) فإنما المال ظل زائل ، وعارية (٩) مسترجَعَة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق (١٠) فعلىّ .

• • •

لما احتُضر ذو الأصبع العَدْوانى دعا ابنه أُسيداً ليوصيه فقال :

يا بُنىّ إن إباك قد فنى وهو حىّ ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك

(١) كبرت سنه (٢) القصب عظام اليدين والرجلين ونحوهما والمراد طول قامته (٣) أى أكثر قوماً (٤) اللمة الشعر المتجاوز شحمة الأذن (٥) مجتمع شعر الرأس (٦) فاق (٧) ذكاء ونجابة (٨) قلة (٩) ما تداوله الناس بينهم (١٠) المهر .

بما إن حفظته بلغتَ فى قومك ما بلغتُه. فاحفظ عنى : ألِنْ جانبك لقومك يحبوك . وتواضع لهم يرفعوك . وابسط لهم وجهك يُطيعوك . ولا تستأثر عليهم[1] بشىء يُسَوِّدوك. وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم. يكرمْك كبارهم. ويكبر على مودتك صغارهم ، وأسمح بمالك ، واحم حريمك وأعزز جارك ، وأعنْ من استعان بك ، وأكرم ضيفك . وأسرع النهضة فى الصَّريخ[2]. فإن لك أجلاً لا يَعدوك . وصُن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤدَدُك .

وقال مروان بن زِنباع العبسى :

يا بنى عبس ! احفظوا عنى ثلاثاً : اعلموا أنه لم ينقل أحد إليكم حديثاً إلاّ نقل عنكم مثله . وإياكم والتزويجَ فى بيوتات السوء . فإن له يوماً ناجثاً[3] . واستكثروا من الصديق ما قدرتم . واستقلوا من العدوّ فإن استكثاره ممكن .

قس بن ساعدة الإيادى

هو خطيب العرب قاطبة ، والمضروب به المثل فى البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة ، كان يدين بالتوحيد ويؤمن بالبعث ، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف على الأوثان[4] ، ويُرشدهم إلى عبادة الخالق، ويَخْطبهم بذلك فى المحافل العامة ، ومواسم الأسواق ، ويقال إنه أوّل من خطب على شرَف . وأوّل من قال فى خطبه (أما بعد) ، وأول من اتكأ على سيف أو عصاً فى خطابته . وكان الناس يتحاكمون إليه فيقضى بينهم بسديد رأيه ، وصائب حكمه . وهو القائل (البينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر) وكان قس يفد على قيصر ويزوره ، فقال له يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ؟ قال فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه، قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه، قال: فما أفضل المال ؟ قال: ما قضى به الحقوق .

(١) يختص بالحسن (٢) أى عند الصريخ وهو نداء المستغيث (٣) الناجث : الحافر ، والنجيثة: ما يخرج من تراب البئر ، يريد كاشفاً (٤) الأصنام .

وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يخطب في عكاظ على جمل أورَق[١] فعجب من حسن كلامه وأعجب من تصويبه، وأثنى عليه. وعمّر قسٌ طويلاً ومات قبيل البعثة.

وقد كان مهذّب الألفاظ. قويّ التأثير بعيداً عن الحشو واللغو في كلامه. وسجعه كما سترى. قصير الفواصل ظاهر على مرسله.

ومن خطبه خطبته التي خطبها في سوق عكاظ وهي كما في صبح الأعشى[٢] : أيها الناس، اسمعوا وعوا. من عاش مات. ومن مات فات. وكلٌّ ما هو آتٍ آت. ليلٌ داج[٣]. ونهارٌ ساج[٤]. وسماءٌ ذات أبراج[٥]، ونجومٌ تزْهر[٦]. وبحارٌ تزْخر[٧]. وجبال مُرساة. وأرض مُدحاة[٨]، وأنهار مُجراة. إن في السماء لخبراً[٩] وإن في الأرض لعبراً. ما بالُ الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضُوا فأقاموا؟ أمْ تُركوا فناموا؟ يُقسم قُسٌّ بالله قسماً لا إثم فيه: إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكراً.

ويروى أن قساً أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبـيـن الأولـيـ ... ـن من القرون لنا بصائرْ[١٠]
لمـا رأيت مـوارداً ... للموت ليس لها مَصادرْ[١١]
ورأيت قومي نحوهـا ... تمضي: الأكابرَ والأصاغر
لا يرجع الماضي إليّ ... م ولا من الباقين غابرْ[١٢]
أيقنت أني لا محـا ... لة حيث صار القوم صائر

---

(١) الأورق من الإبل ما في لونه بياض إلى سواد (رمادى).

(٢) صفحة ٢١٢ من الجزء الأول طبعة المطبعة الأميرية.

(٣) مظلم (٤) الساجي الساكن والدائم (٥) البرج واحد الأبراج وهي إثنا عشر برجاً تقابلها الشمس في طريقها طول السنة. والبرج صورة من مجموعة كواكب تشبه صورة حيوان أو غيره (٦) تضيء وتتلألأ (٧) تطمى وترتفع (٨) مدحوة أي مبسوطة، وإنما جاءت على هذا الوزن لمشاكلة أخواتها في صنع اللفظ (٩) أي إن في السماء لدليلا على خالق عظيم (١٠) جمع بصيرة وهي العلم والخبرة (١١) ورد الماء أتاه ليشرب، وصدر عنه شرب ورجع، أي يذهب الناس للموت ولا يعودون (١٢) مقيم.

أكثم بن صيفي

هو من أبلغ حكماء العرب ، وأعرفها بأنسابها ، وأكثرها ضربَ أمثال ، وإصابةَ رأي ، وقوةَ حجة . كان خطيباً مِصْقعاً[١] وحَكَماً مُوفَّقاً ، رفيع المكانة في قومه ، يُعدّ من أشرافهم ، ومن كبار المحكمين فيهم ؛ وقلّ من جاراه من خطباء عصره في معرفة الأنساب ، وضرب الأمثال ، والاهتداء لحل المشكلات ، والسداد في الرأي . وهو زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى ، وكلهم خطباء مصاقع ، ولسن مقاول . ولقد بلغ من إعجاب كسرى به أن قال لهُ : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . وقد عُمّر طويلاً حتى أدرك مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وجمع قومه وحثهم على الإيمان به . وفي إسلامه رواياتٌ .

وكان في خطبه قليل المجاز ، حسن الإيجاز ، حلو الألفاظ ، دقيق المعاني ، مُولَعاً بالأمثال ، لا يلتزم السجع ، يميل إلى الإقناع بالبرهان ، ويتعمد في خطابته على قوة تأثيره وشدة عارضته[٢] ، لا على المبالغة والتهويل . ومن جيد خطبه خطبته أمام كسرى وهي :

إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخيرَ الأزمنة أخصبها ، وأفضلَ الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مَهواة ، والشرُّ لجاجة[٣] ، والحزم مركب صعب . والعجز مركب وطيء[٤] . آفة الرأي الهوى . والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسنُ الظن ورطة[٥] ، وسوء الظن عصمة . إصلاحُ فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي . من فسدت بِطانته[٦] كان كالغاصّ[٧] بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البَرِيء . المرء يعجِز لا المحالة[٨] .

---

(١) المصقع البليغ أو العالي الصوت أو الذي لا يرتج في كلامه ولا يتتعتع والسن والجلد والصرامة والقدرة على الكلام (٢) البيان (٣) اللجاج واللجاجة تماحك الخصمين وتماديهما أي أن أصل الشر اللجاجة (٤) سهل لين (٥) الورطة الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه (٦) أصحابه وأصدقاؤه (٧) الشرق بالماء (٨) الحيلة .

أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شرّ سماعه . الصمت حُكم[1] وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدّد نفر ، ومن تراخى تألّف .

(١) الحكم : الحكمة ، ومنه قوله تعالى : « وآتيناه الحكم صبيا » ، والمعنى أن استعمال الصمت حكمة وقل من يستعمله .

الكتابة

نشأة الخط العربى

يراد بالكتابة عند الأدباء صناعة إنشاء الكتب والرسائل ، وإذ كانت الكتابة بهذا المعنى تؤدّى بالنقوش المسماة بالخط ، ناسب أن نُشير هنا إلى نشأة الخط العربىّ فنقول :

أول حلقة من سلسلة الخط العربى هى الخط المصرى القديم ، ومنه اشتق الخط الفينيقىّ (١) ومن هذا اشتق الآرامى (٢) والمسند بأنواعه : الصفوىّ والثمودى واللحيانى شمالىّ جزيرة العرب والحميرىّ جنوبيها . ومن هذا اختلف رأى رواة العرب ورأى باحثى الإفرنج ، فيرى باحثو الإفرنج أن قد تولّد من الخط الآرامى خطوط منها النبطى (٣) والسريانى ؛ والأول يظهر فى حروفه الاتصال ، ومنه أخذ أهل الحيرة والأنبار خطهم النسخىّ المنسوب إليهم ، ومنهما وصل إلى أهل الحجاز . والثانى اشتق العرب من نوع منه يسمى (بالسَّطْرَنْجيلى) خطهم الكوفى .

رأى الإفرنج فيه

رأى العرب

أما رواة العرب قبل الإسلام وبعده فإنهم يقولون : إنهم أخذوا خطهم الحجازى عن أهل الحيرة والأنبار ، وهما عن كندة (٤) والنبط (٥) الناقلين من المسند ونحن نرى رأيهم لأسباب : منها العثور على فروع من الخط المسند فى أراضى النبط وشماليها ، وهو الصفوى قريب الشبه جداً من أصله الفينيقىّ .

أدلتهم

---

(١) الفينيقيون سكان أرض كنعان وكانت على ساحل البحر الأبيض بمحاذاة جبل لبنان.

(٢) الآرام الأمم السامية القديمة التى كانت تسكن بلاد العرب فى فلسطين والشام والعراق .

(٣) مملكة الأنباط كانت فى القرن الأول قبل الميلاد تتسع من شمال الحجاز إلى نواحى دمشق أى كانوا يملكون مدين وخليج العقبة والحجر وفلسطين وحوران .

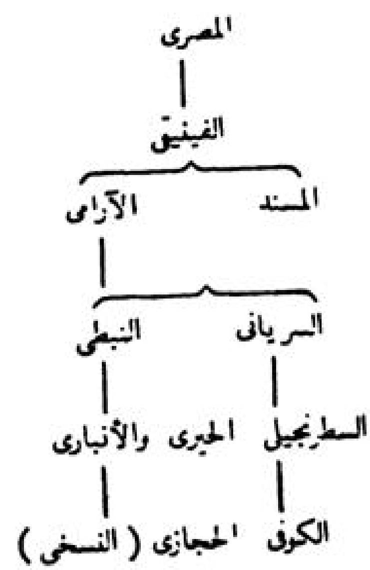
(٤) يعلم ذلك مما قاله ابن عباس حين سئل عن أصل الخط العربى . وخلاصته أن قريشاً أخذته عن حرب بن أمية وهو عن عبد الله بن جدعان أو بشر بن عبد الملك أخى أكيدر صاحب دومة الجندل ، وهما عن أهل الحيرة والأنبار عن طارئ طرأ عليهم من اليمن من كندة .

(٥) يعلم ذلك من رواية المسعودى وابن الكلبى وهى أن بنى المحصن بن جندل بن يعصب ابن مدين هم الذين نشروا الكتابة بريد النبط .

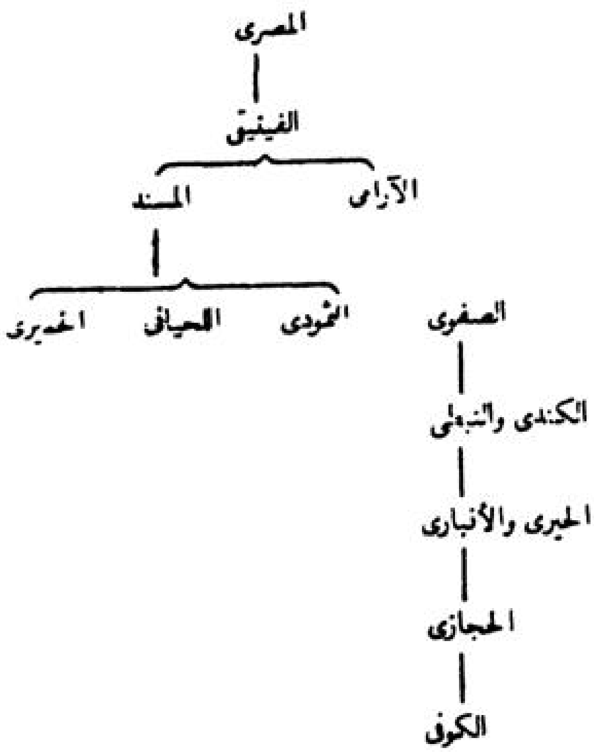
ومنها وجود حروف الردف وهى : تخذ ضظغ ، فى الخط المسند دون الآرامى ، ومنها صريح الإجماع من رواة العرب على أن الخط العربى مأخوذ من الحيرى والأنبارى ، وهو مأخوذ من المسند على يد كندة والنبط .

أما الكوفى الذى لم يعرف إلا بعد تمصير الكوفة فليس إلا نتيجة هندسة ونظام فى الخط الحجازى . ولعل شبهة الإفرنج آتية من شيوع استعمال السطرنجيلى والكوفى فى الكتابة الجلية على المعابد والمساجد والقصور وما شاكلها . مع شدّة تشابه ما فيهما من الزخرفة والزينة .

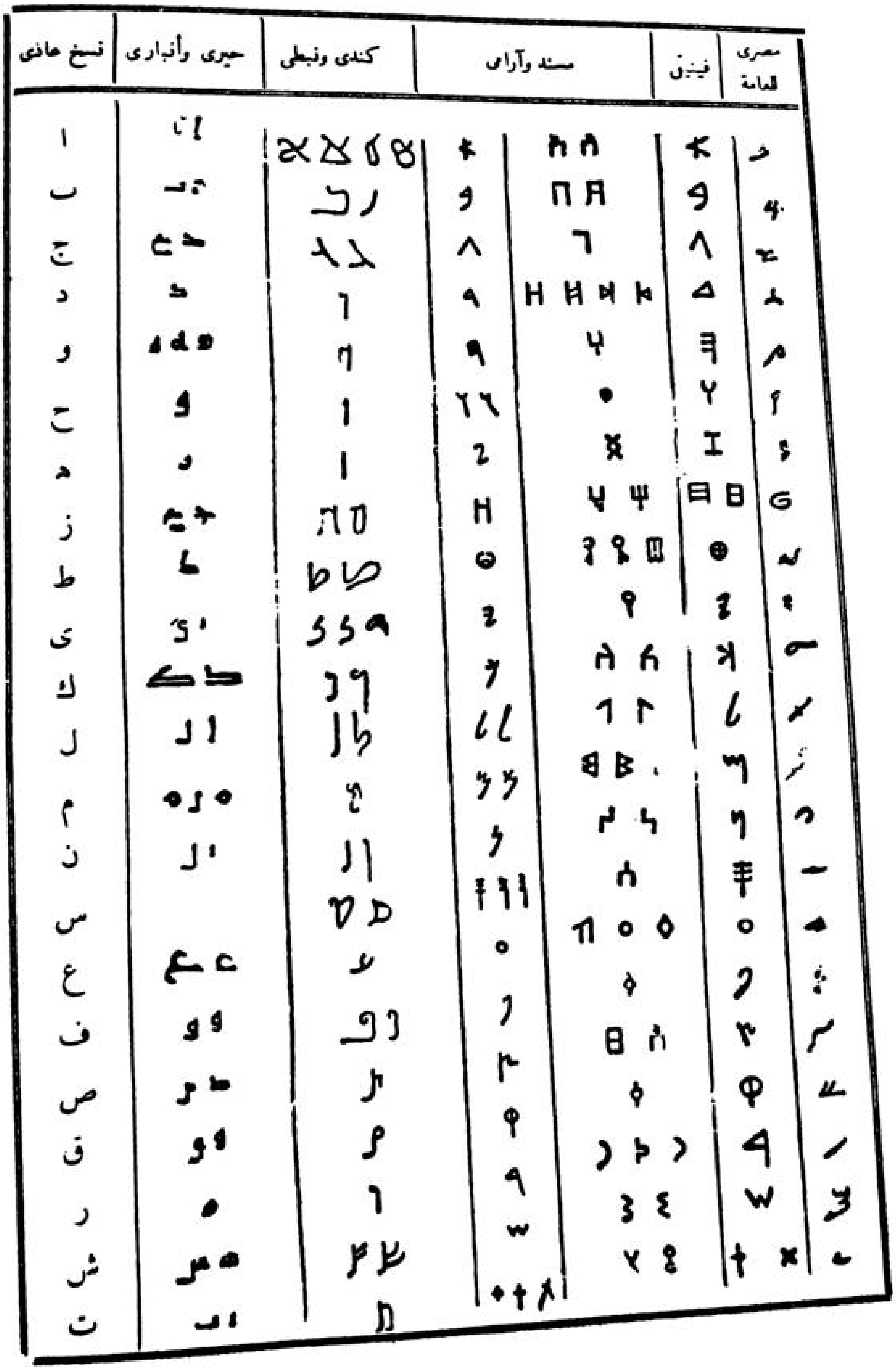
سلسلة الخط العربى على رأى الإفرنج



سلسلة الخط العربى على رأى رواة العرب



وهاك جدولا يبين لك نشأة هذه الخطوط المختلفة على رأى العرب :



كتابة الرسائل والفنون

أما الكتابة بمعنى إنشاء الكتب والرسائل ، فهى لازمة لكل أمة متحضرة ذات دولة منظَّمة ، ودواوين متعددة ، وصناعات متنوعة ، وتجارة رائجة ، وزراعة نامية ، وفنون مختلفة ، وقد كان بعض ذلك موفوراً فى ممالك التبابعة جنوباً ، ومأثوراً عن ممالك المناذرة والغساسنة شمالاً ؛ ولذلك استعمل الخط المسند الحميرى عند الأولين من عهد مديد ، والأنبارىّ عند الآخرين الحيرىّ ، وإنما لم يصل إلينا شىء من رسائل تلك الأمم ولا من كتب فنونها ودينها غير ما عثر عليه فى بقايا خرائبهم وسدود مياههم وبعض دفائن الأحجار والقبور ، لتقادم عهد أهلها وعدم استكمال البحث بعد فى بلادها . ولعل الزمان يُعثرنا على شىء منها .

استعمالها فى الشمال والجنوب

كتاب الجاهلية

ولم يعرّفنا التاريخ أيضاً بأحد من كتاب هذه الصناعة إلا بلقيط بن يعمر الإيادى . وعدى بن زيد العبادى [1] وابنه ، وكانوا كتاباً وتراجمة عند كسرى .

جهل الكتابة فى أهل البدو

أما أهل البدو من سكان أواسط الجزيرة وهم جمهور مضرَ وبعض القحطانيين فكانوا أميين . ومن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الإنشائية إلا بعد أن عرفوا الخط آخر عصور الجاهلية ؛ وهو ما نقل عنهم فيه أنهم كانوا يكتبون فى بدء رسائلهم باسمك اللهم ؛ ومن فلان إلى فلان ؛ وأما بعد [2] . ولم تقم لهم دولة بالمعنى السابق إلا بقيام الإسلام فهو الذى أفشى فيهم الخط والكتابة .

كتابة التدوين والتصنيف

ولما كانت علوم كل أمة — وخاصة اللسانية منها — لها الأثر العظيم فى تكوين فكر الأديب ، وخيال الشاعر ، والبلاء الحسن فى تقويم اللسان ، وتوفير مادة اللغة ، وكانت كتابتها قسماً قائماً بنفسه يسمى كتابة التدوين [3] والتصنيف [4] — ناسب أن تعرف موضوعاتها ويؤتى على خلاصة نشأتها فى تاريخ الأدب .

---

(١) نسبة إلى عباد ككتاب وهم قبائل شتى عن العرب واجتمعوا على النصرانية بالحيرة .

(٢) وقد عثرنا على وصية مطولة كتب بها أكثم إلى طىء .

(٣) تدوين الكتاب جعله ديواناً ، والديوان مجتمع الصحف ، والكتاب والدفتر ما يكتب فيه .

(٤) تصنيف الأشياء جعلها صنوفاً ، وتمييز بعضها من بعض ، ومنه تصنيف الكتب أى تأليفها لأنه جمع كل طائفة متشابهة من المسائل فى باب ، فالتدوين أعم من التصنيف .

علوم العرب وفنونها

العلومُ والصناعات لازمة لحضارة الأمم ، متناسبة معها ؛ ومن العرب أهل حضارة دلت عليهم دولهم العظيمة ، وقِدَمُ تاريخهم وآثارهم الخالدة ، وهم التبابعة فى اليمن والمناذرة والغساسنة فى الشمال ، وإذاً تكون هندسة إرواء الأرض وعمارة المدن ، والحساب ، والطب ، والبيطرة ، والزراعة ونحوها معروفة فى الجنوب والشمال ، مدونة فى الكتب ، وإن لم يحفظ لنا الدهر صوراً منها . أما أهل البدو منهم وإن كانوا أميين ، يمقتون الصناعات وينتقصون أهلها فلا غنى لهم عن تجربة ترشدهم إلى ما ينفعهم فى نواديهم المقفرة ، ومجاهلهم الطامسة ؛ ليعلموا ما به تصح أنفسهم وأنعامهم ، وتستطلع خفايا أمورهم ، وتدون فيه مفاخرهم ، وليعرفوا متى تجود السماء ، وبم يتميز الأقرباء من البعداء ، فكسبهم بذلك علم النجوم ، والطب الضرورى ، والأنساب والأخبار ، ووصف الأرض والفراسة ، والعيافة ، والقيافة والكهانة ، والعرافة والزجر ، وقرض الشعر .

علم النجوم

علم النجوم — هو معرفة أحوال الكواكب : من طلوعها وغروبها ، وألوانها وأنوائها ، ومواضعها ، وقرانها ، وصور أفرادها وجماعاتها ، وما يرتبط بها : من حر وبرد ، وأمطار ورياح ، واعتدال زمان ، ونتاج حيوان ، إلى غير ذلكُ مما تمس إليه حاجتهم ، وتدعو إليه ضروراتهم وقد كانوا أبرع فى هذا العلم منهم فى كل علم سواه ، تعرفه عامتهم [1] قبل خاصتهم ؛ للاهتداء به فى ظلمات البر والبحر ومعرفة أزمنة الخصب والمحل ، وبعض معارفهم فيه

(١) قال الأصمعى : كان شيخ من الأعراب فى خبائه وابنة له بالفناء . إذ سمع رعداً فقال ما ترين يا بنية ؟ قالت أراها حواء قرحاء ، كأنها أقراب أتان قمراء ، ثم سمع راعدة أخرى فقال : كيف ترينها ، قالت أراها جمة الترجاف ، متساقطة الأكناف ، تتألق بالبرق الولاف ، قال : هلمى المغرفة انتئى نؤيها .

مستمد من الكلدان ؛ لاختلاطهم بهم ، ولاتفاق اللغتين فى بعض أسماء الكواكب والبروج ، ومن أشهرهم فيه بنو حارثة بن كلب ، وبنو مُرَّة بن همام الشيبانى .

الطب والبيطرة

الطب الإنسانى والحيوانى (البيطرة) — وقد عاناه من العرب كثيرون اكتسبوه بحذقهم وتجاربهم ومما نقلوه عن غيرهم ؛ يدل لذلك كثرة ما تجده فى لغتهم من أسماء الأمراض ، والأدوية ، وأسماء الأعضاء الباطنية والظاهرة وأوصافها المختلفة وأجزائها الدقيقة . وكانوا يعالجون بالعقاقير[1] تارة وبالعزائم والرُّقى[2] أخرى ؛ وأطواراً يستعملون الحجامة[3] والكىّ بالنار . ومن أمثالهم (آخر الدواء الكىّ) . ومن مشهوريهم الحارث بن كلدة الثقفى ، وابن حذيم التيمى .

الأنساب

الأنساب — علم يُتعرف به القرابات التى بين بعض القبائل وبعض فتلحق فروعها بأصولها . وإنما دعاهم إلى العناية به حاجتهم إلى التناصر بالعصبية . لكثرة حروبهم ؛ وتفرق قبائلهم وأنفتهم من أن يكون لغريب عنهم سلطان عليهم . وحبهم الافتخار بأسلافهم ؛ ولذلك كانوا يحفظون أنسابهم ؛ ويروونها أبناءهم . ويحافظون عليها جهدهم . وممن اشتهر بمعرفة أنساب العرب دَغفل بن حنظلة الشَّيبانى ، وزيد بن الكيِّس النَّمَرِى . وابن لسان الحُمَّرة .

الأخبار والتاريخ

الأخبار والتاريخ والقصص — هى معرفة أحوال السابقين ، وكانوا يعرفون منها ما كان عليه أسلافهم وبعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة ، ووقائع أيامهم المشهورة ، وهى كغيرها من أخبار الأمم القديمة بعضها صحيح وبعضها حديثُ خُرافة . وقد جاءنا منها شىء ليس بالقليل فى شعرهم ونثرهم وأمثالهم :

---

(١) جمع عقار كـكتان وعقير كسكيت ما يتداوى به نبات وغيره .

(٢) العزائم جمع عزيمة من عزم الراقى على الداء والجن والأرواح كأنه أقسم عليها . والرقى جمع رقية وهى ما يتلوه الشخص فى ذلك .

(٣) صناعة الحجام ، والحجم مص الدم من المريض بأداة تسمى المحجم .

كقصة الفيل وحرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس[١] ، ويوم ذى قار[٢] ، وحرب الفِجَار .

وصف الأرض

وصف الأرض — هو معرفة كل بقعة وما يجاورها وكيف يهتدى إليها .

ومن قرأ شعر العرب فى نسيبهم ، واطلع على وصف أطلالهم[٣] ، وأمنهم[٤] ومصايفهم ومرابعهم ، وكيف كانوا يَحُدُّون الحقير منها بحدود قلما تُحدّ بها مملكة عظيمة — عرف شدة حذقهم بمعرفة بلادهم مما كان له الفائدة الجلىّ فى إمداد علم وصف الأرض (الجغرافية) بمواضع بلادهم وطبائعها .

الفراسة

الفراسة — هى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وقد نبغ فيها من العرب من لا يحصى عددهم . ولهم فى ذلك نوادر شتى[٥] .

القيافة

القيافة — ضرب من الفراسة منشؤه قوة الخيال والحافظة والذكاء : وهى الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها ، أو الاستدلال بهيئة الإنسان وأعضائه على نسبه ، وربما خصوا النوع الأول باسم العيافة ، وللعرب فى ذلك أمور تدخل فى

---

(١) هى حرب قامت بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وسببها أن رجلا من قبيلة جرم نزل ضيفاً على البسوس التميمية خالة جساس بن مرة البكرى ، وللجرمى ناقة أخذت ترعى مع إبل كليب سيد تغلب ، وكان جباراً يحمى أرضه أن ترعى فيها إبل غيره ، فبصر بناقة الجرمى بين إبله فرماها بسهم فى ضرعها فولت تصيح إلى فناء صاحبها ، فاستغاثت بأم مثواه البسوس فصاحت : واذلاه فانتهز جساس غرة من كليب وقتله غيلة ، فنشبت الحرب بين القبيلتين .

(٢) موضع بقرب الكوفة كان به يوم لبنى شيبان وعجل على الفرس ، وهو أول يوم انتصف فيه العرب من العجم .

(٣) الطلل الشاخص من الآثار (٤) الدمن جمع دمنة وهى آثار الناس وما سودوه بالرماد والسرجين (٥) منها ما يقال إن أولاد نزار ذهبوا إلى الأفعى الجرهمى ليحكم بينهم فى ميراث أبيهم وبينما هم فى الطريق إذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال إن البعير الذى رعى هذا أعور ، وقال ربيعة هو أزور ، وقال إياد هو أبتر ، وقال أنمار هو شرود . وبعد قليل لقيهم رجل ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا فتعلق بهم وذهبوا إلى الأفعى الجرهمى فقال كيف وصفتموه ولم تروه ، فقال مضر رأيته يرعى جانباً ويترك آخر فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته فعرفت أنه أزور ، وقال إياد : رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر . وقال أنمار رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه إلى غيره فعرفت أنه شرود . فقال الجرهمى لصاحب البعير اطلب بعيرك من غيرهم . ثم قال لهم أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ؟

عداد المستحيلات ، فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير ، والأحمق والكيس ، وإذا نظروا عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه ، والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه ، وعرفوا الأجنبي من بينهم — وممن اشتهر بالقيافة بنو مُدلج[١] ، وبنو لهب[٢] . ولا يزال هذا العلم باقياً عند عرب البوادي إلى الآن .

الكهانة والعرافة — وهما القضاء بالغيب ، وربما خُصّت الكهانة بالأمور المستقبلة والعرافة بالماضية ، وطريقهم في ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية ؛ لما بينهما من المشابهة الخفية ، أو المناسبة البعيدة أو الارتباط الدقيق ، ويحتاج صاحبهما إلى كثرة التجارب وحدة الذكاء وصدق الفراسة . الكهانة والعرافة

وللعرب في الكهان اعتقاد عريض ؛ لزعمهم أنهم يعلمون الغيبَ . فيرفعون إليهم أمورهم للاستشارة ، ويستقضونهم في الخصومة ، ويستفسرونهم عن الرُّؤى ، ويستطبونهم في أمراضهم . وممن اشتهر من الكهان شِقٌّ أنمار ، وسطيحٌ الذئبي ، ومن الكواهن طَرِيفةُ[٣] الخير ، وسلمى[٤] الهمدانية . ومن العرافين عراف نجد : الأبلقُ الأسدى ، وعراف اليمامة : رباح بن عَجلة .

الزجر — وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال والاسترسال فيه . ومن أشهر الزجّارين بنو لهب وأبو ذؤيب الهُذَلىّ ، ومُرة الأسدى . الزجر

ومن العرب من لم يعبأ بالزجر وما شاكله كالمرقش الشاعر ولبيد بن ربيعة ، ومن قوله في ذلك :

لعمرُك ما تدرى الطوارق[٥] بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

---

(١) قبيلة من كنانة (٢) بطن من الأزد (٣) زوج عمرو بن عامر مزيقياء : أحد ملوك اليمن (٤) بنت سيد همدان (٥) الطرق بالحصى هو ضرب الحصى بعضه ببعض و إلقاؤه للتكهن كما يفعل بعض النساء بالودع .

النظم

الشعر والشعراء

الشعر

الشعر عند العرب — النظم هو القسم الثانى من قسمى الكلام ، وعرّفه العرُوضيون بأنه الكلام الموزون المقفى قصداً ؛ ويرادفه الشعر عندهم . أما المحققون من الأدباء فيخصّون الشعر بأنه الكلام الفصيح الموزون المقفى المعبر غالباً [١] عن صور الخيال البديع . وإذ كان الخيال أغلب مادته أطلق بعض [٢] العرب تجوزاً [٣] لفظ الشعر على كل كلام تضمن خيالا ولو لم يكن موزوناً مقفى . وهو يوافق رأى قدماء الإفرنج ومحدثيهم فى شعرهم ، ورأى المناطقة أيضاً : لأن المنطق مستمد من اليونان [٤] .

تأثير الشعر — ولجريه وَفق النظام الممثل فى صورته الوزن والتقفية . وظهوره فى حلل الخيال الرائع : كان تأثيره فى النفس من قبيل إثارة الوجدان والشعور بسطاً وقبضاً وترغيباً وترهيباً . لا من قبيل إقناع الفكر بالحجة الدامغة ، والبرهان العقلى . ولذلك يجمل أثره فى إثارة العواطف وتصوير أحوال النفس . لا فى الحقائق النظرية ؛ ولا ريب أن النفس ترتاع بصور المحسوس الباهر [٥] وما انتزع منه الخيال الجلى [٦] لخفة مئونته عليها . وإراحته لها من المعاناة والكد . فكيف

---

(١) وقد يعبر به عن الحقائق الثابتة من غير مدخل للخيال فيها كأبيات الحكم والمواعظ والأمثال فقد قال حسان لابنه (شعر ورب الكعبة) حينما سمعه يصف الحيوان الذى لسعه بقوله : « كأنه ملتف فى بردى حبرة » ومن هذا تسمية بعض علماء الأدب عندنا النثر المسجوع المعتمد على الخيال من مثل مقامات الهمذانى والحريرى ، ورسائل القاضى الفاضل ونحوها شعراً منثوراً . وأما تسمية بعض المعاندين من كفار العرب القرآن شعراً والنبى شاعراً ، فذلك من باب العناد أو الحيرة أو الدهشة : لأنهم كما سموه شعراً سموه سحراً وكهانة وقصصاً لأساطير الأولين .

(٣) من باب إطلاق اسم الجزء على الكل (٤) ومن هنا يظهر وجه شبهة بعض كتاب عصرنا ممن درس أدب لغة الإفرنج فى خلطهم بين مذهب القوم ومذهب العرب فى الشعر الحقيق .

(٥) يبهره غلبه إما بقوته وشدته وإما بحسنه وجماله (٦) أى فى الحسن أو القبح .

إذا انضم إلى ذلك نغَم الوزن والقافية الشديدة الشبه بتأثير الإيقاع (١) والتلحين (٢) الذى يطرَب له الحيوان بَله الإنسان .

والعرب بفطرتهم مطبوعون على الشعر : لبدواتهم ، وملاءمة بيئتهم لتربية الخيال ، فالبدوى لحريته واستقلاله بأمر نفسه ، وعدم خضوعه لسيطرة مُذلة ، أو لقوانين نظرية ، أو سلطان قاهر ، يغلب على أحكامه الوجدان ، ويُسلك إليه من طريق الشعور ؛ ومعيشته فوق أرض نقية التربة ، مبسوطة الرّقعة ، مجلوّة الآفاق ، وفيرة الوحش والطير ، وفى جو صحيح الهواء ، وتحت سماء صافية الأديم ساطعة الكواكب ، ضاحية الشمس ، سافرة البدر ، جلت لحسه مناظر الوجود ، وعوالم الشهود . فكان لخياله من ذلك مادةٌ لا يغور ماؤها ، ولا ينضب معينها . فهام بها فى كل واد . وأفاض (٣) منها إلى كل مراد . وكان له من لغته وفصاحة لسانه أقوى ساعد . وأكبر معاضد .

سبب انطباع العرب على الشعر

ويشعر الإنسان بطبعه أن الشعر متأخر فى الوجود عن النثر ضرورة تأخر المقيد عن المطلق . وإن كانت واسطةٌ بين النثر المرسل والشعر . فليست إلا السجع لما فيه من معادلة الفقر والتزام القافية . والميل إلى التغنى به . كما يشاهد ذلك فى صغار الصبيان . فيظن أن متغنياً بسجع وقع له سجعتان متوازنتان وزناً سهلاً . (قيل إنه الرّجز) فأعجبه ذلك ومضى فيه ، وتمت له قطعة من الشعر . راقت مَن سمعها وحاكوه فيها ، وتغنوا بها ؛ فكان من ذلك المقطعات (٤) والأراجيز الصغيرة . يحدون بها الإبل . ويعدّدون بها المكارم . ثم لما نمت ملكة الشعر فيهم . واتسعت أغراضه أمامهم نوعوا الأوزان وأطالوا القوافى وقصّدوا التقصيد .

مرتبة الشعر فى الوجود

اختراع الشعر

ولبعد العهد بقدماء الحضر من العرب . ومكان الأمية من أهل بدوهم . خفى علينا — كأكبر الأمم — مبدأ قول الشعر . وأول من قاله . بل لم يبلغنا

أولية الشعر

---

(١) الإيقاع تبيين الألحان وضبط نسبها (٢) التلحين الصوت المصنوع بكيفية خاصة

(٣) اندفع وأسرع (٤) المقطعة ما دون القصيدة من الأبيات ؛ والقصيدة على أرجح الأقوال ما بنيت من سبعة أبيات فصاعداً .

مما قيل منه فى تلك العصور الغابرة والقرون الطويلة الخالية شيء ، حتى كان منتصف القرن الثانى قبل الهجرة ، فرُوِى لنا منه قُل من كُثُر أدركه رواة اللغة ودوّنوه قبل أن يبيد كما باد سلفه . أما ما نسب من الشعر إلى آدم(١) وإبليس (٢) والملائكة (٣) والجن(٤) والعرب البائدة(٥) ، فهو حديث خرافة مدسوس على أهل الغفلة من الرواة : لسخافة نسجه ، وركاكة (٦) لفظه ، وبذاذة(٧) معناه ، ولأن لغة هؤلاء غير لغة مضر المنظوم بها هذا الشعر ؛ وإنما ساقهم إلى ذلك ما رأوه فى طبائع الناس من ميلهم إلى معرفة المجهول ، وشغفهم بالغريب ، واسترسالهم فى الخيال .

بدء الشعر الصحيح

والشعر الذى صحت روايته منذ أواسط القرن الثانى قبل الهجرة ينتهى أقدمُ مطولاته إلى مهلهل بن ربيعة ؛ وأقدم مقطّعاته إلى نفر لعلهم لم يبعدوا عنه طويلا ، مثل العنبر بن عمرو بن تميم ؛ ودُوَيد بن زيد بن نهد — وأعصر بن سعد بن قيس عَيلان . وزهير بن جناب الكلبى ؛ والأفوه الأودى ، وأبى دُواد الإيادى .

تقصيد القصائد

وقد رووا أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته ، وأن أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كليب ؛ فهو أول من رُويت له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً ؛ وتبعه

تدريج الشعر

الشعراء ، مثل امرئ القيس ، وعلقمة ، وعبيد : ممن أخرجوا لنا الشعر العربى فى صورته الحاضرة والمعقول أن هذه الصورة لم تتشكل طفرةً : فى تنوع الأوزان ، وطول القوافى ، وتعدد الأغراض واختلاف الأساليب ، وبراعة الاستعارة ، وروعة التشبيه ، ودقة الكناية ، على يد مهلهل وامرئ القيس

---

(١) كالقطعة التى أولها : تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

(٢) « « « : تنح عن البلاد وساكنيها ففى الفردوس ضاق بك الفسح

(٣) كقولهم : لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى الذهاب

(٤) « : الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

(٥) وقال مرثد بن سعد : زعموا أنه من أصحاب هود :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشاً ما تبلهم السماء

(٦) ضعف (٧) البذاذة سوء الحال ورثاثة الهيئة .

وطرفة وأمثالهم، بل لا بد من أن يكون هؤلاء قد سُبقوا بأقوام نقلوا الشعر من السجع إلى الرجز ، ومن المقطعات إلى القصائد ، وقالوه فى غرض واحد، ثم فى أغراض شتّى . وهذّبوه ورققوه ، وجوّدوه وهلهلوه[١] قبل مُهلهل ببضعة قرون . يشهد لهذا قول امرئ القيس فى شعره :

عُوجا على الطلل المُحيل[٢] لأننا[٣] نبكى الديار كما بكى ابنُ خذام[٤]

وقول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتردَّم[٥] أم هل عرفت الدار بعد توهُّم

وقول زهير[٦] :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من لفظنا مكرورا

يشير الأول إلى ابن خذام وهو رجل من طيء بكى الديار قبله . ولم يروِ الأئمة له شيئاً . ولا سمعوا عنه تنويهاً فى غير هذا البيت . ويعدّ الثانى نفسه مُحدثاً قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناسُ منه ولم يغادروا منه شيئاً ، وهو (كما يقولون) ممن عاصر امرأ القيس . ويشير زهير إلى أن كثيراً من أقوال الشعراء مستعار من غيرهم .

كثرة الشعر المروى

ومن قِصر عهد الشعر الجاهلىّ المروىّ لنا الذى لم يطل أجله إلى أكثر من قرن ونصف ، وموت الكثير من حفظته فى المغازى والفتوح الإسلامية ، ألمّ الأئمة فيه بشعر كثير من الشعراء حتى قيل إن بعضهم[٧] كان يحفظ عشراتِ الألوف من قصائده وأراجيزه، مما لم يؤثرْ عن أمة من الأمم (فيما نعلم).

سبب إكثار العرب من قول الشعر

وما أربى العرب على غيرهم فى قول الشعر إلا لأنهم قوم أميون ، لم يرجعوا فى تدوين حكمتهم ، وتخليد مآثرهم ، إلى رقم فى رقّ أو نقر فى حجر ،

---

(١) هلهل النساج الثوب نسجه رقيقاً ، ولقب الشاعر بمهلهل لأنه أول من رقق الشعر على زعمهم (٢) المتغير (٣) لأننا لغة فى لعلنا (٤) ككتاب شاعر جاهلى قديم .

(٥) تردم الثوب رقعه ، كلامه وشعره تتبعه حتى أصلحه وسد خلله ، أى لم يترك السابق من الشعراء للاحق منهم شيئاً يحتاج إلى الإصلاح (٦) وفى العقد الفريد كعب بن زهير .

(٧) كحماد والأصمعى وخلف وأبى عمرو الشيبانى وأبى بكر الخوارزمى وغيرهم .

فكسبهم ذلك التأنق فى الكلام ، وجودة الحفظ ، ومعاناة الرواية . ولا تتمثل هذه الأمور فى أمثل من الشعر ، فاتخذوه كما قال الجمحىّ « ديوان علمهم ، ومنتهى حكمتهم به يأخذون . وإليه يصيرون » وأحلوه من الاعتبار فى الغاية ، ومن الرعاية فى الذّروة . وكانت القبيلة يرفعها البيتُ من الشعر ، ويخفضها الآخر (١) .

هذا مجمل ما يتعلق بحقيقة الشعر ونشأته فى الجاهلية . أما ما يتعلق بمادّته وجوهره ، فإنه يرجع إلى الأمور الآتية :

أولاً : أغراضه وفنونه . ثانياً : معانيه وأخيلته . ثالثاً : ألفاظه وأساليبه . رابعاً : أوزانه وقوافيه .

(١) أغراضه وفنونه

نظم العرب الشعر فى كل ما أدركته حواسهم . وخطر على قلوبهم : مما يلائم بيئتهم ، وينتظم مع تنشئتهم . ويضيق المقام عن سرد الكثير من فنون الشعر وأغراضه عندهم ، وإنما يجمل الإلمام بأشهرها ، وهى :

النسيب ودواعيه

النسيب — ويسمى التشبيب . وطريقه عند الجاهلية يكون بذكر النساء

(١) فن ذلك قصة الأعشى الشاعر مع آل المحلق وسنذكرها بعد . وقصة حسان مع بنى عبد المدان وذلك أنه هجاهم بقوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافير

فقالوا له والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحى من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت ، ثم قال :

وقد كنا نقول إذ رأينا ... لذى جسم يعد وذى بيان
كأنك أيها المعطى لساناً ... وجسماً من بنى عبد المدان

وقصة الحطيئة مع بنى أنف الناقة : وقد كانوا يعيرون فى الجاهلية بهذا الاسم حتى قال فيهم الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فعاد هذا الاسم شرفاً لهم وفخراً فيهم .

وقصة جرير مع بنى نمير أشراف قيس وذوائبها وذلك أنه قال فيهم :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فما بق نميرى طاطأ رأسه وانتسب عامرياً ، بعد أن كان إذا سئل « ممن الرجل ؟ » فخم لفظه ومد صوته وقال « من بنى نمير » .

ومحاسنهن [١] ، وشرح أحوالهن : ممن ظعنهن وإقامتهن [٢] ، ووصف الأطلال والديار بعد مغادرتهن [٣] والتشوق إليهن بحنين الإبل ، وغناء الحمائم [٤] ولمع البروق ولوح [٥] النيران ، وهبوب النسيم ، وبذكر المياه والمنازل التى نزلنها [٦] والرياض التى حللنها [٧] ، ووصف ما بها من خزامى [٨] ، وبهار [٩] وأقحوان [١٠] وعرار [١١] وكانوا لا يعدون النساء إذا نسبوا ، وكان للنسيب عندهم المقام الأول من بين أغراض الشعر ، حتى لو انضم إليه غرض آخر ، قدم النسيب عليه ، وافتتح به القصيد : لما فيه من لهو النفس ، وارتياح الخاطر ، ولأن باعثه الفذ [١٢] هو الحب ، وهو السر فى كل اجتماع إنسانى ، وأهل البدو أكثر الناس حباً لفراغهم وتلاقى قبائلهم المختلفة فى المصايف والمرابع ، فإذا ما افترقوا ذكر كل أليف إلفه وحبيب حبه . ثم عاودوا تلك الأماكن مرة أخرى ، وهاج أشجانهم ، وجدد الذكرى فيهم ما يرونه من آثار أحبابهم وأطلال منازلهم .

الفخر والحماسة

الفخر — هو تمدح المرء بخصال نفسه وقومه والتحدث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عنصرهم ووفرة قبيلهم ، ورفعة حسبهم ونسبهم وشهرة شجاعتهم

---

(١) قال النابغة : بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها ... فى جيد واضحة الخدين معطار .

(٢) الظعن الرحيل قال زهير :
تبصر خليلى هل ترى من ظعائن ... تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بأنماط عتاق وكلة ... وراد حواشيها مشاكهة الدم

(٣) قال عنترة : حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
وقال زهير : وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأياً عرفت الدار بعد توهم
أثافى سفعاً فى معرس مرجل ... ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم

(٤) قال النابغة : إذا تغنى الحمام الورق هيجنى ... وإن تغربت عنها أم عمار

(٥) مصدر لاح بمعنى بدا ولمع .

(٦) قال زهير : بكرن بكوراً واستحرن بسحرة ... فهن ووادى الرس كاليد للفم
فلما وردن الماء زرقاً جمامه ... وضعن عصى الحاضر المتخيم

(٧) انظر نماذج الوصف (٨) نبت برى زهره أطيب الأزهار نفحاً (٩) نبت طيب الرائحة زهره أصفر أكبر من زهر البابونج (١٠) البابونج البرى (١١) البهار البرى .

(١٢) الفرد .

المدح — المدح — وهو الثناء على ذى شأن بما يستحسن من الأخلاق النفسية : كرجاحة العقل والعدل والعفة والشجاعة وأن هذه الصفات عريقة فيه وفى قومه ؛ وتعداد محاسنه الخلقية كالجمال وبسطة الجسم وشاع المدح عند ما ابتذل الشعر واتخذه الشعراء مهنة . ومن أوائل مدّاحيهم زهير والنابغة والأعشى .

الرثاء — الرثاء — وهو تعداد مناقب الميت ، وإظهار التفجع والتلهف عليه . واستعظام المصيبة فيه . ومن عادات الجاهلية فى الرثاء كما قال ابن رشيق[1] فى كتابه العمدة « ضرب الأمثال بفناء الملوك العظام . والممالك الكثيرة ، والأمم القوية والوعول[2] الممتنعة فى قُلل الجبال ؛ والأسود الخادرة[3] فى الغياض[4] ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، وبالنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها » .

الهجاء — الهجاء — هو تعداد مثالب المرء وقبيله ؛ ونفىُ المكارم والمحاسن عنه . وكانت العرب فى بدء أمرها لا تفحش فى هجوها ، وتكتفى بالتهكم بالمهجو والتشكك فى حقيقة حاله[5] ، ثم أقذع[6] فيه بعض الإقذاع المحترفون بالشعر ، وحاكاهم السفهاء فى ذلك .

الاعتذار — الاعتذار — هو درء الشاعر التهمة عنه ؛ والترفق فى الاحتجاج على براءته منها ، واستمالة قلب المعتذر إليه ، واستعطافه عليه ، والنابغة فى الجاهلية فارس هذه الحلبة[7] .

الوصف — الوصف — هو شرح حال الشىء وهيئته على ما هو عليه فى الواقع : لإحضاره فى ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به . وهذا هو الأصل الذى جرى عليه أكثر العرب قديماً ، وقد يبالغ فيه : لتهويل أمره أو تمليحه ، أو تشويهه ، أو نحو ذلك فيكون منه المقبول والممقوت . ولا سبيل إلى حصر

---

(١) هو الحسن بن رشيق القيروانى من أدباء إفريقية توفى سنة ٤٦٣هـ (٢) جمع وعل وهو تيس الجبل (٣) المستترة (٤) جمع غيضة وهى الأجمة والشجر المجتمع فى مغيض ماء .
(٥) كقول زهير : وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
(٦) أفحش (٧) جماعة الخيل المتسابقة .

ضروب الوصف عند العرب ، فإنهم وصفوا كل ما رأوه أو عانوه أو خالط نفوسهم .

فوصفوا من الحيوان الإبل(١) . وافتنّوا فى ذلك بما لم تفقهم فيه أمة فى وصف نفيس لديها . ومن أبلغ وُصّاف الإبل طرفة — ووصفوا الخيل(٢) فى ضروب خلقها وأحوال سيرها . ومن أشهرهم فى ذلك امرؤ القيس وأبو دُواد الإيادى . ووصفوا منه أيضاً كواسر السباع ، وأوابد الوحوش(٣) ، وجوارح الطيور وصوادحها(٤) ، وخشاش الأرض وهوامها(٥) — ووصفوا من النبات ضروبه وشياته — ومن السماء نجومها وكواكبها ، وسحائبها وبروقها ، وأنواءها وأمطارها (٦) ومن الأرض سهلها وجبلها(٧) ، ومرابعها ومصايفها ، وخاصةً الديار والأطلال والدمن ، وتعفية الرياح والأمطار لآثارها ، وشبهوها أحياناً برقم الكتب ، وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالثوب الخلق أو المرقم . ونحو ذلك(٨) .

---

(١) قال عنترة : هل تبلغنى دارها شدنية لعنت بمحروم الشراب مصرم
خطارة غب السرى زيافة تطس الإكام بوخد خف ميثم

(٢) انظر نماذج الوصف .

(٣) قال امرؤالقيس: فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول
فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها فى صرة لم تزيل

(٤) وقال أيضاً : كأن مكاكى الجواء غدية صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

(٥) حشرات الأرض ما لا دماغ له من هوامها (الهوام) جمع هامة وهى كل ما له سم يقتل

وقال شاعر جاهلى يصف أفعى :

ويدير عيناً للوقوع كأنها سمراء طاحت من نفيض برير
وكأن شدقيه إذا استعرضته شدقا عجوز مضمضت لطهور

(٦) انظر نماذج الوصف .

(٧) قال امرؤ القيس: كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

(٨) قال طرفة : لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقال حاتم : أتعرف أطلالا ونؤياً مهدماً كخطك فى رق كتاباً منمنما
وقال عبيد : مثل سحق البرد عفى بعدك الـ قطر مغناه وتأويب الشمال
وقال امرؤ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آيه منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان

ووصفوا جمال الإنسان وأخلاقه وطباعه وأحواله فى الظعن والإقامة ، وأفعاله فى قتاله ونزاله ، ودفاعه بمختلف سلاحه .

هذا وباب الوصف عند العرب أكبر فنون الشعر .

الحكمة والمثل — الحكمة والمثل — وقد تقدم تعريفهما ، وأكثر ما تكون أمثالُ العرب وحكمها موجزة متضمنة حكماً مقبولاً ، أو تجربة صحيحة ، تمليها عليها طباعها بلا تكلف كتكلف فلاسفة المولدين ، ولا إكثار منها حتى يخرج الشعر بها عن بابه المبنىّ على الخيال والأوصاف ، وإنما يُؤتى بها فى كلامهم كالملح فى الطعام — وأكثر شعرائها أمثالاً زهير والنابغة .

(٢) معانيه وأخيلته

قصد الشاعر من شعره الإبانةُ عما يخالج نفسه من المعانى فى أىّ غرض من الأغراض السابقة ونحوها ، ومن هذه المعانى ما هو فطرىّ فى الناس مُتأصل فى نفوسهم، فيشترك فيه البدوىّ والحضرىّ والعربىّ والعجمىّ : كالأخبار الصادقة ، وأوصاف المشاهدات ، وشرح الوجدانات كما يمليها الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ، ومنها ما هو غريبٌ نادر انتزعه الخيال من المرئيات البديعة ، والأشكال المنتظمة والهيئات المتناسقة ، وذلك ما يسمى بالمعنى المخترع . وهو فى الفطرِ السليمة أنمى وللأمم المتحضرة أطوع ، وتتفاضل الشعراء بالإجادة فيه والإكثار منه ، وإذا قسنا الشعر الجاهلىّ بهذا المعيار وجدنا معانيه وخيالاته تتجلى فى الأمور الآتية :

(١) جلاء المعانى وظهورها ، ومطابقتها للحقيقة والواقع .

(٢) قلة المبالغة والغلو فيها بما يخرجها عن حدّ العقل ومألوف الطبع .

(٣) قلة المعانى الغريبة المنزع ، الدقيقة المأخذ ، المتجلية فى صور الخيال البديع ، والتشبيه الطريف ، والاستعارة الجميلة ، والكناية الدقيقة ، وحسن التعليل وغير ذلك مما لا يهتدى إليه إلا بعد التعمل وكدّ الفكر .

(٤) قلة تأنقهم فى ترتيب المعانى والأفكار على النظام الذى يقتضيه الطبع أو العقل، بل يرسلونها على ما خيلتْ نفوسُهم ، واستدعتهُ بديهتهم وارتجالهم ، فيدخلون معنى فى معنى ؛ وينتقلون من غرض إلى آخر اقتضاباً بدون تخيُّل ولا تلطف ، وربما مهد بعضهم لانتقال الذهن بقوله : دعْ ذا ، وعدِّ عن ذا .

(٣) ألفاظه وأساليبه

ولما كانت العرب أمماً بدوية تنظم الشعر بطبعها ، من غير معاناة صناعة ، ولا دراسة علم ، غلب على شعرها صراحة القول ، وقلة المواربة فيه ، والبعد عن التكلف ، وصحة النظم والوفاء بحق المعنى ، أضف إلى ذلك الأمور الآتية :

(١) جودة استعمال الألفاظ فى معانيها الموضوعة لها : لإحاطة علمهم بلغتهم ، ومعرفتهم بوجود دلالتها .

(٢) غلبة استعمال الألفاظ الجزْلة .

(٣) استعمال الألفاظ العربية التى هجرت عند المحدثين : إما لقلة استعمال مدلولها ، وإما للاقتصار على مرادف لها أسهل منها .

(٤) القصد فى استعمال ألفاظ المجاز .

(٥) مقتُ استعمال الأعجمى إلاّ ما وقع نادراً على سبيل التمليح والتظرف فى مثل شعر الأعشى [1] .

(٦) عدم تعمد المحسنات البديعية مثل الجناس، والمقابلة ، والمطابقة ، وما شاكلها .

(٧) متانة الأسلوب بحسن إيراد المعنى إلى النفس من أقرب الطرق إليها وأطرفها لديها : كتجاهل العارف ، ومخاطبة الديار والأطلال .

(٨) إيثار الإيجاز إلاّ إذا دعت الحالُ .

---

(١) انظر ترجمة الأعشى .

(٤) أوزانه وقوافيه

الحق أن العرب لم تعرف موازين الشعر بتعلم قوانين صناعية ، وتعرّف أصول وضعية ، وإنما كانت تنظم بطبعها على ما يهيئه لها إنشادُها وتغنيها وحُداؤها . وقد هدتّهم هذه الفطرة إلى أوزان أرجعها الخليل[1] إلى خمسة عشر وزناً سمّاها بحوراً وزاد عليها الأخفش [2] بحراً . وقد أكثروا النظم من بعضها دون بعض ، بل إن بعضهم كان يكثر النظم من بحر دون آخر . وشعر العرب رجزُه وقصيده يبنى على قافية واحدة كيفما طال القول .

نماذج من الشعر الجاهلى فى الأغراض الآتية :

الحماسة ـ قال المرقش الأكبرُ : عمرو بن سعد :

إن تُبتدرْ [3] غايةٌ يوماً لمكرُمة ... تلق السّوابق[4] منا والمصلينا[5]

وليس يهلك منا سيدٌ أبداً ... إلا افتلينا[6] غلاماً سيداً فينا

إنا لنُرْخص يوم الرّوْع أنفسنا ... ولو نسامُ بها فى الأمن أغلينا

شُعثٌ مقادمنا, نُهبَى مراجلنا[7] ... نأسو بأموالنا آثار أيدينا[8]

إنى لمنْ معشر أفنى أوائلهم ... قيلُ الكماة [9] ألا أين المحامونا ؟

لو كان فى الألف منا واحدٌ فدعوْا ... مَنْ فارسٌ ؟ خالهمْ إياه يعنونا

إذا الكماة تنحوْا أن يُصيبهمُ ... حدّ الظبات [10] وصلناها بأيدينا

ولا تراهم وإن جلّتْ مصيبتهم ... مع البكاة على من مات يبكونا

ونركب الكره [11] أحياناً فيفرجه ... عنا الحِفاظُ[12] وأسيافٌ تُواتينا

---

(١) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى النحوى اللغوى مخترع العروض وستأتى ترجمته .

(٢) هو سعيد بن مسعدة النحوى تلميذ سيبويه ، وسيبويه تلميذ الخليل .

(٣) أى يعجل إليها (٤) السابق والمجلى من الخيل فى الحلبة الذى يجىء أولا .

(٥) المصلى من الخيل التالى للسابق (٦) فطمنا من الرضاع ، أى نشأ فينا بدله

(٧) يريد أصحاب حروب وقرى للضيفان ، والمقادم النواصى .

(٨) يريد ترفعهم عن القود ورفع أطماع الناس عن مقاصتهم ، والأسو المداواة أى نقتل ونَدى

(٩) الشجعان (١٠) يريد السيوف لا حدها (١١) المكروه (١٢) الدفاع عن المحارم

المدح — قال زهير بن أبى سُلمَى :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههمْ — وأندية ينتابها القولُ والفعلُ[١]
وإن جئتَهم ألفيت حول بيوتهم — مجالس قد يُشفى بأحلامها الجهل
على مكثريهم رزقُ من يعتريهمُ — وعند المقلين السماحةُ والبذلُ[٢]
سعى بعدهم قوم لكى يدركوهمُ — فلم يفعلوا ولم يُليموا[٣] ولم يألوا[٤]
فما كان من خير أتوه فإنما — توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يُنبت الخطىَّ إلا وشيجُه — وتُغرسُ إلا فى منابتها النخلُ[٥]

وقال أميّة بن أبى الصّلْت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى — حياؤُك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرعٌ — لك الحسبُ المهذّبُ والسناء
خليلٌ لا يغيره صباحٌ — عن الخلق الجميل ولا مساء[٦]
وأرضك كلّ مكرُمة بنتها — بنو تيم وأنت لها سماء[٧]
إذا أثنى عليك المرء يوماً — كفاهُ من تعرّضه الثناء
تُبارى الريح مكرُمة ومجداً — إذا ما الكلب أجحره الشتاء[٨]

الرثاء — وقال لبيد بن ربيعة يرثى أخاه أرْبَد :

بلينا وما تَبلى النجومُ الطوالعُ — وتبقى الديار بعدنا والمصانعُ[٩]

---

(١) جمع مقامة وهى الجماعة يجتمعون فى مجلس ، والأندية المجالس ، والانتياب القصد إلى الموضع والحلول به (أى يبث فيها الجميل من القول ويعمل به) .

(٢) مكثريهم أغنياؤهم ، يعتريهم يقصدهم . أى أن فقراءهم يسمحون ويبذلون جهد طاقتهم وأغنياءهم يكفون من يقصدهم (٣) يقعوا فى اللوم (٤) يقصروا .

(٥) الخطى الرمح نسبة إلى الخط وهى جزيرة فى البحرين ترفأ إليها السفن . والوشيج شجر الرماح واحدته وشيجة ، أى لا تنبت القناة إلا فى شجرها ، ولا تغرس النخل إلا بحيث تنبت وتصلح ، والمراد أنه لا يلد الكرام إلا الكرام .

(٦) أشار بالصباح والمساء إلى وقتى الضيافة والغارة.

(٧) أى تحيى تلك الأرض بالغيث فى وقت الشدة والمحل . (٨) أى أدخله جحره فى برد الشتاء .

(٩) المبانى من القصور والحصون .

وقد كنت فى أكناف جار مَضِنة ... ففارقنى جارٌ بأربَدَ نافع [١]
فلا جزعٌ إن فرّق الدهر بيننـــا ! ... فكل امرئٍ يوماً به الدهرُ فاجع !
وما الناس إلاّ كالدّيار وأهلها ... بها يوم حلوها وغدْواً بلاقع [٢]
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور [٣] رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلاّ ودائعٌ ... ولا بدّ يوماً أن تُردّ الودائع
وما الناس إلا عاملان : فعامل ... يتبِّرُ [٤] ما يبنى وآخرُ رافع
فنهم : سعيد آخذ بنصيبه ... ومنهمْ شقىّ بالمعيشة قانع

الهجاء — قال يزيد بن قُنافة يهجو حاتماً :

لعمرى وما عمرى علىّ بهـيـن ... لبئس الفتى المدعوّ بالليل حاتمُ
غداة أتى كالثور أحرج [٥] فاتقى ... بجبهته أقتالَه [٦] وهو قائم
كأن بصحراء المريط نعامةً ... تبـادِرُها جنحَ الظلام نعائم
أعارتك رجليها وهافى [٧] لبها ... وقد جُرّدتْ بيض المتون صوارم

وقال قُريط بن أُنيف أحد شعراء بَلْعنبر يهجو قومه ويرميهم بالجبن عن دّفع المغيرين عليهم ويتهكم بهم :

لو كنتُ من مازن [٨] لم تستبح إبلى [٩] ... بنو اللقيطة من ذُهل بن شيبانا
لكنّ قومى وإن كانوا ذوى عِدد ... ليسوا من الشرّ فى شىء وإن هانا
يجزُون من ظُلم أهل الظلـم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهمُ قوماً إذا ركبـوا ... شدّوا [١٠] الإغارة [١١] فرساناً وركبانا

---

(١) أكناف ظلال ، جار مضنه يضن به ويتنافس فيه ، بأربد أى هو أربد (٢) الغدو الغد ، والبلقع الأرض القفر الجمع بلاقع وهى خبر لمبتدأ تقديره هى (٣) يرجع (٤) يهلك ويهدم (٥) ضيق عليه وأخرج من عادته (٦) الأقران والأعداء ، يقول متهكماً جاء كالثور الهائج مغضباً فلما جاء وقت القتال انهزم (٧) خافق قلبها وأراد نفى العقل عنه . يقول لما انهزم كأن نعامة تسابقها نعائم إلى أداحيها أعارت حاتماً رجليها فكان إسراعه فى العدو إسراعها .
(٨) مازن تميم (٩) الاستباحة أخذ الشىء مباحاً (١٠) حلوا (١١) الإغارة مفعول لأجله.

الاعتذار — قال أعشى قيس يعتذر إلى أوس بن لام(١) عن هجائه إياه :

وإنى على ما كان منى لنـــادمٌ … وإنى إلى أوس بن لامٍ لتائب
وإنى إلى أوس ليقبل عِذرتى(٢) … ويصفح عنى — ما حييتُ — لراغب
فهبْ لى حياتى فالحياة لقـــائم … بشكرك فيها ، خير ما أنت واهب
سأمحو بمدح فيك إذ أنا صـــادقٌ … كتاب هجاء سار إذ أنا كاذب

وقال النابغة الذبيانى :

نبئتُ أن أبا قابوس(٣) أوعدنى(٤) … ولا قرار على زأر(٥) من الأسد
مهلاً فداءٌ لك الأقوام كلهمُ … وما أثمِّر(٦) من مال ومن ولد
فلا لعمر الذى طيفتْ بكعبته … وما هريق على الأنصاب من جسد(٧)
والمؤمن العائذاتِ الطير يمسحها … ركبانُ مكة بين الغيل(٨) والسَّند(٩)
ما قلت من سيئٍ مما أتيت به … إذن فلا رفعتْ سوطى إلىَّ يدى
إذن فعـــاقبنى ربى معاقبـــة … قرت بها عين من يأتيك بالحسد

الوصف — قال امرؤ القيس يصف فرسه :

وقد أغتدى والطير فى وُكناتها(١٠) … بمنجرد(١١) قيد الأوابد(١٢) هيكل(١٣)
مِكرّ مِفرٌ (١٤) مُقبلٍ مُدْبر معاً … كجلمود(١٥) صخر حطه السيل من عل

وقال عَبيد بن الأبرص يصف الغيث :

فسقى الرباب مُجلجلُ (١٦) الـ … أكناف لمّاعٌ بُروقُهُ
جوْنٌ (١٧) تُكفكفه (١٨) الصَّبا … وهناً (١٩) وتمريه (٢٠) خريقهُ (٢١)

---

(١) بنو لام من طيء (٢) عذرى (٣) كنية النعمان بن المنذر (٤) هددنى
(٥) صوت (٦) أجمع (٧) هريق: صب . الأنصاب : الأصنام . جسد : دم (٨–٩) نوعان من الشجر (١٠) الوكنات أعشاش الطير (١١) ماض فى السير (١٢) الوحوش
(١٣) طويل (١٤) الكر الهجوم والفر الهرب وفرس مكر مفر جيدهما
(١٥) الحجر العظيم (١٦) سحاب مجلجل مصوت بالرعد (١٧) أسود من تكاثفه .
(١٨) تدفعه (١٩) الوهن نحو من نصف الليل أو بعده ساعة منه .
(٢٠) تدره وتستخرج ماءه (٢١) الخريق الريح الباردة الشديدة الهبابة وهى التى تنزل المطر .

مرىَ العسيف (١) عِشاره (٢) حتى إذا درّتْ عُروقه (٣)
ودنا يضيء ربابه (٤) غاباً يُضرّمه حريقه
حتى إذا ما ذرْعه بالماء ضاق فما يُطيقه
هبّت له من خلفه ريح شآمية تسوقهُ
حلت عزَاليه (٥) الجنوبُ فثجّ (٦) واهيةً خروقه

وقال طرفةُ يصف السفينة التى شبه بها الحدُوج :

كأن حُدوج (٧) المالكية غُدوةً خلايا (٨) سفين بالنواصف (٩) من دد (١٠)
عدّولية (١١) أومن سفين ابن يامن (١٢) يجور بها الملاّح طوراً ويهتدى
يشقّ حَباب (١٣) الماءِ حيزومها (١٤) بها كما قسم التربَ المفايلُ (١٥) باليد

وقال عنترة يصف غراب البين :

ظعن الذين فراقهم أتوقعُ وجرى ببينهم الغرابُ الأبقع (١٦)
خرِق (١٧) الجناح كأن لحيىْ (١٨) رأسه جلمان (١٩) بالأخبار هشٌّ (٢٠) مولع

(١) العسيف الأجير أو العبد المستعان به فى الحلب ونحوه .
(٢) جمع عشراء كنفساء لفظاً ومعنى أو هى الحامل لعشر أى أن الريح تستخرج الماء من السحاب كما يستخرج العبد من العشار .
(٣) أى السحاب (٤) الرباب السحاب الأبيض . أى أن السحاب يرسل صواعقه ببرقه فيصيب الغاب فيضىء من الحريق الذى نشب فيه .
(٥) جمع عزلاء وهى مصب الماء من الرواية ونحوها (٦) ثج الماء سال . والمعنى حتى إذا ضاق السحاب ذرعاً بالماء ساقته ريح شآمية من الشمال رقابلته ريح باردة من الجنوب فحلت أفواهه
(٧) جمع حدج كبُرْج وهو مركب للنساء كالمحفة (٨) جمع خلية كغنية وهى السفينة العظيمة
(٩) الشعاب فى الجبال تكون مسايل ومجارى للمياه زمن الأمطار (١٠) اسم مكان
(١١) أى منسوبة إلى عدول وهى بلدة بالبحرين أو إلى عدول رجل كان يتخذ السفن
(١٢) ملاح كان يتخذ السفن الكبار (١٣) الموج (١٤) الحيزوم الصدر .
(١٥) الفيال لعبة كان يلعبها صبيان الأعراب يخبئون الشىء فى التراب ثم يقسمونه بأيديهم ويقولون : فى أيها هو ؟ (١٦) فيه سواد وبياض (١٧) الخرق الذى لا يحسن العمل . يلمح بأنه ليس حسن الطيران فى الخير وإنما ينقل أخبار الشؤم (١٨) أصل اللحى عظم الحنك الذى تنبت عليه الأسنان من الحيوان والمراد باللحيين فى الغراب شقا منقارة .
(١٩) الجلمان المقراض ، بأنى على صورة المفرد والمثنى باعتبار شقيه .
(٢٠) أى خفيف نشيط فرح بنقل الأخبار ، وكذلك معنى المولع هنا .

مرِىَ العسيف (١) عِشاره (٢) حتى إذا درّتْ عُروقه (٣)
ودنا يضىء ربابه (٤) غاباً يُضرّمه حريقه
حتى إذا ما ذرْعُه بالماء ضاق فما يُطيقه
هبّت له من خلفه ريح شآمية تسوقهُ
حلّت عزّاليه (٥) الجنوبُ فثجّ (٦) واهيةً خروقه

وقال طرفةُ يصف السفينة التى شبه بها الحدُوج :

كأن حُدوج (٧) المالكية غُدوةً خلايا (٨) سفين بالنواصف (٩) من دد (١٠)
عدَوْليةٌ (١١) أومن سفين ابن يامن (١٢) يجور بها الملاّح طوراً ويهتدى
يشقّ حَباب (١٣) الماء حيزومها (١٤) بها كما قسم التِّرْبَ المفايلُ (١٥) باليد

وقال عنترة يصف غراب البين :

ظعن الذين فراقهم أتوقعُ وجرى ببينهمُ الغرابُ الأبقع (١٦)
خرِق (١٧) الجناح كأن لحيىْ (١٨) رأسه جلمان (١٩) بالأخبار هشٌّ (٢٠) مولع

(١) العسيف الأجير أو العبد المستعان به فى الحَلب ونحوه .

(٢) جمع عشراء كنفساء لفظاً ومعنى أو هى الحامل لعشر أى أن الريح تستخرج الماء من السحاب كما يستخرج العبد من العشار .

(٣) أى السحاب (٤) الرباب السحاب الأبيض . أى أن السحاب يرسل صواعقه ببرقه فيصيب الغاب فيضىء من الحريق الذى نشب فيه .

(٥) جمع عزلاء وهى مصب الماء من الرواية ونحوها (٦) ثج الماء سال . والمعنى حتى إذا ضاق السحاب ذرعاً بالماء ساقته ريح شآمية من الشمال رقابلته ريح باردة من الجنوب فحلت أفواهه

(٧) جمع حدج كبُرْد وهو مركب النساء كالمحفة (٨) جمع خلية كغنية وهى السفينة العظيمة

(٩) الشعاب فى الجبال تكون مسايل ومجارى للمياه زمن الأمطار (١٠) اسم مكان

(١١) أى منسوبة إلى عدول وهى بلدة بالبحرين أو إلى عدول رجل كان يتخذ السفن

(١٢) ملاح كان يتخذ السفن الكبار (١٣) الموج (١٤) الحيزوم الصدر .

(١٥) الفيال لعبة كان يلعبها صبيان الأعراب يخبئون الشىء فى التراب ثم يقسمونه بأيديهم ويقولون : فى أيهما هو ؟ (١٦) فيه سواد وبياض (١٧) الخرق الذى لا يحسن العمل . يلمه بأنه ليس حسن الطيران فى الخير وإنما ينقل أخبار الشؤم (١٨) أصل اللحى عظم الحنك الذى تنبت عليه الأسنان من الحيوان والمراد بالحيين فى الغراب شقا منقارة .

(١٩) الجلمان المقراض ، يأتى على صورة المفرد والمثنى باعتبار شقيه .

(٢٠) أى خفيف نشيط فرح بنقل الأخبار ، وكذلك معنى المولع هنا .

وقال حسان السعدىّ يصف القمر :

مهما يكن ريبُ المنون فإننى … أرى قمر الليل المعذّبَ كالفتى
يُهِلّ صغيراً ثم يعظم ضوءه … وصورته حتى إذا ما هو استوى(١)
تقارب يخبو(٢) ضوءه وشعاعه … ويمصح(٣) حتى يستسر(٤) فما يرى

وقال عنترة يصف روضة :

ولقد مررت بدار عبلة بعد ما … لعب الربيعُ(٥) بربعها المتوسم(٦)
جادت عليه كل عين ثرّة(٧) … فتركن كل قرارة(٨) كالدرهم
سحّاً(٩) وتسكاباً فكل عشية … يجرى عليها الماء لم يتصرّم(١٠)
وخلا الذباب بها فليس ببارح … غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً(١١) يحكّ ذراعه بذراعه … قدحَ المكب على الزناد(١٢) الأجذم(١٣)

وقال أيضاً فى وصف مبارزة :

ومدّجج(١٤) كره الكماة(١٥) نزاله … لا مُمعن(١٦) هرباً ولا مُستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة … بمثقف(١٧) صَدق الكعوب مقوّم
برحيبة الفرعين(١٨) يهدى جرسُها(١٩) … بالليل معتس(٢٠) الذئاب الضرّم(٢١)
فشككت بالرمح الأصم(٢٢) ثيابه … ليس الكريم على القنا بمحرّم

---

(١) استوى بلغ تمامه (٢) يخفى ويزول (٣) يذهب وينقطع (٤) يستتر ويخفى
(٥) المطر (٦) المتفرس فيه أى يتخيل المتزم موضعه (٧) العين مطر أيام لا يقلع والثرة الكثيرة الماء (٨) القرارة الحفرة (٩) سح المطر وتسكابه : هطله (١٠) لم ينقطع
(١١) كثير الصوت (١٢) أى كقدح الأجذم المكب على الزناد ليوريها . والزناد جمع زند وهو عود يفرك بالكفين فوق عود آخر من خشب سريع الاحتراق فيشتعلان ، والعود الأسفل يسمى زندة (١٣) الناقص اليدين (١٤) تام السلاح (١٥) جمع كمى كذى الشجاع المستتر بالسلاح (١٦) مسرع (١٧) أى برمح معدل صلب الكعوب (١٨) الرحيبة الواسعة والفرغ مخرج الماء من الدلو (١٩) صوتها (٢٠) طالب فريسة (٢١) الجياع .
(٢٢) الصلب – أى أنفذت الرمح فى جسمه وثيابه كلها . وقيل إن معنى الثياب هنا القلب

فتركته جزَرَ[1] السباع ينشنه[2] يقضمن[3] حسن بنانه والمعصم

الحكم والأمثال — قال طرفه بن العبد :

كلّ خليل كنتُ خاللتهُ لا تَرك الله له واضحه[4]
كلهمُ أروغُ[5] من ثعلب ما أشبه الليلةَ بالبارحة !

وقال الأفوه الأوْدى :

والبيت لا يُبتنى إلا له عمدٌ ولا عمادٌ إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فإن تجمع أوتادٌ وأعمدة وساكنٌ بلغوا الأمرَ الذى كادوا
لا يصلح الناس فَوْضَى لا سَرَاة لهم ولا سَرَاة إذا جُهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحتْ فإن تولت فبالأشرار تنقاد

الشعراء

سبب اشتهار الشاعر

شعراء الجاهلية أكثر من أن يُحاط بهم ، ومن جُهل منهم أكثرُ ممن عُرف ؛ وإنما اشتهر بعضهم دون بعض : لنبوغه ، أو كثرة المرويّ من شعره ، أو قرب عهده من الإسلام زمن الرواية ؛ أو تعصب عشيرته له ، أو عظم جاهه ، أو اشتهاره بمنقبة أخرى فوق الشعر كالشجاعة والكرم والوفاء أو اشتراكه بشعر فى حادث عظيم . وهم بعدُ متفاوتون فى القول قلة وكثرة ، ورداءة وإجادة ، وجفاء ورقة ، وروية وارتجالاً .

منزلة الشاعر عند القبيلة

وكان للشعراء عند العرب منزلة رفيعة ، وحكم نافذ وسلطان غالب ، إذ كانوا ألسنتهم الناطقة بمكارمهم ومفاخرهم ، وأسلحتهم التى يَذُودون بها عن حياض شرفهم ، وبهم كانوا يماجدون ، وينافرون ، ويفاخرون .

---

(١) جمع جزرة وهى الشاة المعدة للذبح (٢) يتناولنه (٣) القضم الأكل بمقدم الأسنان أى ينهشه (٤) الواضحة الأسنان تبدو عند الضحك (٥) راغ الثعلب ذهب يمنة ويسرة فى سرعة للخديعة فهو لا يستقر فى جهة .

وما كانوا يُسرّون بشيء أعظم من سرورهم بشاعر ينبغ فيهم . قال ابن رشيق فى العمدة : (وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنّأتها وصنعت الأطعمة وأتت النساء يلعبن بالمزاهر[1] كما يصنعن فى الأعراس ويتباشر الرجال والولدانُ ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذبّ عن حياضهم ، وتخليد لمفاخرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلاّ بغلام يُولد أو شاعر ينبغ ، أو فرس تُنتج) .

طريقة نظم الشعر

وكانت طريقة نظم الشعر فى أكثر الأحوال أن يرتجلوه ارتجالا ، فتأتيهم ألفاظه عفواً ، ومعانيه رَهواً[2] ، كما وقع للحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، أما من اتخذه منهم صناعة يستدرّها ومكسباً يستمرئه ، ويلتمس به الجوائز ، وينشده فى المحافل والمواقف العظام ، فإنه يُنحى[3] عليه بالتثقيف والتجويد ، والتهذيب والتنقيح : ليجعله كله متشابهاً فى الصناعة متساوياً فى الإحكام ، رقيق الحاشية[4] حسن الديباجة[5] متخيّر الألفاظ ، يصح أن يقال فيه : إنه المثل الأعلى للشعر الجاهلى ، كما ترى ذلك واضحاً فى حوْليات زهير ، واعتذاريات النابغة .

التكسب بالشعر

وقد غبر الناس دهراً طويلاً لا يقولون الشعر إلاّ فى الأغراض الشريفة والمقاصد النبيلة ، لا يمدحون عظيماً طمعاً فى نَواله . ولا يهجون شريفاً تشفياً منه وانتقاماً ؛ حتى نشأت فئة امتهنت الشعر وتكسبت به ، ومدحت به الملوك والأمراء كالنابغة الذبيانى وحسان مع النعمان بن المنذر وملوك غسان ، وزهير بن أبى سُلمى مع هَرم بن سنان ، وأمية بن أبى الصلت مع عبد الله بن جُدْعان أحد أجواد قريش ، والأعشى مع الملوك والسوقة ، حتى قصد به الأعاجم ، وجعله متجراً يتجر به ، فتحامى الشعرَ الأشراف وآثروا عليه الخطابة .

---

(١) المزهر كمنبر العود يضرب به (٢) متتابعة .

(٣) يقبل عليه (٤) حاشية الثوب جانبه وكلام رقيق الحواشى حسن .

(٥) الديباج ثوب من الحرير الخالص ويكون عادة منقشاً فيستعار للكلام الحسن المزين . فيقولون لهذه القصيدة ديباجة إذا كانت محبرة منمقة .

طبقات الشعراء

طبقات الشعراء باعتبار عصورهم أربع :

١ ـ طبقة الجاهليين .

٢ ـ طبقة المخضرَمين : وهم الذين اشتهروا بقول الشعر في الجاهلية والإسلام

٣ ـ طبقة الإسلاميين : وهم الذين نشئوا فى الإسلام ولم تفسد سليقتهم العربية ، وهم شعراء بنى أمية .

٤ ـ طبقة المولدين : أو المحدثين : وهم الذين نشئوا زمن فساد العربية ، وامتزاج العرب بالعجم ، ولو كانت أصولهم عربية بحتة ، وذلك من عصر الدولة العباسية إلى يومنا هذا .

والشعراء الجاهليون يقسّمون باعتبار شهرتهم فى الشعر للإجادة أوللكثرة إلى طبقات كثيرة نذكر منها ثلاثاً[1] .

١ ـ الطبقة الأولى ـ أمرؤ القيس ، وزُهير ، والنابغة .

٢ ـ الطبقة الثانية ـ الأعشى ، ولبيد وطرَفة .

٣ ـ الطبقة الثالثة ـ عنترة وُعرْوَةُ بن الورد ، ودُرَيد بن الصّمة ، والمرقش الأكبر ، على أن كثيراً من الفصحاء والأدباء يقدّمون بعض هؤلاء على بعض ويزيدون غيرهم عليهم، لملاءمة شعرهم لأذواقهم وهوى نفوسهم .

---

(١) على رأى أبى عبيدة .

(١) امرؤ القيس

هو الملك الضِلِّيل[١] أبو الحارث حندُج[٢] بن حجر الكنديّ ، شاعر اليمانية ورأس شعراء الجاهلية ، وقائدُهم إلى التفنن فى أبواب الشعر وضروبه .

وآباؤه من أشراف كندة وملوكها وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومُهلهل التغلبيين . وكانت بنو أسد من المضرية خاضعة لملوك كندة . وآخر ملك عليهم هو حجر أبو امرئ القيس .

نشأ امرؤ القيس بأرض نجد بين رعية أبيه من بنى أسد ؛ وسلك مسلك المترفين من أولاد الملوك يلهو ويلعب ، ويعاقر[٣] الخمر ويغازل الحسان . وزاد على ذلك أنه أنفق وقته فى التشبيب بالنساء والخروج فى ذلك إلى حد الصراحة فى الفحش ؛ منصرفاً عما يأخذ به أمثاله أنفسَهم : من الاعتداد للملك وقيادة الشجعان ، فمقته أبوه لذلك ، وزجره عن اللهو والتشبيب بالنساء ؛ ولما لم ينجع فيه القولُ طرده عنه وأقصاه ، فالتفّ عليه بعض صعاليك[٤] العرب وذؤبانهم[٥] وشُذاذهم[٦] ينزلون المياه وينعمون ويذبحون ويشربون ويطرّبون . وتغنيهم القيان[٧] وإنه لكذلك فى إحدى نزلاته بأرض (دَمُّون[٨]) يشرب ويلعب النرْد مع رفاقه إذ جاءه نبأ ثوران بنى أسد على أبيه وقتلهم له . لأنه كان يعسِف فى حكمه لهم ، ويشتط[٩] عليهم فى الإتاوة[١٠] التى يؤدونها إليه . فلم ينزعج امرؤ القيس للخبر خشيةَ أن ينغص على رفاقه عيشهم ثم قال : « ضيعنى صغيراً ، وحملنى دمه كبيراً ؛ لا صحو اليوم ؛ ولا سكر غداً ؛ اليومَ خمر ، وغداً أمر » وأخذ يجمع العدة ويستنجد القبائل فى إدراك ثأره ، فكان يجيبه

خروجه فى ثأر أبيه

(١) كثير الضلال ، وسمى بذلك لأنه كان يتحير فى شعره (٢) أصل الحندج الرملة الطيبة تنبت ألواناً (٣) يلازم ويدمن (٤) فقراء (٥) لصوصهم وصعاليكهم (٦) الشذاذ الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم (المتشردون) (٧) جمع قينة وهى الأمة المغنية (٨) بلدة بحضرموت من اليمن (٩) يجور ويظلم (١٠) الخراج .

بعضها ويعتذر بعضها ، فنازل بنى أسد وقتل فيهم كثيراً ولم يَشف ذلك من غلته . وكانت فى نفس المنذر أحد ملوك الحيرة ، موجدة[1] على آل امرئ القيس : لأن الحارث جد امرئ القيس زاحم المناذرة وملوك الحيرة عند كسرى فى النيابة عنه على مُلك الحيرة ، وقت أن شجر[2] الخلاف بين المناذرة وكسرى قباذ[3] فألب المنذر على امرئ القيس العرب : من إياد وبهراء وتَنوخ ، وأمده كسرى أنو شروان بن قباذ بجيش من الأساورة[4] لرضاه عن آل المنذر . فلم يكن لامرئ القيس به طاقة ، وتفرق عنه أصحابه فجعل يستجير بالقبائل واحدة بعد واحدة ، وتقع من أجله حروب عدة ، حتّى نزل على السموءل فأودعه ابنته ودروعه وسلاحه ، وطلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ليوصله إلى قيصر ، فلما بلغ قيصر استنصره على أعدائه الذين جلهم من شيعة المناذرة التابعين للفرس أعداء الروم فأمده بجيش لم يفصِل[5] به امرؤ القيس عن بلاد الروم حتّى بدا[6] لقيصر ، فاسترجع الجيش ، وقفل امرؤ القيس راجعاً وحده ، واشتدت به فى طريقه علة قروح مات منها ودفن بأنقرة ، وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قرن .

شعره — يعتبر امرؤ القيس رأس فحول الجاهلية والمقدم فى الطبقة الأولى من شعرائهم المعروفة أخبارهم ، وهو وإن كان مسبوقاً بمثل أبى دواد الإيادى ، وخاله مهلهل لم يسبقه على مبلغ علمنا إلى طرْق كثير من أبواب الشعر والإفاضة فيه أحد ؛ فهو أول من أجاد القول فى استيقاف الصحب ، وبكاء الديار ، وتشبيه النساء بالظباء والمها ، والبَيض، وفى وصف الخيل بقيد الأوابد[7] وفى ترقيق النسيب، وتقريب مآخذ الكلام ، وتجديد الاستعارة ، وتنويع التشبيه حتّى ليظن أنه المبتكر لأكثر ذلك ، ويغلب على شعره التشبيب

---

(١) غضب (٢) شجر بينهم الأمر اضطرب (٣) هو أبو كسرى أنو شروان
(٤) فرسان العجم وقواده (٥) لم يخرج (٦) بدا له فى الأمر نشأ فيه رأى ، فيضمر الفاعل ويفسر بلفظ البداء أو الرأى ، وقد يظهر الفاعل أحياناً .
(٧) الوحوش ، وفرس قيد الأوابد يلحق الوحش لجودته ، ويمنعه من الفوت لسرعته فكأنها مقيدة له لا تعدو .

والوصف أيام صبوته[1] ، وبث الشكوى من الزمان وتنكر[2] الخلان زمن محنته .

وقد يُفحش فى تشبيهه بالنساء وتحدثه عنهن ، ويُشم من شعره رائحة النبل[3] ، وتلمح فيه شارات السيادة والملك ؛ من ذلك قوله :

فظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهدَّاب الدِّمَقْس المفتل[4]

وظل طهاة اللحم من بين مُنضج ... صفيف شواء أو قدير معجل[5]

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل[6] ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وشعره وإن اشتمل بشملة البداوة فى جفاء العبارة ، وخشونة الألفاظ ، وتجهم المعانى ، تراه أحياناً يخطر فى حلل من حسن الديباجة ، وبديع المعنى ورقة النسيب ومقاربة الوصف ، وسهولة المأخذ مما كان لخلقه منه أجمل مثال حاكوه فى ترقيق شعرهم وحسن تأتيهم فى تصوير معانيه .

فمن النوع الأول قوله فى وصف محبوبته :

وإذا هى تمشى كمشى النزيـ ... ـف[7] يصرعه بالكثيب البهر
برهرهة رُودة رخصة[8] ... كخرعوبة البانة المنفطر

---

(١) الصبوة جهلة الفتوة والشباب (٢) التنكر التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها
(٣) الذكاء والنجابة (٤) بقى العذارى أكثر النهار يتعابثن بترامى لحم ناقته التى عقرها لهن بشحمها المكتنز الشبيه بأهداب الحرير الأبيض المفتول (٥) قال هذا البيت بعد أن اصطاد بقر وحش وجلس ينتظر الأكل منه فذكر أنه كان معه فى خروجه إلى الصيد طباخون يطبخون له أنواعاً منها الشواء ومنها ما يطبخ فى القدور وذلك غريب فى الصحراء ، لا يفعله إلا الملوك (٦) مؤصل (٧) النزف الاستخراج والنزيف المنزوف دمه من جراحه . الصرع الطرح على الأرض ، الكثيب التل من الرمل ، البهر الكلال وانقطاع النفس .
(٨) البرهرهة الرقيقة الجلد ، الرودة الشابة ، الرخصة الناعمة ، الخرعوبة الغصن ، المنفطر المنشقق الذى خرج ورقه . ومعنى البيت الأول أنه شبه حبيبته بمشية رجل نزف دمه حتى صار لا يقدر أن يسرع المشى لما أصابه من الضعف خصوصاً إذا كان المكان ما يصعب السير فيه ككثبة الرمال

وقوله فى معلقته :

وفرع يغشى المتن أسودَ فاحم ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل (١)
غدائره مستشزرات إلى العــلا ... تضل المدارى فى مثنًّى ومرسل (٢)
وكشح لطيف كالجديل مخصر ... وساق كأنبوب السقىِّ المذلل (٣)
وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبى أو مساويك إسحل (٤)

ومن الثانى قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنــا ... وأرحلنا الجزْع (٥) الذى لم يثقب

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف (٦) البالى

أغرك منى أن حبك قــاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ولامرئ القيس المطولات والمقطعات ، وأشهر مطولاته معلقته المضروب بها المثل فى الاشتهار وأولها :

قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسِقط اللوى بين الدَّخول فحوْمل (٧)

---

(١) الفرع الشعر التام ، المتن الظهر ، الفاحم الشديد السواد . الأثيث الكثير ، القنو العذق (السباطة) المتعثكل الكثير الشماريخ الداخل بعضها فى بعض . يريد تشبيه شعر محبوبته بكباسة النخل الكثيرة الشماريخ .

(٢) غدائره ذوائبه ، مستشزرات مرتفعات ،تضل تغيب ، المدارى الأمشاط ومفردها مدرى

(٣) الكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، الجديل زمام يتخذ من سيور ، المخصر الدقيق الخصر ، والأنبوب ما بين العقدتين من القصب وغيره . والسقى المذلل يعنى البردى المسقى الملين بالإرواء يريد تشبيه كشح محبوبته بخطام الناقة المتخذ من الجلد : وساقها بنباته البردى المسقية كثيراً .

(٤) العطو التناول ، الشثن الغليظ ، الأساريع جمع أسروع وهو دود يكون فى البقل والأماكن الندية ، وظبى اسم مكان ، والإسحل شجرة تدق أغصانها فى استواء . يشبه أصابع محبوبته بهذا الصنف من الدود أو هذا النوع من المساويك

(٥) خرز أسود يخالطه بياض (٦) أردأ التمر (٧) قال ياقوت قال السكرى الدخول وحومل وتوضح والمقراة مواضع ما بين إمرة وأسود العين ، إمرة مثل إمعة منهل من مناهل حاج البصرة وأسود العين جبل بنجد يشرف على طريق البصرة إلى مكة .

فتوضحَ بالمقراة لم يعفُ رسمهـــا ... لما نسجتها من جنوب وشمأل(١)

ومنها يشكو طول الليل :

وليل كموج البحر أرخى سُدُولهُ ... علىّ بأنواع الهموم ليبتلى(٢)
فقلت له لما تمطى(٣) بصُلبـــه ... وأرف أعجازا(٤) ونَاء(٥) بكَلكل(٦)
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجل(٧) ... بصُبح وما الإصباحُ منكَ بأمثل(٨)
فيـــالك من ليل كأن نجومه ... بكل مُغار(٩) الفتل شدتْ بيذبل(١٠)

ومن شعره يذكر رحلته إلى قيصرَ مع صاحبه عمرو بن قميئة الضُّبعى(١١) الشاعر وكان امرؤ القيس غرّة فى رحلته وأخفى عليه وجه قصده :

سما لكَ شوقٌ بعد ما كان أقصرا ... وحلت سليمى بَطن ظبي فعرعرا(١٢)
فدعها وسلِّ الهم عنهـــا بجسرة ... ذَمول إذا صام النهارُ وهجّرا(١٣)
عليها فتى لم تحمل الأرضُ مثله ... أبرّ بميثاق وأوفى وأصْبرا
إذا قلتُ هذا صاحبُ قد رضيتُه ... وقرت به العينان بُدلتُ آخـرَا
كذلكَ جدّى(١٤) لا أصاحب صاحباً ... من الناس إلا خاننى وتغيرا
تذكرت أهلى الصالحين وقد أتت ... على جمل بنا الركاب وأعفرا(١٥)
ولما بدت حوْرانُ(١٦) والآلُ دونها ... نظرْتَ فلم تَنظر بعينيك منظرا
تقطع أسبابُ اللبانات(١٧) والهوى ... عشيةٌ جاوزنا حَماة وشيزرا(١٨)

---

(١) لم يعف رسمها لم يذهب أثرها ، ونسج الريحين على البقعة اختلافهما عليها جنوباً وشمالا يعجب من عدم عفاء رسمها للسبب الذى من أجله تعفو الرسوم وهو اختلاف الرياح عليها بسفى التراب

(٢) كموج البحر فى توحشه ونكارة أمره ، والمراد بالسدول الظلمات الشبيهة بالستور .

(٣) مد ظهره (٤) مآخره (٥) مقلوب نأى بمعنى بعد (٦) الكلكل الصدر ، والمعنى أفرط فى الطول (٧) انكشف (٨) أفضل ، وذلك لأنى أقاسى الهموم نهاراً كما أعانيها ليلا (٩) حبل محكم الفتل (١٠) جبل بنجد (١١) نسبة إلى ضبيعة قبيلة من بكر

(١٢) عاودك الشوق بعد ما كان تركك . وظبى وعرعر مكانان الأول فى أرض كلب والثانى فى نجد (١٣) الجسرة الناقة الماضية ، والذمول السريعة ، وصام النهار وهجر اشتد حره .

(١٤) بختى وحظى (١٥) جبل واعفر موضعان بالشام (١٦) كورة واسعة من أعمال دمشق (١٧) الحاجات ، أى تقطعت الحاجات (١٨) حماة مدينة بالشام بينها وبين شيزر مسيرة يوم ، وقد افتتحها المسلمون سنة ١٧ هـ .

بكى صاحبي لما رأى الدرب[1] دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له : لا تبك عينك إنما   نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

ومن أبياته السائرة :

إذا المرء لم يخزُن عليه لسانَهُ   فليس على شيء سواه بخزّان
فإنك لم يفخر عليك كفاخر   ضعيف ولم يغلبك مثلُ مغلب[2]
وقد طوّفتُ في الآفاق حتى   رَضيتُ من الغنيمة بالإياب

(٢) النابغة الذبيانى

منشؤه وتكسبه بالشعر

هو النابغة الذبيانى أبو أمامة زيادُ بن معاويةَ : أحد فحول شعراء الجاهلية . وحكمهم بعكاظ . وأحسنهم ديباجةً لفظ . وجلاء معنى . ولطف اعتذار . ولقبَ بالنابغة لنبوغه فى الشعر فجاءة وهو كبير . بعد أن امتنع عليه وهو صغير . وهو من أشراف ذُبيان إلا أن تكسبه بالشعر غض من شرفه . على أنه لم يتكسب بشعره إلا فى مدح ملوك العرب . وكان من أمره فى ذلك أن اتصل بملوك الحيرة ومدحهم وطالت صحبته للنعمان بن المنذر . فأدناه منه . واتخذه جليساً ونديماً . ووصله بجوائزه السنية ونوقه العصافير[3] . حتى صار لا يأكل ولا يشربُ إلا فى صحاف الذهب والفضة . إلى أن وَشَى به عند النعمان أحد بطانته فغضب عليه وهمّ بقتله . فأسر إليه عصام حاجب النعمان . فهرب النابغة إلى ملوك غسان المنافسين للمناذرة فى مُلك العرب . فمدح عمرو بن الحارث الأصغر وأخاه النعمان . غير أن قديم صحبته للنعمان . وحسنَ صنيع النعمان عنده . ورجاء إظهار براءته . كل ذلك جعله يحن إلى معاودة العيش فى ظلاله . فتنصل مما رُمى به واعتذر إليه بقصائد استلت سخيمته[4]

(١) الدرب باب السكة الواسع وكل مدخل إلى الروم فهو درب .
(٢) المغلوب مراراً .
(٣) العصافير نوق نجائب كانت للملوك نتجت من أكرم فحل للعرب يسمى عصفوراً .
(٤) حقده .

وعطفتْ عليه قلبه ، وحلّ عنده فى منزلته الأولى ، وعُمّر النابغة طويلاً ، ومات قبيل البعثة .

• • •

شعره — أهل البَصر بالشعر على أن النابغة الذبيانى من فحول الطبقة الأولى الجاهلية ، بل جعل بعضهم شعره غايةَ المدى الذى بلغه الشعر الجاهلى من الجمال وحسن الرونق ، ويَعده الكثير من الرواة فى أصحاب المعلقات . ويمتاز شعره برشاقة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وحسن النظم ، وقلة التكلف ، حتى عُد عند المرَقّقين من الشعراء — كجرير — أنه أشعر شعراء الجاهلية ، وأغراء تكسبه بالشعر أن يفتن فى ضروب المدح والاستقصاء فيه حتى مدح بالشىء وضده . فقال من قصيدة يمدح بها النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

وقال من أخرى من اعتذارياته :

فإنك كالليل الذى هو مُدْركى ... وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع

كما أغراه بلطف الاعتذار واجتلاب الرضا عند ما فاته طيب المكسب . ولعل تقديمه على الشعراء لم يكن من حكم علماء الشعر وحدَهم ، بل يظهر أنه قد شاركهم فيه شعراء الجاهلية أنفسهم فلأمر ما قدموه عليهم فى عكاظ وجعلوه حكماً يتناشدون أمامه أشعارهم ، فيقضى لشاعر على شاعر . وله ديوان شعر شرحه البطليوسى (١) وطبع مراراً وإن لم يجمع أكثر قوله . ومن أبلغ شعره معلقته التى أولها :

عُوجوا فحيوا لنعم دمنةَ الدار ... ماذا تحيّون من نُؤى وأحجار (٢)

أقوى وأقفرَ من نُعم وغيّره ... هُوجُ الرياح بهابى التّرْب موار (٣)

(١) هو ابن السيد البطليوسى شارح أدب الكاتب لابن قتيبة ؛ منسوب إلى بطليوس مدينة بالأندلس (٢) عوجوا قفوا . الدمنة ما اجتمع من آثار الديار ، النؤى الحفير يكون حول الخباء يمنع المطر (٣) أقوى وأقفر خلا ، هوج الرياح جمع هوجاء وهى الشديدة ، الهابى السافى ، موار يجىء ويذهب .

وقفتُ فيها سراةَ اليوم أسألها ... عن آلِ نُعم أموناً عبر أسفار[١]
فاستعجمتْ دارُ نعم ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار

ومن جيد قوله فى الاعتذار :

أتانى (أبيتَ اللعن[٢]) أنك لمتنى ... وتلك التى أهتم[٣] منها وأنصَبُ[٤]
فبتّ كأن العائدات[٥] فرشن لى ... هراساً[٦] به يعلى فراشى ويقشب[٧]
حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلغتَ عنى جنايةً[٨] ... لمبلغك الواشى[٩] أغش وأكذب
ولكننى كنت امرءًا لىَ جانبٌ[١٠] ... من الأرض فيه مسترَاد[١١] ومهرَب
ملوكٌ[١٢] وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكّمُ[١٣] فى أموالهم وأقرّبُ
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا[١٤]
فلا تترُكنى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلى به القار[١٥] أجربُ
ألم ترَ أن الله أعطاك سورَةً[١٦] ... ترى كل ملك دونها يتذَبذب[١٧]
وأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب[١٨]
ولستَ بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث ، أى الرجال المهذب[١٩]

---

(١) سراة اليوم وسطه . الأمون الناقة التى يؤمن عثارها . عبر أسفار أى أيعبر عليها فيها
(٢) جملة دعائية يخاطبون بها الملوك تحية ، ومعناها أبيت أن تفعل شيئاً تلعن به ، وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام .
(٣) أصير لأجلها ذاهم (٤) أتعب وأعيا (٥) الزائرات فى المرض .
(٦) شوكاً كأنه حسك (٧) يخلط (٨) ذنباً (٩) النمام .
(١٠) الجانب الناحية وأراد به الشام (١١) موضع يتردد فيه لطلب الرزق .
(١٢) بدل من مستراد ومهرب أو مبتدأ بتقدير فيه ملوك (١٣) أتصرف كيف أشاء
(١٤) قال الأصمعى كما فعلت أنت بقوم قربتهم وأكرمتهم فتركوا الملوك ولزموك فلم تر ذلك ذنباً عليهم (١٥) القطران (١٦) منزلة رفيعة وشرفاً (١٧) يضطرب .
(١٨) أراد بهذا البيت والذى قبله تسلية النعمان عما حصل منه من مدحه لآل جفنة
(١٩) تلمه تصلحه . والشعث الفساد . المهذب المنقى من العيوب . يعتذر بذلك من زلته . والمعنى أى الرجال يكون مبرءاً من العيوب فإن قطعت إخوانك بذنب لم يبق لك أخ .

فإن أكُ مظلوماً(١) فعبدٌ ظلمته ... وإن تكُ ذا عتبى(٢) فمثلك يُعتب(٣)

ومن أبياته السائرة :

وأنت كالدهر مَبثوثاً حبائله ... والدهرُ لا ملجأ منه ولا هرَبُ

أضْحتْ خلاء وأضحى أهلها احتملوا ... أخنَى عليها الذى أخنى على لُبَدِ(٤)

نُبئتُ أن أبا قابوسَ(٥) أوْعدنى ... ولا قرَارَ على زَأر من الأسد

فلو كفِّى اليمينُ بغتك خَوْناً ... لأفردت اليمينَ عن الشمال

(٣) زهير بن أبى سُلمى

هو زهير بن أبى سُلمى ربيعة بن رياح المزنى ثالث فحول الطبقة الأولى من الجاهلية ، وأعفهم قولاً ، وأوجزهم لفظاً ، وأغزَرهم حكمة ، وأكثرهم تهذيباً لشعره .

منشؤه — نشأ فى غطفان ، وكان نسبهُ فى مُزينة ، من بيت جُل أهله شعراء : رجالا ونساءً ، وأكثر ما استفاد حكمته وشعرَه وأدبه من خال أبيه بشامة بن الغدير أحد أشراف غطفان ، وكان بشامة هذا مقعداً حازماً شاعراً مُجيداً ، يرجعون إليه فى مُعضل أمورهم ، ويَقسمون له من غنائمهم كأفضلهم ، فشب زهير متخلقاً ببعض صفاته وارثاً عنه شعرَه ، ولزم أيضاً أوْس بن حجر زوج أمه . وكان شاعرَ مُضر فى زمانه ، فروى عنه الشعر ثم ظهر عليه وأخمله . واختص

(١) جعل غضبه ظلماً لأنه من غير موجب . (٢) رضا . (٣) يرضى .

(٤) اسم لآخر ما هلك من نسور لقمان السبعة التى وهب الله له عمراً يطول بطول أعمارها فطال عمر هذا النسر حتى طال الأمد على لبد ، وأخنى عليه أهلكه ، ويريد بالذى أخنى عليها الزمان وحوادثه .

(٥) أصل القابوس الرجل الجميل الوجه الحسن اللون ، وأبو قابوس كنية النعمان بن المنذر أحد ملوك العرب .

مدحه لهرم — زهيرٌ بمدح هَرم بن سنان الذُّبيانى المرى : فمدحه بمدائح خلدَت اسمَهُ أبدَ الدهر (١) حتى ضرب بمدحه فيه المثل كما يقول البوصيرى فى بردته :

ولم أردْ زَهرة الدنيا التى اقتطفت يدَا زُهير بما أثنى على هرم

وأول ما أعجبه من أمره وحببَ إليه مدحه حسنُ سعيه هو والحارثُ بن عَوف فى الصلح بين عبس وذُبيان فى حرب داحس والغبراء ، بتحملهما دياتِ القتلى التى بلغت ثلاثة آلاف بعير ، وقال فى ذلك قصيدته إحدى المعلقات السبع التى أولها :

أمنْ أم أوفى(٢) دمنةٌ(٣) لم تكلم بحوْمانة الدراج فالمتثلم(٤)

ثم تابع مدحه كما تابع هرم عطاءه حتى حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً أو وليدةً أو فرساً . فاستحيا زهير منه فكان إذا رآه فى ملأ قال : أنعموا صباحاً غير هرم وخيرَكم استثنيت .

وكان زهير سيداً كثير المال حليما معروفاً بالورع متديناً مؤمناً بالبعث والحساب كما يظهر من قوله :

فلا تكتمُن اللهَ ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكم اللهَ يَعلم

يُؤخرْ فيوضعْ فى كتاب فيدَّخرْ ليوم الحساب أو يُعجلْ فينقم

وعمّر زهير ومات قبل البعثة بسنة .

روية زهير — وكان زهير صاحب روية وتعمل وتهذيب لما يقول ، ولا سيما مطولاته ، حتى قيل إنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ، ويهذبها فى أربعة أشهر ، ويعرضها على خواصه فى أربعة أشهر ، فلا يظهرها إلا بعد حوْل ، ولذلك يسمون بعض مطوّلاته الحوليات .

(١) قال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم أنشدنى بعض مدح زهير أباك فأنشده ، فقال عمر إن كان ليحسن فيكم القول ، قال : ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء ، قال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم ، وقال رضى الله عنه لابن زهير : ما فعلت الحلل التى كساها هرم أباك قال : أبلاها الدهر ، قال لكن الحلل التى كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر .

(٢) امرأة زهير (٣) ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما .

(٤) حومانة الدراج ماء بنجد على الطريق التى بين البصرة ومكة ، والمتثلم موضع قريب منه .

• • •

شعره — لا خلاف بين أئمة الشعر ونقدته فى أن زُهيراً أحد ثلاثة الفحول المتقدّمين فى الجاهلية على من سواهم ؛ وإن كثيراً منهم ليفضلونه على صاحبه : امرئْ القيس ، والنابغة ، وحجّتهم فى ذلك أنه يمتاز بالمزايا الآتية :

أولاً — حسن الإيجاز وحذف فُضول الكلام[1] وحشوه ، بحيث يودع اللفظ اليسير المعنى الكثير . كقوله :

فما يك من خير أتوْه فإنمــا توارثه آباء آبــائهم قبــلُ

ثانياً — إجادة المدح وتجنب الكذب فيه . فلا يمدح الرجلَ إلاّ بما عرف من أخلاقه وصفاته[2] كقوله :

على مكثريهم رِزْقُ من يَعتريهمُ وعند المقلّين السماحةُ والبــذلَ

ثالثاً — تجنب التعقيد اللفظىّ والمعنوىّ ، والبعد من حُوشىّ الكلام وغريبه[3] . كقوله :

ولو أن حمداً يُخلدُ النــاس أخلدوا ولكنّ حمد الناس ليس بمخلد

رابعاً — قلة السخف والهذَر[4] فى كلامه . ولذلك كان شعره عفيفاً يقلّ فيه الهجاء ، ولقد هجا قوماً فأوجع ، ثم ندم على ما صنع .

---

(١) سأل معاوية الأحنف بن قيس من أشعر الشعراء ؟ قال زهير ، قال وكيف ؟ قال ألقى عن المادحين فضول الكلام ؛ قال مثل ماذا ؟ قال مثل قوله « فما يك من خير .. البيت » .

(٢) قال عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت ما يضر من مدح بما مدح به زهير آل أبى حارثة من قوله « على مكثريهم .. البيت » أن لا يملك أمور الناس (يعنى الخلافة) ثم قال ما ترك منهم زهير غنياً ولا فقيراً إلا وصفه ومدحه .

(٣) قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب هل تروى لشاعر الشعراء ؟ قلت ومن هو ؟ قال الذى يقول « ولو أن حمداً . . البيت » قلت ذلك زهير قال فذاك شاعر الشعراء . قلت وبم كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب حوشية ولم يمدح أحداً إلا بما فيه . يعاظل بين الكلام يداخل فيه ويعقده . وحوشى الكلام وحشيه وغريبه .

(٤) السخف فى الكلام رداءته ، الهذر الكثير الردىء أو سقط الكلام .

خامساً : الإكثار من الأمثال والحكم بما لم يَفقه فيه شاعر جاهلىّ وبما فتح به باب الحكم والأمثال فى الشعر العربى ، فكان كلامه الدرب الذى سلكه الشعراء لبلوغ الحكمة : أمثال صالح بن عبد القدّوس[1] وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى والمعرّى[2] من المولدين ومن حكمه فى معلقته قوله :

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبلــه ... ولكننى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء[3] من تصب ... تمته ومن تخطئْ يعمرْ فيهرَم
ومن يجعل المعروف من دون عِرْضه ... يَفِره[4] ومن لا يتّق الشتم يُشتَم
ومن يك ذا فضل فيبخلْ بفضلــه ... على قومه يُستغن عنه ويُذمْم
ومن يُوف لا يُذمْم ومن يُهدَ قلبه ... إلى مُطمئنِّ البر لا يَتجمجم[5]
ومن هابَ أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرقَ أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكنْ حمده ذمّاً عليه ويندَم
ومن لم يَذُدْ[6] عن حوضه بسلاحه ... يُهدّم ومن لا يظلم الناسَ يظلَم[7]
ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقة[8] ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومما سبق فيه غيره قوله يمدح هرماً :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هرم ... والسائلون إلى أبوابه طرُقا[9]
من يلق يوماً على علاّته هَرماً ... يلق السماحة منه والندى خلقا[10]
لو نال حىّ من الدنيا بمكرُمة ... أفقَ السماء ، لنالت كفّه الأفقا

---

(١) من نابغى شعراء الدولة العباسية قتل لاتهامه بالزندقة .

(٢) ستأتى تراجمهم ، وهم من شعراء الدولة العباسية .

(٣) الخبط الضرب باليد ، والعشواء الناقة التى لا تبصر ليلا ، يريد أن المنية كالناقة العشواء تسير على غير هدى فتصيب الناس على غير نسق معروف أو ترتيب محمود .

(٤) يصنه ويحفظه (٥) يتزلزل ويضطرب (٦) يدفع ويكف .

(٧) من انقبض عن الناس وكف يده عن الاعتداء إليهم رأوه مهيناً ضعيفاً فاستطالوا عليه وظلموه (٨) طبيعة (٩) المبتغون الطالبون ، فى هرم عند هرم أو منه ، جعل طلاب المعروف عند هرم طرقاً إلى أبوابه لكثرة ترددهم عليه وقصدهم إليه (١٠) على علاته أى إن تلقه على قلة مال وعدم تجده سمحاً كريماً فكيف به وهو على غير تلك الحال .

وقوله :

وأبيضَ[1] فياضٍ[2] يداه غمامةٌ ... على مُعتفيه[3] ما تُغبّ[4] فواضلهُ
أخى ثقة لا يُهلك الخمرُ ماله ... ولكنه قد يُهلك المالَ نائله
تراه إذا ما جئته مُتهــللاً ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

(٤) عنترة العبسى

هو عنترة بنُ شدّاد العبسى أحد فرسان العرب وأغربتها[5] وأجوادها وشعرائها المشهورين بالفخر والحماسة .

وكانت أمه أمةً حبشية . وأبوه من سادات بنى عَبس .

منشؤه ونسبه

وكان من عادات العرب ألاّ تُلحق ابن الأمة بنسبها بل تجعله فى عداد العبيد ولذلك كان عنترة عند أبيه منبوذاً بين عبدانه . يَرعى له إبله وخيله . فربأ بنفسه عن خصال العبيد ومارس الفروسية ومَهرَ فيها . فشبّ فارساً شجاعاً هُماماً . وكان يكره من أبيه استعباده له وعدم إلحاقه به . حتى أغار بعضُ العرب على عبس واستاقوا إبلهم . ولحقهم بنو عبس وفيهم عنترة لاستنقاذ الإبل : قال له أبوه : كرّ يا عنترة . قال : العبدُ لا يُحسن الكرّ . إنما يُحسن الحلابَ والصرّ[6] قال : كرّ وأنت حُر . فقاتل قتالا شديداً حتى هَزَم القومَ واستنقذ الإبل فاستلحقه أبوه . ومن ذلك الوقت ظهر اسمه بين فرسان العرب وساداتها . وخاض مع عبس أكثر وقائعها : وخاصةً حرب داحس والغبراء . حتى أصبح فارس حومتها . وحامى بَيضتها وحتى ضُرب به المثل فى الشجاعة والإقدام . قيل له يوماً : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً . وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً . لا أرى منه

---

(١) نقى من العيوب (٢) كثير العطاء (٣) الطالب لمعروفه .
(٤) أى لا تأتى فى الغب (والغب أن تأتى يوماً وتنقطع آخر) بل دائمة لا تنقطع .
(٥) أغربة العرب سودانهم . والأغربة فى الجاهلية عنترة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن خباب ، وسليك بن السلكة (٦) الحلاب الحلب ، والصر شد ضرع الناقة .

مخرَجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلبُ الشجاع فأثنى عليه فأقتله . وطال عمر عنترة حتّى ضعف جسمه وعجز عن شن الغارات ومات قبيل البعثة .

• • •

شعره — لم يشتهر عنترة أوّل أمره بشعر غير البيتين والثلاثة ، وإنما غلبت عليه الفروسية مكتفياً بها حتى عيره يوماً بعض قومه سوادَه وأنه لا يقول الشعر ، فاحتج لسواده بخلقه وشجاعته ، واحتج لفصاحته أيضاً بنظم معلقته المشهورة التى كانت تسمى المذهّبة وأوّلها : شعره

هل غادر الشعراء من مُتردَّم   أم هل عرفتَ الدار بعد توهّم (١)

وقد ضمنها خصاله ومكارم قومه ، وحسن دفاعه عنهم ووفرة جُوده ، معرّجاً فيها على أوصاف أمور شتّى ، وهى من أجمل المعلقات وأسهلها لفظاً ، وأكثرها انسجاماً ، وأبدعها وصفاً ، وأشدّها حماسة وفخراً . وكذلك كل ما عرف من شعره .

وأكثر ما فى سيرته الموضوعة فى زمن الفاطميين ، وما فى الديوان المنسوب إليه المستخرج من هذه السيرة منحولٌ لا يعتدّ به .

ومن قوله فى معلقته :

لما رأيتُ القوم أقبل جمعهم   يتذامرون (٢) كررت غير مُذمَّم
يدعون عنترَ والرماحُ كأنها   أشطان (٣) بئر فى لَبان (٤) الأدهم (٥)
ما زلت أرميهم بثغرة (٦) نحره   ولبانه حتّى تسربَل بالدم
فازورّ (٧) من وَقع القنا بلبانه   وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم (٨)

---

(١) تردم الرجل ثوبه رقعه ، و « أم » بمعنى بل ، والتوهم التفرس ، والمعنى لم يترك الشعراء لى شيئاً أصلحه ثم خاطب نفسه قائلا هل عرفت دار محبوبتك بعد شدة بحثك عنها .

(٢) يحض بعضهم بعضاً على القتال (٣) الحبال التى يستقى بها (٤) اللبان الصدر

(٥) الحصان الأسود (٦) أعلى نحره (٧) مال (٨) العبرة تردد البكاء فى الصدر ، والتحمحم صهيل الفرس ما كان فيه الحنين ليرق صاحبه له .

لو كانَ يَدْرى ما المحاورةُ اشتكى ... ولكان لو علم الكلامَ مُكلِّمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقمهــا ... قيلُ الفوارسِ وَيكَ (١) عنترُ أقدِمِ
والخيلُ تقتحمُ الخَبَــار (٢) عوابساً ... من بين شيْظَمة (٣) وأجرَدَ (٤) شيظمِ

ومنها :

أثنى علىَّ بما علمتِ فإننى ... سَمْحٌ مخالطتى إذا لم أظلَمِ
فإذا ظُلمتُ فإنَّ ظُلمى باســلٌ ... مُرٌّ مذاقته كطعم العلقمِ

ومن جيد قوله :

بكرتْ تُخوِّفنى الحتوفَ (٥) كأننى ... أصبحت من غرض الحتوف بمعزِلِ
فأجبتهــا : إن المنية منهل (٦) ... لا بد أن أسقَى بكأس المنهلِ
فاقنى (٧) حياءك (لا أبالك (٨)) واعلمى ... أنى امرؤٌ ســأموت إن لم أقتَلِ
إن المنية لو تُمثَّل مُثِّلت ... مِثلى إذا نزلوا بضنك (٩) المنزلِ
إنى امرؤ من خير عبس منصباً ... شطرى (١٠). وأحمى سائرى بالمُنصُلِ (١١)
وإذا الكتيبة (١٢) أحجمت (١٣) وتلاحظت (١٤) ... ألفِيتُ خيراً منَ مُعِم مُخوَّلِ (١٥)
والخيــلُ تعــلم والفوارس أننى ... فرّقتُ جمعهمُ بضربة فيْصلِ
والخيلُ ساهمةُ (١٦) الوجوه كأنمــا ... تُسقَى فوارسُها نقيعَ الحنظلِ
ولقد أبيتُ على الطوَى (١٧) وأظله ... حتّى أنالَ به (١٨) كريمَ المأكلِ

ومن إفراطه قوله :

وأنا المنيــة فى المواطن كلهــا ... والطعن منى سابقُ الآجالِ

---

(١) وى كلمة يقصد منها التعجب والكاف للخطاب (٢) الأرض اللينة (٣) الفرس الطويل (٤) الأجرد القصير الشعر الرقيق (٥) الحتف الموت (٦) مشرب (٧) الزمى (٨) كلمة يراد بها هنا التنبيه والإعلام لا الجفاء والشدة (٩) ضيق (١٠) نصفى (١١) السيف (١٢) الطائفة من الجيش (١٣) تأخرت عن الإقدام (١٤) نظر بعضهم بعضاً بمؤخر عينه من شدة الهول (١٥) كريم الأعمام والأخوال (١٦) متغيرة عابسة (١٧) الجوع (١٨) الباء للبدل .

(٥) عمرو بن كلثوم

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي سيد تغلب وفارسها وأحد فتاك العرب وشعرائها المشهّرين بقصيدة واحدة ، والمجيدين للفخر . وأمه ليلى بنت مهلهل أخي كليب . نشأ عمرو فى قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتية شجاعاً هماماً خطيباً جامعاً لخصال الشرف ، وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً فى كثير من أيامهم ؛ وأكثر ما كانت فتن تغلب وحربها مع أختها بكر بن وائل بسبب الحرب المشئومة المشهورة بحرب البسوس ، وكان آخر صلح لهم فيها على يد عمرو بن هند آخر ملوك الحيرة من آل المنذر . ولم تمض مدّة يسيرة بعد الصلح حتّى حدث بين وجوه القبيلتين مُلاحاة ومشاحّة فى مجلس عمرو بن هند قام فى أثنائها شاعر بكر الحارث بن حِلِّزة اليشكرى وأنشد قصيدته المشهورة . وما فرغ منها حتّى ظهر لعمرو ابن كلثوم أنّ هوى الملك مع بكر ، فانصرف ابن كلثوم وفى نفسه ما فيها ، ثم خطر ، فى نفس ابن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها وهو عمرو بن كلثوم فدعاه وأمّه ليلى بنت مهلهل . وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها فى قضاء أمر من أمورها ، فصاحت ليلى : واذلاّه ! فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه . ثم رحل توًّا إلى بلاده بالجزيرة وأنشأ معلقته التى أوّلها :

ألا هُبى بصحنك[1] فاصبَحينا[2] ولا تُبقى خُمور الأندرينا[3]

يصف فيها حديثه مع ابن هند ، ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة ، ثم كان يخطب بها فى عكاظ وغيرها ، وحفظها بنو تغلب وأكثروا من روايتها . ومات عمرو بن كلثوم قبل الإسلام بنحو نصف قرن .

• • •

شعره — كان عمرو بن كلثوم من عظماء الجاهلية وأشرافهم وفرسانهم

---

(١) الصحن القدح العظيم (٢) اسقينا الصبوح وهو ما أصبح عندهم من الشراب .
(٣) قرية بالشام .

الذين شغلتهم الرياسة وخوض الحروب عن أن يُفيضوا فى الشعر ويطرقوا أكثر أبوابه كدأب من يتخذون الشعر مهنةً وتجارة ، ولذلك لم يشتهر إلاّ بمعلقته الواحدة التى قامت له مقام الشعر الوفير . لحسن لفظها ، وانسجام عبارتها ، ووضوح معناها ، ورشاقة أسلوبها وعلوّ فخرها ، ونبالة مقصدها ، ولولا أنه افتخر فيها وعدّد مآثر قومه ما قالها . ورويت له مقطعات لم يخرج بها عن أغراض معلقته ، ولعل شهرته بالخطابة لا تقل عن شهرته بالشعر .

ومن سامى فخره فى معلقته :

وقد علم القبائل من معدّ ... إذا قُببٌ بأبطحها(١) بُنينا
بأنا المطعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا ... وأنا الآخذون إذا رضينا(٢)
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشربُ غيرُنا كدراً وطينا
إذا ما الملكُ سام الناس خسفاً(٣) ... أبينا أن نُقرّ الذلّ فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاةً ظالمين وما ظُلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا
ملأنا البرّ حتى ضاق عنا ... ونحن البحرَ نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيعُ لنا فطاماً ... تخرّ له الجبابر ساجدينا

وقال يتوعد عمرو بن أبى حجر الغسانى :

ألا فاعلم (أبيت اللعن) أنّا ... على عمْد سنأتى ما نريد
تعلمْ أن محملنا ثقيل ... وأن ذِياد(٤) كبّتنا(٥) شديد
وأنا ليس حىّ من معدّ ... يوازننا إذا لُبس الحديد

---

(١) الأبطح والبطحاء مسيل واسع فيه دقائق الحصى .
(٢) لا نقبل عطايا من غضبنا عليه ونقبل هدايا من رضينا عنه . (٣) أولام ذلا .
(٤) دفاع . (٥) جماعتنا .

(٦) طرَفة بن العبد

منشؤه — هو عمرو بن العبد البكرى أقصر فحول الجاهلية عمراً . وأجودهم طويلةً . وأوصفهم للناقة . مات أبوه وهو صغير وَوَلِيَ أمره أعمامُه . ومال إلى البطالة واللهو والأخذ بأسباب الصَّبوة والفتوّة وقول الشعر والوقوع به فى أعراض الناس ، حتى هجا قومه وأهله ؛ وحتى هجا عمرو بن هند ملك العرب على الحيرة ، مع أنه كان يتطلب معروفه وجوده . فبلغ عمرو بن هند هجاء طرفة له . فاضطغنها عليه . حتى إذا ما جاءه هو وخاله المتلمس يتعرّضان لفضله — وكان قد بلغه عن المتلمس مثل ما بلغه عن طرفة — أظهر لهما البشاشة والوداد ليؤمنهما وأمر لكل منهما بجائزة . وكتب لهما كتابين وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياها منه . وبينا هما فى الطريق ارتاب المتلمس فى صحيفته فعرج على غلام يقرؤها له . (ومضى طرفة) . فإذا فى الصحيفة الأمر بقتله . فألقى الصحيفة وأراد أن يلحق طرفة فلم يدركه ؛ وفر إلى ملوك غسان . وذهب طرفة إلى عامل البحرين وقتل هناك وعمره بضع وعشرين سنة .

° ° °

شعره — شعره — قال طرفة الشعر وهو صبى فنبغ فيه حتى عُدَّ من الفحول ولم ينيف على العشرين ؛ وزاد عليهم بقصيدته الطويلة التى وصف فيها الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً ، لم يسبقه إليه أحد . وتعد معلقته من أجود المعلقات وأكثرها غريباً وأغزرها معنى ، وأدقها وضعاً . ورُوى له غيرها من الشعر ولكنه قليل بالنسبة إلى شهرته ، وربما دل هذا على أن الرواة قد جهلوا أكثره .

ويجيد طرفة الوصف فى شعره مقتصراً فيه على بيان الحقيقة مع قصد فى الغلو ، ومعاظلة فى بعض التراكيب واسترسال فى حوشى الانمظ . وخفىّ المعنى [1]

---

(١) قال يصف ناقته : لها فخذان أكل النحض فيهما * كأنهما بابا منيف ممرد

وطى محال كالحنى خلوفه * وأجرنة لزت بدأى منضد

كأن كناسى ضالة يكنفانها * وأطر قسى تحت صلب مؤيد

وكذلك كان هجاؤه على شدّة وقعه . ومطلع معلقته :

لِخَوْلة (١) أطلالٌ ببُرقة (٢) ثهمد (٣) … تلوح (٤) كباقى الوشم (٥) فى ظاهر اليد

ومن أجودها قوله :

أرى الموتَ يعتام (٦) الكرامَ ويصطفى … عقيلة (٧) مال الفاحش المتشدد
أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلة … وما تَنقص الأيامُ والدهرُ ينفد
لعمرُك إن الموت (ما أخطأ الفتى) … لكالطِّوَل المرْخَى وثِنياه (٨) باليد
متى ما يشأ يوماً يقُدْه لحتفه … ومن يك فى حبل المنية يَنقد

ومن أبياته السائرة :

وظلمُ ذوى القربى أشدّ مَضاضةً … على المرء من وقع الحسام المهنّد
أرى الموت أعدادَ (٩) النفوس ولا أرى … بعيداً غداً . ما أقرب اليوم من غد !
ستبدى لك الأيامُ ما كنت جاهلاً … ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تُزوّد

قد يبعث الأمرُ الصغير كبيرَه … حتى تظلّ له الدماءُ تصبّب

ومن قوله يفتخر :

نحن فى المَشتاة (١٠) ندعو الجفلى (١١) … لا ترى الآدب (١٢) فينا ينتقرْ (١٣)
حين قال الناس فى مجلسهم … أقُتار (١٤) ذاك أم ريحٌ قُطُرْ (١٥)

---

(١) اسم محبوبته (٢) البرقة مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى .
(٣) موضع فى ديار بنى عامر (٤) تلوح تلمع .
(٥) النقش على اليد وغيرها بالنيلج وهو المسمى الآن (بالدق) .
(٦) يختار (٧) كرام المال .
(٨) الطول الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه . والثنى الطرف وا لجمع أثناء ، والمعنى أقسم بحياتك أن الموت مدة مجاوزته للفتى بمنزلة حبل طول الدابة ترعى فيه وطرفاه بيد صاحبه . فكما أن الدابة لا تفلت ما دام صاحبها آخذا بطرفى طولها فكذلك الإنسان لا يهرب من الموت .
(٩) جمع عدد أى لكل إنسان ميتة فإذا ذهبت النفوس ذهبت ميتتهم كلها ، أو جمع عد بالكسر وهو الماء الذى لا تنقطع مادته وكل أحد يرده .
(١٠) أى زمن الشتاء والبرد وهو أشد الزمان عندهم لما فيه من المحل والجدب .
(١١) الدعوة العامة إلى الطعام (١٢) الذى يدعو إلى المأدبة .
(١٣) يدعو النقرى وهى الدعوة الخاصة (١٤) ريح شواء (١٥) العود الذى يتبخر به .

بجفــان تعــترى (١) نادينــا   من سديف (٢) حين هاج الصنّبر (٣)
كالجوابى (٤) لاتنى (٥) مُترعةً (٦)   لقِرى (٧) الأضياف أو للمتحضر (٨)
ثم لا يخــزن فينــا لحمهــا   إنمــا يُخزن لحم المدّخرْ
ولقــد تعــلم بكرٌ أننــا   آفة الجزْر مساميح يُسُر (٩)
ولقــد تعلم بكرٌ أننــا   فاضلو الرأى وفى الرّوْع وقُر (١٠)
يكشفون الضرّ عن ذى ضُرّهم   ويُبرّون على الآبى المبر (١١)
فُضلٌ أحلامهم عن جــارهم   رُحُبُ الأذرع بالخير أمُرٌ (١٢)
ذُلُق فى غــارة مسفوحة   ولدى البأس حماة ما نفر (١٣)
نُمسِكُ الخيلَ على مكروههــا   حين لا يُمسكها إلا الصُّبُرْ (١٤)

(٧) أعشى قيس

هو أبو بصير مَيمونٌ الأعشَى بنُ قيس بن جندل القيسى ، رابعُ فحول الجاهلية ، وأمدحهم للملوك ، وأوصَفهم للخمر ، وأغزَرهم شعراً ، وأكثرهم عروضاً وافتناناً ، وطوالاً جياداً ، وينتهى نسبهُ إلى بكر بن وائل ، وكان من أهل اليمامة ، يسكن قرية منها تُسمى مَنفوحة ونشأ فى بدء أمرِه راويةً لخاله المُسَيَّب بن علَس أحد الشعراء المقلين المجيدين ، وكان الأعشى يُطرى شعرَه ، ويأخذ منه ، حتى إذا جاد شعره ونبهُ شأنه ، قصد الملوكَ والأجواد وطوّف

---

(١) تلم وتأتى نادينا (٢) شحم السنام (٣) أشد ما يكون من البرد (٤) جمع جابية وهى الحوض العظيم (٥) لا تفتر بل هى لاتزال (٦) مملوءة
(٧) لإكرام الأضياف (٨) النازلين معنا على الماء .
(٩) الجزر جمع جزور والمساميح الأسخياء واليسر الداخلون فى الميسر والمفرد يسور .
(١٠) جمع وقور أى لا نتزعزع (١١) أبر عليه غلبه ، والآبى الممتنع ، والمبر الغالب أى يغلبون الغالبين للناس (١٢) جمع أمور وهو الكثير الأمر .
(١٣) أى مسرعون إلى الغارة متقدمون فيها ، وأصله من ذلق السيف إذا كان يخرج من غمده ، ومفسوحة مصبوبة .
(١٤) أى نمسك الخيل على ما تلقاه من شدة الحرب وجهدها ولا ننهزم ، وإنما ذكر مكروه الخيل لأنها إذا أصابها مكروه فى الحرب فهم أجدر أن يصيبهم .

إليهم الآفاق ، وأقاصى البُلدان مادحاً مُستجدياً عطاياهم . وهو أوّل من صرح فى شعره بالسؤال وطلب الحاجة ، فوضع ذلك من شأنه ، وكان الشعراء قبله يمدحون ولا يسألون . وكان يَنتاب بالمديح بنى عبد المدَان ملوك نَجْران وأساقفتها ، يُقيم عندهم ما يشاءُ ، يشرب الخمرَ ويسمع الغناء ، ويأخذ عنهم بعض آرائهم فى العقائد ، فجاد لذلك وصفه للخمر ، وظهر بعض معتقدهم فى كلامه ، كما كان ينتاب ملوك الحيرة وخاصة الأسود أخا النعمان بن المنذر . وما زال هذا شأنه ، حتى طمع فى جوائز كسرى ، فرحل إليه يمدحه بالشعر العربىّ فأجزَل عطاءه وإن لم يرقْ عنده شعرُه ، لسوء ترجمته له .

وعمِىَ الأعشى ، وطال عمره ، حتى كان الإسلامُ وعظم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بين العرب فأعدّ له قصيدةً يمدحه بها وقصده بالحجاز ، فلقيه كفار قُريش وصدّوه عن وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حمراء ، ويرجع إلى بلده ، لتخوفهم أثرَ شعره ، ففعل ، ولما قرب من اليمامة سقط عن ناقته فدقت عنقه ومات ، ودفن ببلدته منفوحة باليمامة .

° ° °

شعره — يعدّ الأعشى عند الكثيرين رابعاً لثلاثة الفحول : امرئْ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وإن كان يمتاز منهم بغزارة شعره وكثرة ما رُوى له من الطوال الجياد ، ونظمه من أكثر أعاريض الشعر وضروبه . وتفننه فى كل فنّ من أغراضه . واشتهر من بينهم بالمبالغة فى وصف الخمر ، حتى قيل : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . ولشعره طلاوة وروْعة ليست لكثير من شعر غيره من القدماء . ولقوّة طبعه وجلبة شعره سُمّى صَنَّاجةَ[1] العرب ، حتى ليخيل إليك إذا أنشدت شعره أن آخر ينشد معك . وبجلالة شعر الأعشى فى صدور العرب ، وسرعة

شعره

أثر شعره

(١) وقيل سمى صناجة لذكره الصنج فى شعره وهى آلة موسيقية (العمدة) .

طيرانه بين قبائلهم كان يرفع الوضيع الخامل ، ويخفض الشريف النابه . ومن الذين رفعهم شعر الأعشى المحلَّق[١] ، وقد كان أبا ثمانى بنات عوانس ، رغبت عن خطبتهن الرجالُ لفقرهن ، فأضافه على فقره ، فدحه الأعشى ونوّه بذكره فى عكاظ ، فلم يمض عام حتى لم تبق جارية منهن إلا وهى زوج لسيد كريم . وكان الأعشى يتظرّف فى شعره ، ويتملح بذكر بعض أسماء الأدوات والأزهار باللغة الفارسية[٢] إعلاناً منه أنه دخل بلاد القوم وجالسهم . وصدر عن ملوكهم . وعده بعضهم من أصحاب المعلقات وذكر قصيدته التى يمدحُ بها الأسود الكندى ، ومطلعها :

استعماله الألفاظ الأعجمية

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما تردّ سؤالى

ومن جيد شعره قصيدته التى أعدّها لينشدها بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يَغزْ بذلك وأولها :

ألم تغتمضْ عيناك ليلة أرمدا[٣] وبتّ كما بات السليم[٤] مسهَّدا[٥]

ومنها يتحدّثُ عن ناقته ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

فآليت لا أرثى لها من كلالة[٦] ولا من حفى[٧] حتى تُلاقى محمدا

متى ما تُناخى عند باب ابن هاشم تُراحِى[٨] وتلقى من فواضله ندى

نبىّ يرى مالا يرَوْن وذكرُه أغار (لعمرى) فى البلاد وأنجدا[٩]

له صدقات ما تغبّ[١٠] ونائل وليس عطاءُ اليوم يمنعه غدا

وقصيدته فى مدح المحلّق وأولها :

أرقت[١١] وما هذا السهاد المؤرّق وما بى من سقم وما بى تعشّق

---

(١) سمى كذلك لأن فرساً عضه فصار موضع عضته كالحلقة .

(٢) وشاهدنا الجل والياسمين والسمنات بأقصبة
وبربطنا دائم معمل فأى الثلاثة أزرى بها

(٣) رجل أرمد به رمد فى عينيه (٤) الملدوغ . وسمى بذلك تفاؤلا . (٥) لا ينام (٦) تعب (٧) رقة القدم (٨) تستريحى (٩) أغار دخل غور وهو كل ما انحدر مغرباً عن تهامة ؛ وأنجد دخل النجد وهو ضد الغور (١٠) تنقطع (١١) سهرت

ومنها :

لعمرى قد لاحت عيون كثيرة … إلى ضوء نار فى اليفاع(١) تحرّق

تُشبّ لمقرورين(٢) يصطليانها(٣) … وبات على النار الندى(٤) والمحلق

رضيعىْ لبان ثدى أمّ تقاسما … بأسحم داج : عوْضُ لا نتفرّق(٥)

ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه … كما زان متن الهندوانىّ رونقُ

يداه يدا صدق : فكفّ مبيدة(٦) … وكفّ إذا ما ضُنّ بالمال تنفق

ومن أبياته السائرة :

علِقْتُها عرَضا وعلِّقتْ رجلاً … غيرى وعُلّق أخرى ذلك الرجل

كناطح صخرةً يوماً ليوهنها … فلم يضرْها وأوهى قرْنَهُ الوعل

(٨) الحارث بن حلزةَ

هو الحارث بن حِلِّزَة اليشكرىّ البكرى أحد أصحاب المعلقات . والمشهورين بالواحدات . والمجيدين على البديهة والارتجال ، والمضروب بهم المثل فى الحماسة والافتخار . ويتصل نسبه إلى بكر بن وائل ؛ وكان فيها بمنزلة عمرو بن كلثوم فى تغلب . ولم يؤثر عنه غير قطعة يسيرة وقصيدته المعلقة التى مطلعها :

آذنتنا(٧) ببينها(٨) أسماء … رب ثاوٍ(٩) يُملّ منه الثّواءُ

سبب ارتجال المعلقة

وكان من أمر هذه المعلقة أن عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة أصلح بين بكر وتغلب بعد حربهما المشهورة بحرب البسوس ؛ وأخذ من كلا الفريقين رهائن من أبنائهم ليكفّ بعضهم عن بعض ، وليُقيد منها للمعتدَى عليه من المعتدى ، فحدث أن سرّح الملك ركباً من تغلب فى بعض حاجته ؛ فزعمت تغلب أن الركب نزلوا على ماء لبكر فأجلوْهم عنه وحلوهم على المفازة فماتوا

(١) التل (٢) أصابهما البرد (٣) يستدفئان بها (٤) الكرم (٥) بأسحم داج يريد ليلا شديد السواد والمعنى أن الكرم والمحلق رضعا من ثدى واحد وتعاهدا على أنهما لا يفترقان أبداً (٦) متلفة (٧) أعلمتنا (٨) فراقها (٩) مقيم .

عطشاً ، وتزعم بكر أنهم سقوهم وأرشدوهم الطريق فتاهوا وضلوا وهلكوا . وذهب الفريقان يتدافعان عند عمرو ابن هند ، وكانت ضِلَعه مع تغلب ، فهاج ذلك الحارث بن حلزة وكان فى المجلس مستوراً عن الملك بستارة لما فيه من البرص ، فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً يفتخر فيها بقومه وفعالهم وحسن بلائهم عند الملك وعظم أيامهم معه ، فما أتم قصيدته حتى انقلب الملك إلى جانب البكريين ، واستدنى الحارث ورفع الستر بينه وبينه حتى صار معه فى مجلسه . وعمّر الحارث طويلاً حتى قيل : إنه أنشد هذه القصيدة وعمره خمس وثلاثون ومائة سنة .

• • •

شعره

شعره — أكثر الرواة ونقد الشعرة معجبون بارتجال الحارث بن حلزة قصيدته على طولها ، وإحكام نظمها وكثرة غريبها ، وتعدد فنونها ، واشتمالها على كثير من أيام العرب ووقائعها .

ومن قوله فيها وهو أوجز ما قيل فى وصف التأهب للارتجال وأصدقه وأوضحه تصويراً للحقيقة :

أجمعوا أمـــرهم عشـــاءً فلمـــا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء[1]
من منادٍ ومن مُجيب ومن تصـ ـهـــال خيل ، خلالَ ذاك رُغاء[2]

ومن قوله :

لا يقيـــم العزيز بالبـــلد السهـ ـل ولا ينفع الذليلَ النجاءُ[3]
ليس يُنجى موائلاً[4] من حِذَار رأس طـــوْد وحَرّةٌ رَجـــلاء[5]

ومن قوله فى غير المعلقة :

مَن حاكمٌ بينى وبيـ ـن الدهـــر مـــال علىّ عمْدا

---

(١) الضوضاء اختلاط الأصوات (٢) الرغاء صوت البعير (٣) الإسراع فى السير
(٤) وأل هرب وفزع كوامل (٥) الحرة الأرض ذات الحجارة السوداء النخرة ، والرجلاء الغليظة الشديدة التى يترجل فيها ، يريد أن الشر كان شاملا لم يسلم منه العزيز ولا الذليل ، وأن الهارب منهم لم ينجه تحصنه بالجبل ولا بالحرة الغليظة الشديدة .

أودى بسادتنا وقد تركوا لنا حَلَقاً[1] وجرْدا[2]
خيلى وفارسها وربّ م أبيك كان أعزّ فقدا
فلو أن ما يأوى إلىّ م أصاب من ثهلان[3] هدّا
فضعى قناعك[4] إن ريب الدهر قد أفنى معدّا
فلكم رأيت معاشراً قد جمعوا مالاً وولْدا
وهم رباب حائر[5] لا يسمع الآذان رعدا
فعشْ بجدّ لا يضرْ ك النوك[6] ما لاقيت جدّا[7]
والعيش خير فى ظلا ل النوْك ممن عاش كدّا

ومن قوله :

إن السعيد له فى غيره عظة وفى التجارب تحكيم ومعتبر

(٩) لبيد بن ربيعة

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرىّ أحد أشراف الشعراء المجيدين ، والمجواد الفرسان المعمرين ، والأجواد العريقين ، والحكماء المحنكين . وهو من بنى عامر ابن صعصعة إحدى بطون هوازن مضر ، أمه عبسية ، نشأ لبيد جواداً شجاعاً فاتكاً : أما الجود فورثه عن أبيه الملقب بربيع المُقْترين . وأما الشجاعة والفتك فهما خصلتا قبيلته ، إذ كان عمه ملاعب الأسنة أحد فرسان مضر فى الجاهلية ؟ وكان بين قبيلته وبنى عبس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان بن المنذر ، وعلى العبسيين الربيع بن زياد وعلى العامريين ملاعب الأسنة ، وكان الربيع مقرباً عند النعمان يؤاكله وينادمه ، فأوغر صدره على العامريين ، وعدد معايبهم ومخازيهم . فلما دخل وفدهم على النعمان غض منه وأعرض عنه ، فشق ذلك عليهم وخرجوا غضاباً يتذاكرون فى أمرهم

(١) سلاحاً (٢) خيلا (٣) جبل لبنى نمير (٤) القناع ما تستر به المرأة رأسها
(٥) سحاب أبيض لم يمتد جهة (٦) الحمق (٧) حظاً .

مع الملك ، ولبيد يومئذ صغير يسرح إبلهم ويرعاها ، فسألهم عن خطبهم فاحتقروه لصغره ، فألح حتى أشركوه معهم . فوعدهم أنه سينتقم لهم منه غداً عند النعمان أسوأ انتقام : بهجاء لا يجالسه بعده ولا يؤاكله : فكان ذلك ، ومقت النعمان الربيع ولم يقبل له عذراً ولم يجتمع به بعد ، وأكرم العامريين وقضى حوائجهم . فكان هذا أول ما اشتهر به لبيد . ثم قال بعد ذلك المقطعات والمطولات ، وشهد النابغة له وهو غلام بأنه أشعر هوازن حين سمع معلقته التى أولها :

سبب قول الشعر

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها[1]

ومن حوادث فتكه أن الحارث الأعرج الغسانى أرسل مائة من الفتيان الفتاك على رأسهم لبيد ، ليغتالوا المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة : فذهبوا إليه وأظهروا أنهم أتوه داخلين فى طاعته : فأدناهم إليه . ولما صادفوا منه غرة قتلوه وهربوا ، فتبعهم جنود المنذر وقتلوا كثيراً منهم وفر البقية وفيهم لبيد — ولما ظهر الإسلام وأقبلت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم جاء لبيد فى وفد قومه بنى جعفر ابن كلاب بن عامر وأسلم وعاد إلى بلاده وحسن إسلامه ، وتنسك وحفظ القرآن كله وهجر الشعر حتى قيل لم يرو له فى الإسلام غير بيت واحد وهو[2] :

إسلامه وهجره الشعر

ما عاتب الحر الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

وبعد أن فتحت الأمصار ذهب إلى الكوفة زمن عمر واختارها دار إقامة . ومن أحاديث جوده أنه نذر فى الجاهلية (ألا تهب الصبا إلا أطعم) وألزم ذلك نفسه فى الإسلام ، وكانت له جفنتان يغدو بهما ويروح على مسجد قومه بالكوفة ، فهبت الصبا والوليد بن عقبة والى الكوفة على المنبر ، ولبيد

---

(١) الديار فى الأصل ما حل فيها لأيام معدودة ، والمقام ما طالت الإقامة به ، ومنى موضع قتهد غير منى مكة . تأبد توحش ، الغول ما انهبط من الأرض ، والرجام واحده رجمة وهى الهضاب وقيل الغول والرجام موضعان .

(٢) وقيل هو : الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

يومئذ قليل المال . فحرّض فى خطبته الناس أن يعينوه على مروءته ففعلوا . وبعث هو إليه مائة بكرة ، فشكرته ابنة لبيد عن أبيها على ذلك بشعر جميل . وما زال بالكوفة حتى مات فى أوائل خلافة معاوية سنة إحدى وأربعين من الهجرة . ومن ذلك يعلم أنه من كبار المعمرين . وقد قيل إنه عاش ثلاثين ومائة سنة .

شعره — إنما جعلنا لبيداً فى فحول الجاهلية وإنْ عُمِّر فى الإسلام أكثر من أربعين سنة : لأنه كما قدمنا لم يكن شاعراً فى الإسلام ، بل لم يصح عنه فيه إلا بيت واحد . وقال لبيد الشعر ونبغ فيه وهو غلام ، وجرى فيه على سنن الأشراف والفرسان : كعنترة وعمرو بن كلثوم ، فلم يجعله مورد كسب . ولذلك ترى فى شعره ولا سيما معلقته نبالة الفخر والتحدّث بالفتوة والنجدة والكرم وإيواء الجار وعزة القبيل . ويشابه علوّ همته جزالةُ لفظه . وفخامة عبارته . ودقة معانيه . وشرف مقاصده . وقلة اللغو فى قوله . وكثرة اشتماله على عقائد الإيمان والحكمة الصادقة والموعظة الحسنة . وقد ثبت فى الصحيحين شهادة النبى صلى الله عليه وسلم له بقوله أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمة لبيد (ألا كل شىء ما خلا الله باطل) . وهو ممن يجيد الرثاء من الجاهليين ، ويأتى فيه بأبدع الحكم والأمثال التى تذهب الأحزان ، وتسلى الهموم ، وتهوّن على النفس ألم المصيبة . وعبارته فيه سهلة تخلص إلى النفس بلا عائق : من غرابة فى لفظ ، أو تعقيد فى معنى .

ومن جيد شعره قوله فى معلقته مفتخراً بفعاله وقومه :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل … منا لزازُ عظيمة جَشّامها[1]
ومقسِّمٌ يعطى العشيرة حقها … ومُغذْمِرٌ لحقوقها هضّامها[2]

---

(١) رجل لزاز الخصوم يصلح أن يلز بهم أى يقرن ليغلبهم ويقهرهم ، جشم الأمر كسمع تكلفه على مشقة وجشام مبالغة منه أى لا تخلوا المجامع من رجل منا يتحمل بقمع الخصوم ويتكلف الجسام (٢) الغذمرة الغضب ، والهضم الظلم ، يريد منا الذى يقسم الغنائم فيوفر على العشائر حقوقها ويتغضب عند إضاعة شىء منها ويهضم حقوق عشيرته إذا ظلمت جارت .

فضلاً وذو كرم يعين على الندى ... سمحٌ كسوب رغائب غنَّامها(١)
من معشر سنتْ لهمْ آباؤهـــم ... ولكل قوم سنّة وإمامهـــا
لا يطبعون ولا يبور فَعـــالهم ... إذ لا تميل مع الهوى أحلامِها(٢)
فاقنع بما قسم المليك فإنمـــا ... قسم الخلائقَ بيننـــا علاَّمهـــا
وإذا الأمانة قسِّمت فى معشر ... أوفى بأوفـــر حظنـــا قسَّامها
فبنى لنـــا بيتاً رفيعاً سمكه ... فسما إليـــه كهلها وغلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفظعتْ ... وهمُ فوارِسها وهمْ حكامها(٣)
وهمُ ربيعٌ للمجاور فيهـــم ... والمرملاتِ إذا تطاول عامها(٤)
وهم العشيرة أن يُبطئْ حاسد ... أو أن يميل مع العدو لئامها(٥)

ومن قوله فى النعمان يرثيه :

ألا تسألان المرء ماذا يحـــاول ... أنحبٌ فيقضى أم ضلالٌ وباطل(٦)
أرَى الناس لا يَدرون ما قدر أمرهم ... بلى كل ذى لبّ إلى الله واصل(٧)
ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محـــالة زائل(٨)
وكل أناس سوف تدخل بينهـــم ... دُوَيهيةٌ تصفرّ منهـــا الأنامل(٩)

---

(١) الرغائب جمع رغيبة وهى العطاء الكثير ، والأمر المرغوب فيه ، وفضلا أى يفعل ذلك تفضلا .

(٢) الطبع تدنس العرض وتلطخه ، والبوار الفساد ، والأحلام العقول .

(٣) أفظعت أصيبت بأمر فظيع (٤) أرمل القوم نفد زادهم أى هم لمن جاورهم وللنساء اللاتى نفدت أزوادهن بمنزلة الربيع لعموم نفعهم وإحيائهم أيامهم بجودهم .

(٥) هم متعاضدون كراهية أن يبطىء الحساد بعضهم عن نصر بعض أو أن يميل لئامهم إلى الأعداء .

(٦) السؤال بمعنى الاستفهام ، والمحاولة استعمال الحيلة ، والنحب النذر . سألوا هذا الحريص على الدنيا عما هو فيه أهو نذر نذراً على نفسه فلا بد من فعله أم هو ضلال وباطل من أمره .

(٧) الواصل الطالب والراغب إلى الله — أى الناس لا يعرفون ما هم فيه من خطر الدنيا وسرعة زوالها فالعاقل من يتوسل إلى الله بالطاعة والعمل الصالح .

(٨) كل شىء غير الله تعالى زائل وفائت ومضمحل ليس له دوام .

(٩) التصغير للتعظيم والمراد الموت والمقصود من الأنامل الأظفار لأن صفرتها لا تكون إلا بالموت .

وكل امرئٍ يوماً سيعلم غيبه … إذا كشفت عند الإله الحصائل[١]
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه … قضى عاملاً ، والمرء ما دام عامل[٢]
فقولا له إن كان يَقسم أمره : … ألمّا يعظْك الدهر؟ أمُّك هابل[٣]
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى … ولا أنت مما تحذر النفسُ وائل[٤]
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب … لعلك تهديك القرون الأوائل[٥]
فإن لم تجد من دون عدنان والداً … ودون معدّ فلتزَعْك العواذلُ[٦]

(١٠) أمية بن أبي الصّلت

هو أبو عثمان أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي شاعر ثقيف وأحد الملتمسين للدين في الجاهلية .

منشؤه — نشأ بالطائف ، وكان أبوه شاعراً مشهوراً ، فأربى أمية عليه . واستزاد النظر في الأديان وطلبها من أهل الكتاب ، وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى ، وما بقي في رؤوس شيوخ الجاهلية من ملة إبراهيم وإسماعيل ؛ وحدث عن خلق السموات والأرض والملائكة والجن وشرائع الأنبياء والرسل ؛ وخاض في التوحيد وأمر الآخرة ، وتعبد ولبس المسوح وحرّم الخمر على نفسه ؛ وشك في الأوثان ، ورأى في هذه الكتب ما يبشر ببعثة نبي من العرب فطمع أن يكونه . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كسف باله . وحمله الحسد

---

(١) جمع حصيلة والمراد الحسنات والسيئات .

(٢) إذا سهر المرء في عمل ظن أنه فرغ منه ، وهو ما عاش يعرض له مثل ذلك .

(٣) يقسم يدبر . هبلته أمه ثكلته (٤) فتعلم بالنصب جوب النفي ، ووائل من وألت بمعنى نجوت والموئل المنجى .

(٥) إن لم تنتفع بعلمك فانتسب وقل أين فلان بن فلان ؟ فإنك لا ترى أحداً بقي . لعلك تهديك وترشدك هذه القرون الخالية .

(٦) تزعك تكفك ، العواذل هنا الحوادث . وعدنان جده الأعلى — يقول لم يبق لك أب حي إلى عدنان فكف عن الطمع في الحياة .

والكمد أن ينابذه ويكفر بدينه على علمه بصحته ، ويحرض عليه قريشاً ، ويرثى قتلاهم فى وقعة بدر . فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره فى ذلك . وروى أنه هو الذى نزلت فيه آية (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) ، وكان عليه الصلاة السلام إذا سمع شعره فى التوحيد والإيمان والثناء على الله يقول : آمن لسانه وكفر قلبه . واختص بأكثر مدائحه فى الجاهلية عبد الله بن جُدْعان (أحد سراة قريش وأجوادها) حتى كان منه بمنزلة زهير من هرم . وأقام بقية حياته بالطائف إلى أن مات بها كافراً سنة تسع للهجرة .

شعره شعره — يعد أمية من أكبر شعراء القرى على قلة الشعر فيهم . غير أن الذى أزرى بشعره فى نظر بعض علماء العربية حتى أسقطوا الاحتجاج به كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية فى شعره . كأنهم أنكروا عليه حق التعريب لشدة مخالطته للأعاجم وإن كان عربياً صريحاً . كما أنكروه على عدى بن زيد لإدخاله الكثير من ألفاظ الفرس فى شعره لطول معاشرته لهم .

وكان أمية يسمى السماء صاقورة . وحاقورة . ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه إذا خسف ويسميه (الساهور) ويسمى الله فى شعره السُّلطيط ، والتَّغرور ونحو ذلك .

ويمتاز شعره ببعض السهولة فى لفظه . وبذكره بعض العجائب من القصص الخيالية والأساطير الخرافية . وخلق العالم وفنائه . وأحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له . ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء قبله . ويتخلل ذلك شىء من الحكم والأمثال .

ومن شعره :

الحمد لله مُمسانا ومُصبحنا ... بالخير صبّحنا ربى ومسّانا
ربّ الحنيفة[1] لم تنفد خزائنه ... مملوءة طبّق الآفاق سلطانا
الا نبىّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس محيانا

(١) يريد بها ملة إبراهيم .

وقد علمنا لَوَ ان العلم ينفعنــا ... أنْ سوفَ تلحق أخرانا بأولانا

وعتب على ابن له فأنشأ يقول :

غذوْتك مولوداً ومُنتك يافعــاً ... تُعلّ بما أجنى إليك وتُنْهل
إذا ليلةٌ نابتك بالشجو لم أبتْ ... لشكواك إلاَّ ســاهراً أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طُرقت به دونى فعينىَ تهمل
تخاف الرّدى نفس عليك وإننى ... لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغتَ السن والغــاية التى ... إليهــا مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جــزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضــل

ومن قوله فى المدح :

عطاؤك زين لامرئٍ قــد حبــوته ... بخــير وما كلّ العطاء يزين
وليس بشين لامرئٍ بذل وجهــه ... إليك كما بعض السؤال يشين

ومن قوله وقد حضرته الوفاة :

إن تغفــر اللهــمّ تغفر جمًّا ... وأىّ عبــد لك لا ألمَّا

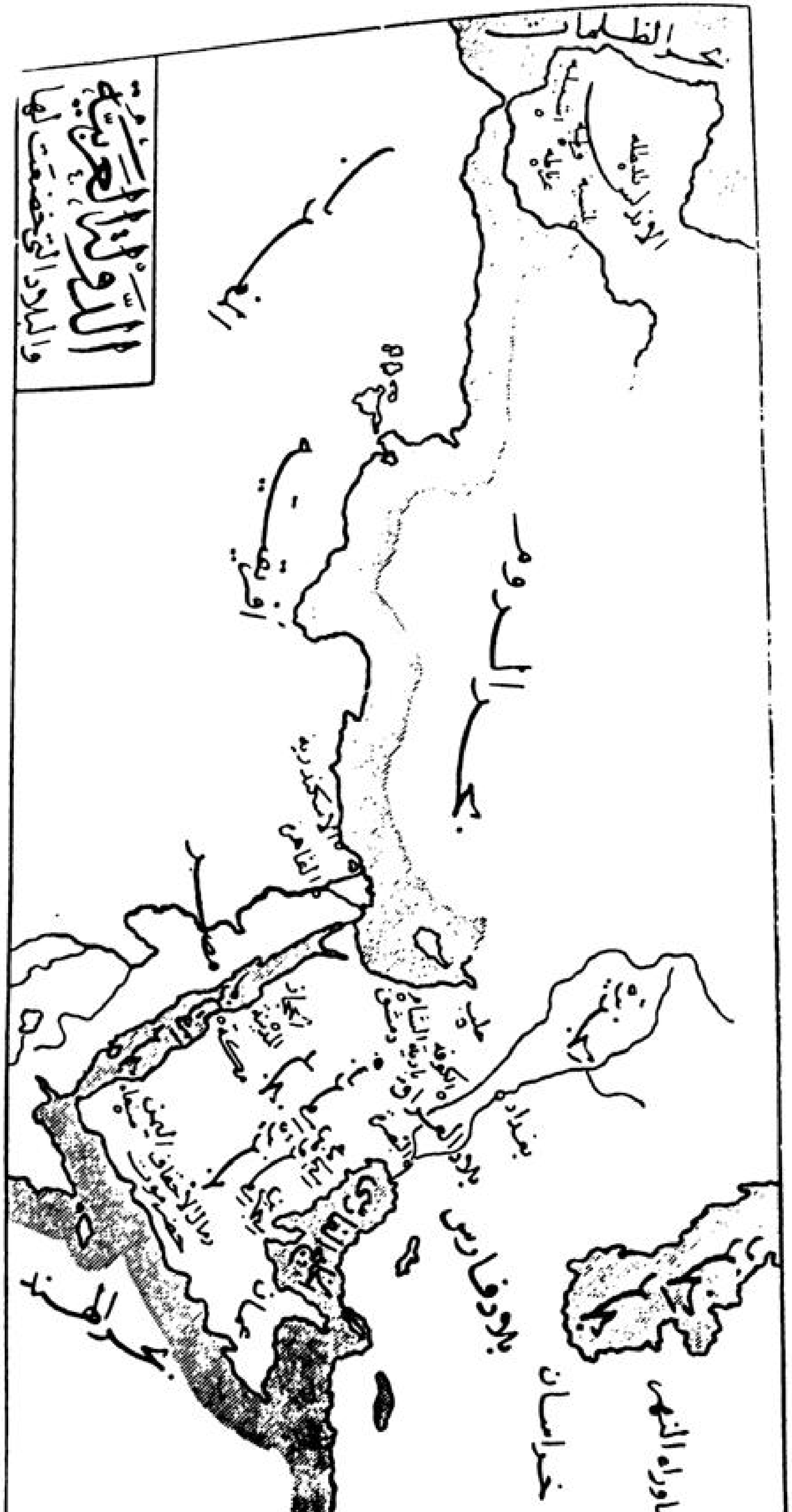
الرواية والرواة

قد علمنا مما تقدم أن عامة المروى من كلام العرب : شعرها ونثرها وأخبارها معزوٌ إلى أهل البدو الأميين ، ولذلك لم يصل إلينا كتاب يجمع بين دفتيه الكثير منها ، إلاّ ما روى عن هشام الكلبي : من أنه استخرج أخبار ملوك الحيرة من بعض صحفهم ، وإلا ما قيل من حديث الطنوج[1] التى عثر عليها المختار الثقفى تحت قصر النعمان بالحيرة . وما روى لنا من كلام فصحاء العرب ليس إلا النزر اليسير بوجوه مختلفة : من نقص وزيادة ، وتقديم وتأخير ، ووضع لفظ موضع آخر ، إذ لا يعقل أن الناس كيفما قويت ملكة الحفظ فيهم (كما هو شأنها فى الأمة العربية) يضبطون كل ما يسمعونه طبق أصله بلا تغيير ولا تبديل ، ولو كان هذا الأمر ممكناً لغنيت أمة به عن الكتابة ولن تغنى . وبالطبع لا يحفظ هذه الوديعة إلا أهل الحفاظ عليها والاعتداد بها ، وهم الشعراء والمتأدبون وأرباب الأحساب والمفاخر ، فقد كان امرؤ القيس راوية أبى دُوَاد الإيادى ، وزهير راوية أوْس ابن حجر ، والأعشى راوية المسيَّب بن علس .

واشتهر من قريش أربعة بأنهم رواة الناس للأشعار وعلماؤهم بالأنساب ، وهم : مَخرمة بن نوْفل ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وحويْطب بن عبد العزّى ، وعقيل بن أبى طالب .

---

(١) الكراريس ولا واحد لها .


بحر الظلمات
بحر الروم
بغداد
بلاد فارس
خراسان
ما وراء النهر

العصر الثانى

عصر صدر الإسلام ويشمل بنى أمية[١]

حالة اللغة وآدابها فى ذلك العصر

كانت العرب فى أخريات جاهليتها بحسب طبيعة أرضها أمماً بدوية ، وقبائل رحالة ، ليس لها من وسائل العمران وأسباب الرخاء ما يحملها على تبحر فى علم أو تبصر فى دين ، أو تفنن فى تجارة ، أو تأنق فى زراعة ، أو تدبر فى سياسة . وكانت من التدابر والتقاطع والتصاول[٢] على حال لم تقتصر على سكان القفر والوبر ، بل عمت المدن والمدَر[٣] . وعلى وَفق ذلك كانت اللغة العربية لا تعدُو أغراض المعيشة البدوية ووصف مرافقها ، وإثارة المنازعات والمشاحنات ، إلا أن روحاً من الله تنسم[٤] بين أرجائها فأيقظها من رقدتها ونبهها لضرورة التعاون على الخير فى معاشها ولغاتها وجماعاتها . فظهر ذلك بيِّناً فى الأسواق التجارية اللغوية الاجتماعية وفى الإذعان فيها إلى حكومة الأشراف والفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرهما . مما هيأهم لأن يجتمعوا تحت لواء واحد ، ويتفاهموا بلسان واحد ، فكان ذلك إيذاناً من الله بإظهار الإسلام فيهم ، وما ألفت نفوسهم هذا النمط الجديد إلا وقد جاء النبى الكريم لاماً لشعثهم ، موحداً لكلمتهم ، مهذباً لطباعهم ، منشِّئاً لهم تنشئة جديدة ، مبيِّناً طريق الحق ، وجادة الصواب ، بشريعة عظيمة تتمثل فى كلام الله وكلام

---

(١) خلفاء بنى أمية هم :

١ : معاوية بن أبى سفيان (٤١ — ٦٠)	٧ : سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩)
٢ : يزيد بن معاوية (٦٠ — ٦٤)	٨ : عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١)
٣ : معاوية بن يزيد (٦٤ — ٦٤)	٩ : يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥)
٤ : مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥)	١٠ : هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥)
٥ : عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦)	١١ : الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٦)
٦ : الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦)	١٢ : الوليد بن يزيد الأول (١٢٦ — ١٢٦)
	١٣ : مروان الجعدى (١٢٧ — ١٣٢)

(٢) التواثب والمهاجمة . (٣) الحضر . (٤) تنفس

رسوله ، فكان من نتيجة ذلك أن أسست لهم جامعة قومية وملك كبير .

أثر الإسلام في اللغة

وبالتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وأنصاره : وتفهمهم شريعته، وكلامه ثم خضوعهم بعد لزعامة(١) قومه وخلفائه وولاتهم وأعوانهم وأنصارهم ، وفتوحهم تحت ألويتهم ممالك الأكاسرة والقياصرة وغيرها : من جبال(٢) البرانس إلى الهند والصين ، ومخالطتهم أهلها بالجوار والمصاهرة — حدث في حياتهم الفكرية واللسانية ما يمكن إجماله في الأمور الآتية :

الأول — شيوع اللغة القرشية ، ثم توحُّدُ لغات العرب وتمثلها جميعها في لغة قريش . واندماج سائر اللهجات العربية فيها ، وبعض أسباب هذا يرجع إلى ما قبل الإسلام بتأثير الأسواق والحج واختيار قريش . وأكثرها يرجع إلى نزول القرآن بلغتهم ، وظهور ذلك الداعي العظيم منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على أيديهم . إذ كانوا هم القائمين بأمر الإسلام بعد فتح مكة . ومنهم كان الخلفاء والأمراء وقادة الجيوش ورجالات الدولة وأصحاب الحل والعقد الذين تألفت منهم عصبية(٣) العرب في الإسلام . وكان لهم الغلبُ على كل قبائله وأممه ، وبحكم الضرورة تكون لغتهم هي اللغة الرسمية بين كل القبائل . وإذا علمنا أن أكثر رجال الدولة العربية من السلالات المضرية وهم أولاد عم قريش ، سهل علينا أن نعرف وجه انتحال أكثر العرب لغة قريش في زمن قليل . أما ما كان باقياً من لغة حمير فلم يكن متميزاً من لغة قريش بأمر جوهري في إعراب أو أسلوب أو تصريف ، بل كان باختلاف بعض الألفاظ في دلالتها على المعاني المتحدة ، فمثلاً الشناتر ، بلغة حمير : الأصابع بلغة قريش والكُتَعُ عند حمير : الذئب عند قريش ، وأنطى في كلام حمير : أعطى في كلام قريش ، إلى غير ذلك مما له نظائر بين لغات بعض قبائل مضر أنفسها ولغات بعضها الآخر ، فمثلاً السدفةُ : الظلمةُ عند تميم ، والضوء عند قيس ،

---

(١) رآسة (٢) جنوب فرنسا .

(٣) العصبية تناصر العشيرة بعضها لبعض والمراد هنا القوة .

وهكذا . ولذلك لم تتخلف لغة حمير عن اللحاق بأخواتها من لغات العرب واندماجها فى لغة قريش .

الثانى — انتشار اللغة العربية فى ممالك الفرس والروم وغيرهما بالفتوح والمغازى[1] وهجرة قبائل البدو إليها ، واستيطانهم لها ، واختلاطهم بأهلها ، وتقرّب هؤلاء الأعاجم إليها بتعلم لغتهم والدخول فى دينهم المستمد من القرآن العربى المبين .

الثالث — ظهور اللحن فى الكلام بين المستعربين ، من الموالى وأبناء العرب من الفتيات وبعض العرب المكثرين من معاشرة الأعاجم .

اتساع أغراض اللغة

الرابع — اتساع أغراض اللغة بسلوكها منهجاً[2] دينيًّا ، واتباعها خطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنى الحضر وتتضح فيما يأتى ،

١ — تبيين العقائد الدينية التى جاء بها الإسلام : من إثبات وجود الخالق : وتوحيد ذاته ؛ وتقديس صفاته ؛ ومن الإيمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب وغير ذلك مما لم يكن يفقه بعضه إلا بعض خاصة الجاهلية ، وأصبح بعد الإسلام الشغل الشاغل لجمعيهم بل للأمة الإسلامية جمعاء .

٢ — تبيين الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لأحوال الزمان والمكان ، والكافلة لحسن معيشة المرء فى منزله ؛ ومعاملته للناس والسلطان .

٣ — استعمالها فى ضبط أمور الملك ونظام العمران ، ونشر الأمان والعدل ، وفيما تستدعيه مرافق أهل الحضر والأمصار .

٤ — وضع مبادئ بعض العلوم ، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية .

معانى اللغة

الخامس — ارتقاء المعانى ويظهر ذلك فى الأمور الآتية :

١ — اتساع مادة المعانى باتساع مادة المشاهدات والمعقولات .

٢ — حسن نظامها ومراعاةُ الوفاق بينهما . لارتقاء الفكر وتثقيفه بالنظر الصحيح فى أمور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم ، وتنوّع صور الخيال وروعة جماله ، تبعاً لتنوع المرئيات التى انتزع منها .

---

(١) الغزوات (٢) المنهج : الطريق .

السادس — تغير الألفاظ والأساليب بما يأتى :

١ — تهذيب ألفاظ اللغة : بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة فى مجانبة حُوشىّ الألفاظ الذى ينبو عنه السمعُ ، ويمجه الذوق السليم . حضارة اللغة

٢ — التوسع فى دلالة الألفاظ : بإخراجها من معنى إلى معنى بينهُ وبين الأوّل مناسبة . ومن ذلك الألفاظ التى استعملها الشارع فى غير معناها الأصلى : كالصلاة والصيام ، والزكاة ، والمؤمن والكافر . والفاسق والمنافق وغير ذلك . والألفاظ التى استعملت فى نظام الملك . ومصطلحات العلوم والصناعات التى عرفت فى ذلك العصر .

٣ — موت ألفاظ حظر الشارع استعمال مدلولاتها أو أعاض منها غيرها كالمرباع[1] والنشيطة[2] والفضول[3] وكعِمْ صباحاً ، وعِمْ ظلاماً .

٤ — دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية فى الكلام . وتسمى الكلمة حينئذ معرّبة[4] .

---

(١) المرباع ربع الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها .

(٢) ما كانوا يغنمونه عفواً فى طريقهم إلى غارة مقصودة

(٣) الفضول ما فضل من القسمة مما لا يمكن قسمه على الغزاة كفرس ونحوه ويعطى لقائد الغارة أيضاً قال الشاعر العربى :

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

(٤) التعريب أن تدخل العرب كلمة من كلام العجم فى لغتها . وتجريها غالباً على منهاج أبنية كلمها . وتنطق بها من مخارج حروفها ، ويسمى اللفظ الأعجمى بعد استعماله « معرباً » ، أو دخيلا « الصحيح منه فى غير الأعلام (على ماقاله أئمة اللغة) ما وقع فى القرآن الكريم ، أو الحديث الصحيح ، أو الشعر القديم ، أو كلام من يوثق بعربيته ، وهم عرب الجاهلية ، وعرب الإسلام الفصحاء ، إلى أواسط القرن الثانى . وما عربه المتأخرون من المترجمين والأطباء وغيرهم يسمى مولداً سواء أكان أعجمى الأصل أم محرفاً عن العربى . وقد أخذ العلماء على صاحب القاموس ذكر بعض الكلمات المولدة فى معجمه من غير أن ينبه عليها ، فأوقع بعض الناس فى لبس . والاشتقاق من الألفاظ الأعجمية سماعى كالتعريب نفسه : مثل ألجم وملجم من اللجام ، ومدرهم ومدنر من الدرهم والدينـــار .

هذا وإذا احتجنا إلى وضع أسماء لمسميات لم تعرفها العرب ، ولم تضع لها ألفاظاً ، وجب أن نأخذها من الألفاظ العربية المهجورة القابلة للتصريف والخفية على السمع . بشرط أن يكون بين المعنيين مناسبة ما ، ويسمى هذا بالوضع العرفى أو الاصطلاحى ، وهو قياسى عند علماء اللغة . لأنه مبنى على المجاز القياسى .

٥ — التأنق في صوغ الأساليب والتفنن في أنواعها وإحكام نظمها، ووصولها في البلاغة إلى غايتها: لانبعاث روح القرآن الكريم في قلوب المتكلمين بها، وسلوكهم سبيله في البيان وحسن الأداء، مؤثرين الإيجاز على الإسهاب في أكثر المواضع، إلى أن تقاصرت دونه أفهامُ الناشئين في الحضر من العرب والمستعربين من العجم آخرَ هذا العصر، فأصبح للإسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الإيجاز.

ولما كان معظم هذه التغييرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوي، ناسب أن نذكر قلاً من كثر مما ينبغي أن يقال فيهما.

القرآن الكريم وأثره في اللغة

القرآن (كتاب أحكمتْ آياته ثم فُصِّلتْ من لَدُنْ حكيم خبير) فيه آيات بينات، ودلائلُ واضحات، وأخبارٌ صادقة. ومواعظُ رائقة، وشرائعُ راقية، وآدابٌ عالية، بعبارات تأخذ بالألباب. وأساليبَ ليس لأحد من البشر بالغاً ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثلها. أو يفكرَ في محاكاتها، فهو آية الله الدائمة، وحجته الخالدة (لا يأتيه الباطلُ منْ بَين يدَيه ولَا منْ خلفه تنزيلٌ منْ حكيم حَميد) أنزله الله على رسوله ليبلغه قومه وهم فحول البلاغة وأمراء الكلام، وأباة الضيم، وأرباب الأنفة والحمية. فبهرَهم بيانه، وأذهلهم افتتانه، فاهتدى به، من صح نظرهُ، واستحصَفَ[1] عقله، ولطف ذَوْقه. وصَدّ عنه[2] أهل العناد والمكابرة واللجاج[3]، فتحدّاهم[4] أن يأتوا بمثله، فنكصوا[5]، ثم بعشر سور مثله فعجزوا، ثم بسورة من مثله فانقطعوا[6] فحق عليهم إعجازه[7]، قال تعالى (قلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنّ على أنْ

---

(١) استحكم (٢) أعرض عنه (٣) الخصومة (٤) تحدى الرجل خصمه باراه ونازعه الغلبة في الشيء (٥) احجموا (٦) انقطع في المحاجة غلب وسكت بهراً وانقطعت حجته (٧) أجمع المسلمون على أن القرآن معجز، وسلكوا إلى بيان إعجازه طرقاً شتى، ونشير هنا إلى نقطة من بحر مما قالوه. فهو معجز.

يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(1) .

وقد علمت مما تقدم فى حالة اللغة ما كان له من الأثر البين فى توحيد اللغة ونشرها وترقيتها من حيث أغراضها ، ومعانيها وألفاظها ، وأساليبها . ونزيد هنا أنه قد أثر فيها ما لم يؤثره أىّ كتاب سماويًّا كان أو غير سماوىّ فى اللغة التى كان بها ، إذ ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلاً ، وصانها من كل ما يشوّه خلقها ، ويذوى (2) غضارتها(3) ؛ فأصبحت هى اللغة الحية الخالدة من بين اللغات القديمة التى انطمست آثارها ، وصارت فى عداد اللغات التاريخية الأثرية — وأنه قد أحدث فيها علوماً جمة وفنوناً شتى لولاه لم تخطر على قلب ، ولم يخطها قلم : منها اللغة ، والنحو ، والصرف ، والاشتقاق ، والمعانى ، والبديع ، والبيان ،

أولا — من جهة أغراضه ومقاصده ، فتجده فى كل غرض وموضوع غاية فى الإبانة والجلاء ، ونهاية فى الإصابة واطراد فى الأحكام . فن تشريع خالد ، وتهذيب بارع ، وتعليم جامع وأدب بالغ ، وإرشاد شامل ، وقصص واعظ ، ومثل سائر ، إلى حكمة بالغة ، ووعد ووعيد ، وإخبار بغيب ، وغير ذلك من الأغراض والمقاصد .

وكان فحول البلاغة لا يبرز أحدهم إلا فى فن واحد من أنواع القول : فن يبرع فى الخطابة لا ينبغ فى الشعر ، ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ، ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب . ولأمر ما ضربوا المثل بامرئ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب ، والنابغة إذا رهب .

ثانياً — من جهة ألفاظه وأساليبه — فلا نجد منه إلا عذوبة فى اللفظ ، ودماثة فى الأساليب وتجاذباً فى التراكيب ، ليس فيها وحشى متنافر ، ولا سوقى مبتذل ، ولا تعبير عويص ، ولا فواصل متعملة ، على شيوع ذلك فى كلام الملفقين ، وأهل الحيعة المتروين ، حتى إنك لترى الجملة المقتبسة منه فى كلام أفصح الفصحاء منهم تفرعه جمالا ، وتشمله نوراً ، وتكسوه روعة وجلالة ، إلى إجمال فى كتاب الخاصة ، وتفصيل فى تفهيم العامة ، وتكنية للعربى ، وتصريح للأعجمى ، وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلمام ، (ولو أن فى الأرض شجرة أقلام .)

ثالثا — من جهة معانيه — فإنك تجدها من غير معين الدرب الذى منه يستقون : لاطراد صدقها ، وقرب تناولها ، واطمئنان النفوس إليها ، وابتكارها البديع على غير مثال معهود ، من حجج باهرة ، وبرهانات قاطعة ، وأحكام مسلمة ، وتشبيهات رائعة ، على تمازج وتواصل ، وبراءة من التقاطع والتدابر . وهو فى جملته نزهة النفوس ، وشفاء الصدور ، وهو الكتاب الخالد الذى لا تبديل لكلماته ، ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض ، (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

(1) مساعداً معيناً (2) يذبل (3) غضارة النبات والعيش نضارته .

والأدب ، والرسم ، والقراءات ، والتفسير ، والأصول والتوحيد ، والفقه .

نظم القرآن

ونظم القرآن من نوع النثر وإن لم يجر على مألوف العرب فى نثرها المرسل وسجعها الملتزم ، بل هو آيات وفواصل يشهد الذوق السليمُ بانتهاء الكلام عندها ، فتارة تكون سجعاً ، وطوراً تكون موازنة وازدواجاً ، وأحياناً لا تكون هذا ولا ذاك .

وفى القرآن الكريم من الحكم والأمثال وجوامع الكلم ما كان به هداية الحكيم وإرشاد الأديب — فمنها :

طائفة من الآيات الكريمة

أتأمرون الناسَ بالبرّ وتنسوْن أنفسكم — وعسى أن تكرهوا شيئاً وهُوَ خيرٌ لكم وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرّ لكم — ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون — كمْ من فئة قليلة غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصَّابرين — قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعها أذى — لا يكلّفُ اللهُ نفساً إلا وسعها — لنْ تنالوا البرّ حتى تُنفقوا مما تحبون — ولو كنتَ فظّاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك — إنْ ينصرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم وإن يخذُلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده — وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذُرِّيّةً ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً — من يعملْ سوءاً يُجزَ به ولا يجدْ له منْ دون الله وليّاً ولا نصيراً — ما على الرّسول إلاّ البلاغ — قلْ لاَ يستوى الخبيثُ والطيبُ — لكل نبإ مستقرّ — ما على المحسنينَ من سبيل — إن الله لا يُغيرُ ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم — لكل أجل كتاب — ولا تجعلْ يدَك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعدَ ملوماً محسوراً — قلْ كلّ يعملُ على شاكلته — لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ — ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوْفه — وحيل بينهم وبين ما يشتهون — ولاَ يحيقُ المكرُ السيىءُ إلاّ بأهله — قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون — هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسانُ — فاعتبروا يا أولى الأبصار — تحسبهم جميعاً وقلوبهمْ شتى .

جمع القرآن وكتابته

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال فى بضع وعشرين سنة ، وكان عليه الصلاة السلام يأمر كتاب وحيه بكتابة ما ينزل . فكانوا يكتبونه بين يديه فى عُسُب [١] أو لخاف [٢] أو أكتاف [٣] . وهو يرشدهم إلى موضع كل آية من السورة التى ينبغى أن تكون فيها . وفى صحيح البخارى أن جبريل كان يعارض [٤] النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام مرة . وأنه عارضه به فى العام الذى توفى فيه مرتين . وفى الإتقان [٥] للسيوطى أن زيد بن ثابت أكبر كتاب الوحى شهد العرضة الأخيرة التى بُين فيها ما نسخ وما بقى . وكتبها للرسول صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه . ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر فى جمع القرآن . وولاه عثمان كتابة المصاحف .

وتوفى رسول الله والقرآن كله مكتوب . وفى صدور الصحابة محفوظ . وإن لم يتفقوا فى حفظه وترتيبه لأسباب شتى . ولما رأى عمر رضى الله عنه أن القتل قد استحرّ [٦] بالحفاظ فى وقعة اليمامة [٧] حتى قُتلَ منهم سبعمائة . أشفق من ضياع القرآن . فذهب إلى أبى بكر وأخبره الخبر . وبعد أخذ وردّ اتفقا على جمع القرآن وكتابته ، وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت فجمعه من العسب واللخاف والأكتاف والصدور . وكتبه صحفاً . فكانت تلك الصحف عند أبى بكر حياته . ثم عند عمر حتى توفاه الله . ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر.

وفى مدة عثمان كثرت الفتوح وانتشر القراء فى الأمصار وقرءوا القرآن بلغاتهم على تعدّدها . وأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً . فخشى عثمان تفاقم [٨] الأمر ، فأمر زيد بن ثابت . وعبد الله بن الزبير . وسعيد بن العاص ،

---

(١) أصل السعف الذى لا ينبت عليه الخوص من الجريد (٢) حجارة بيض رقاق
(٣) مفردها كتف وهو عظم اللوح من الحيوان (٤) يقابله ويصنع معه مثل ما يصنع فى القراءة .
(٥) كتاب للسيوطى خاص بعلوم القرآن (٦) اشتد (٧) وهى الواقعة التى [illegible] مسيلمة المتنبىء الكذاب
(٨) تعاظم

وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ؛ فنسخوا تلك الصحف فى مصحف واحد مرتب السور ، واقتصر فيه من جميع اللغات على قريش لنزوله بلغتهم .

الحديث النبوى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح الناس وأبينهم وأحكمهم ، وكانت حياته كلها هداية ونوراً ؛ وأفعاله وأقواله جميعها مدداً يستمد منه الخلق سدادهم ورشادهم فى معاشهم ومعادهم ؛ ولهذا حرص المسلمون على حفظ ذلك الأثر العظيم حرصاً لم توفق إلى مثله أمة فى حفظ آثار رسولها ، فجمعوا من كلامه ووصف أفعاله وأحواله الأسفار الضخام ، ووعوْا منها فى صدورهم ما لا يدخل تحت حصر . وكلامه صلى الله عليه وسلم منزه عن اللغو والباطل ، وإنما كان فى توضيح قرآن أو تقرير حكم ، أو إرشاد إلى خير ، أو تنفير من شر ، أو فى حكمة ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم — بعبارة هى فى الفصاحة والبلاغة والإيجاز والبيان بالدرجة الثانية بعد القرآن ، ولذلك كان تأثيرها فى اللغة والأدب بالمنزلة التالية لكلام الله تعالى ، ولا سيما حكمه وجوامع كلمه التى هى القدوة الحسنة للأديب ، والحلية التى يزدان بها كلام الكاتب والخطيب .

فمن جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم :

طائفة من الأحاديث الشريفة

إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى — المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً — اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول(١) — يد الله مع الجماعة — كلٌّ ميسَّر لما خُلق له — دَعْ ما يَريبك(٢) إلى ما لا يريبك — الناس كلهم سواسية كأسنان المشط — وقوله يخاطب الأنصار : إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع — إن أحبكم إلىّ أقربكم منى مجالس يوم

(١) تكفل (٢) يجعلك شاكاً فيه لست على بينة من أمره .

...ـيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون(١) أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون . وإن أبغضكم ...ن وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون(٢) المتشدقون(٣) المتفيهقون(٤) .

ومن عجائب تمثيله وروائع كلمه قوله صلى الله عليه وسلم : إن قوماً ركبوا فى سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع . فنقر رجل منهم موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما شئت ؛ فإن أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا .

النثر

لغة التخاطب – الخطابة – الكتابة

لغة التخاطب

كانت لغة التخاطب فى مبدإ الإسلام بين العرب الخلص والموالى النابتين فيهم هى العربية الفصيحة المعربة . وكانت لغة الموالى الطارئين عليهم تقرُب من الفصيحة أو تبتعد عنها على حسب طول لُبثهم فيهم أو قصر مقامهم عندهم . ولذلك أُثِرَ عمن دخل فى الإسلام حينئذ من غير العرب (وكانت إقامته بينهم غير كافية لنسخ عجمته جُملةً) أنهم كانوا يميلون فى كلامهم العربى إلى أسلوب لغتهم الأولى ومخارج حرُوفها وإن لم يقع منهم اللحن . أو وقع قليلاً ؛ فقد روىَ أن بلالاً (٥) كان يرتضخُ(٦) لكنةً حبشية ، وسلمان(٧) لكنةً فارسيةً ، وصُهيباً(٨) لكنةً رومية ، وأن رجلاً لحن أمام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضَلّ .

ولما فتح المسلمون الأمصار ، وكثر عندهم سبيُ الأعاجم وأسرى الحروب ،

---

(١) الممهدة جوانبهم أى السهلة أخلاقهم .
(٢) الثرثار المهذار والصياح (٣) المتشدق الذى يلوى شدقه للتفصح (٤) المتنطع فى كلامه المتوسع فيه كأنه يملأ به فمه (٥) هو بلال بن رباح الحبشى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) ينزع إلى العجم فى ألفاظ من ألفاظهم (٧) هو سلمان بن الإسلام فارسى أسلم وصحب رسول الله وبعض المسلمين النصح (٨) صهيب بن سنان عربى الأصل سباه الروم وهو صغير ثم عاد إلى العرب وأسلم وصحب رسول الله وبقيت فى لسانه لكنة رومية .

ودخل فى الإسلام منهم ألوف الألوف ، وأصبحوا لهم إخواناً وشركاء فى الدين ، وتم بينهم التزاوج والتناسل — نشأ للعرب ذرّية من فتياتهم الأعجميات اختلطت عليهم ملكة العربية ، لتلقيهم عن آبائهم عربية فصيحة وعن أمهاتهم خليطاً منها ومن الأعجمية ، وكذلك كان الشأن فى المتعرّبين من الأعاجم ، إذ أصبحت لهم لغة تخاطب عربية مَشوبة بشىء من اللحن والكلمات الدخيلة وغير ذلك من أنواع التغيير والتبديل والتصحيف والتحريف . أما العرب أنفسهم بعد الفتوح فكانت لغتهم فى جزيرتهم مثل ما كانت عليه فى جاهليتهم ، وأما سُكان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر ، فالعامة منهم المخالطون للأعاجم كثيراً بالمعاملة والتسوّق[١] لم تخلُ لغتهم من لحن أو هجنة ، والخاصة منهم تشدّدوا فى المحافظة على سلائقهم وتحاموا التزوج بالأعجميات وبالغوا فى تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية ، فكانوا يرسلونهم إلى البادية ليروضوهم على الفصاحة ، وينشئوا نشأة الأعراب الفصحاء ، أو يحضرون لهم المؤدّبين والمعلمين من أفصح الناس وأعلمهم ليخرّجوهم فى الإعراب واللسَن ، كذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية وأمراؤهم اقتداء بكبيرهم معاوية بن أبى سفيان فى تربية ابنه يزيد . ومن لحن من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وأشراف العرب فى زمانهم ولو مرةً عدّوا ذلك عليه عاراً لا يمحى ، وسنةً لا تزول . ومن هؤلاء اللحانين عُبيد الله[٢] بن زياد ، والوليد[٣] بن عبد الملك ، وخالد القَسْرى[٤] مع أن بعضهم كان من أبلغ الناس وأبينهم .

ومن هنا تعلم السر فى تسرُّع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشكل والإعجام .

---

(١) تسوق القوم إذا باعوا واشتروا فى السوق .

(٢) كان والياً على العراق مدة معاوية ويزيد ابنه وكانت أمه فارسية .

(٣) هو الخليفة الأموى أشفق عليه أبوه أن يرسله إلى البادية فتربى فى مصر وتعلم العربية بالصناعة فعرض لكلامه بعض اللحن

(٤) هو خالد بن عبد الله القسرى والى العراق من قبل الخليفة هشام ، وكانت أمه نصرانية وكان من أبلغ الناس وأخطبهم وعد عليه بعض اللحن .

الخطابة فى هذا العصر

لما كان مبدأ كل انقلاب عظيم فى أىّ أمة : إما دعوةٌ دينية وإما دعوةٌ سياسية . وكانت تلك الدّعوة تستدعى ألسنة قوّالة من أهلها لتأييدها ونشرها ، وألسنة من أعدائها وخصومها لإدحاضهم والصدّ عنها ، وذلك لا يكون إلا بمخاطبة الجماعات وأصحاب النجدات فى الحفل والمنتديات . والحج والمواسم والأسواق ، ومواطن الزحف ومَقدم الوفود ونحو ذلك — كان ظهور الإسلام بالأمر الجلل والشأن الخطير والدعوة العظمى التى لم يعهد لها من قبلُ فى العالم مثيل من أهم الحوادث التى أنشطت الألسن من عُقلها . وأثارت الخطابة من مكمنها ، وأغرّت العقولَ بإحكامها والافتنان فيها ، واختلاب النفوس بسحر بيانها . فوق ما كانت عليه فى جاهليتها . فكان العملُ الأكبر لصاحب الدعوة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بادئْ أمره — غيرَ تبليغ القرآن — وارداً من طريق الخطابة . ولأمر ما جعلها الشارع شعار كل إمام فى حفل دينى أو سياسى كالجمعة والعيدين وموسم الحج الأكبر . ويوم الصف وكل أمر جامع لنشر فضيلة أو نهى عن رذيلة . أو إعلان نصر . أو تأكيد وصية . إلى غير ذلك من الأمور ذوات البال . ولذلك كان دُعاةُ النبى صلى الله عليه وسلم ورُسله إلى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه ثم خلفاؤه من بعد وعمالهم كلهم خطباء مَصاقع[١] ولسناً[٢] مَقاول[٣] أعانهم على ذلك أنهم كانوا يخطبون عرباً مثلهم . للفصاحة عندهم هزّة[٤] فى النفس وروعة فى الفؤاد . وأن الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذى لا ينهض بأعباء الخطابة . ولا سيما الدينية . لشرحها الحقائق وقرْعها الأسماع بالحجج العقلية والوجدانية . وترغيبها فى الثواب

أسباب رقى الخطابة

---

(١) جمع مصقع كمنبر البليغ أو العالى الصوت أو من لا يرتج عليه كلامه ولا يتعتع .

(٢) جمع لسان المتكلم عن القوم (٣) جمع مقول كمنبر مثل سابقه .

(٤) الهزة النشاط والارتياح .

وترهيبها من العقاب ، ولخلوها عن قيود الوزن والقافية ، ولأنها تقال بعبارات تفهمها الخاصة والعامة : من الجندى الصغير إلى القائد الكبير ، وكان لهم من القرآن وأدلته وحججه والاقتباس منه مدَد أيما مدد . ولما حدثت الفتنة بين المسلمين (أو الحرب الأهلية كما يقولون) بعد مقتل عثمان ، وافترقوا إلى عراقيين بزَعامة علىّ ، وشاميين بزعامة معاوية ، ولكل منهم دعوة يؤيدّها ، ورغبية يناضل عنها فى تلك الحرب الشعواء التى لم يُنكب الإسلام بمثلها ، ظهر فى كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم ولا يشق غبارهم . وعلى رأس العراقيين شيخ الخطباء وفحلُ البلغاء علىّ بن أبى طالب ، وعلى رأس الشاميين معاوية بن أبى سفيان وما انتهت هذه الحرب حتى تشعبت الفتنُ والآراء والمذاهب والنحل ، وتفرق المسلمون إلى شيعه[١] وخوارج[٢] وجماعية[٣] وتفرع من هؤلاء الطوائف فروع شتى : كل يبذُلُ وُسعه فى نشر مذهبه : ويدفع عنه بقائم سيفه ، ولم تَعدم كل طائفة منها خطباء يؤيدون دعوتّها بما أوتوا من البلاغة فى الخطابة والفصاحة والبيان .

وتمتاز الخطابة فى صدر الإسلام منها فى الجاهلية بأشياء :

الأوّل — سلوكها طريقاً دينيًّا فى مثل خطب الجمع والعيدين والحج والإرشاد ونحو ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة الدينية .

والثانى — اتباعها خُطة سياسية فى مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتأثيل الملك والسلطان ، وما وقع للعرب فى الجاهلية من هذا القبيل فى بعض منازعاتهم فليس بذى شأن كثير ، إذا قيس بنظيره فى الإسلام[٤] .

الثالث — قوة تأثيرها ووصولها إلى قَرارة النفوس وامتلاكها للوجدان

---

(١) الشيعة هم شيعة على رضى الله عنه وأنصاره وأنصار أهل بيته ، وتغالى بعضهم فى حبه وتفضيله إلى حد ممقوت دينياً (٢) هم قوم خرجوا فى أول أمرهم على أمير المؤمنين على واستحلوا قتاله لرضاه بأمر التحكيم فى الخلافة بينه وبين معاوية ثم خرجوا بعده على بنى أمية وبنى العباس (٣) هم الجمهور الأعظم المستجيبون لدعوة بنى أمية والخلفاء المعدودة لهم أجوبة العامة من أكثر المسلمين (٤) انظر خطبة أبى بكر يوم السقيفة .

والشعور بوعظها الزاجر ، ونصحها البالغ ، مما رقق القلوب القاسية ، وأسال الأعين الجامدة[١] .

٤ — صفاء ألفاظها ، وسهولة عبارتها ، ومتانة أساليبها ، وتجنبها سجع الكهان وقلة القصد فيها إلى سرد الحكم القصيرة الدقيقة بمناسبة وغير مناسبة ، كما كانت تفعل خطباء الجاهلية .

٥ — بداءتها بحمد الله والثناء عليه .

٦ — محاكاتها أسلوب القرآن في الإقناع ، واستمدادها من آياته ، حتى اشترط بعض أئمة المسلمين وجوب اشتمال خطبة الجمعة على شيء منه .

٧ — تنوعها بين الإيجاز والإسهاب حتى حُكي أن منها ما استغرق نصف نهار[٢] . ومنها ما لم يزد على فقرات معدودات[٣] . وقصارى الكلام أن الخطابة وصلت في هذا العصر إلى أرقى ما وصلت إليه في اللسان العربي حتى ممن يُعدّ عليهم اللحن . ولم تَسعد العربية بكثرة خطباء ووفرة خطب مثل ما سعدت به في هذا الصدر الأول . إذ كان القوم ورؤساؤهم عرباً خلصاً ، يسمعون القول فيتبعون أحسنه .

ولم يخرج الخطباء عن مألوفهم ، من اعتبار[٤] العمامة والاشتمال[٥] بالرداء واختصار المخصرة[٦] والخطبة من قيام ، إلا ما روى عن الوليد بن عبد الملك : من أنه كان يخطب جالساً . وربما كان له عذر من طبيعته . أو أنه كان يرى أن الغرض من الوقوف هو الإشراف على السامعين ، وذلك قد حصل بتعلية بني أمية درجات المنابر ، وتبعه في ذلك بعض خلفاء بني أمية وعمالهم . عادات العرب في الخطابة

---

(١) انظر خطبة رسول الله وخطبة سحبان في النماذج .

(٢) كخطبة سحبان وائل التي خطبها بحضرة معاوية يوم أن حضر وفد خراسان .

(٣) مثل خطبة خطيب الأزد حين بعث الحجاج خطباء من الأحياء إلى عبد الملك وهي : قد علمت العرب أنا حي فعال ولسنا بحي مقال ، وأنا نجزي بفعلنا عند أحسن قولهم ، إن السيوف لتعرف أكفنا ، وإن الموت ليستعذب أرواحنا ، وقد علمت الحرب الزبون أنا نفرع جماحها ونحلب صرارها (٤) لف العمامة دون التحي (٥) اشتمال بالثوب أداره على جسده كله

(٦) كالمخصرة ما يتوكأ عليها وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب ، أو الخطيب إذا خطب ، واختصر المخصرة أخذها .

نماذج من الخطب والوصايا

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال[١] : أيها الناس إن لكم مَعالم[٢] فانتهوا إلى مَعالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه . وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبز . ومن الحياة قبل الممات . فوالذى نفسُ محمد بيده ما بعد الموت من مُستعتب[٣] وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار .

وخطب معاوية رضى الله عنه (وهى آخر خطبة خطبها) فبعد أن صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه . ثم قبض على لحيته وقال :

أيها الناس إنا من زرع قد استحصد ، وقد طالت عليكم إمرَتى حتى مَللتكم ومللتموى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى . وإنه لا يأتيكم بعدى إلاّ من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى . وإنه من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه . اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبب لقائى . ثم نزل فما صعد المنبر حتى مات .

وخطب عمرو بن سعيد[٤] عند عقد البيعة ليزيد

لما عقد البيعة معاوية رحمه الله لابنه يزيد قام الناس يخطبون ، فقال معاوية لعمرو بن سعيد : قم يا أبا أمية . فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن يزيد بن معاوية أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه ، إن استضفتم إلى حلمه وسعكم . وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم . وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، جذَعٌ[٥] قارح[٦] سوبقَ فسبق ، وموجِد فمجَد ، وقورع ففاز سهمُه . فهو

---

(١) رواية الكامل للمبرد (٢) معلم الشىء كمقعد ما يستدل به عليه (٣) مسترضى .
(٤) هو عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق الأموى جعله مروان ولى عهده فى الخلافة ثم جعله ولى عهد ابنه عبد الملك فخرج على عبد الملك فاحتال عليه فقتله سنة ٧٠ هـ .
(٥) الشاب الحدث (٦) أى شديد مجرب .

خلف أمير المؤمنين ، خلف منه ، فقال معاوية : أوسعت يا أبا أمية فاجلس .

وخطب عمر بن عبد العزيز وهى أول خطبة له :

أيها الناسُ أصلحوا سرائركم ، تصلحْ لكم علانيتكم ، أصلحوا آخرتكم ، تصلحْ دُنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمعرْق فى الموت .

وأوصى قيس بن عاصم المِنقرى[١] بنيه عند احتضاره فقال :

يا بنىّ احفظوا عنى ثلاثاً ، فلا أحدَ أنصحُ لكم منى ، إذا أنا مُتّ فسوّدوا كباركم ولا تسوّدوا صغاركم ، فيحقرَ الناسُ كباركم ، وتهونوا عليهم . وعليكم بحفظ المال فإنه منبهة للكريم ، ويُستغنى به عن اللئيم ، وإياكم والمسألة ، فإنها آخر[٢] كسب الرجل .

وأوصى عمر بن الخطاب الناس فقال : علموا أولادكم العوْم والرّماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ، وروّوهم ما يجمل من الشعر .

وروى المبرد فى الكامل : أن عبد الله بن عباس قال : قال لى أبى : يا بنىّ إنى أرى أمير المؤمنين قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار ، فاحفظ عنى ثلاثاً : لا يجرّبنّ عليك كذباً ، ولا تغتبْ عنده مُسلماً ، ولا تفشين له سرًّا — قال فقلت له : يا أبت كل واحدة منها خير من ألف ، فقال : كل واحدة منها خير من عشرة آلاف .

الخطباء

ليس فى عصور أهل اللغة عصرٌ أحفل بالخطباء المعروفين نسباً وقولاً وعملاً من هذا العصر . إذ كانت الخطابة فيه سَلسَةَ القياد على خلفائه وزعمائه لفطرتهم العربية ومحلهم من الفصاحة والبيان ، وانطباعهم على أساليب القرآن . واتساع مداركهم . ولهذا نكتفى بذكر الخطباء من الخلفاء الراشدين ، وبعض ولاة المسلمين وفصحاء الناس . لأن الخطابة إذ ذاك كانت من أعظم أعمال الإمامة والولاية .

(١) منقر بطن من سعد من تميم . وفد على رسول الله سنة تسع فأسلم وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « هذا سيد أهل الوبر » وكان من أحلم الناس .

(٢) يقصر المرء أدنى وأرذل — من الكامل للمبرد .

(١) أبو بكر الصديق رضى الله عنه

هو أبو بكر عبد الله عتيق[١] بن أبي قحافة عثمان صاحب رسول الله ، وأول صديق له في الإسلام ، وخطيب يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب ، ولد بعد مولد رسول الله بسنتين وبضعة أشهر ، ونشأ من أكرم قريش خلقاً . وأرجحهم حلماً ، وأسماهم يداً وأشدهم عفة . وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها . صحب رسول الله قبل النبوة ؛ وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدّقه في كل ما جاء به ؛ ولذلك سمي الصديق ؛ وأنفق أمواله في تأييد دعوته ، وهاجر معه إلى المدينة مؤثراً صحبته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوّته في معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب وارتدت عن الإسلام ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف . فجرد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الإسلام وساقهم توًّا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر ، وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم ، وكانت وفاته سنة ١٣ هـ .

وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً . خطيباً مفوّهاً حاضر البديهة . قوى الحجة . شديد التأثير ، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة . وذلك أنه لما مات رسول الله احتلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفةً له عليهم ؛ فأبت الأنصار . إلا أن يكون الخليفة منهم ؛ وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم ؛ واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة ؛ فخطبهم خطبة[٢] لم يلبث الجمع بعدها أن بايعوه خليفة .

(١) هو لقب لأبي بكر لقب به لجماله . أو لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار .

(٢) ويظن أنها خطبة طويلة لم يبق في حفظ الرواة منها إلا اليسير ، ومن وصفها ما قاله عمر رضى الله عنه : وقد كنت زورت في نفسي مقالة أقدمها بين يدى أبي بكر ، وقد كنت أدارى منه بعض الحد وكان هو أوقر منى وأحلم ، فلما أردت أن أتكلم قال : على رسلك فكرهت أن أغضبه فقام فحمد الله وأثنى عليه فما ترك شيئاً كنت زورت في نفسي أن أتكلم به لو جاء به أو بأحسن منه

(١) أبو بكر الصديق رضى الله عنه

هو أبو بكر عبد الله عَتيق(١) بن أبي قُحافة عثمان صاحب رسول الله ، وأول صديق له فى الإسلام ، وخطيب يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مُرّة بن كعب ، ولد بعد مولد رسول الله بسنتين وبضعة أشهر ، ونشأ من أكرم قريش خلقاً . وأرجحهم حلماً ، وأسماهم يداً وأشدهم عفة . وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها . صحب رسول الله قبل النبوة ؛ وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به ؛ ولذلك سمى الصديق ؛ وأنفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معه إلى المدينة مؤثراً صحبته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوّته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب وارتدت عن الإسلام ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف . فجرد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الإسلام وساقهم توًّا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر ، وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم ، وكانت وفاته سنة ١٣ هـ .

وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً . خطيباً مفوّهاً حاضر البديهة . قوى الحجة . شديد التأثير ، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة . وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونهُ خليفةً له عليهم . فأبت الأنصار . إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة(٢) لم يلبث الجمع بعدها أن بايعوه خليفة .

(١) هو لقب لأبى بكر لقب به لجماله ، أو لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار .

(٢) ويظن أنها خطبة طويلة لم يبق فى حفظ الرواة منها إلا اليسير ، ومن وصفها ما قاله عمر رضى الله عنه : وقد كنت زورت فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر ، وقد كنت أدارى منه بعض الحد وكان هو أوقر منى وأحلم ، فلما أردت أن أتكلم قال : على رسلك فكرهت أن أغضبه فتكلم فحمد الله وأثنى عليه فما ترك شيئاً كنت زورت فى نفسى أن أتكلم به لو تكلمت إلا وقد جاء به أو بأحسن منه .

خطبة يوم السقيفة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناسُ نحن المهاجرن أوّل الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادةً فى العرب وأمسّهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدّمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى (والسابقونَ الأولونَ منَ المهاجرينَ والأنصار والذينَ اتبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء[1] وأنصارُنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تَدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تَنفسوا[2] على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

(٢) عمر بن الخطاب - رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب القرشى ثانى خليفة لرسول الله وأول من تسمى من الخلفاء بأمير المؤمنين ، وأوّل من أرخ بالتاريخ الهجرى ، ومصر الأمصار ، ودوّن الدواوين .

ولد رضى الله عنه بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثَ عشرةَ سنةً ، وكان فى الجاهلية من كبار قريش وزعمائها ، فكان يُسفر بينها وبين قبائل العرب فى الحروب والمفاخرات ونحوها ، وكان شجاعاً صنديداً ، وحازماً أيِّداً . وكان فى مبدإ الدعوة إلى الإسلام من أكبر أعداء الرسول ، ثم هداه الله فأسلم ، وأعز الله به دينه وحضر مع رسول الله الغزوات كلها . ثم لما قُبض أعان أبا بكر على تولية الخلافة ، ولما أحسَّ أبو بكر بالموت عهدَ بها إليه ؛

(١) الغنيمة والخراج (٢) نفس عليه خيراً حسده عليه ، ولم يره له أهلا (أساس)

فقام بأعبائها خير قيام ، وأتمّ بحزمه وعزمه وسياسته وكياسته وزهده وعفته وحرصه على مصلحة المسلمين جميع ما شرع فيه أبو بكر ، من فتح ممالك كسرى وقيصر .

وقتله غيلةً غلامٌ مجوسيّ هو الشقيّ أبو لؤلؤةَ عبدُ المغيرة بن شعبةَ لأنه لم ينصفه على زعمه فى تخفيض ما يدفعه لسيده من أجرة عمله . وكان قتله سنة ٢٣ هـ .

وكان رحمه الله من أبين الناس منطقاً ، وأبلغهم عبارة ، وأكثرهم صواباً وحكمة وأرواهم للشعر ، وأنقدهم له .

ومن خطبه خطبته إذ ولى الخلافة(١) :

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس ! إنى داع فأمّنوا . اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة . وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدّعارة(٢) والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سُمْعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدارَ الآخرة ، اللهم ارزقنى خفضَ الجناح ولينَ الجانب للمؤمنين . اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكر الموت فى كل حين . اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا يكون إلاّ بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يُرْضيك عنى والمحاسبة لنفسى ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات . اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه والعملَ بذلك ما بقيتُ ، إنك على كل شىء قدير .

---

(١) من العقد الفريد ؛ (٢) الخبث والفجور .

(٣) عثمان بن عفان – رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان القرشيّ الأمويّ ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وموحّد نسخ القرآن المبين . ولد فى السنة السادسة من مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وآمن فى السابقين الأولين ، وبذل ماله الكثير فى تأييد الإسلام ومعونة المجاهدين . وشهد مغازى رسول الله كلها إلا بدراً ، وقد كان عُمر قبل وفاته عهد بالخلافة إلى ستة هو منهم تنتخب الأمة أحدهم خليفة ، فانتخبوا عثمان ، فأكمل مغازى عمر . ومضت على خلافته ست سنين لم يحدث عليه فيها شغب ، ثم ثار عليه بعض الأعراب النازلين بمصر والعراق ، بحجة أنه يؤثر أقرباءه بولاية الأقاليم ، غير ناظرين إلى كفايتهم ، ولا إلى وثوق الخليفة بهم ونصحهم له ، فحاصروه فى داره بالمدينة وتسوّروها عليه ، وقتلوه وهو يتلو القرآن فى المصحف سنة ٣٥ هـ فكان قتله سبب الفرقة بين المسلمين واجترائهم على مقام الخلافة وقتل الخلفاء والخروج عليهم .

وكان رحمه الله من بلغاء الخلفاء . وأوجزهم لفظاً . وأجزلهم معنى ، وأسهلهم عبارة . ومن خطبه خطبته بعد أن بويع . وهى بعد الحمد والثناء :

أما بعد فإنى قد حُمّلت وقد قبلت ، ألا وإنى متبع ولست بمبتدع ، ألا وإن لكم علىّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتباعَ من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم . وسنّ سنّة أهل الخير فيما تسُنوا عن ملأ . والكفّ إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم . فلا تركنوا إلى الدنيا ، ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها .

(٤) على بن أبى طالب — كرم الله وجهه

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علىّ بن أبى طالب ، وابن عم رسول الله ، وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين ، وإمام الخطباء من المسلمين .

ولد رحمه الله بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعاً لا يشق له غبار ، أيِّداً جليداً ، شهد الغزوات كلها مع النبى إلا غزوة َتبوك ، وأبلى فى ُنصرة رسول الله ما لم ُيبله أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز ، وامتنع عن بيعته معاويةُ وأهلُ الشام شيعةُ بنى أمية غضباً منهم لمقتل عثمان ، وقلة عنايته بالبحث عن معرفة القتلة على حسب اعتقادهم فحدث من جرّاء ذلك الفتنةُ العظمى بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين ، فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلىّ أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج عليًّا غيلةً بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ .

وكان رحمه الله أفصح الناس بعد رسول الله وأكثرهم علماً وزُهداً . وشدّة فى الحق ، وهو إماء الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخطبه كثيرة — منها خطبته كرم الله وجهه بعد التحكيم وهى :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح[١] ، والحدَث الجلل[٢] ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله . أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرِّب ُتورث الحيرة وُتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة[٣] أمرى ونخلت لكم مخزون رأيى ، لو كان يطاع لقصير[٤] أمر : فأبيتم علىّ

---

(١) من فدحه الدين أثقله (٢) العظيم .

(٣) أى حكومة الحكمين عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى (٤) هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان حاذقاً ، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة فخالفه فقصدها إجابة لدعوتها إلى زواجه فقتلته ، فقال قصير « لا يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا

إزاء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزَّنْد بقَدْحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هَوَزان[١] :

أمرتهم أمرى بمنعرَج اللوى — فلم يستبينوا النصح إلا ضُحى الغد

(٥) سحبان وائل

هو سَحبان بن زُفر بن إياد الوائلى ، الخطيب المصقع ، المضروب به المثل فى البلاغة والبيان ، نشأ فى الجاهلية بين قبيلة وائل إحدى قبائل ربيعة ، ولما ظهر الإسلام أسلم وتقلبت به الأحوال حتى التحق بمعاوية رضى الله عنه. فكان يعده للملمات ويتوكأ عليه عند المفاخرة. لقوة عارضته وسرعة خاطره.

قدم على معاوية وفد من خراسان وفيهم سعيد بن عثمان بن عفان فطلب سحبان فلم يجده فى منزله ، فاقتضب من ناحية اقتضاباً وأدخل عليه ، فقال له معاوية تكلم فقال : أحضروا لى عصاً — قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ — قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه — فضحك معاوية وأمر له بإحضارها فلما وصلت إليه رَكلها[٢] فلم ترق فى نظره فطلب عصاه فأخذها ، ثم خطب من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقف ، ولا تلكأ ، ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى دهشَ منه الحاضرون ، فأشار إليه معاوية بيده ، فأشار إليه سحبانُ لا تقطع كلامى — فقال معاوية : الصلاة ، قال : هى أمامك ، نحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب — قال سحبان : والعجم والجن والإنس .

وكان سحبانُ إذا خطب يسيل عرقا . ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ .

ومما يؤثر من خطبه قوله[٣] :

---

(١) هو دريد بن الصمة (٢) ركل الشىء برجله رفسه والمراد هنا خبرها ليعرف صلابتها

(٣) ونسبها القالى فى الأمالى لبعض الأعراب فى صدرى بنى العباس . ولعل السر فى عدم تدوين خطبه أنه كان يميل إلى الإطالة التى يعجز الرواة معها عن الحفظ ، على أنها لم تكن سياسية والقوم كانوا فى هذا العصر مغرمين بالسياسة .

إن الدنيا دار بلاغ . والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار ممركم لدار مقرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ولغيرها خلقتم . إن الرجل إذا هلك ؛ قال الناس : ما ترك ؟ وقال الملائكة : ما قدّم ؟ قدموا بعضاً يكون لكم ولا تخلفوا كُلاً يكون عليكم .

(٦) زياد بن أبيه

هو أحد دهاة العرب وساستها وخطبائها وقادتها .

منشؤه — كان للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب ، أمة تسمى سمية قرنها بعبد له رومى يدعى عبيداً . فولدت له زياداً هذا فى السنة الأولى من الهجرة ؛ فنشأ غلاماً فصيحاً ، شجاعاً ، داهياً ، قارئاً كاتباً . فما افتتحت العرب الممالك والأمصار حتى عرف منه ذلك ، فاستكتبه أبو موسى الأشعرى والى البصرة من قبل عمر (رضى الله عنه) . فأظهر من الحذق وحدة الذكاء وبعد الغور ما جعل أمير المؤمنين يقول عند ما عزله عن عمله « إنه لم يعزله لعجز ولا خيانة ؛ وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله » غير أن ذلك لم يكن ليصده عن استكفائه بعضَ مهامّ أموره ، فكان فى جميعها مرضىّ المقام ؛ محمود الأثر ، حتى قال فيه عمرو ابن العاص « لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق الناس بعصاه ! » .

ولما رأى أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه حصافة عقل زياد وحسن بلائه وفصاحة لسانه ؛ أسر إلى بعض قريش ومنهم على (كرم الله وجهه) بأن زياداً ابنه ، اشتملت عليه سميةُ منه وهو مشرك ، ولكنه لم يستلحقه علانية أنفة منه .

ولما ولى أمير المؤمنين علىّ الخلافة اضطربت عليه فارس ، فاستشار الناس فيمن يكفيه أمرها ، فأشار بعضهم بزياد ، فسار إلى فارس بجمع كثير ، فتمكن بخداعه ودهائه من إيقاع النفور والشقاق بين رؤساء المشاغبين ، وما زال

...بعضهم ببعض حتى سكنت ثائرتهم ، ولم يلق منهم حرباً ولا كيداً .
وبق يتولى لعلى الأعمال حتى قتل علىّ ، فخلفه معاوية واهتم لهُ كثيراً ،
وأرسل إليه المغيرة ابن شعبة يتلطف له ويستقدمه ، فقدم عليه فادّعاه أخاً
له . واستلحقهُ بنسب أبيه أبى سفيان بشهادة شهود فى محضر من الناس ،
وصار يسمى زياد بن أبى سفيان بدل زياد بن عبيد ، والمتورعون يسمونه
(ابن سمية أو ابن أبيه) .

وولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعُمان ، ثم ضم إليه الكوفة . فأصبح بذلك والياً على العراقين ، وهو أول من جمع له بينهما . فسار فى الناس سيرة لمّ بها الشعث ، وأقام المعوجّ ، وكبح الفتنة واشتطّ فى العقوبة . وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، حتى أكد الملك لمعاوية ، وحتى شمل خوفهُ جميع الناس ، فأمن بعضهم بعضاً .

وكان الشىء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد ، حتى يأتى صاحبه فيأخذه . بل كان لا يُغلق أحد بابه . وكان زياد يقول : « لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه » . وكان مكتوباً فى مجلسه عنوانُ سياسته وهى : الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسىء يعاقب بإساءته .

أما فصاحته فيكفيك فى وصفها ما رواه الجاحظ عن الشعبى قال : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلاّ أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسىء إلا زياداً ، فإنه كلما أكثرَ كان أجود كلاماً ، وتوفى بالكوفة فى رمضان سنة ٥٣ هـ . ومن خطبه البليغة خطبته حين قدم إلى البصرة وهى[1] .

أما بعدُ فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغىّ الموفِيَ بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور التى ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا

---

(١) كما فى صبح الأعشى وتروى فى البيان والتبيين والطبرى والعقد الفريد بروايات مختلفة .

ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يزُول . إنه ليس منكم إلا من طرفت عينَهُ الدنيا وصدَّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه : من تَرككم الضعيفَ يُقهر ، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تنصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير متفرق . ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ! قرَّبتم القرابة وباعدتم الدين ! تعتذرون بغير العذر ، وتغضُون على النكر . كل امرئٌ منكم يرد عن سيفه ، صُنعَ من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو مَعاداً . فلم يزل بهم ما تروْن من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً[١] فى مكانس الرِّيب ؛ حرام علىَّ الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير بالأرض هدْماً وإحراقاً ! إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوَّله : لينٌ فى غير ضعف ، وشدَّة فى غير عنف وإنى لأقسم بالله لآخذَنَّ الولىَّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيعَ بالعاصى ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقولَ « انجُ سعدُ فقد هَلكَ سُعيد »[٢] أوْ تستقيم لى قناتكم . إنَّ كذبة الأمير بَلقاءُ[٣] مشهورة ، فإذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى . وقد كان بينى وبين قوم إحنٌ[٤] فجعلت ذلك دَبر[٥] ، أذنى وتحت قدمى . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضى لم أكشف له قناعاً . ولم أهتك له ستراً . حتى يُبدىَ لى صفحته . فإذا فعل ذلك أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فربَّ مبتئس بقدومنا سيسر . ومسرور بقدومنا سيبتئس ! أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة[٦] : نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما وَلينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا .

---

(١) جمع كانس أى مستتر — ومكانس الريب مكامنها المستترة .

(٢) مثل يضرب فى تتابع الشر (٣) أى كالدابة البلقاء لأن شيتها تشهرها

(٤) أحقاد (٥) خلف (٦) مدافعين .

(٧) الحجاج

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى ، رجل ثقيف ، وأحد جبابرة العرب وساستها وقادتها وحكامها ، وموطّدُ ملك بنى أمية ، وأحد البلغاء والخطباء المصاقع .

ولد سنة ٤١ هـ . وكان هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف موطن ثقيف ، ثم لحق برَوْح بن زِنباع الجذامى أحد أعوان عبد الملك بن مروان فكان فى شرطته ثم صار رئيسها .

وأوّلُ ما اشتهر من أمره قيادته الجيشَ الذى وُجّه لقتال عبد الله بن الزبير ، فسار إليه وحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه ، فولاه عبد الملك العراق وكان كله ناراً ملتهبة بفتنة الشيعة والخوارج ، فاستعمل من الشدة والقسوة وسفك الدماء وإرهاب الأمة ما لم يُسمع بمثله ، وجدّد الملك لبنى أمية . وكانت عاقبة أمره أمرين عظيمين : أولهما يُمدَح عليه : وهو جمع أشتات المسلمين تحت راية واحدة هى راية الخليفة العربى الأموى ، وثانيهما يُذَم به : وهو إذلال الأمة العربية إذلالا لم تَعهدْه منذ خُلقت ، بما قتل من نخوتها ، وسلب من حريتها ، وأخرس من ألسنتها ، فدخلت بعده فى طور خضوع

---

(١) وأول ما عرف من كفايته أن عبد الملك بن مروان شكا ما رأى من انحلال العسكر وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله حين توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عندما خرج عليه — فقال له روح بن زنباع يا أمير المؤمنين إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله . يقال له الحجاج بن يوسف — قال فإنا قد قلدناه ذلك ، فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون — فقال لهم : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين — فقالوا له : انزل يا ابن ... فكل معنا — فقال هيهات ذهب ما هنالك ، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً فقال له مالك ، فقال : يا أمير المؤمنين الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى — قال على به ! فلما دخل عليه قال : ما حملك على ما فعلت ، قال ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين — قال ومن فعله قال أنت والله فعلت ، إنما يدى يدك وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له . فأخلف لروح بن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج فى منزلته وكان ذلك أول ما أعجب عبد الملك منه .

وامتثال للحكام المستبدين أكمل بقيته نصراء الدولة العباسية من الأعاجم .

وخدم الحجاج بولايته عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، حتى كان ملكه ما بين الشام والصين . ومات سنة ٩٥ هـ . فى مدينة واسط[١] التى بناها بالعراق .

وكان الحجاج آية فى البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة . قال الأصمعى : أربعة لم يَلحنوا فى جدّ ولا هزل : الشعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف[٢] وابن القِرِّيّة[٣] ، والحجاج أفصحهم . وقال مالك بن دينار : ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه ، حتى إنى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين .

ومن مآثره ما يأتى لك من اهتمامه بوضع النقط والشكل للمصحف وغيره ، ونسخه عدة مصاحفَ من مصاحف عثمان ، وإرسالها إلى بقية الأمصار .

ومن خطبه المشهورة خطبته لما قدم أميراً على العراق . فإنه دخل المسجد مُعْتَمّاً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه مُتقلداً سيفاً ، متنكباً[٤] قوساً يؤمّ المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض . قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عمير ابن ضابئ البرجمى : ألا أحصِبهُ لكم — فقالوا أمهل حتى ننظر ، فلما رأى عيونَ الناس إليه حسر اللِّثام عن فيه ونهض ثم قال :

---

(١) بلد بالعراق (٢) زعم بعضهم أن الحجاج قد أخطأ ونسب له ما يأتى : قال الحجاج للشعبى كم عطاؤك فى السنة قال ألفين — قال ويحك كم عطاؤك قال ألفان — قال وكيف لحنت أولا ؟ قال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت ، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له والمستطيل عليه بفضل القول ، وروى أيضاً أن الحجاج قال ليحيى بن يعمر أتسمعنى ألحن قال حرف واحد قال فى أى قال فى القرآن قال ذلك أشنع ! ثم قال له ما هو ؟ قال : تقول « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله » فتقرأ أحب بالرفع قال الحجاج لا جرم أنك لا تسمع لى لحناً بعد هذا ثم ألحقه بخراسان (٣) هو أيوب بن يزيد والقرية أمه (٤) تنكبت القوس ألقيتها على منكبى .

أنا ابنُ جلا وطلاّعُ الثنـــايا   متى أضع العمامة تعرفونى

ثم قال: يا أهل الكوفة إنى لأرى رءوساً قد أينعتْ وحان قطافها ، وإنى لصاحبُها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ، ثم قال :

هذا أوانُ الشدّ فاشتدّى زِيَمْ (١)   قد لَفَّها (٢) الليل بسوّاق حُطَمْ (٣)

ليس براعى إبل ولا غنمْ   ولا بجزّار على ظهرْ وَضَمْ (٤)

قد لفهـــا الليـــل بعصْلَبِىٍّ (٥)   أرْوعَ (٦) خرّاج من الدّوّىِّ (٧)

مهـــاجر ليس بأعـــرابىّ

قد شمرت عن ســـاقها فشُــدّوا   وجدّت الحربُ بكم فجدّوا

والقـــوْسُ فيها وترٌ عُرُدّ (٨)   مثلُ ذرَاع البكر (٩) أو أشدّ

لا بدّ مما ليس منـــه بدّ

إنى والله يا أهل العراق ما يُقعقعُ لى بالشِّنان (١٠) ولا يُغمز جانبى كتَعماز التين ، ولقد فُررتُ (١١) عن ذكاء وفُتِّشت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته (١٢) بين يديه فعَجَم (١٣) عيدانها ، فوجدنى أمرّها (١٤) عوداً ، وأصلبها مكسراً فرماكم بى . لأنكم طالما أوْضعتم (١٥) فى الفتنة . واضطجعتم فى مراقد الضلال ، والله لأحزمنّكم حزم السلمة (١٦) ، ولأضربنكم ضرب غرائب (١٧) الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنةً

---

(١) اسم فرس أو ناقة   (٢) جمعها .

(٣) لا يبقى من السير شيئاً   (٤) كل ما قطع عليه اللحم   (٥) شديد   (٦) ذكى

(٧) الدوى الصحراء أى خراج من كل عماء شديدة ، والدوية الصحراء المتسعة التى تسمع لها دوياً بالليل   (٨) شديد   (٩) الفتى من الإبل   (١٠) الشنان جمع شن وهو الجلد اليابس فإذا قعقع به أى ضرب نفرت الإبل منه ، يضرب ذلك مثلا لنفسه .

(١١) فر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وعن الأمر بحث عنه .

(١٢) الكنانة جعبة السهام من جلد   (١٣) عضها لينظر أيها أصلب   (١٤) أقواها

(١٥) الإيضاع حث الدابة على الإسراع . والمراد أسرعتم فى الشر

(١٦) نوع من الشجر ، وذلك لأن الأشجار تعصب أغصانها تختبط بالعصى لسقوط الورق والعيدان والهشيم   (١٧) وهى تضرب عند الحرب وعند الخلاط وعند الحوض أشد الضرب .

مطمئنةً يأتيها رزقها رَغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقول إلا وَفيت ، ولا أهمّ إلاّ أمضيت ، ولا أخلق[1] إلا فَريَت[2] ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجّهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلّب[3] بن أبى صُفرة . وإنى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلاّ ضربت عنقه .

الكتابة

للكتابة كما أسلفنا معنيان : خطية وإنشائية

الكتابة الخطية

كان الخط الذى يكتب به العرب فى مبدإ ظهور الإسلام هو الخط الأنبارى الحيرى المسمّى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازى ، وهو أصل النسخ ، وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة ، وبعض أفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من اليهود فلما انتصر النبى صلى الله عليه وسلم على قريش فى يوم بدر وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب ، فقبل الفداء من أميّهم وفادَى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة ، فانتشرت الكتابة بين المسلمين . وحض النبى على تعلمها ، وتمكن أمرها بعد فتح مكة واجتماع شمل المهاجرين منها والأنصار . فما تم نزول القرآن حتى كان لرسول الله أكثر من أربعين كاتباً .

---

(١) أقدر (٢) قطعت (٣) هو أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة الأزدى البصرى قائد قواد الأمويين ومبيد الخوارج ومبتدع الركب الحديدية . ولد بالبصرة ونشأ بها وظهر أمره فى مقاتلة الخوارج مدة الحجاج وقد أبلى فى مقاتلتهم هو وأولاده أعظم بلاء حتى أخل البصرة منهم فنسبت إليه فقيل بصرة المهلب . وولاه الحجاج خراسان فأقام بها حتى مات سنة ٨٢ هـ . على ما رواه الطبرى . وله كلمات مأثورة منها : الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة . لو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها ما يقال فى غداً إذا مت - يا بنى أحسن ثيابكم ما كان على غيركم .

ومن أشهر كتاب الصحابة النفر الأربعة الذين كتبوا المصاحف لعثمان ، وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . ولما فتح المسلمون الممالك ومصروا الأمصار ونزلت جمهرة الكتاب منهم الكوفة عُنوا بتجويد الخط العربى وَهندَسة أشكاله وتمطيط عراقاته (كاساته) حتى صار خط أهل الكوفة ممتازاً بشكله من الخط الحجازى ، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفى) وبه كانت تكتب المصاحف المجوَّدَةُ الخط ، وحلى القصور والمساجد ، وسك النقود . وبقى الحجازى مستعملاً فى المكاتبات العادية . ثم حدث فى الكوفى أنواع بعد هذا العصر نذكرها بعد .

وكان الصحابة وتابعوهم من بنى أمية يكتبون بلا إعجام[١] ولا شكل إلا قليلاً . اعتماداً منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة ، واكتفائهم بالرمز القليل فى قراءة اللفظ . فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم ، وظهر اللحن والتحريف فى الألسنة وفى قراءة القرآن . أشفق المسلمون على تحريف كلم الكتاب الكريم فوضع أبو الأسود الدّؤلى[٢] علامات فى المصاحف بصبغ مخالف ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف . والكسرة نقطة أسفله ، والضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجعل التنوين نقطتين . وكان ذلك فى خلافة معاوية .

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المداد الذى كان يكتب به الكلام حتى لا يختلط بنقط أستاذهما أبا الأسود . وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان . ثم شاع فى الناس بعدُ ، كما ترى ذلك واضحاً فى النماذج الآتية :

---

(١) لعل الإعجام بالنقط لتمييز الحروف سابق هذا العهد إلا أنه لم يكن ملتزماً وربما لم يكن شاملا لجميع ما أعجمه نصر ويحيى .

(٢) هو ظالم بن عمرو الدؤلى من سادات التابعين وأعيانهم كان من أكمل الرجال رأياً وأسدهم عقلا . وهو أول من وضع النحو واخترع الشكل بالنقط توفى بالبصرة سنة ٦٩ هـ . عن خمسة وثمانين عاماً .

ومن أشهر كتاب الصحابة النفر الأربعة الذين كتبوا المصاحف لعثمان ، وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . ولما فتح المسلمون الممالك ومصروا الأمصار ونزلت جمهرة الكتاب منهم الكوفة عُنوا بتجويد الخط العربي وهندسة أشكاله وتمطيط عراقاته (كاساته) حتى صار خط أهل الكوفة ممتازاً بشكله من الخط الحجازى ، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفى) وبه كانت تكتب المصاحف المجوّدةُ الخط ، وحلى القصور والمساجد ، وسك النقود . وبقى الحجازى مستعملاً فى المكاتبات العادية . ثم حدث فى الكوفى أنواع بعد هذا العصر نذكرها بعد .

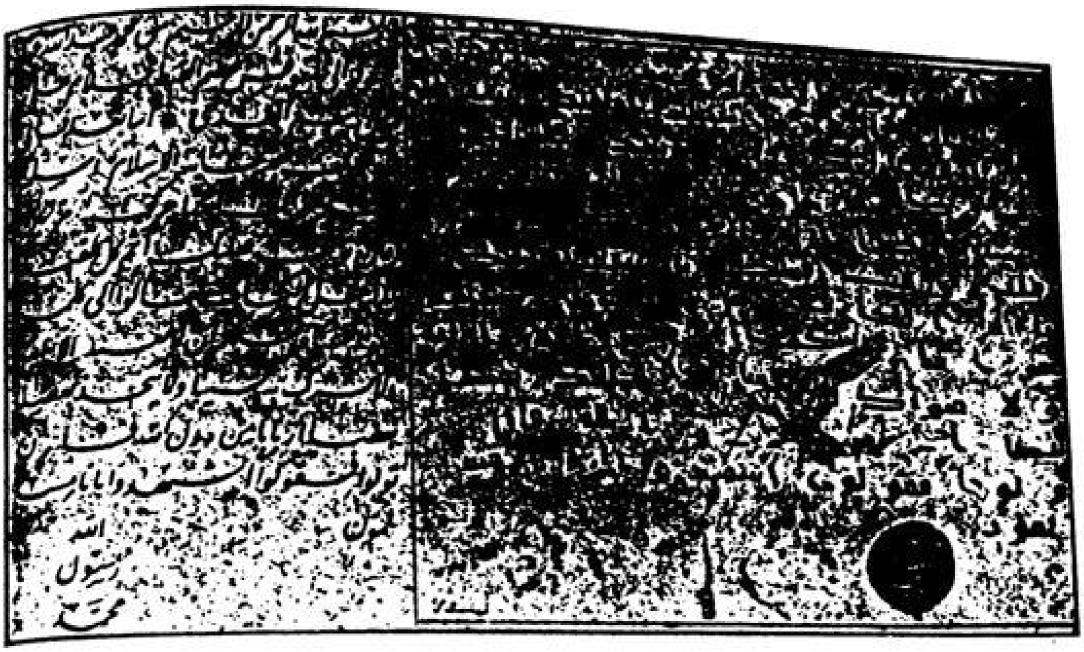
وكان الصحابة وتابعوهم من بنى أمية يكتبون بلا إعجام[١] ولا شكل إلا قليلاً ، اعتماداً منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة ، واكتفائهم بالرمز القليل فى قراءة اللفظ . فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم ، وظهر اللحن والتحريف فى الألسنة وفى قراءة القرآن . أشفق المسلمون على تحريف كلم الكتاب الكريم فوضع أبو الأسود الدؤلى[٢] علامات فى المصاحف بصبغ مخالف ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف . والكسرة نقطة أسفله ، والضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجعل التنوين نقطتين . وكان ذلك فى خلافة معاوية .

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المداد الذى كان يكتب به الكلام حتى لا يختلط بنقط أستاذهما أبا الأسود . وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان . ثم شاع فى الناس بعدُ ، كما ترى ذلك واضحاً فى النماذج الآتية :

---

(١) لعل الإعجام بالنقط لتمييز الحروف سابق هذا العهد إلا أنه لم يكن ملتزماً وربما لم يكن شاملا لجميع ما أعجمه نصر ويحيى .

(٢) هو ظالم بن عمرو الدؤلى من سادات التابعين وأعيانهم كان من أكمل الرجال رأياً وأسدهم عقلا . وهو أول من وضع النحو واخترع الشكل بالنقط توفى بالبصرة سنة ٦٩ هـ . عن خمسة وثمانين عاماً .



صورة كتاب النبى عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس عظيم القبط

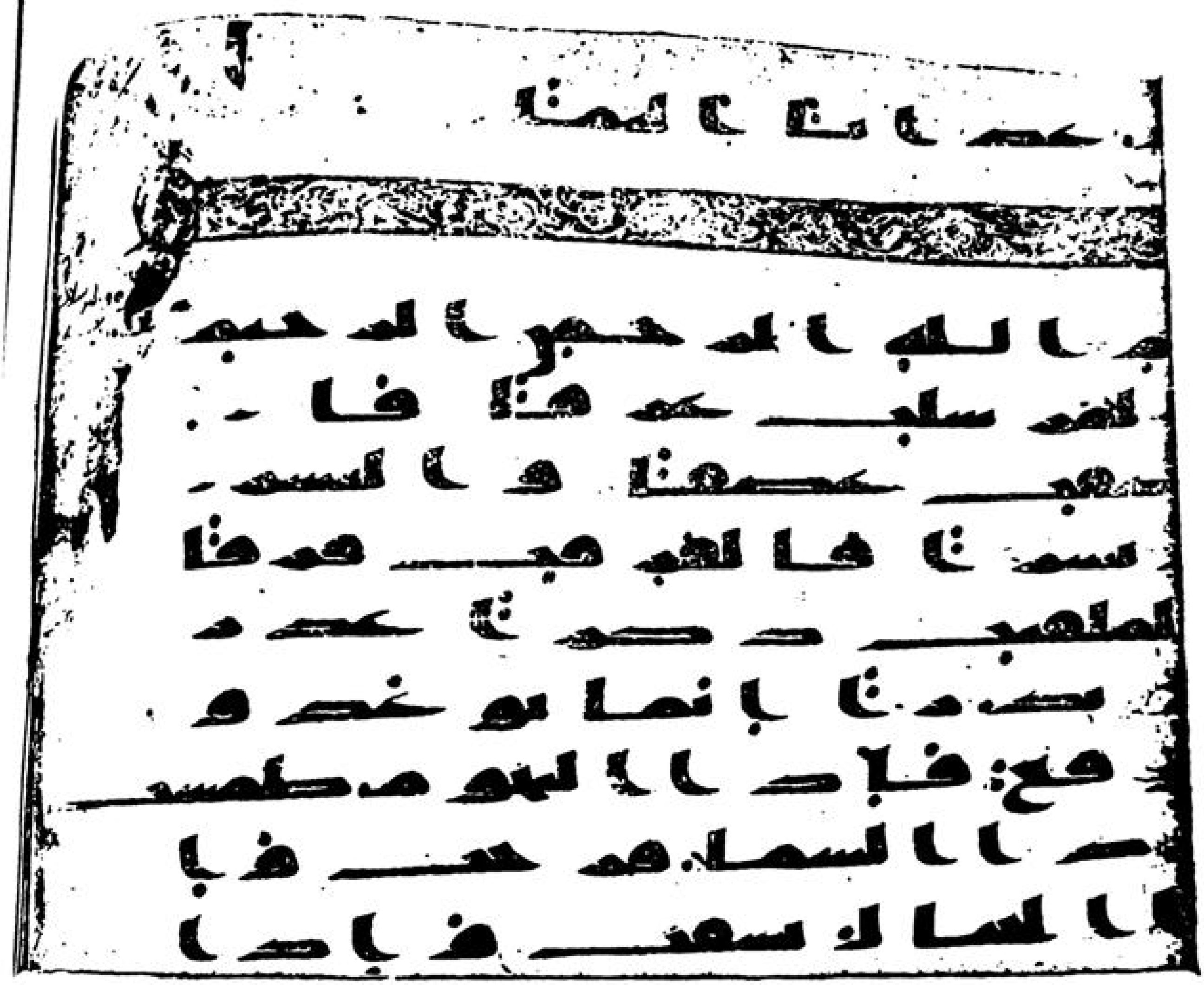
والصورة الآتية كتابٌ توضيح ما يقرأ منه هكذا :

أما بعد فإن هشام بن عمر
كتب إلىّ يذكر
جالية له بأرضك
وقد تقدمتُ إلى
العمال وكتبت إليهم
ألا يؤووا جالياً فإذا
جاءك كتابى هذا

فادفع إليه ما كان
له بأرضك من جاليته
ولا أعرفن ما رددت
رسله أو كتب إلى
يشتكيك والسلام
على من اتبع الهدى وكتب
يزيد فى جمادى الآخرة
سنة إحدى وتسعين

والنموذج الآتى منحرف عن الهيئة الكوفية إلى الهيئة التى نكتب عليها نحن الآن وخال من النقط إلا قليلاً :





نموذج مضبوط بالنقط على طريقة أبي الأسود

عذاباً أليماً

بسم الله الرحمن الرحيم

والمرُسلات ُعرفاً فا
لعاصفات َعصفاً والناشرات
نشراً فالفارقات فرْقاً
فالملقيات ذكراً ُعذْراً

أوْ ُنذْراً إنما ُتوعدُونَ
لواقعٌ َفإذا النجومُ ُطمِستْ
وَإذَا السماءُ فرجتْ وَإ
ذا الجبالُ ُنسفتْ وإذَا

الكتابة الإنشائية

وهى قسمان : كتابة رسائل ودواوين [١] وكتابة تدوين وتصنيف.

كتابة الرسائل والدواوين

كان زُعماء العرب وفصحاؤهم كلهم كتّاباً يُنشئون بملكتهم ولو لم يخطوا بيمينهم فكان النبي وأصحابه وخلفاؤه يُملون كتبهم على كتّابهم بعبارتهم. وبعضهم يكتبها بيده . وكان من ذلك أيام ظهور الإسلام وأزمان الفتوح والمغازى مئاتُ الرسائل والعهود .

ولما اتسعت موارد الخلافة ووفرت الغنائم وأعطيات الجنود منها ؛ أصبحت الخلافة الإسلامية فى حاجة إلى إنشاء الدواوين لضبط ذلك ؛ فكان عمرُ أوّل من دوّن الدواوين فى الإسلام ؛ وكانت مقصورة على الضرورىّ منها لمكان البداوة من الأمة .

وكان كتاب الرسائل للخلفاء وعمالهم إما عرباً وإما موالىَ يجيدون العربية .

أما كتاب الخراج ونحوه فكانوا فى كل إقليم من أهله يكتبون بلغتهم فيكتبون فى فارس والعراق بالفارسية . وفى الشام بالرومية ؛ وفى مصر بالقبطية . ولما نبغ من العرب من يحسن عملهم حُوّلت هذه الدواوين إلى العربية زَمنَ عبد الملك بن مروان والوليد ابنه ؛ وجرى خلفاء بنى أمية فى كتابة الرسائل على ما كان عليه الأمر زمن الخلفاء الراشدين .

ثم لما اتسعت رُقعة المملكة وقرّت أمور الدولة وازدادت الأعمال وشغل الخلفاء على أن يلوا الكتابة بأنفسهم أو بخاصة عشيرتهم . عهدوا بها إلى كبار كتابهم فتوفروا عليها حتى أوشكت فى أواخر دولتهم أن تصير صناعة عتيدة [٢] متحدة الأصول متشعبة الفروع بما أدخله فيها الناشئون من أبناء الكتاب والموالى بعد نقل الدواوين إلى العربية .

(١) الديوان الكتاب يكتب فيه أهل العطية ، وأول من وضعه عمر رضى الله عنه ، ثم صار يطلق على المكان الذى يجتمع فيه الكتاب

(٢) مهيأة محكمة .

وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية ، وهى لغات أمم ذات حضارة وعلوم ، ونظام ورسوم ، ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل ، وأستاذُ عبد الحميد الكاتب الذى آلت إليه زعامة الكتابة آخر الدولة الأموية ، ومع كل ذلك لم تصل درجة الكاتب العظيم فى هذا العصر إلى ما وصلت إليه بعدُ من ارتقاء مرتبة الوزارة .

مميزات الكتاب الإنشائية

وتمتاز الكتابة فى هذا العصر بالميزات الآتية :

١ — الاقتصارُ فى أغراضها على القدر الضرورى لدولة عربية . لقلة تجزئة الأعمال وضبط الأمور الصغائر ، ولشمول العدالة والثقة أكثر عمال الأمة وإنصاف الناس بعضهم بعضاً .

٢ — الاقتصار فى معناها على الإلمام بالحقائق وتوضيحها بلامبالغة ولا تهويل .

٣ — استعمال الألفاظ الفحلة ، والعبارات الجزلة ، والأساليب البليغة . إذ كان الكاتب والمكتوب إليه عرباً فصحاء . وكان البيان غاية النبيل منهم . فقد كانوا يتوخون ملاءمتها لحال المكتوب إليه ، فتارة تكون موجزة سهلة . وذلك إذا كانت لغير العرب ، ليسهل على من له إلمام باللغة ترجمتها . كما ترى ذلك فيما كتبه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز ملك فارس[1] أو هِرَقل قيصر الروم . وتارة تكون عالية العبارة متينة الأسلوب إذا كان المخاطب عربياً فصيحاً ، كما كان ذلك فى كتبه صلى الله عليه وسلم

(١) وهو : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، واسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

إلى بنى نَهد * وإلى وائل بن حُجر وأهل حَضْرَمَوْت .

(٤) مراعاة الإيجاز غالباً إلا حيث تستدعى الحال الإسهاب . وبقى الأمر على ذلك حتى جاء عبد الحميد الكاتب آخر الدولة الأموية . فأسهب فى الرسائل ، وأطال التحميدات فى أوّلها ؛ وسلك طريقه من أتى بعده .

(٥) قلةُ التفنن فى أنواع البدء والختام ؛ فقد كانت الجاهلية تكتب فى أول كتبها باسمك اللهمّ . وبعدها تكتب من فلان إلى فلان . ويمضون فى الغرض . وكان صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة ؛ وبعدها من محمد رسول الله إلى فلان ، ويبتدئ غالباً صدورها بالسلام عليكم أو السلام على من اتبعَ الهدى . ويثنى بالتحميد بعد السلام فيقول إنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . ويتخلص من صدور الكتاب إلى المقصود تارة بأما بعد . وأخرى بغيرها . وكان يختمها فى الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله . أو السلام على من اتبع الهدى .

(٦) التعبير غالباً عن النفس بلفظ الإفراد مثل (أنا . ولى . وجاءنى . ووفدَ علىّ) . ومخاطبة المكتوب إليه بكاف الخطاب وتائه . وعند التثنية بلفظها مثل (أنتما ولكما) وعند الجمع بلفظه أيضاً مثل (أنتم ولكم) . وبقى الأمر متبعاً فى خلفائه الراشدين وخلفاء بنى أمية إلى أن ولى الوليد بن عبد الملك فجوّد القراطيس . وجلل الخطوط وفخم المكاتبات . وتبعه من بعده الخلفاء

---

* قبيلة باليمن ونص الخطاب كما فى صبح الأعشى : من محمد رسول الله إلى بنى نهد . السلام على من آمن بالله ورسوله . لكم يا بنى نهد فى الوظيفة الفريض ولكم الفارض والفريش وذو العِنان الركوب والفَلُوُّ الضَّبيس . لا يُمنع سَرْحكم . ولا يُعضَد طَلْحكم ولا يُحبس دَرّكم . ما لم تُضمروا الإماق . وتأكلوا الرِّباق . من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ؛ ومن أبى فعليه الربوة .

الوظيفة : النصاب فى الزكاة . الفريض الهرمة . الفريش : الفرس إذا حمل عليه بعد النتاج . ذو العنان الركوب : الفرس الذلول . الفلو : المهر الصغير . الضبيس : الذى لم يذلل . السرح : المواشى . الدر : اللبن والمراد ذوات الدر . الإماق : الحنق والمراد الغدر . الرباق : عروة فى الحبل تكون فى عنق البهيمة والمراد نقض العهد . الربوة : الزيادة فى الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له .

على ذلك، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فإنهما جريا فى ذلك على طريقة السلف. ثم رجع الأمر إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم وكتب له عبد الحميد بن يحيى ، وكان من اللسن والبلاغة على ما اشتهر ذكره ، فأطال الكتب وأطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها كما تقدم.

نماذج من الرسائل والأمثال والحكم

كتب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد :

من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد :

سلام عليك . فإنى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنّ كتابك جاءنى مع رسولك ، يخبرنى أنّ بَنِى الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم . وأجابوا إلى ما دعوتَهم إليه من الإسلام . وشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبدُه ورسوله . وأنْ قد هداهم الله بهداه ، فبشّرْهم وأنذرْهم وأقبلْ وليقبلْ معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكتب أبو بكر إلى المسلمين يعهد إلى عمر بالخلافة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر : إنى استعملتُ عليكم عمر بن الخطاب فإن برّ وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدّل فلا علم لى بالغيب . والخيرَ أردْتُ . ولكل امرئ ما اكتسب . (وسيعلم الذين ظلموا أىّ مُنقَلَب ينقلبون) .

وكتب سيدنا عثمان لسيدنا على يستنجده :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد فقد بلغ السيل الزُّبى(١) ، وجاوز الحزام الطبيين(٢) ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه ، ومن لم يغلبك مثل مُغلب(٣) . فأقبل إلىّ صديقاً كنت أو عدواً.

(١) جمع زبية وهى حفيرة تحفر فى أعلى الجبل للأسد إذا أرادوا صيده .

(٢) الطبى : حلمة الضرع لذوات الأربع (أى اشتد الأمر) (٣) المغلوب مراراً .

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكل ... وإلاّ فأدركنى ولما أمزّق

وكتب بشر إلى أخيه عبد العزيز بن مروان يعتذر عن كتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم .

لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن فى قبوله منى الفضل ، ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمّنته لزدت فيه ، وبُقيا الأكابر على الأصاغر ، من شيم الأكارم ، ولقد أحسن مسكين الدارمى حين يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء (فاعلم) جناحهُ ... وهل ينهض البازى بغير جناح

وقال كعبٌ العبسىّ لعروة بن الزبير : قد أذنبتُ ذنباً إلى الوليد بن عبد الملك وليس يزيل غضبه شىء فاكتب لى إليه :

لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته . لوجبَ ألاّ تحرمه التفيُّؤَ بظل عفوك الذى تأمله القلوب ولا تعلقُ به الذنوب . وقد استشفع بى إليك ، فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سُخط ، فحقّقْ أمله ، وصدّق ثقتى بك تجد الشكر وافياً بالنعمة .

فكتب إليه الوليد :

قد شكرتُ رغبته إليك ، وعفوت عنه لمعوّله عليك ، وله عندى ما يحب ، فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك .

وهاك طرفاً من الأمثال :

إن من البيان لسحراً[١] — إن المنبَتّ[٢] لا أرضاً قطع ولا ظهراً[٣] أبقى[٤] — إن مما يُنبت الربيع ما يقتل حبطا[٥] أو يُلِمّ[٦] — إن لله جنوداً

(١) مثل قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب فى استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة
(٢) المنقطع عن أصحابه فى السفر (٣) دابة (٤) قائلة رسول الله ويضرب لمن يبالغ فى طلب الشىء ويفرط حتى ربما يفوته على نفسه (٥) انتفاخ يعترى الإبل من كثرة الأكل
(٦) يقارب . قائله رسول الله ، يضرب فى النهى عن الإفراط

منها العسل[١] — إن البلاءَ موكَّل بالمنطق[٢] — إنما أُكلتُ يوم أُكل الثورُ الأبيض[٣] — أنا جُذَيْلُها[٤] المحكَّك[٥] وعُذَيقها[٦] المرجَّب[٧] — إياكم وخضراء الدِّمن[٨] — حرِّك لها حوارَها تحن[٩] — عند الصباح يحمد القومُ السُّرى[١٠] — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التمسوا الرزق في خبايا الأرض — رُبَّ مبلغ أوعى من سامع. وقال أبو بكر رضى الله عنه: ليست مع العزاء مصيبة — الموت أهوَنُ مما بعده. وأشدّ مما قبله. أصلحْ نفسك يَصْلح لك الناسُ. إذا فاتك خيرٌ فأدركهُ. وإن أدركك شر فاسبقه — وقال عمر رضى الله عنه. من كتم سره كان الخيار فى يده. أعقلُ الناس أعذرهم للناس. لا تُؤخرْ عمل يومك لغدك. لا ينفع تكلم بحق لا نَفاذ له — وقال عثمان رضى الله عنه: ما يَزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يَزعُ بالقرآن. الهدية من العامل إذ عُزلَ مثلها منه إذا عمل. يكفيك من الحاسد أن يغتمَّ وقت سرورك — وقال علىّ رضى الله عنه: من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه. من صارع الحق صرعه. العفاف زينة الفقر. والشكر زينة الغنى. الخُرق المعالجة قبل الإمكان، والأناة بعد الفرصة. والأمانىّ تعمى أعين البصائر. قيمة كل امرئ ما يحسنه. الولايات مضامير الرجال — ومن كلام بن عباس رضى الله عنه: الحرمان خيرٌ من الامتنان. صاحب المعروف لا يقع فإن وقع وجد متكأً — وقال عمر بن عبد العزيز: من يزرع خيراً يُوشك أن يحصُدَ غبطة، ومن يزرع شراً يوشك أن يحصُد ندامةً.

---

(١) قائله معاوية رضى الله عنه، ويضرب عند الشماتة بما يصيب العدو.

(٢) قائله أبو بكر رضى الله عنه: يضرب فى الاحتراس من عثرات اللسان.

(٣) قائله على رضى الله عنه: يضرب للرجل يرزأ بأخيه (٤) تصغير الجذل وهو أصل الشجر

(٥) الذى تتحكك به الإبل الجربى من عود ينصب فى مبارك الإبل أو أصل الشجرة.

(٦) تصغير العذق وهو النخلة (٧) الذى جعل له رجبة وهى دعامة تبنى حول النخلة الكريمة من الحجارة لئلا تقع، قائله الحباب بن المنذر الأنصارى يوم السقيفة، ويضرب للرجل يستشفى برأيه وعقله.

(٨) خضراء الدمن البقلة الحسنة تنبت فى الدمن وهى منبت خبيث، ويضرب فى الحسن الظاهر الخبيث الأصل قائله الرسول الكريم (٩) الحوار: ولد الناقة الرضيع. قائله عمرو بن العاص، ويضرب فى تذكير المرء بما يهيجه (١٠) السرى: السير ليلا، قائله خالد بن الوليد. ويضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة.

الكتّاب

كتّاب هذا العصر كثيرون ، فقد كان الخلفاء والأمراء والقواد كلهم كتاباً بلغاء . وإنك لترى كثيراً من رسائلهم وعهودهم فى تاريخ الطبرى وغيره من كتب المغازى والفتوح .

ولما صارت الكتابة صناعة تداولها كثير من الأعاجم وغيرهم . واشتهر من بين هؤلاء عبد الحميد الكاتب . وهاك ترجمته :

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ وَلاءً الشامىّ داراً ، شيخ الكتاب الأوائل . وأوّل من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من مَوالى بنى عامر ، وتخرج فى البلاغة والكتابة على خَتنه أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء عصره والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد فى أول أمره معلّمَ صبيان يَنتقل فى البلدان ، حتى فَطن له مَرْوان بن محمد أيام تولّيه أرمينية وانتدابه لتسكين فتنها . فكتب له مدة ولايته حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة . سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد . فقال له مروان : لِمَ لا تسجد ؟ فقال : ولِمَ أسجد ؟ أعلى أن كنتَ معنا فَطِرْتَ عنا ؟ قال : إذاً تطير معى — قال : الآن طاب لى السجود ، وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دولته ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نَموذجاً يحاكيه مَنْ بعده .

ولما دهَمت مَرْوان جيوشُ خُراسان أنصارُ الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدة — فقال له مروان : قد احتجتُ أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت

---

(١) الختن هنا كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

أن تنفعني في حياتي ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمي بعد وفاتي — فقال له : إن الذي أشرْتَ به عليّ أنفعُ الأمرين لك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أُسِرّ وفاء ثم أظهرُ غَـــدرةً ! فمَنْ لي بعذر يُوسِعُ الناس ظاهره ؟

وبقي معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ . ففر واختبأ عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو في بيته — فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ — فقال كل منهما : أنا . خوفاً على صاحبه . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلا منا له علامات . فوكلوا بنا بعضكم ويمضي بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم . ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ .

آثاره في الكتابة

منزلته في الكتابة — اتفقت كلمة البلغاء وأهل الأدب على أن عبد الحميد هو الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل . وذلك أنه أول من مهّد سُبلها . وميز فصولها ، وأطالها في بعض الشئون . وقصرها في بعضها الآخر . وأطال التحميدات في صدرها ، وجعل لها صوَراً خاصّة ببدئها وختمها . على حسب الأغراض التي تكتب فيها ، بل هو الذي رقّى هذه الصناعة التي كانت من مهن الموالي ، حتى صارت سُلّماً يعرج فيه الكاتب إلى مرتبة ليس فوقها إلا الخلافة : وهي مرتبة الوزارة .

بلاغة عبد الحميد

وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يعجز عنه السحر في خلب الأفئدة وجذب النفوس ، فيقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخرساني بدعوة بني العباس كتب إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمّنه ما لو قرئ لأدى إلى وقوع الخلاف والفشل — وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذلك وإلا فالهلاك .

وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على جمل . فلما وصل الكتاب إلى داهية خراسان أبى مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه . وكتبَ على جداذة[١] منه إلى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحى   عليك ليوث الغاب من كل جانب

طائفة من نثره

نموذج من كتابته :

ومما كتبه عبد الحميد موصياً بشخص :

حقُّ موصل كتابى عليك كحقه علىّ . إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزتُ حاجته فصدِّق أمله .

وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعدُ فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالمكاره والشرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضّته بنابها ، ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق[٢] استحليناها ، ثم جمحت[٣] بنا نافرة ، ورمحتنا[٤] مولّية ، فملحَ عذْبها ، وخشنَ لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة[٥] ، والطير بارحة[٦] . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وَجداً ، فإن تمّ البلية إلى أقصى مدتّها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار ، والذلّ شر جار . نسأل الله تعالى الذى يُعز من يشاء ويذل من يشاء أن يَهَبَ لنا ولكم ألفة جامعة ، فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين .

---

(١) قطعة   (٢) الفيقة بالكسر اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين والجمع فيق وفيق وأفواق وجمع الجمع أفاويق   (٣) جمحت الفرس غلبت راكبها .

(٤) رمحته الفرس كدم رفسته   (٥) بعيدة   (٦) البارح من الطير ما مر من ميامنك إلى مياسرك وهو يتشاءم منه .

موازنة بين النثر الجاهلي ونثر صدر الإسلام

أسبقنا عند الكلام في نثر الجاهلية أنهم كانوا لا يحفلون بانتقاء الألفاظ والتعمق في المعاني وترتيبها ، ولا يُولعون بالتأنق في صوغ العبارات وسجع الكلام ، ولا يبعدون الشقة بين طرفي الجملة ، وبخاصة الحكمة والمثل ، على قصد منهم إلى الإيجاز في الألفاظ ، وتعمد إلى استيفاء المعنى من غير إخلال ، اعتماداً على سليقة المتفهم لكلامهم ودقيق كناياتهم .

ويرى القارئ بعد تلاوة ما كتب في أحوال النثر في صدر الإسلام :

أن أهل هذا العصر لما طرأ عليهم من الحوادث الاجتماعية والسياسية والدينية قد خالفوا طريقة سابقيهم بما يمكن إجماله فيما يأتي :

١ — اتساع وجوه الكلام ومقاصده لاتساع الملك ودواعي السياسة وشعائر الدين .

٢ — عناية أهل هذا العصر بعض العناية بتهذيب ألفاظهم ، فهجروا بعضاً وحرصوا على آخر ، وسعد من بين هذه الألفاظ بالاستعمال والرواج ما دار في عبارات القرآن والسنة ، مع حفلهم بتوليد الحديث من القديم .

٣ — تأنقهم في صوغ عباراتهم ومحاكاتهم فيها لأساليب الكتاب والسنة ، واقتباسهم منهما واستشهادهم بهما ، وقلة اقتصارهم على الجمل القصيرة والمسجوعة أواخرها ، وغلبة استعمالهم في مبادئ الرسائل والخطب التحميدات والصلاة على الرسول الكريم والثناء على الله ونحو ذلك ، وميلهم إلى الإطناب في أول هذا العصر ، وبقائهم على اتباع خطة الإيجاز .

٤ — ترتيبهم للمعاني والأفكار بدون تغلغل فيها ، ويظهر ذلك جلياً في الخطب التي كانوا يُعدونها قبل القول ، وفي الرسائل التي كانت تدور بين الخلفاء والأمراء أخريات هذا العصر .

وقصارى القول إن هذه الحوادث الطارئة فى هذه المدة قد صبغت اللغة بصبغة دينية سياسية اجتماعية ، وشملت من الأغراض ما لم تكن تتسع له من قبل ، وإن لم تصل هذه الدرجة إلى حد الكمال إلا فى صدر العصر العباسى .

التدوين والتصنيف

سبب عدم التدوين

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدوّن فيه كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصحف ، وكان مرجع الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة أو استخاروا الله فيه واستظهروا باجتهادهم رأياً عملوا به . وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة خشية أن يجرهم ذلك إلى الاعتماد على الكتب وإهمال حفظ القرآن الكريم والسنة . ولأن الكتاب عُرْضة للضياع والتصحيف والتحريف ، ولو عرض للكتاب عارض فات معه علم الدين .

تدوين النحو

ثم لما انتشر الإسلام زمن بنى أمية فى مشارق الأرض ومغاربها واختلطت العرب بالأمم المختلفة من الأعاجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربى . وفشا اللحن ، وأشفقوا على القرآن من التحريف . وعلى اللغة من الفساد — دونوا النحو بعد إحجام وإقدام وأخذ ورد ، وكان أول من كتب فيه أبو الأسود الدؤلى ؛ وقد تلقى مبادئه عن الإمام على ، وأخذ عنه فتيان البصرة وخصوصاً الموالى . إذ كانوا أحوج الناس إلى النحو ، واشتغل أهل الكوفة به بعد أن فشا بالبصرة . ولم ينقض هذا العصر حتى اشتغل به طبقتان : طبقة من البصريين وطبقة من الكوفيين .

تدوين الحديث

ثم لما حدثت الفتن وتعددت المذاهب والنحل وكثرت الأقوال والفتاوى والرجوع فيها إلى الرجال والرؤساء ومات أكثر الصحابة . خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله ، فأذن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

لإبى بكر(١) بن محمد بن عمرو بن حَزْم فى تدوين الحديث بعد أن استخار الله أربعين يوماً ، فدوّن ما يحفظ من حديث رسول الله فى كتاب بعث به عمر إلى الأمصار ولم يعرف له بعد ذلك خبر .

وبقى كثير من التابعين مُحجماً عن التدوين والتصنيف تورعاً منهم ، وبعضهم كتب أو سمح لمن يكتب عنهُ فى الحديث ورواية أقوال الصحابة فى التفسير ، وانقضى هذا العصر ولم يدون فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث وبعض التفسير ، أما العلوم الأخرى فيروى أن خالد بن يزيد بن معاوية حُبّبَ إليه مُطالعةُ كتب الأوائل من اليونان فترجمت له ونبغ فيها ووضع كتاباً فى الطب والكيمياء . وأن معاوية استقدم عَبيد بن شَرية(٢) من صنعاء فكتب له كتاب (الملوك وأخبار الماضين) . وأن وهب بن مُنبه الصنعانى(٣) وموسى بن عقبة كتبا فى ذلك أيضاً كتباً . وأن زياداً ابن أبيه وضع لابنه كتاباً فى مثالب قبائل العرب . وأن ما سَرْجويّه(٤) متطبب البصرة تولى فى الدولة المروانية ترجمة كتاب أهرُون(٥) بن أعين من السريانية إلى العربية ، وأن يونس(٦) الكاتب ابن سليمان ألف كتاباً فى الأغانى ونسبها إلى من غنى فيها .

تدوين الطب والكيمياء

تدوين التاريخ

الترجمة إلى العربية وتدوين الأغانى

ولكن ذلك لم يُقنع الباحثين فى تاريخ العلوم وتصنيفها أن يعتبروا هذا العصر عصر تصنيف وتدوين ، إذ لم تتم فيه كتب جامعة حافلة ، وإنما كان كل ذلك مجموعات تدون على حسب ورودها واتفاق روايتها .

(١) هو نائب عمر بن عبد العزيز فى القضاء والولاية على المدينة وتوفى سنة ١٢٠ هـ .
(٢) أدرك النبى ولم يسمع منه كان يروى عن الكيس النمرى وعاش إلى أيام عبد الملك بن مروان
(٣) هو أبو عبد الله صاحب القصص والأخبار وسير الملوك وأحوال الأنبياء وتوفى بصنعاء سنة ١١٦ هـ (٤) يهودى عاش إلى صدر بنى العباس وزاد على كتاب أهرون مقالتين عند ترجمته
(٥) هو قس متطبب تبلغ كناشته فى الطب ٣٠ مقالة عاش فى مبدأ الإسلام .
(٦) نشأ بالمدينة وكان من الكتاب وأخذ الغناء عن معبد وابن سريج وابن محرز والغريض واستقدمه الوليد بن يزيد فلازمه حتى قتل .

الشعر والشعراء

الشعر *

أثر القرآن في الشعر

جاء النبي الكريم والشعر ديوان العرب ، ومجمعُ مكارمهم ، ومنبع مفاخرهم ، ومعرِض فصاحتهم ، ومظهر نباهتهم . وموضع الرغبة من نفوسهم ، فأتاهم بالأمر العظيم والحادث الخطير حاملاً بإحدى يديه القرآن يدعو الناس إلى توحيد الله والتمسك بالفضيلة ، وشاهراً بالأخرى سيف الحق لحماية هذه الدعوة . وما كان أشد ذهولهم لخطبها ! وانزعاجهم من وقعها ! فهبوا يتحسسون الأول ، ويتمرسون بألفاظه ومعانيه ، ويتفرّسون في أساليبه ومغازيه : من معاند يتلمس مطعناً فيه ومؤمن يستبينه ويستهديه ، وتأهبوا للثاني : من بين ضال يناثه ، ومهتد يعاضده ، فصار ذلك صارفاً لهم عن التشاغل بالشعر والتلهي به والتنافس فيه ، محولاً مجرى أفكار المؤمنين منهم عن أكثر فنونه وأغراضه المنحرفة عن سنن الشرف والحق : كالتشبيب والمغازلة ، والمدح الباطل ، والاستجداء والهجاء . وبغّض إليهم تلك الفنون المرذولة إزراءُ القرآن على الشعر الذى يقال فيها ويقصر عليها بقوله (والشعراءُ يتبعهم الغاوون ألمْ تر أنهم في كلّ واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا) ولهذا لم يكف شعراء المسلمين عن قوله فيما يطابق روح القرآن : كالحث على العمل الصالح ، والموعظة الحسنة ، ومدح الرسول وأنصاره والانتصاف للإسلام ممن ظلمه واعتدى عليه بهجاء أهله وذم نبيهم ، فقابلوا هجومهم بهجو كان أشد عليهم من وقع السهام ، في غبش الظلام .

أغراض الشعر بعد الإسلام

ولبث الحال على ذلك مدة حياة النبي الكريم حتى إذا ما ثاروا لإسكان فتن

* وتشمل هذه المقالة الموازنة بين شعر الجاهلية وشعر هذا العصر .

أهل الردّة وفتح الممالك والأمصار ، أضافوا إلى ما ألفوه من أغراض الشعر ، الإكثار من التباهى بالنصر ووصف المعارك وأحوال الحصار وآلات القتال وما استعمل فيها من الأدوات العجيبة ، وما شاهدوه من الدوابّ الغريبة ، وغنم الغنائم ، ومقاساة أحوال الحر والبرد ، مما امتلأت به كتب الفتوح والمغازى[1] وأخبار على ومعاوية .

الشعر والسياسة

ولما آل الأمر إلى بنى أمية وشغب عليهم[2] كثير من فرق المسلمين ، كالشيعة والخوارج وأتباع عبد الله بن الزبير[3] ، والمختار[4] وغيرهم ؛ أصبح الشعر لساناً يعبر عن مقاصد كل حزب ، والقوم عرب : الشعر أسْيَرُ الأقوال عندهم ، وأيسر الوسائل لإعلاء شأنهم ، وإعلان أمرهم .

وكان لخلفاء بنى أمية فى اجتذاب الشعراء إليهم وتحبيبهم همةٌ لا تنى ، وعزيمة لا تفل ، فأغدقوا عليهم جزيل العطايا ، وفرضوا لهم الأرزاق فى بيوت الأموال ، وأكرموا وفادتهم وقبلوا شفاعتهم ، وبثوا فيهم روح التسابق إلى أبوابهم والتنافس فى جلب مرضاتهم ، وقصر أشعارهم عليهم دون غيرهم . بل دون ولاتهم ورؤساء شيعتهم ، وتبعهم فى ذلك عمالهم وولاتهم[5] .

ولم يقف خلفاء بنى أمية عند هذا الحد ، بل بالغوا فى إكرام بعض الشعراء دون بعض ؛ ليقع الشقاق بينهم ، ويتبعهم فى ذلك قبائلهم . فيلهوهم بذلك عن مناوأتهم ومراقبة أعمالهم ، ويستتبع ذلك شغل طبقة المتعلمين والمتأدبين بالأخذ عنهم ، والبحث فى أقوالهم ، والتعصب لشاعر دون شاعر ، ونحو ذلك مما يبعدهم عن الخوض فى السياسة وأمور الملك . وبذلك عاد الشعر إلى ما كان عليه ، ونبغ فيه الشعراء من كل القبائل حتى قريش التى لم يكن لها شأن فيه من قبل .

(١) راجع تاريخ ابن جرير الطبرى .

(٢) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح هيج الشر عليهم .

(٣) أول من ولد من المهاجرين بعد الهجرة ، وبويع له بالخلافة بمكة سنة ٦٤ بعد وفاة يزيد بن معاوية واستمر تسع سنين واجتمعت له العراق واليمن وجدة والحجاز ومصر وكاد يتم له الأمر ، ثم قتله الحجاج فى مكة سنة ٧٣ هـ .

(٤) أحد الخوارج الذين خرجوا بالكوفة مطالبين بدم الحسين وتبعه خلق كثير فقتل كثيراً من قتلته ثم قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٦٧ هـ .

(٥) راجع العمدة .

الشعر والخمر والعصبية

واستعمل فى كل أغراضه السابقة اللهمّ إلا ما كان فى وصف الخمر والترغيب فيها ، فإن جمهور شعراء المسلمين نزهوا شعرهم عنها[١] ، وإنما أول من وصفها منهم وجعلها وكدَهُ وقصده هو أبو المندى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية كما صرح بذلك صاحب الأغانى ،وإلا ما كان من العصبية الذميمة ، فإن الشيعة ودعاة بنى العباس أثاروا عجاجها[٢] وأشعلوا نيرانها أواخر الدولة الأموية على يد الكميت ومتابعيه .

وقصارى القول أن الشعر أصبح حرفة عتيدة ، وصناعة جديدة ، ومورد ثروة لكثير من البيوت والعشائر ، وأصبحت دراسته ونقده وروايته دأبَ العلماء والأدباء حتّى الخلفاء وأولياء عهودهم ، إذ لم يكونوا أقل من هؤلاء عناية وحرصاً على تعلمه .

ويمكن وصف ما كان عليه الشعر فى هذا العصر من حيث أغراضه وفنونه ، ومعانيه وأخيلته ، وألفاظه وأساليبه ، وأوزانه وقوافيه ، بما يأتى :

أغراضه وفنونه

١ — نشر عقائد الدين وحكمه ووصاياه والحثّ على اتباعه وخاصة زمن النبي وخلفائه الراشدين .

٢ — التحريض على القتال والترغيب فى نيل الشهادة إعلاء لكلمة الله وذلك فى أزمان غزوات النبي وفتوح الأمصار .

٣ — الهجاء ، وكان أولاً فى سبيل الدفاع عن الإسلام يهجو مشركى العرب بما لا يخرج عن حد المروءة ، وبما رضيه النبي من حسان شاعره فى هجاء قريش وعشيرة النبي من بنى عبد مناف . وكان يتحرج عنه المسلمون

(١) أكثر شعراء النصارى كانوا يصفون الخمر فى هذا العصر وجاراهم قليل من الخلفاء والمغنين على خشية ورقبة وندرة قول

(٢) غبارها .

ولو بالتعريض زمن النبي وخلفائه ، ولذلك عاقب عمر أمير المؤمنين الحطيئةَ وهدده بقطع لسانه لنيله من بعض المسلمين . ثم صار يُتساهل فى خَطبه حتى أصبح الشعراء يهجون أنفسهم[1] ويسب بعضهم قبائل بعض أمام خلفاء بنى أمية بل برضاهم وبإغرائهم للأسباب السياسية التى ذكرناها قبل . حتى كان الهجاء غاية براعة الشاعر[2] وإن لم يصل فى الإقذاع[3] والفحش إلى الحد الذى وصل إليه فى العصر الآتى — ومن ذلك التهاجى المشهور بين جرير والفرزدق والأخطل .

٤ — وصف القتال وحصار المدن وفتحها وغير ذلك مما سبق ذكره آنفاً .

٥ — المدح — وقلما كان مبدأ الإسلام فى غير النبى من حيث الاهتداء بهديه ونشر الحق على يديه . وكان خلفاؤه يأنفون مدحتهم بما تزهَّى به نفوسهم تورعاً وتواضعاً . ثم استرسل الشعراء فيه وقبل ذلك منهم الخلفاء . إلى أن كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة ، وتفخيم مقام الخلفاء والولاة والإشادة[4] بعظمتهم ، فكان إذ ذاك بمثابة الصحف العظمى المشايعة لأهل الدولة أو لأحد زعماء الأحزاب فى زماننا .

٦ — استعماله فى النسيب والغزل العفيف بما يخالف مسلك أهل الجاهلية فيه ، وأكثر ذلك فى أهل البدو وبين العشاق منهم .

معانيه وأخيلته

لم يخرج شعراء هذا العصر فى جملة تصوّرهم وتخيلهم عما ألفوه زمن الجاهلية وإن فاقوهم كثيراً فى ترتيب الفكر وتقريب المعنى إلى الأذهان والوجدان بما هذّب نفوسهم ، ورقق طباعهم ، من دراسة كتاب الله وحديث رسوله ،

---

(١) ممن هجا نفسه الحطيئة بقوله :
(أرى لى وجهاً شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله)

(٢) قال الأصمعى : إنما وضع من ذى الرمة أنه لا يحسن أن يهجو ولا أن يمدح .

(٣) قذعه كمنعه رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه

(٤) أشاد بذكره شهره ومدحه

وهما من المعانى والحكمة ما هما ، وبما نوّع خيالهم وأنمى معارفهم ، من مشاهد الحضارة وبدائع الصناعات ، غير أننا لا نجد فى شعرهم من المبالغة والتهويل والتعمق فى المعانى العقلية العسرة الإدراك ما نجده لأهل العصر التالى ، لاشتغال القوم بالفتوح والمغازى وتأسيس الحضارة والعمران .

ألفاظه وأساليبه

وكذلك لم يخرُجوا جملةً فى هيئة تأليف اللفظ ونجسه ومتانة أسلوبه عن نظائرهم فى الجاهلية ، وإنما آثروا جزالة اللفظ وفخامته وحسنَ جرْسه ونغمته ، ومؤالفته لسابقه ولاحقه دون غرابته وحوشيته وتنافره مع قرينه : كما آثروا جودة الأسلوب ومتانته وروعة تأثيره ، ولا سيما أهل النسيب[١] .

وربما انطبق كل هذا الوصف على القصيد دون الرجز ، إذ كانت الغرابة كأنها من ألزم طبائعه ، ولا شك أن جل التأثير فى ترقيق حاشية عبارة الشعر العربى يرجع إلى حفظ القرآن والحديث ودراستهما كما قدمنا .

أوزانه وقوافيه

لم يطرأ على أوزان الشعر العربى حدَث غيرُ ما عُرف عنه فى الجاهلية ، وإنما شاع فى هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها واستعمالها فى جميع أغراض القصيد حتّى فى افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والذم ونحو ذلك .

نماذج من الشعر فى الأغراض الآتية

١ — الحماسة — قال قَطَرِىّ بن الفُجاءة :

أقول لها وقد طارت شَعاعاً ... من الأبطال : ويحكِ لن تُراعى[٢]

فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تُطاعى

---

(١) مثل عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة وكثير عزة .

(٢) الشعاع المتفرق . وتراعى من الروع وهو الفزع .

فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوبُ البقاء بثوب عزّ ... فيطوى عن أخى الخنَع (١) اليراع (٢)
سبيل الموت غايةُ كلِّ حىّ ... فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يُعتبط (٣) يسأمْ ويهرَمْ ... وتُسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ فى حياة ... إذا ما عُدّ من سقَط (٤) المتاع

وقال ربيعة بن مَقروم الضَّبىّ :

ولقد شهدت الخيل يوم طِرادها (٥) ... بسليم أوظفة (٦) القوائم هيكل (٧)
فدَعوْا نزالِ ، فكنت أول نازل ... وعلام أرْكبه إذا لم أنزل ؟
وألدّ (٨) ذى حَنق (٩) علىّ كأنما ... تغلى عداوةُ صدره فى مِرْجل (١٠)
أوجبتُه (١١) عنى فأبصر قصده ... وكويته فوق النواظر من علِ

٢ — المدح — قال أبو دَهْبَل الجُمَحىّ يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إن البيوتَ معادنٌ فنجاره (١٢) ... ذهبٌ وكلّ بيوته ضَخمُ
عَقِمَ النساء فما يَلدْن شبيهه (١٣) ... إن النساء بمثله عُقمْ
متهلل (١٤) بنعمْ بلا مُتباعدٌ ... سيان منه الوفرُ والعُدْم
نزر الكلام من الحياء تخاله ... ضمناً وليس بجسمه سُقمُ

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأى :

تزُور (١٥) امرأً يؤتى على الحمد مالَه ... ومن يؤتِ أثمانَ المحامد يُحمدِ
يرى البخلَ لا يُبقى على المرء ماله ... ويعلم أن البخلَ غير مخلّد

---

(١) الذل . (٢) الجبان (٣) يمت من غير علة (٤) سقط المتاع رديئه
(٥) طراد الفرسان حمل بعضهم على بعض (٦) جمع وظيف وهو ما فوق الحافر من الفرس (٧) ضخم (٨) شديد الخصومة (٩) غيظ شديد (١٠) قدر من حجارة أو نحاس (١١) قهرته وأذللته (١٢) أصله .
(١٣) منعن عن أن يأتين بمثله (١٤) أى يجيب وهو مستبشر بلفظ (نعم) عند ما يسأل ويبتعد عن لفظ (لا) كناية عن كرمه
(١٥) الضمير يعود على الناقة .

كَسُوب ومِتلاف إذا ما سألته ... تَهـلّل فاهتز اهتزازَ المهنّدِ
متى تأته تعشو(١) إلى ضوء ناره ... تجدْ خير نار عندها خيرُ موقِدِ

ومن جيد مدح الأخطل فى بنى أمية :

حُشْدٌ(٢) على الحق عيّافُ الخنا أُنُفٌ(٣) ... وإذا ألمّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
شُمسٌ(٤) العداوة حتى يُستقاد(٥) لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

---

٣ — الرثاء — قال عبدة بن الطبيب يرثى قيسَ بن عاصم المنقرى :

عليكَ سـلامُ الله قيسَ بن عاصم ... ورحمتـه ما شـاء أن يترحما
تحية من غادرْته غرَضٌ(٦) الرّدى ... إذا زار عن شحط(٧) بلادكَ سلّما
فما كان قيسٌ هُلكه هلك واحـد ... ولكنه بُنيان قوم تهـدما

وقال حارثة بن بدْر الغُدَانى يرثى زياداً ابن أبيه :

صـلى الإلهُ على قبر وطهرَه ... عندَ الثوية يسفى فوْقه المور(٨)
زَفّتْ إليه قُرَيشٌ نَعش سيدها ... فثمّ كلّ التقى والبرّ مقبور
أبا المغيرة (والدنيـا مفجعةٌ) ... وإنّ مَنْ غرّت الدنيا لمغرور
قد كانَ عندكَ بالمعروف معرفةٌ ... وكان عنـدكَ للنكراء تَنكير
وكنتَ تُغشى وتُعطى المال من سعة ... إن كان بيتُكَ أضحى وهو مهجور
ولا تلين إذا عوسرْتَ معسرةً ... وكل أمركَ ما يوسرت ميسورُ
فالحمد زادُك لم تلحقك بائرة ... وأنت فى صالح الأقوام مذكور
لو خلّد الخيرُ والإسلامُ ذا قِدم ... إذاً لخلدك الإسـلام والخيرُ

---

(١) تقصد (٢) إذا دعوا أجابوا مسرعين (٣) جمع أنوف مبالغة من أنف بمعنى استنكف (٤) جمع شموس وهو الرجل الصعب الخلق وشمس الفرس منع ظهره . (٥) استقدت الأمير من القاتل فأقادنى منه أى قتله (٦) تركه هدفاً للهلاك . ويروى عرض بالعين المهلة (٧) أى بعد ونأى (٨) الثوية مكان بالكوفة والمور التراب

لم يعرف الناس مذ كُفِّنتَ سيدهم ... ولم يجلْ ظلاماً عندهم نور
الناس بعدكَ قد خفّتْ حلومهم ... كأنما نفختْ فيها الأعاصيرُ

٣ — الهجاء — قال قعنب بن ضَمْرةَ :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذكرتُ به ... وإن ذكرتُ بشرٍّ عندهم أذِنوا(١)
جهلاً علينا وجبناً عن عدوّهمُ ... لبئستِ الخلتان : الجهل والجُبن

قال عبد الرحمن بن الحكم :

لحا الله قيساً قيسَ عيلان إنها ... أضاعت ثغورَ المسلمين وولتِ
فشاول(٢) بقيس فى الطعان ولا تكن ... أخاها إذا ما المشرفية (٣) سُلَّتِ

وقال جوّاس بن القعطل الكلبيّ :

صبغت أمية بالدماء رماحنا ... وطوت أمية دوننا دنياها
أأُمىّ رُبَّ كتيبة مجهولة ... صِيد(٤) الكماة عليكم دعواها
كنا ولاة طعانها وضرابها ... حتى تجلت عنكم غمّاها
فالله يجزى — لا أمية — سعينا ... وعُلاً شددنا بالرماح عراها
جئنم من الحجرُ البعيد نياطه ... والشام تُنكر كهلها وفتاها
إذْ أقبلت قيس كأن عيونها ... حدق الكلاب وأظهرت سيماها

٥ — الاعتذار :

وقال الحطيئة يعتذر إلى عمر بن الخطاب من ذمه الزبرقان بن بدر :

أتتنى لسان فكذبتها ... وما كنت أرهبها أن تقالا

---

(١) استمعوا .

(٢) شال به وشاول رفعه أى ارفعها من عداد الطاعنين لجبنها .

(٣) المشرفية السيوف تنسب إلى مشارف الشام أى القرى التى تشرف علوه من بلاد العرب .

(٤) أى أن كأنها صيد جمع أصيد وهو الأسد أو الرافع رأسه كبراً .

بأنَّ الوشـــاة بلا حُرمة ... أتوك فراموا لديك المحالا
فجئتك معتـــذراً راجيـــاً ... لعفوك أرهبُ منك النَّكالا
فلا تسمعَنْ بى مَقالَ العدا ... ولا تؤكلنى (هديتَ) الرجالا
فإنك خيرٌ من الزّبرقان ... أشـــدّ نكالاً وخيرٌ نوالا

وقال الكميت يعتذر إلى هشام بن عبد الملك :

كم قال قائلكم لعا[1] ... لك عنـــد عثرته لعاثرْ
وغفرتم لذوى الذنو ... ب من الأكابر والأصاغرْ
أبنى أميـــة إنكم ... أهل الوســـائل والأوامرْ
ثقتى لكل مُلمـــة ... وعشـــيرتى دون العشائرْ
أنتم معـــادن للخـــلا ... فة كابراً من بعد كابرْ
بالتســـعة المتتابعيـ ... ـن خلائفاً وبخير عاشرْ
وإلى القيـــامة لا تزا ... ل[2] لشافع منكم وواترْ

٦ — الوصف — قال أبو عثمان الهذلى يصف المسلمين وبلادهم فى فتح مكة وقد لامته امرأته على الهزيمة التى كانت منهم عندما دخلها عليهم خالد بن الوليد من جبل الخندمة :

إنك لو شهدْتِ يوم الخندمة[3] ... إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمهْ
ولحقتنـــا بالسيوف المسلمة ... يَفلقن كلّ ســـاعد وجمجمة
ضرباً ولا تسمع إلاّ غمغمهْ[4] ... لهم نهيتٌ[5] حولنا وحمحمه[6]
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمهْ

---

(١) لعا لك كلمة دعاء تقال للعاثر بمعنى أقال الله عثرتك .

(٢) أى لا تزال الخلافة فيكم .

(٣) الخندمة جبل بمـــكة .

(٤) الغمغمة أصوات الأبطال عند القتال .

(٥) النهيت الزئير والزحير .

(٦) الحمحمة خفاء الـــكلام وعدم بيانه .

وقال النابغة الجعدي يصف ذئباً افترس جؤذراً :

فبات يُذكّيه(١) بغير حديدة   أخو قَنَص يُمسى ويُصبح مفطرا
إذا ما رأى منه كراعاً تحرّكت   أصاب مكان القلب منه وفرفرا(٢)

وقال أبو زبيد الطائي يصف حال الحيوان عند اشتداد الهجير :

ليت شعرى وأينَ منى ليتٌ   إنّ ليتاً وإنّ لواً عناءُ
أىّ ساع سعى ليقطع شُربى   حين لاحت للصابح الجوزاءُ(٣)
واستظل العصفور كرهاً مع الضـ   ـب وأذكت نيرانها المعزاءُ(٤)
ونفى الجندّب الحصى بكراعيـ   ـه وأوفى فى عوده الحرباءُ(٥)

قال حصين بن معاوية الراعى يصف بيضة نعام حضنها ظليم بالليل وتركها عند طلوع الشمس ينتفض :

وما بيضة بات الظليم يَحفّها   بوعساءَ أعلى تُربها قد تلبّدا(٦)
فلما علته الشمس فى يوم طلقة   وأشرف مكّاء الضحى فتغردا(٧)
أراد قياماً فازبأرّ عِفاؤه   وحرّك أعلى جيده فتأوّدا(٨)
وهز جناحيه فساقط جيده   فَراشاً وهَى عن متنه فتقدّدا
فغادر فى الأدحىّ صفراء تَرْكة   هجاناً إذا ما الشرق فيها توقدا(٩)
بألين مسّاً من سعاد للامس   وأحسن منها حين تُبدى مجرّدا

---

٧ — الحكم والأمثال — قال سيدنا كعب بن زهير :

لو كنت أعجبُ من شىء لأعجبنى   سعى الفتى وهو مخبوءٌ له القدَرَ

---

(١) يذبحه (٢) قطع ومزق (٣) تطلع الجوزاء فى الصيف .
(٤) المعزاء الأرض ذات الحصى والحجارة من الصوان ونحوه (٥) الجندب نوع من الجراد . والحرباء دويبة من الهوام لاتزال تستقبل الشمس برأسها (٦) الوعساء الأرض ذات الرمل اللين (٧) الليلة الطلقة التى لا حر فيها ولا برد — أى ليلة طلقة — والمكاء طائر فوق العصفور كثير الصفير (٨) العفاء ما كثر من ريش النعام — وازبأر تنفش
(٩) الأدحى الأفحوص الذى يبيض فيه النعام — والتركة بيضة النعام — والهجان البيضاء

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهمّ منتشر
فالمرء ما عاش ممدودٌ له أملٌ ... لا ينتهى العمر(١) حتى ينتهى الأثر(٢)

وقال أبو الأسود الدؤلى :

لا تُهِنّى بعد إكرامك لى ... فشديدٌ عادة مُنتزَعه
لا يكن برقك برقاً خُلّباً ... إن خير البرق ما الغيثُ معه

وقال مسكين الدارمى :

أصحب الأخيار وارغب فيهمُ ... رُبّ من صاحبته مثل الجربْ
واصدق الناس إذا حدثتهم ... ودع الكذْبَ لمن شاء كذب
رب مهزول سمين عرضه ... وسمين الجسم مهزولُ الحسب

---

٨ — الاجتماع والسياسية — قال مسكين الدارمى وقد أوعز إليه معاوية حينما عزم على البيعة ليزيد ولكنه تهيب ذلك لكثرة المرشحين ؛ وكان قد بلغ معاوية ما كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فلما اجتمعوا عنده قال مسكين قصيدة طويلة منها :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومرْوان أم ما ذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربىّ خلاّه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجدّ صاعد ... لكل أناس طائر وجدود
فلا زلتَ أعلى الناس كعباً ولا تزل ... وفود تساميها إليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً ... تُشيَّدُ أطناب له وعمود
قدور ابن حرب كالجوابى وتحتها ... أثاف كأمثال الرئال ركود

---

(١) الحياة . (٢) الأثر الأجل وسمى به لأنه يأثر العمر ويتبعه .

فلما انتهى منها قال معاوية ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، فلم يتكلم أحد بغير الموافقة .

وقال كعب بن جعيل شاعر أهل الشام وتمثل به معاوية فى ردّه على كتاب لعلى :

أرى الشام تكره مُلكَ العراق ... وأهل العراق له كارهينا
وكلاً لصاحبه مبغضاً ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذ ما رُمينا رميناهُمُ ... ودِنّاهمُ مثل ما يُقرضونا
فقالوا علىٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يفضّ الشئونا

وفى رد علىّ عليه ذكر شعراً للنجاشى أحد بنى الحارث بن كعب من شعراء أهل العراق ، ومنه :

دعاً يا معاوى ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا

الشعراء

شعراء هذا العصر ممن خلصت عربيتهم واستقامت ألسنتهم ، ولم يمتد إليهم اللحن . ولقد زادتهم مدارسة القرآن الكريم فصاحة وبلاغة ، وإحكاماً وإتقاناً ، حتى فضلهم بعض الرواة على سابقيهم من الجاهلين ؛ ولذلك لم ير العلماء بداً من الاحتجاج بشعرهم ، بل بشعر بعض المخضرمين ممن أدرك الدولتين الأموية والعباسية كابن هرمة(١) وبشار .

ومن أشهر شعراء هذا العصر كعب بن زهير ، والخنساء ، والحطيئة ،

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم وكان مولعاً بالشراب منقطعاً للطالبين ، توفى فى خلافة الرشيد .

وحسان بن ثابت ، والنابغة الجعدى ، وعمرو بن معديكرب من المخضرمين[1] وعُمرَ بن أبى ربيعة ، والأخطل ، والفرزدق ، وجرير ، والكميت ، وجميل ، وكثير ونصَيب ، والراعى ، وذو الرّمة ، من الإسلاميين .

تكسب الشعراء بالشعر

كانت غاية المادحين من قدماء الشعراء فى الجاهلية إما شكرَ الممدوح على حسن صنيعه ، وإما التباهى بمناقبه والافتخار بانتمائه إليه ، وإما التذرّع إلى الاستنجاد به ونحو ذلك ، لا طمعاً فى قنص ماله واستجداءً لمعروفه ، حتى نشأ فيهم مَنْ قَبل الثواب على المدح بلا مسألة له : كزُهير ، ثم مَنْ قبِله من الملوك خاصة بعد التعرض لهم أو التعريض بسؤالهم : كالنابغة وأمية ، ثم من قَبِله من الملوك والسوقة والعرب والعجم بعد مسألتهم : كالأعشى ، ثم من ألحفَ فى السؤال وضرع ، وتوعد بالهجاء من مَنع : كالحطيئة ، فأصبح الشعر مهنة كسب يمقتها الأشراف ويؤثرون عليها الخطابة فى بيان مقاصدهم .

وجاء الإسلام وقد ألف الناس المدح والإثابة عليه فأثاب النبى صلى الله عليه وسلم كعبَ بن زهير وغيره . ولم يعدل الخلفاء الراشدون عن سنته فيهما ، وإنما كان ذلك منهم بمثابة إهداء أو تكريم أو أداء حق لابن سبيل ، لا لإغراء منهم بكسل أو إذلال نفس ، أو إسقاط مروءة ، قال عمر بن الخطاب : « نعم ما تعلمته العرب : الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته » .

فلما قامت الدولة الأموية بسياسة القهر والحيلة لم تجد بدًّا من اشتراء ألسنة الشعراء بالمال تتقى به هجاءهم وتستأثر بمدحهم ، وتتخذ منهم أبواقاً تستنفر بها الناسَ للذود عنها ، وتحشدهم على دعوتها ، وتحرّشُ بعضهم ببعض ليلهو عن التعرض لسياستها والنعى على استبدادها وأثرتها ، كما تفعله أرباب الدولة والأحزاب من شراء الصحف الكبرى فى زماننا . فكان من شعر

---

(١) من معانى المخضرم الأسود الذى أبوه أبيض . ولعل تسمية الشاعر الذى أدرك الجاهلية والإسلام أخذت من هذا .

جرير والفرزدق والأخطل والكميت وغيرهم معرضٌ لتهارُش الشعراء ومظهرٌ لدهاء الخلفاء مع ما يستتبعه ذلك من نشر اللغة ، وترقية الأدب ، وهما من أقوى عُدد العرب السياسية ، ولذلك صار الشعر فى هذا العصر مَتجراً رابحاً ، وزاحم الشعراء العلماء والقوادَ فى مجالس الخلفاء ، وأصبحوا بعطاياهم فى عداد الأغنياء ، وسارت صناعة الشعر على هذا الدرب هذا العصرَ وعصرَ الدولة العباسية .

على أن الشعر لم يَعدم فى كل زمان ومكان من يربأ به عن السؤال ويقوله فى تأييد مذهب أو ترويح خاطر أو شكوى غرام ، كجميل بن عبد الله بن معمر ، وعمر بن أبى ربيعة من شعراء هذا العصر .

(١) كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبى سُلمَى أحد فحول المخضرمين وصاحب « بانت سعاد » فى مدح النبى الأمين .

وهو ابن زهير صاحب المعلقة . قال الشعر فى حداثته فكان والده ينهاه عنه مخافة أن يقول ما لا خير فيه فيُروَى عنه فيلزمه عاره الدهر ، فلم ينته فآذاه فلم يرتدع ، فامتحنه امتحاناً شديداً فكان يقول على ما يحب زهير فأجازه له فمضى ونبغ فيه حتى كان من فحول عصره .

ولما ظهر الإسلام ذهب أخوه بجير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم ، فغضب كعب لإسلامه ، ونهاه عن الإسلام وهجاه وهجا رسول الله وأصحابه ، فتوعده النبى صلى الله عليه وسلم وأهدر دمه ، فحذَّره أخوه العاقبة إلا أن يجىء إلى النبى مسلماً تائباً ، فهام كعب يترامى على القبائل أن تجيره فلم يجرْهُ أحد ، وأرْجف الناس أنه مقتول لا محالة فلما ضاقت الأرض فى وجهه جاء أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة وتوسلَ به إلى الرسول فأقبل به عليه فعاذ به وآمن ، وأنشد قصيدته المشهورة يمدحه بها وهى من جيد شعره ، ومطلعها :

بانت(١) سعاد فقلبى اليوم مبتول(٢) متيمٌ(٣) إثرَها لم يُفدَ مكبول(٤)

(١) فارقت (٢) تبله الحب أسقمه وأضناه (٣) معبد ومذلل (٤) مقيد

فخلع عليه النبى بردته فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم ، ثم للمنصور العباسى بأربعين ألفاً .

• • •

شعره — كان كعب من الشعراء المجيدين المشهورين بالسبق وُعلوّ الكعب فى الشعر . وكان خلف الأحمر أحد علماء الشعر يقول لولا قصائد لزهير ما فضلته على ابنه كعب ، وكفاه فضلاً أن الحطيئة مع ذائع شهرته رجاه أن ينوّه به فى شعره فقال :

فمن للقوافى شانَها من يحوكها[1] إذا ما مضى كعب وفوّزَ جرْول[2]

وكان يكثر من غيريب الألفاظ على جودة فى الوصف وسهولة فى العبارة فى بعض المواضع وصعوبة فى بعضها الآخر .

ومن شعره قوله فى قصيدته بانت سعاد :

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينّك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى « لا أبا لكمُ » فكل ما قدّر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدْباء[3] محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة[4] الـ قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأخذنّى بأقوال الوشـاة ولم أذنب وقد كثرت فىّ الأقاويل

ومن قوله أيضاً :

إن كنت لا ترهب ذمى لما تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى إذ أنا منصت فيك لمسموع خنا[5] القائل
فالسـامع الذمّ شريك لـه ومُطعمُ المأكول كالآكل

---

(١) شان ضد زان ، وحاك الثوب نسجه والقصيدة نظمها (٢) فوز مات ، وجرول اسم الحطيئة الشاعر (٣) يريد النعش ، وقيل الآلة الحالة ، والحدباء العصية الشديدة .
(٤) كل عطية تبرع بها معطيها (٥) فحش .

مقالةُ السوء إلى أهلها أسرعُ من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذمّوه بالحق وبالباطل

(٢) عمرو بن معديكرب الزبيدى

هو أبو ثَوْر عمرُو بن معديكرب الزبيدى المَذْحِجِيّ، فارس اليمن، وأحد الشعراء المعمرين والخطباء الموفدين.

منشؤه وصفاته — نشأ عمرٌو بين قومه محمَّقاً أكولاً لا يؤمل منه خير، ولا تُلحظ فيه سيادة، على ضخامة فى جثة، وجهارة فى صوت، حتى بلغ زبيداً أن خثعمَ ستشن الغارة عليهم، فتأهبوا، ودخل عمرو على أخته. فقال أشبعينى؛ إن غداً الكتيبة. فأخبرت أباه، فقال: سلى هذا المائق ما يشبعه، فأكل عنزاً بثلاثة آصع ذرة، وأتتهم خثعم فتبلّدَ حتى رأى لواء أبيه مال وانهزمت زُبيد، فثار وكر على خثعم. وتراجع إليه قومه فهزموا الأعداء. فأصبح يسمى فارس زُبيد بعد أن كان سمى مائق زبيد، واشتهر بالشجاعة حتى هابته أبطال العرب، وضرب به المثل فى الشجاعة، وفى ذلك يقول أبو تمام:

إقدام عمرو، فى سماحة حاتم، فى حلم أحنفَ فى ذكاء إياس

ومع ذلك قد يصدق عن نفسه بأنها ربما حدثته بالخوف والفرار فيأخذها بصدق العزيمة والأنفة من العار فيثبت فيكون له الفوز والغلب، وهذا معنى قولهم (الشجاعة، صبر ساعة) وفى شجاعته يقول عن نفسه: لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها، ما لم يلقنى حُرّاها أو عَبداها، فأما الحران: فعامر بن الطفيل، وعيينةُ بن الحارث ابن شهاب. وأما العبدان: فأسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسليك بن السلكة، وكلهم قد لقيت على أنه مع طول تعميره فى الجاهلية والإسلام وحضوره الوقائع الكثيرة أخلفه الظفر فى عدة مواطن، فقهره ربيعة بن مكدّم فى الجاهلية وخالد بن سعيد بن العاص فى الإسلام.

ولما فشا الإسلام فى قبائل العرب وفد مع بعض قومه على رسول الله مُنصرَفه

من وقعة تبوك سنة تسع من الهجرة ، فأسلم ثم رجع إلى قومه ، فلما ارتدت العرب كان ممن ارتد ، فسار إليه خالد بن سعيد بن العاص فقتله فانهزم ، وأخذ خالد صمصامته . ولما رأى أمداد أبي بكر تتوالى على المسلمين دخل على المهاجر (أحد قواد جيش المسلمين) بغير أمان فأوثقه وبعث به إلى أبي بكر ، فقال له أبو بكر : أما تستحي تجيء كل يوم مهزوماً أو مأسوراً ! لو عززت هذا الدين لرفعك الله ، قال : لا جرم لأقبلنّ ولا أعود ، فأطلقه وعاد إلى قومه ثم عاد إلى المدينة . فبعثه أبو بكر إلى الشام ، فشهد يوم اليرموك وأبلى فيه بلاءً حسناً . وذهبت فيه إحدى عينيه ، ثم بعث به عمر رضي الله عنه إلى العراق . فشهد القادسية ، وهو الذي ضرب خرطوم الفيل بالسيف ، وكان ذلك من أسباب الفتح . ثم لما مُصِّرت الكوفة أقام بها حتى كانت وقعة نهاوند ، فحضرها تحت لواء النعمان ابن مُقرِّن . ومات بها سنة إحدى وعشرين على خلاف في ذلك .

ويعدّ عمرو من الشعراء المخضرمين ، ويأتي شعره في الطبقة الثانية من الجودة ويغلب عليه وصف الوقائع والتحدث عن نفسه بالشجاعة ، وله ديوان شعر شرحه بعض أئمة اللغة ، وهو أحد الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى .

ومن شعره قوله في صدقه عن نفسه في الحرب :

ولما رأيتَ الخيلَ زُوراً كأنها ... جداول زرع أرسلت فاستبطرّت
فجاشت إليّ النفسُ أول مرة ... فرُدّتْ على مكروهها فاستقرت
علامَ تقولُ الرمحَ يُثقل عاتقي ... إذا أنا لم أطعنْ إذا الخيل كرّت

ومن قوله أيضاً :

أمن ريحانةَ الداعي السميعُ ... يؤرقني وأصحابي هُجوعُ
أشابَ الرأس أيامٌ طوالٌ ... وهمٌ ما تضمّنهُ الضلوعُ
وسوق كتيبة دَلفتْ لأخرى ... كأنّ نهارها رأس صَليع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالزّماع [1] فكل أمر ... سَما لك أو سموت له وَلوع

---

(١) المضاء في الأمر والعزم عليه .

وقوله :

كم من أخ لى صالح　　بوّأته بيدىّ لحدا
ما إن جزِعتُ ولا هلعـ　　ـت ولا يردُّ بكاى زندا
ذهبَ الذين أحبهم　　وبقيتُ مثلَ السيف فرْدا

ومن خطبه خطبته التى قالها أمام كسرى وهى على ما فى العقد الفريد :

إنما المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق السداد ، وملاك النجعة الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة . فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا ، فإنا أناس لم يوقِس(١) صفاتنا قراعُ مناقير من أراد لنا قضماً ، ولكن منعنا حمانا من كل رام لنا هضما .

(٣) الخنساء

هى السيدةُ تُماضرُ الخنساء بنت عمرو بن الشريد السُّلَمية؛ أرثى شواعر العرب وأحزن من بكى وندب .

كان أبوها عمرو وأخواها : معاوية وصخر سادات بنى سُليم من مضر ، وكانت هى من أجمل نساء زمانها ، فخطبها دُرَيد بن الصِّمة فارس جُشَمَ ، فرغبت عنه ، وآثرت التزوجَ فى قومها فتزوّجت منهم .

وكانت تقول المقطعات من الشعر . فلما قتل شقيقها معاوية ثم أخوها لأبيها صخر ، جزعت عليهما جزعاً شديداً وبكتهما بكاء مرًّا وكان أشد وجدها على صخر ، لأنه شاطرَها هى وزوجها أمواله مراراً ، فهاجَ حزنها الشعر فى نفسها ، فقالت المراثى المطوّلات ، وفاقت النساء والرجال فيها . وأطالت عليهما البكاء والعويل حتى تقرحت مآقيها ، وحتى ضرب بها المثل فى الحزن والبكاء وكثرة الرثاء . وجاء الإسلام فوفدت مع قومها على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلمت ، وكان يعجبه شعرها ويستنشدها ، ويقول : هيهِ يا خُناس ويومئ بيده .

(١) من أوقست الإبل : أصيب بالجرب . والصفاة : الصخرة الملساء . أى لم يضرنا أعداؤنا .

وما فتئتْ تبكى صخراً قبل الإسلام وبعده حتى عميت ، وبقيت إلى أن شهدت حربَ القادسية (١) مع أولادها الأربعة ، فأوصتهم وصيتها المشهورة وحضتهم على الصبر عند الزحف فقتلوا جميعاً ، فقالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، ولم تحزن عليهم حزنها على أخويها ، وتوفيت بالبادية فى خلافة معاوية .

شعرها — أغلب علماء الشعر على أنه لم تكن امرأة قبلَ الخنساء ولا بعدها أشعرَ منها ، ومن فضّل ليلى الأخيلية عليها لم ينكر أنها أرثى النساء . وكان بشارٌ يقول : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول :

ولم يكن شأنها عند شعراء الجاهلية أقل منه عند شعراء الإسلام ، فذلك النابغة الذبيانى يقول لها وقد أنشدته بسوق عُكاظ قصيدتها التى مطلعها :

قذًى بعينيك أم بالعين عُوّارُ (٢) ... أم ذرَّفت (٣) إذ خلت من أهلها الدار

لولا أن أبا بصير (يعنى الأعشى) أنشدنى قبلك لقلتُ إنك أشعر من بالسوق .

ولشعر الخنساء رنين فى السمع ، وهزة فى القلب ، ووقع فى النفس ، لأنه صادر من فؤاد محزون ، وما خرج من القلب حل فى القلب . وكان فوق ذلك لين اللفظ ، سهل الأسلوب ، حسن الديباجة .

وسئل جرير : منْ أشعر الناس ؟ قال : أنا لولا الخنساء ، قيل : فبمَ فضلتك ؟ قال : بقولها :

إن الزمان (وما يَفنى له عجبٌ) ... أبقى لنا ذَنَباً واستُؤصل الراس

إن الجديدين (٤) فى طول اختلافهما ... لا يَفسدان ولكن يفسد الناس

---

(١) وقعة عظيمة كانت بين العرب والفرس فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبى وقاص انتصاراً باهراً .

(٢) مرض (٣) قطرت دمعاً (٤) الليل والنهار .

ومن جيد شعرها ترثى أخاها صخراً :

يذكرُنى طلوعُ الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس[١]
فلولا كثرة الباكين حَوْلى ... على إخوانهم لقتلت نفسى
ولكن لا أزال أرى عَجولاً[٢] ... ونائحةً تنوح ليوم نحس
هما كلتاهما تبكى أخاهـا ... عشيةَ رُزْئه أو غبَّ أمس
وما يبكين مثل أخى ولكن ... أسلى النفس عنه بالتأسى[٣]
فقد ودّعتُ يوم فراق صخر ... أبى حسانَ[٤] لذّاتى وأنسى
فيا لهفى عليه ولهفَ أمى ... أيصبح فى الضريح وفيه يُمسى

ومن قصيدتها التى تقدم مطلعها :

وإن صخراً لكافينا وسيدُنا ... وإن صخراً إذا نَشتو لنحّار
أغر[٥] أبلجُ[٦] تأتم الهداة به ... كأنه علم[٧] فى رأسه نار
حَمال ألوية ، هَباط أودية ... شَهادُ أندية ، للجيش جرّار

ومن قولها ترثيه أيضاً :

ألا يا صخر إن أبكيت عينى ... فقد أضحكتنى زمناً طويلا
دفعت بك الخطوب وأنت حىّ ... فمن ذا يدفع الخطب[٨] الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

(٤) حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى شاعر رسول الله وأشعر أهل المدر وفحل شعراء المخضرمين ، وهو من بنى النجار من أهل المدينة.

نشأ فى الجاهلية ونبه شأنه فيها إذ أدرك فحولها فلم يُقصر عن اللحاق بهم .

(١) يعنى أنها تذكره أول النهار للغارة وآخره للأضياف (٢) العجوز المرأة الثكل
(٣) الاقتداء (٤) كنية صخر (٥) مشهور (٦) واضح (٧) جبل
(٨) الأمر الشديد ينزل .

بل بذ(١) الكثير منهم وكان يمدح الملوك والمناذرة والغساسنة فى الجاهلية ، ويرحل إليهم فينال منهم جزيل العطايا ، وأكثر من كان يمدحهم ويكثر انتجاعهم ، آل جفنة من ملوك غسان لما بين أهل يثرب(٢) والغساسنة من صلة النسب وقرب الجوار ، فكان له من جوائزهم مدد لا ينقطع ، حتى ناله منهم شىء بعد أن أسلم وتنصروا .

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأسلم الأنصار ، أسلم معهم ودافع عنه بلسانه كما دافع عنه قومه الأنصار بسيوفهم ، فكان لقوله فى النكاية فى قريش وأعداء النبى أحسن بلاء وأحمد أثر .

وعاش حسان بعد رسول الله مُحبباً إلى خلفائه مرضياً عنه يفرض له العطاء الكافى من بيت المال وعُمر قريباً من ١٢٠ سنة وبقى أكثر حياته ممتعاً بحواسه وعقله ، ووهن فى أواخر عمره . وكفّ بصره . ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ .

• • •

شعره — كان حسان شاعراً أهل المدر فى الجاهلية ، وشاعر اليمانية فى الإسلام ، ولم يكن فى أصحاب رسول الله ولا فى أعدائه عند دعوته إلى الله أشعر منه ، ولذلك رمى مشركى قريش من لسانه بالداهية التى لم يكن لهم قبلٌ بها ، فأوجعهم وأخرسهم من غير فُحش ولا هُجر . ولما أذن له النبى فى هجائهم قال له : كيف تهجوهم وأنا منهم؟ قال : أسُلّكَ منهم كما تسلّ الشعرة من العجين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصب له منبراً بالمسجد ويسمع هجاءه فى أعدائه ويقول (أجب عنى اللهم أيده بروح القدُس) وكان فى شعر حسان زمن الجاهلية شدة وغرابة لفظ ووعورة مسلك ، فلما أسلم وسمع القرآن ووعاه وكثرَ ارتجاله الشعر لكثرة الحوادث التى تستدعى ذلك لانَ شعره وسهل أسلوبه ، ودمثتْ معانيه حتى ظن بعض أئمة الشعر أن شعره فى الإسلام أضعف منه فى الجاهلية ، محتجاً بأن الشعر لا يقوى إلا فى باب الشر الذى يحظره الإسلام ، وربما كان لتعليله هذا وكبر سن حسان وكثرة ارتجاله أثر فى بعض شعره .

---

(١) فاق وغلب (٢) المدينة المنورة .

ويغلب على شعره بعد المدح والهجاء[١] الفخر بنفسه وقومه .

ومن شعره فى الجاهلية :

ولقد تُقلدُنا العشيرة أمــرها ... ونسود يوم النــائبات ونعتلى
ويسودُ سيدُنا جحاجح[٢] سادة ... ويصيب قابلنا سواءَ[٣] المفصل
ونحاول الأمرَ المهمَّ خطابةً ... فيهم ونفصل كل أمر مُعضل
وتزور أبواب الملوك ركابُنــا ... ومتى نحكمْ فى البرية نعدل

ومن شعره فى الإسلام يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الذوائب[٤] من فهر[٥] وإخوتهم ... قــد بينوا سنناً للناس تُتبَّع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضرّوا عــدوهمُ ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم[٦] نفعوا
ســجية تلك فيهمْ غيرُ مُحْدَثة ... إن الخلائق[٧] (فاعلم) شرها البدعُ[٨]
لا يرقعُ الناس ما أوهت[٩] أكفهم ... عند الدفاع ولا يُوهون ما رقعوا
إن كان فى النــاس سباقون بعــدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ

قال يهجو :

أبوك أب حرّ أمك حرّة ... وقد يلد الحرّان غير نجيب
فلا يعجبنّ النــاس منك ومنهما ... فما خبث من فضة بعجيب

---

(١) طلب الحارث بن عوف من النبى أن يبعث معه من يدعوهم للدين على أن يكون جاراً له فكان ذلك ، ثم غدر بالحارث عشيرته فقدم إلى الرسول فقال عليه السلام : أين حسان ؟ فما رأى الحارث حتى قال :

يا حار من يغــدر بذمة جاره ... منــكم فإن محمــداً يغــدر
وأمانة المرى حيث لقيتــه ... مثل الزجاجة صدعها لم يجبر
إن تغدروا فالغدر منكم شيمة ... والغدر ينبت فى أصول السخبر

فقال الحارث : أنا عائذ بك يا محمد من شره ، أكففه عنى على أن أؤدى لك دية الخفارة ، فأداها وكانت سبعين ناقة عشراء .

(٢) سيد جحجاح مسارع فى المكارم (٣) سواء وسط ، والمفصل كمجد كل ملتقى عظمين من الجسد ، أى يصيب شاكلة الصواب (٤) السادة (٥) قبيلة من قريش (٦) أتباعهم وأنصارهم (٧) جمع خليقة وهى الطبيعة (٨) المستحدث من الأخلاق لا ما هو متأصل فى النفوس (٩) يرقع يصلح . أوهت : أفسدت وأضعفت .

ويغلب على شعره بعد المدح والهجاء[١] الفخر بنفسه وقومه .

ومن شعره فى الجاهلية :

ولقد تُقلدُنا العشيرة أمـــرها ونسود يوم النــائبات ونعتلى

ويسودُ سيدُنا جحاجح[٢] سادة ويصيب قابلنا سواءَ[٣] المفصل

ونحاول الأمرَ المهمَّ خطابةً فيهم ونفصل كل أمر مُعضل

وتزور أبواب الملوك ركابُنـــا ومتى نحكمْ فى البرية نعدل

ومن شعره فى الإسلام يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الذوائب[٤] من فهر[٥] وإخوتهم قـــد بينوا سنناً للناس تُتَّبع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

قوم إذا حاربوا ضرّوا عـــدوهمُ أو حاولوا النفع فى أشياعهم[٦] نفعوا

ســجية تلك فيهمْ غيرُ مُحْدثة إن الخلائق[٧] (فاعلم) شرها البدعُ[٨]

لا يرقعُ الناس ما أوهت[٩] أكفهم عند الدفاع ولا يُوهون ما رقعوا

إن كان فى النـــاس سباقون بعـــدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ

قال يهجو :

أبوك أب حرّ أمك حرّة وقد يلد الحرّان غير نجيب

فلا يعجبنّ النـــاس منك ومنهما فما خبث من فضة بعجيب

---

(١) طلب الحارث بن عوف من النبى أن يبعث معه من يدعوهم للدين على أن يكون جاراً له فكان ذلك ، ثم غدر بالحارث عشيرته فقدم إلى الرسول فقال عليه السلام : أين حسان ؟ فما رأى الحارث حتى قال :

يا حار من يغـــدر بذمة جاره منـــكم فإن محمـــداً يغـــدر

وأمانة المرى حيث لقيتـــه مثل الزجاجة صدعها لم يجبر

إن تغدروا فالغدر منكم شيمة والغدر ينبت فى أصول السخبر

فقال الحارث : أنا عائذ بك يا محمد من شره ، أكففه عنى على أن أؤدى لك دية الخفارة ، فأداها وكانت سبعين ناقة عشراء .

(٢) سيد جحجاح مسارع فى المكارم (٣) سواء وسط ، والمفصل كمسجد كل ملتقى عظمين من الجسد ، أى يصيب شاكلة الصواب (٤) السادة (٥) قبيلة من قريش (٦) أتباعهم وأنصارهم (٧) جمع خليقة وهى الطبيعة (٨) المستحدث من الأخلاق لا ما هو متأصل فى النفوس (٩) يرقع يصلح . أوهت : أفسدت وأضعفت .

ومن أبياته السائرة قوله :

وإنّ امرأً يُمسى ويصبح سالماً ... من الناس إلا ّما جنى لسعيد(١)

وربّ حلم أضـاعه عدم الما ... ل وجهل غطى عليه النعيم

فلو كان مجد يُخلد الدهرَ واحداً ... من الناس أبقى مجده الدهرَ مطعما(٢)

(٥) الحطيئة

هو أبو مليكة جَرْوَلُ الحطيئة العبسىُّ الشاعر المشهور أحد كبار الهجائين المداحين المجدين ، وكانت أمه فى بيت رجل من عبس فجاءت منه بالحطيئة ، ولكن نسبه لم يثبت صريحاً منه . لذلك نشأ معلول النسب ، وضيع الشرف ، حاقداً على أمه وأبيه ، متبرماً بالناس (٣) ، فلم يشف غلته من الجميع إلا بتعلمه الشعر وهجائهم جميعاً ، فهجا أمه(٤) وأباه وذوى قرابته وقومه(٥) وزوجته(٦) بل هجا نفسه(٧) . ونشأ كما قال الأصمعى جشعاً ، سئولاً ملحفاً ، دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلا ، قبيح المنظر ، رثّ الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين . وعاش الحطيئة مدة فى الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم ، ولم يكن له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم عاش متنقلاً فى القبائل يمدح هذه تارة ويذم تلك أخرى ، وينتسب إلى عبس طوراً وطوراً إلى ذُهل ، ويهجو اليوم من يمدحه بالأمس ، وكل قبيلة تخطب وُدّه وتتقى شر لسانه .

وقد هجا الزبرقانَ بن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب على الصدقات ، وكان قد أنزل الحطيئة بجواره وأحسن إليه ، فاستماله بَغيض أحد بنى أنف الناقة وأنزله عنده ، فمدحه وقومه بالشعر الكثير ، ورفع عنهم عارَ اسمهم ببيته المشهور وهو :

---

(١) أى أن السعيد من الناس من سلم من ألسنتهم وتقولاتهم ولم يذكروه إلا بما فيه .

(٢) مطعم بن عدى أحد من قام فى نقض الصحيفة ، مات ولم يسلم وكان قد أجار النبى حين قدم من الطائف إلى مكة بعد أن دعا ثقيفاً إلى الإسلام (٣) أى لتحديدهم الشرف بجحود وضعوها

(٤) كقوله : جزاك الله شراً من عجـوز ... ولقاك العقوق من البنينـا

(٥) كقولة : لحـاك الله ثم لحـاك حقـاً ... أبا ولحـاك من عم وخـال

(٦) كقوله : أطوف ما أطوف ثم آوى ... إلى بيت قعيـدته لـكاع

(٧) كقوله : أرى لى وجهاً شوه الله خلقـه ... فقبح من وجه وقبح حامـله

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ ... ومن يسوّى بأنف الناقة الذنبا

وحمله بغيض على ذم الزبرقان فذمه ، فاستعدى عليه الزبرقان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحبس الحطيئة ، فما زال يستشفع إليه بالناس وقول الشعر حتى أطلقه وهدده بقطع لسانه إن هجا أحداً ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولكنه نكث وأوغل فى الهجاء بعد موت عمر . وبقى كذلك حتى مات سنة ٥٩ هـ .

• • •

شعره

شعره — لولا ما وصم به الحطيئة من خسة النفس ، ودناءة الخلق ، وجهالة النسب ، ورقة الدين ، والغدر والبخل الشديد ، والإساءة إلى من أحسن إليه ، وسؤاله الرّعاع والسوقة طمعاً فى جمع المال من أى سبيل — لكان بإجادته فى كل ضرب من ضروب الشعر شاعر المخضرمين على الإطلاق ، إلا أنه لم يقف ببراعته وفصاحته موقفاً لله ولا للشرف ، لا للفتوّة والمروءة . ومن الغريب أنه تخرج على زهير فى الفصاحة والإجادة فى المدح ، وتعلم الشعر والمبالغة فى تجويده وإحكامه بملازمته إياه وروايته عنه ، ولم يقتبس عنه حكمته وعفته وحسن خلقه وقلما يُوجد فى كلام الحطيئة مَظنة ضعف أو مغمزٌ لغامز : من ركاكة لفظ ، أو غَضاضة معنى ، أو اضطراب قافية .

طائفة من شعره

ومن مدحه الذى لا يُلحق له فيه غبار قوله :

يسوسون أحلاماً(١) بعيداً أناتها(٢) ... وإن غضبوا جاء الحفيظة(٣) والجدّ

أقِلوا عليهم (لا أبا لأبيكم) ... من اللوم أو سدّوا المكان الذى سدّوا

أولئك قوم إن بنوْا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا(٤)

وإن كانت النعماء فيهم جزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدُّوا(٥)

مَطاعينُ فى الهيجا مكاشيفُ للدجى ... بنى لهم آباؤهم وبنى الجد

ويعذلنى أبناء سعد عليهمُ ... وما قلتُ إلا بالذى علمت سعد

---

(١) عقولا . (٢) حلمها أى بعيدة عن الغضب . (٣) الغضب . (٤) وثقوا .
(٥) أتعبوا من أعطوهم بالمن والأذى .

ومن أبياته التى استعطف بها أمير المؤمنين عمر ، وهو فى سجنه قوله :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرَخ[١] زُغب[٢] الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيتَ كاسبهم فى قعر مُظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر !
أنت الأمين الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليدَ النهى البشر
لم يُؤثِرُوك بها إذْ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الخيرَ

ومن أبياته التى يعرّض فيها بهجو الزبرقان قوله :

أزمعتُ يأساً مُبيناً من نوالكم ولا يرى طارداً للحر كالياس
دع المكارم لا ترْحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يَعدَمْ جوازيَه[٣] لا يَذْهب العُرْف بين الله والناس

(٦) النابغة الجعدى

هو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله الجعدىّ العامرىّ ، أحد القدماء المعمرين ، والشعراءِ المخضرَمين ، ووصّاف الخيل المشهورين .

هو أحد بنى جعدة بن كعب بن ربيعة . عاش زمناً فى الجاهلية وحضر كثيراً من أيامها ووقائعها ، وقال الشعر فى الجاهلية ثم أجبَل[٤] دهراً ، ثم نبغ فى الشعر عند ظهور الإسلام وبعده ، ولذلك سُمّى النابغة . وهو ممن فكر فى الجاهلية ، وأنكر الخمر لما تفعل بالعقل ، وهجر الأزلام والأوثان ، وذكر دين إبراهيم ، وصام واستغفر . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدته المشهورة التى يمدحه بها ويقول فى أولها : منشؤه وحياته

خليلىّ عُوجا ساعةً وتهجّرا ونوحاً على ما أحدث الدهر أو ذرا

(١) واد بالحجاز . (٢) الزغب أول ما يبدو من الشعر والريش . (٣) جمع جازية أو جزاء (٤) أجبل الشاعر صعب عليه القول .

فأعجب بها رسول الله ودعا له . وعاش طويلاً فى الإسلام ، فأقام زمناً مهاجراً حتى أيام عثمان رضى الله عنه فأحس بضعف فى نفسه ، فاستأذن عثمان فى الرجوع إلى البادية فأذن له . ثم لما كانت خلافة على (رضى الله عنه) شهد معه وقائع صفين ، وظاهره بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبنى أمية .

وعند ما آلت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة على معاوية وعنده مروان فأنشدهما أبياتاً منها :

فإن تأخذوا أهلى ومالى بظِنَّـــة ... فإنى لحرّاب الرجال مُحرَّب
صبور على ما يكره المرءُ كله ... سوى الظلم إنى إن ظلمت سأغضب

فالتفت معاوية إلى مروان ، فقال : ما ترى ؟ قال : أرى ألاّ تردّ عليه شيئاً ، قال : ما أهون والله عليك أن ينجحر هذا فى غار ثم يُقطع عرضى علىّ ثم تأخذه العرب فترويه ، أما والله إن كنت لممن يرويه . اردُدْ عليه كل شىء أخذته . ثم كان فى شيعة عبد الله بن الزبير حين خروجه على يزيد ومروان وعبد الملك ، وجاء ابن الزبير ومدحه فأجزل له العطاء على بخل فيه . وبعد سكون الفتن خرج مهاجراً إلى الأمصار المفتتحة فمات بإصبهان بعد أن عُمر على ما قيل مائة وثمانين سنة .

• • •

شعره — كان النابغة الجعدى شاعراً مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام وهو أول من سبق إلى الكناية فى الشعر عنْ اسم من يَعْنى إلى غيرها ، وتبعه الناس بعد ، قال :

أكنى بغير اسمها وقد علمَ الله خفيات كلِّ مُكتتَم

وكان ممن يصفون الخيل فلا يلحق له فى ذلك غُبار ، حتى ضرب به المثل ، قال الأصمعى : ثلاثة يصفون الخيل فلا يقاربهم أحد : طفيل الغنوى ، وأبو دُوَاد الإيادى ، والنابغة الجعدى . وما كان ينتحى طريقة زهير والحطيئة وأشباههما ممن يبالغون فى تهذيب الألفاظ وتنقيح المعانى ، بل كان يلقى القول على عواهنه وكما تهديه إليه بديهته ، فتارة يأتى جيداً متيناً ، وتارة يجىء ضعيفاً

رديئاً ، وأحياناً يسلك بين ذلك سبيلاً ، حتى قال الأصمعي : عنده مُطرَف[١] بآلاف ، وخمار[٢] بواف[٣] .

ومع ذلك كله كان مغلَّباً ، ما هاجى أحداً إلا غلبه : هاجى أوس ابن مَغراء ولم يكن أوس مثله ولا قريباً منه في الشعر فغلبه ، وهاجى كعب بن جُعَيل فغلبه أيضاً ، وهاجى ليلى الأخيلية فغلبته . وله في الفخر والهجاء والمديح والرثاء شعر كثير . ومن أشرفه قصيدته التي مدح بها الرسول الكريم وهي : شيء من شعره

خليليّ عوجا[٤] ساعةً وتَهجرا[٥] ونوحاً على ما أحدث الدهر أو ذَرَا

ولا تجزعا ، إن الحياة ذميمة فَخِفّاً لروعات الحوادث أو قِرا[٦]

وإن جاء أمر لا تُطيقان دَفعه فلا تجزَعا مما قضى الله واصبرا

ألم تريا أن الملامة نفعها قليلٌ ، إذا ما الشيء ولّى وأدبرا

تَهيج البكاء والندامة ثم لا تغيِّر شيئاً غير ما كان قُدِّرا

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرّة[٧] نيِّرا

أقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أحذرا

ومنها في الفخر :

وإنا لقوم ما تعود خيلنا إذا ما التقيا أن تحيد وتَنفرا

وننكر يوم الروع[٨] ألوان خيلنا من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا[٩]

بلغنا السماء مجدُنا وجدودُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ولما سمع رسول الله (بلغنا السماء ، البيتَ) قال لهُ : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : الجنة ! قال لهُ : إن شاء الله ! ولما أتم قصيدته ، قال لهُ الرسول : أجدت لا يفضُض الله فاك ، فأنت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفضت من فيه سنّ .

---

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام (٢) ثوب تغطى به المرأة رأسها .
(٣) الواف درهم وأربعة دوانق (٤) قفا (٥) سيرا في الهاجرة (شدة حرارة الشمس)
(٦) وقر كوهد رزن أو جلس بوقار (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وإنما ينتشر ضوؤها فيرى كأنه جدة بيضاء (٨) الفزع والمراد الحرب (٩) الجون من الخيل الأدهم ، والأشقر منها الأحمر .

ومن قوله يرثى ابنه محارباً وأخاه وَحْوَحاً :

بَدَتْ فعلَ ذى ودّ فلما تبعتها … تولّتْ وأبقتْ حاجتى فى فؤاديا
وحلّتْ سواد القلب لا أنا باغياً … سواها ولا عن حبها متقاليا
أتيحت لهُ والهم يختضر الفتى [١] … ومن حاجة الإنسان ماليس لاقيا

ومنها :

ألم تعلمى أنى زُرِئتُ محارباً … فما لك منه اليوم شىء ولا ليا
ومن قبله ما قد زُرِئت بوحوح … وكان ابن أمى والخليلَ المصافيا
فتى كان فيه ما يسرّ صديقه … على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا
فتى كملت خيراته غير أنهُ … جواد فما يُبقى من المال باقيا

(٧) عمر بن أبى ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة القرشى المخزومى ؛ أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ؛ وكانت أمه نصرانية وكان أبوه تاجراً موسراً، وعاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وللخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب فى نعيم وترف ، وقال الشعر صغيراً . وسلك فيه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء وتزاوُرَهُن ومُداعبة بعضهن لبعض، وما يعتدْن قوله من الكلام ، مما يتوقّر الشعراء والفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحفلوا بشعره وعدوه من هذَيان خُلعاء المدينة ، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة وهى التى أولها :

أمن آل نُعم أنت غاد فمبكرُ … غداة غد أم رائح فمهجرُ

والتى قال فيها جرير حين سمعها : ما زال يهذى هذا القرشى حتى قال الشعر . ثم استطار شره فى التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها ،

(١) اختضر النبات أخذ طرياً غضاً والشاب مات فتياً .

وتعرض للمحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقعن منه في بلاء عظيم ، وصرن يخفن الخروج إلى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويترقب خروجهن للطواف والسعي ويصفهن وهن محرمات . وحلمت عليه رجالات قريش ، لمكانة نسبه منهم ، ولترقب توبته وإقلاعه . فلما تمادى في أمره وشبب ببنات السادات والخلفاء ، غضب عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى دَهْلَك[1] . ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فغزا في البحر ، فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضاً سنة ٩٣ هـ .

• • •

شعره

شعره — كانت العرب تُقرّ لقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا في الشعر ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضاً وكان أكثر الشعراء الإسلاميين يحجمون عن التشبيب بالنساء امتثالا لأمر الدين ، ومحافظة على الآداب العربية الإسلامية . وكان أكثر تشبيبهم في بكاء الأطلال ومنازل الأحباب ، فلما ظهر عمر سلك في الغزل طريقاً لم يسلكوه : فوصف أحوال النساء في منازلهن وتزاورهن ومحادثتهن ، ومداعبة بعضهن لبعض ، وتلاومهن ، وما يعتذرن قوله من الكلام والعبارات ، في أسلوب يغلب عليه القصص وحكاية ما شاهده ، في شعر رقيق ، ولفظ رشيق ، ومعنى أنيق . وبهر الشعراء بهذه الطريقة حتى قال فيه جرير وهو من شعراء الغزل : هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار ، وكذلك قال الفرزدق . ولسهولة شعر عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدة تأثيره في قلوب الخلعاء وأهل اللهو ، أولع به المغنون والمغنيات من القيان والموالي إنشاداً وتلحيناً ، ولذلك قال فيه بعض متورعي الأنصار : ما عُصي الله بشيء كما عُصي بشعر ابن أبي ربيعة[2] .

التغني بشعره

ومن قوله :

---

(١) جزيرة أمام مدينة مصوع

(٢) قالت ظبية لمولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب : مررت بجعلك عبد الله وأنا داخلة وهو بفنائه ومعي دفتر فقال ما هذا معك ، ودعاني فجئته وقلت شعر عمر بن أبي ربيعة ، فقال ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ، إن لشعره موقعاً من القلوب ، ومدخلا لطيفاً ، لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعي به ، ففعلت .

ليت هنداً أنجزتنا ما تعــدْ ... وشفت أنفسنا مما نجدْ
واستبدّت مرة واحــدة ... إنما العاجز من لا يستبدْ
ولقــد قالت لجارات لهــا ... ذات يوم وتعرت تبترد :
أ كما ينعتني تبصرنني ... (عمركن الله) أم لا يقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها : ... حسن في كل عين من تودّ !
حسداً حُمّلنــه من أجلهــا ... وقديماً كان في الناس الحسد

ومن قوله وقد كتب به إلى الثّريا :

كتبت إليك من بلدى ... كتاب مولّة كمد
كئيب واكف العينيـ ... ـن بالحسرات منفــرد
يؤرقه[1] لهيب الشو ... ق بين السَّحر والكبد
فيمسك قلبــه بيد ... ويَمسح عينــه بيــد

وقال يصف أثر السفر فى شخصه :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضتْ ... فيضحى[2] وأما بالعشيّ فيخصر[3]
أخا سفر جوّابَ أرض تقاذفتْ ... به فلواتٌ فهو أشعثُ أغبر
قليــلٌ على ظهر المَطية ظله ... سوى ما نَفى عنه الرداء المحبّر

(٨) الأخطل

هو أبو مالك غياث الأخطلُ بن غَوث التغلبى النصرانى ، شاعر الأمويين وأمدح ثلاثة شعرائهم المتقدمين ، والمتفرد بالتعمق فى وصف الخمر دون الإسلاميين . نشأ بين قومه بنى تغلب النازلين بسقى الفرات من أرض الجزيرة ، وقال الشعر وهو صبى ، وما لبثَ أن زاحمَ شاعرَ تغلب وقتئذ كعبَ بن جُعَيل ، وهاجاه وظهر عليه وأخمله . ولما طلب يزيد بن معاويَة قبل أن يَلى الخلافةَ من كعب هجاء الأنصار لتعرّض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى

---

(١) أرقه أسهره . والسحر الرئة (٢) تصيبه الشمس (٣) يبرد .

لأخته فى شعره ، أبى عليه ذلك كعب ، وقال : أرادّى أنت فى الشرك ؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه ؟ ولكنى أدُلك على غلام منا نصرانىّ كأنّ لسانه لسانُ ثور ، لا يبالى أن يهجوَهم . فدلّه على الأخطل . وكأنه كان يريد به الشر لتوقعه أن يفتك به الأنصار فكان ذلك سببَ جدّه ، وظهور شأنه ، فإن يزيد بعث إليه وأمره بهجائهم ، فهجاهم بقصيدة منها : سبب ظهوره

ذهبت قريش بالسّماحة والندى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار
فدعُوا المكارمَ لستمُ من أهلها ... وخذوا مساحيَكم (١) بنى النجار

وبلغ الشعرُ كبارَ الأنصار فغضبوا وشكوه إلى معاوية ، فوعدهم بقطع لسانه ، فاستجار بيزيد ، فما زال يزيد بأبيه حتى عفا عنه . ولما وَلى يزيدُ الخلافة قرّبه إليه وتابعه فى ذلك خلفاء بنى أمية ، وبخاصة عبد الملك إذ كان يستعين به على مضر وشعرائها ، لانحيازهم إلى أعدائه فى السياسة من آل الزبير وغيرهم ، فمدحه بمدائح جليلة قلما قال نظيرها فيه شاعرٌ من شعراء زمانه ، فقرّبه إليه وأدناه ، وسمح له بالدخول عليه بلا إذن ، وأجزل له العطايا ، وسماه شاعرَ الخليفة .

سبب دخوله فى المهاجاة بين جرير والفرزدق

ولما حدثت المهاجاةُ بين جرير والفرزدق ، وحكم فيهما أيهما أشعر ، عرّض بتفضيل الفرزدق ، فهجاه جرير ، فردّ عليه الأخطل ، وكانت الشيخوخة قد بلغت منه فلم يلحق جريراً . وكان الأخطل يقيم أزماناً بدمشق ، وأحياناً ببلاده من أرض الجزيرة . ومات فى أول خلافة الوليد وقد نيف على السبعين .

* * *

شعره

شعره — كان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فحول الإسلاميين ، وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيداً عن التكليف والتعمق فيه ، وامتاز

---

(١) سحا الطين قشره والمسحاة أداة السحو .

بإجادة المديح والإبداع فى معانيه والتنويع فى ضروبه والتريث فيه ، حتى ربما لبث فى بعض ملحاته سنة كاملة ، وربما نظمها تسعين ثم يكرّ عليها بالتمحيص والاختيار حتى يحذف منها ستين ويُبقى الثلاثين : كما امتاز لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها . ولم يقصر فى الهجاء عن صاحبيه كثيراً ، وفضلهما بقلة التعرض الفحش والبذاءة ، ولكنه كان دونهما فى بقية فنون الشعر ، فكان بكيئاً فى الرثاء[1] : مات يزيد وهو سبب نعمته ، فلم يستطع رثاءه بأكثر من أربعة أبيات .

وليس للأخطل سوى سبع مطوّلات فاقهما بها ، ولذلك لم ير قدماء أهل العلم والرواة تسويته بهما لتقصيره عنهما فى التصرف فى سائر أبواب الشعر .

من شعره

قال يمدح بنى أمية ويخص بشر بن مروان :

إن يحلموا عنك فالأحلام[2] شيمتهم ... والموتُ ساعةَ يحمىَ منهم الغضبُ
كأنهم عند ذاكمْ ليس بينهم ... وبين من حاربوا قُربى ولا نسب
كانوا مَوالىَ حقَّ يطلبون به ... فأدركوه وما ملوا ولا لغبوا[3]
إن يك للحق أسباب[4] يُمدَّ بها ... ففى أكفهم الأرسان[5] والسبب
همُ سعوْا بابن عفان الإمام وهمْ ... بعدالشماس مَرَوْها ثمتَ احتلبوا[6]

ومنها :

إذا أتيتَ أبا مروان تسأله ... وجدته حاضراهُ الجودُ والحسبُ
ترى إليه رفاق[7] الناس سائلةً ... من كل أوْب[8] على أبوابه عصب
يختضرون سجالا[9] من فواضله ... والخير مُحتَضَرُالأبواب مُنتهَب[10]

(١) ناقة بكئ وبكيئة قليلة اللبن والمراد قليل الرثاء (٢) جمع حلم وهو الأناة
(٣) اللغب أشد الإعياء (٤) حبال (٥) جمع رسن وهو الحبل وما كان من زمام على أنف
(٦) الشماس الحران — مرى الناقة مسح على ضرعها لتدر أى هم سعوا الخلافة بسبب الأخذ بثأر عثمان وبعد أن امتنعت عليهم انقادت لهم وذلت (٧) جمع رفقة (٧) فج .
(٩) السجل الدلو العظيمة المملوءة والجمع سجال (١٠) يتهافت الناس على أبواب الكرام ليصيبوا من كرمهم وعطاياهم .

والمطعمُ الكُومَ[١] لا ينفكّ يعقرُها ... إذا تلاقى رِوَاق البيت والطُّنُبُ[٢]

كأنّ حيرانَها في كلّ منزلة ... قتلى مجردة الأوصال تستلبُ[٣]

وقال يرثى يزيد بن معاوية :

لعمرى لقد دلّى إلى اللحد خالد[٤] ... جنازةَ لا كابى الزّناد ولا غُمرِ

مقيم بحوّارين[٥] ليس يَريمها ... سقته الغوادى من ثَوىً ومن قبر

تصبح الموالى أن رأت أمّ خالد ... مُسلَّبةً[٦] تبكى على الماجد الغمْر

إذ جاء سرب من نساء يَعلنها ... تعرّين إلا من جلابيب أو خُمُر

وقال يهجو :

وكنت إذا لقيتَ عبيدَ تَيم ... وتيماً قلت : أيُّهم العبيد ؟

لئيم العالمين يسود تيماً ... وسيدهم — وإن كرهوا — مسود

وقال يصف سكران :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ... لتحيا ، وقد ماتت عظام ومَفصِل

تهاديه أحياناً ، وحيناً تجره ، ... وما كان إلاّ بالحشاشة يعقل

إذا رفعوا عظماً تحامل صدره ... وآخر مما نال منها مخبَّل

ومن أمثاله السائرة قوله :

وإن امرأً لا يَنثنى عن غَواية[٧] ... إذ ما اشتهتها نفسه لجهول

(٩) الفرزدق

هو أبو فِراس همّام بن غالب التميمى الدارمى ، أفخر ثلاثة الشعراء الأمويين ، وأجزل المقدّمين فى الفخر والمدح والهجاء .

---

(١) جمع كوماء وهى الناقة الضخمة السنام (٢) أى علت نيران القرى حتى اتصلت بالرواق وهو ما بين يدى البيت وذلك كناية عن كرمهم فى وقت الشتاء وقت اشتداد المحل والأزل .
(٣) الحيران جمع حوار والأوصال المفاصل . والمعنى أن مفاصلها وعظامها خالية من اللحم كأنها قتلى قد سلب ما عليها (٤) هو ابن يزيد وكان يكنى به (٥) مات يزيد ودفن بحوارين من بلاد حمص (٦) لابسة ثياب الحداد (٧) الغواية الضلالة والإفساد .

ولد سنة ١٩ هـ ونشأ بالبصرة بين فصحاء آبائه وقومه منذُ أوّل تمصيرها ، وهي يومئذ حاضرةُ العرب ، فلم تشُب لهجته عجمةٌ ولا لحن . فأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه ، فرواه ونظمه ونبغ فيه . وأتى به أبوه يوماً إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبي طالب كرّم اللهُ وجهه فسأله عنهُ — فقال هذا ابنى يُوشك أن يكون شاعراً مُجيداً — فقال أقرئه القرآن فهو خيرٌ له ، فما زالت كلمته فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه بقيد وآلى أن لا يَفكهُ حتى يحفظ القرآن ، فما فكهُ حتى حفظه بالرغم من كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب . ولنشأة الفرزدق بالمصر والبوادى القريبة منه كان قريب التعرفّ بولاة البصرة والكوفة وعمالهم ، يمدَحهم تارة ويهجوهم أخرى ، ويحبسه هذا حيناً ، ويفر من وجه ذلك طوراً ، وفى أثناء ذلك يرحل إلى خلفاء بنى أمية بالشام يمدحهم وينال جوائزهم ، وأخص من كان يمدحه ، منهم عبد الملك بن مروان ثم أولادهُ من بعده . وامتُحنَ بمنافسة جرير له فى الشعر ومهاجاته .

التهاجى بين جرير والفرزدق

والسبب فى تهاجيهما أن جريراً كان يهاجى شاعراً اسمه البعيث ، لأنه ظاهر عليه شاعراً آخر يسمى غسان ، فنصر الفرزدق البعيث على جرير لمنافسته له فى الصناعة ، تلك المنافسة التى أفضت بهما إلى التهاجى والتسابّ طول عمرهما ، وسهل على الفرزدق هجاء جرير الترفع عليه فى شرف حسبه وكرم محتده ، وسيادة آبائه فى الجاهلية والإسلام ، وضعة آباء جرير وخُمول ذكرهم ، مما جعل الفرزدق يغرى بجرير أكثر من ثمانين شاعراً يهجونه .

وكان الفرزدق فوق إقذاعه فى الهجو وفحشه فى السباب وقذف المحصنات ، يُرمىَ بالفجور وقلة التمسك بشعائر الدين ، ثم تاب فى أواخر شيخوخته على يد الحسن البصرى ، ورجع عن قذف المحصنات ونهش الأعراض ، ونسك وحسنت خاتمته . وكان فيه تشيعٌ يستره أيام اختلافه إلى بنى أمية ، حتى كاشف به آخر حياته أمام هشام ولى عهد الخلافة ، عندما رأى الناس تفسح طريق الطواف بالكعبة مهابة وإجلالاً لعلى بن الحسين . فسأل عنه كالمتجاهل

بأمره ، فشق ذلك على الفرزدق وأنشد قصيدته الميمية الآتية يُعرِّض بعليّ ويُنكر على هشام تجاهله ، فحبسه هشامٌ ثم أطلقه . وعاش الفرزدق قريباً من مائة سنة ، ومات بالبصرة سنة ١١٠ هـ .

• • •

شعره

شعره — يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته ، وجزالة لفظه ، وكثرة غريبه ، ومداخلة بعض ألفاظه فى بعض[1] : من حيث التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، وكثرة تنوع التراكيب والأساليب ، والاشتمال على المعانى الدقيقة ، وكان يجرى فيه على أسلوب الجاهلية فى شعرهم ، ولذلك يعجب به أهل اللغة والنحو ، ويُفسح لهم مجال القول فيه وقياسُ مسائله عليه ، فكان يقال لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة .

ويعتبر الفرزدق من أفخر شعراء العرب وأشدهم وَلوعاً بتعداد مآثر آبائه وأجداده ؛ وتحدِّى منافسيه بمكارمهم حتى فى مدحه للخلفاء ؛ وحتى كان ذلك سبباً فى حرمان بعضهم له العطاء وإحالته على آبائه[2] : فكان بذلك شعره مشتملاً على كثير من أيام العرب ومفاخرها ومثالبها وفروع أنسابها ؛ مما استخرج منه العلم الجمّ من أنساب العرب وأحوالها .

طائفة من شعره

ومن كلامه قوله يصف ذئباً صادفه فى أثناء سفره فأطعمه من زاده :

وأطلس[3] عسّال[4] وما كان صاحباً ... دعوت لنارى مَوْهِناً[5] فأتانى
فلما أتى قلت : ادنُ ، دونك ، إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان
فبتُّ أقدّ[6] الزاد بينى وبينه ... على ضوء نار مرّة ودخان
وقلت له لما تكشّر ضاحكاً ... وقائم سيفى من يدى بمكان

---

(١) كقوله : وما مثله فى الناس إلا مملكاً ... أبو أمه حىٌّ أبوه يقاربه
وكقوله : وكل رفيقى كل رحل ، وإن هما ... تعاطى القنا قوماهما ، أخوان
(٢) استنشد سليمان بن عبد الملك الفرزدق فأنشده مفتخراً عليه قطعة منها :
إذا استوقدوا ناراً يقولون ليتها ... وقد خصرت أيديهم نار غالب
فربد وجهه فغضب . ثم أنشده نصيب فقال سليمان يا غلام أعط نصيباً خمسمائة دينار وألحق الفرزدق بنار أبيه (٣) أغبر اللون (٤) مضطرب فى مشيه (٥) نحواً من نصف الليل (٦) أقطع

تعشْ ، فإن عاهدْتنى لا تخوننى ... نكن مثلَ من (ياذئب) يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدرُ كنتما ... أخيَّين كانا أرْضعا بلبان
ولو غيرَنا نبهت تلتمسُ القرى ... رماك بسهم أو شَباة(١) سِنان
وكل رفيق كلَّ رحل ، وإن هما ... تعاطى القنا قوماهما ، أخوان

من أبياته السائرة :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبنى ... كأن أباها نَهشل أو مجاشع(٢)
وكنا إذا الجبار صَعَّر خدَّه(٣) ... ضربناه حتى تستقيم الأخادع(٤)

قوارص(٥) تأتينى وتحتقرونها ... وقد يملأُ القطرُ الإناء فيفعمِ(٦)

إذا ما وُزنَّا بالجبال رأيتنا ... نميل بأطواد الجبال الأضاخم

وتخالنا جِنًّا إذا ما نجهلُ ... أحلامنا تزن الجبالَ رزانة

وإن نحن أوْمأنا إلى الناس وقَّفوا ... ترى الناس ما سرنا يسيرون حولنا

وقال يهجو :

ولو تُرْمى بلؤم بنى كليب ... نجومُ الليل وما وضَحت لسار
ولو يُرْمى بلؤمهمُ نهارٌ ... لدنَّس لؤمهم وَضَحَ النهار
وما يغدو عزيز بنى كليب ... ليطلب حاجةً إلا بجار

ومن جيد شعره قوله يمدح على بن الحسين (وتروى أبيات منها لغيره) :

هذا الذى تعرف البطحاء(٧) وطأته ... والبيتُ يعرفهُ والحل الحرم
هـذا ابن خير عبـاد الله كلهم ... هـذا التقى النقى الطاهر العلم
وليس قولك : من هذا ؟ بضـائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريشٌ قال قائلها : ... إلى مكارم هـذا ينتهى الكرم

---

(١) طرف (٢) ابنا دارم التميمى ، من أجداده .
(٣) أماله عن الناس إعراضاً وتكبراً (٤) جمع أخدع وهو شعبة من الوريد .
(٥) القارصة الكلمة المؤلمة (٦) فعم الإناء ملأه كأفعمه (٧) مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

يُغضي حياءً ويُغضَى من مهابته(١) فلا يُكلَّم إلاَّ حين يَبتسم
بكفه خَيزُران ريحها عَبِقٌ من كفِّ أروعَ(٢) فى عرنينه شمم(٣)
يكاد يُمسكه عرفانَ راحته ركنُ الحطيم(٤) إذا ما جاء يستلم
يَنشقّ ثوبُ الدّجى عن نور غُرّته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
من معشر حبهم دينٌ وبغضهمُ كفرٌ وقربهم مَنجى ومعتصم
إن عُدّ أهل التقى كانوا أئمتهم أوقيل: من خيرأهل الأرض؟ قيل: هم

(١٠) جرير

هو أبو حَزْرة جرير بن عطية بن الخَطَفَى التميمى اليرْبوعى : أحدُ فحول الشعراء الإسلاميين ، وبلغاء المدّاحين المجائين ، وأنسب ثلاثتهم المفلقين . وهو من بنى يربوع أحد أحياء تميم . وُلدَ باليمامة من بيت اشتهر بالشعر ، ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبغَ فيه . وكان يختلف إلى البصرة فى طلب الميرَة ومدح الكبراء وينزل على من يسكن البصرة من قومه ؛ فرأى الفرزدقَ وما كسبه الشعرُ من المنزلة عند الأمراء والوُلاة ، وهو تميمى مثله ، ووَدّ لو يسبقهُ إلى ما ناله ؛ وأغراه قومه به للتنويه بشأنهم وتفخيم أمرهم ؛ إذ كان الشعر فى ذلك العصر هو وسيلة الإعلان عن الشرف وكريم الخصال ، فوقعت بينهما المهاجاةُ والملاحاة عشرَ سنين ، كان أكثرُ إقامة جرير فى أثنائها فى البادية ، وكان الفرزدقُ مقيماً بالبصرة مصر العرب ، يملأ عليه الدنيا هجاء وسبًّا . فما زال به بنو يربوع حتى أقدموه البصرة فكان يُقيم بها كثيراً . واتصل بالحجاج ومدحه فأكرمه ورفع منزلته عنده ، فعظم أمره وشرّق شعرُه وغرّب ، حتى بلغ الخليفة عبدَ الملك ، فحسد الحجاجَ عليه ، فأوفده الحجاج مع ابنه محمد إلى الخليفة بدمشق ليصل بذلك إلى مدحه . فلما دخل عليه الوفد استأذنه فى

(١) لأجل مهابته (٢) الأروع من يعجبك لحسنه وجهارة منظره أو لشجاعته كالرائع
(٣) العرنين الأنف . والشمم الارتفاع . أى سيد شريف (٤) الحطيم حجر الكعبة ، أو جدارها ، أو ما بين الركن وزمزم والمقام .

إنشاده فأبى ، وقال له : إنما أنت للحجاج ، فما برح يتوسل إليه حتى قبل مدحه وأجازه عليه جائزة سنية . ومن ذلك الحين عُدَّ من مداح خلفاء بنى أمية ودخل فى غمار المتزاحمين على أبوابهم والمتنافسين فى نيل جوائزهم . وجره ذلك إلى مُعاداة منافسيه ومهاجاتهم ، وحرّش الفرزدق بينه وبينهم وأغراهم عليه بالمال ، ونصب له منهم نحو ثمانين شاعراً . فغلبهم كلهم وأخرسهم ، وثبت له من دونهم الفرزدق والأخطل ، فبقيت حرب المهاجاة بينهم سجالاً ، حتى مات الأخطل وغبر الفرزدق وجرير يتسابان بقية حياتهما إلا مدة قليلة تنسك فيها الفرزدق وتاب ، ثم مات ، ولم يطل عمر جرير بعده إلاّ نحو ستة أشهر ومات باليمامة سنة ١١٠ هـ .

• • •

وكان فى جرير على هجائه للناس وخوضه فى أعراضهم عفّة ودين وحسن خلق ورقة طبع ظهر أثرها فى شعره .

شعره — اتفق علماءُ الأدب وأئمة نَقد الشعر على أنه لم يوجد فى الشعراء الذين نشئوا فى ملك الإسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل ، وإنما اختلفوا فى أيهم أشعر . ولكلّ هوًى وميل فى تقديم صاحبه ، فمن كان هواه فى رقة النسيب ، وجودة الغزل والتشبيب ، وجمال اللفظ ولين الأسلوب ، والتصرف فى أغراض شتى ، فضّل جريراً . ومن مال إلى إجادة الفخر ، وفخامة اللفظ ، ودقة المسلك ، وصلابة الشعر وقوة أسره — فضّل الفرزدق . ومن نظر بعد بلاغة اللفظ وحسن الصوغ إلى إجادة المدح والإمعان فى الهجاء ، واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها — حكم للأخطل . وهناك فريق يُدْخل فى الموازنة بينهم ما ليس من موضع الأدب ، فأهل الحسب والنسب يقدّمون الفرزدق ، وأهل الدّين والعفة يقدّمون جريراً ، وأدباء المسيحيين يقدّمون الأخطل ، ولا عبرة بذلك فى باب صناعة الشعر . على أن طائفة من أهل النقد المعتدّ بهم يرون جريراً أشعر الثلاثة ، لأنه طرق جميع أبواب الشعر ولم يُقصر فى باب ، وأن الفرزدق امتاز بالفخر ، والأخطل بالمدح والهجاء ووصْف الخمر ، شعره

ويحتجون بأنه لما ماتت امرأة الفرزدق لم يندبها النوادب إلا بشعر جرير فى رثاء امرأته ، وأن الفرزدق كان يحسده على رقة شعره ويقول : ما أحوج جريراً مع عفافه إلى صلابة شعرى ! وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ! وأن له فى كل باب من الشعر أبياتاً سائرة هى الغاية التى يضرب بها المثل ، فيقال إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور(١) قتلننــا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلــق الله إنسانا

وإن أمدح بيت قوله :

ألستم خـير من ركب المطــايا وأندى العــالمين بطــون راح

وإن أفخر بيت قوله :

إذا غضبت عليــك بنو تميم حسبت النــاس كلهم غضابا

وإن أهجى بيت مع التصون عن الفحش قوله :

فغض(٢) الطرف إنك من نمير فلا كعبــاً بلغت ولا كلابا

وإن أصدق بيت قوله :

إنى لأرجــو منك خيراً عاجلا والنفس مولعــة بحب العاجل

وإن أشد بيت تهكماً قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً(٣) أبشِرْ بطول ســلامة يا مِربَعُ

ونحو ذلك كثير فى شعره . قيل وقد لعب جرير وجد فى قصيدة يهجو بها الأخطل التغلبى بما لو أراد غيره لامتنع عليه ، فى لعبه يقول :

إن الذين غدوا بلبُّك غادروا وشلا(٤) بعينك لا يزال معينا(٥)

---

(١) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها (٢) اخفض (٣) هو رواية جرير
(٤) الوشل الماء القليل (٥) جاريا .

غيضن[١] من عبراتهن[٢] وقلن لى: ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وفى جده يقول :

إن الذى حرم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوة فينا
مضرٌ أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خُزْرُ[٣] تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئتُ ساقكم إلىّ قطينا[٤]

فلما بلغ عبدَ الملك هذا الشعر قال : ما زاد ابن المراغة[٥] أن جعلنى شُرْطياً[٦] أما لو أنه قال : لو شاء ساقكم إلىّ قطيناً ، لسقتهم إليه كما قال :

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثى بها امرأته وهى التى نُدبت بها نَوَار امرأة الفرزدق :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ[٧] ولزرتُ قبرَكِ والحبيب يزارُ
ولهت قلبى إذ علتنىَ كبرة[٨] وذوو التمائم من بنيك صغارُ
لا يُلبِثُ القرناءَ أن يتفرقوا ليلٌ يكر عليهمُ ونهار
صلى الملائكة الذين تُخيروا والطيبون عليك والأبرار
فلقد أراك كسيت أحسن منظر ومع الجمال سكينة ووقار

وقال يهجو قبيلة الأخطل :

فلو أن تغلب جمّعت أحلامها يوم التفاضل لم تزن مثقالا
تلقاهمُ حلماء عن أعدائهم وعلى الصديق تراهمُ جهالا
لا تطلبنّ خئولة فى تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا

١١ — الكميت

هو الشاعر الخطيب الراوية النسابة أبو المستهلّ الكميتُ بن زيد الأسدى الكوفى ، أشعر شعراء الشيعة الهاشمية ، ومثير عصبية العدنانية على القحطانية .

---

(١) غاض الماء ذهب وغيضن أذهبن (٢) جمع عبرة وهى الدمعة قبل أن تفيض .
(٣) الخزر ضيق العيون وصغرها (٤) خدما (٥) كلمة لقب بها الفرزدق أم جرير والمراغة الأتان (٦) أعوان الملك (٧) استعبرت عبرته جرت دموعه (٨) الكبر والضعف.

ولد سنة ٦٠ هـ ونشأ بالكوفة بين قومه بنى أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر ، فلقن العربية ، وعرف الأدب والرواية وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها بمدارسة العلم والأخذ عن الأعراب . وكان له جدّتان أدركتا الجاهلية تقصّان عليه أخبارها وأشعار أهلها ، فخرج أعلم أهل زمانه فى ذلك ، وأقر له حمادٌ الراوية بالسبق عليه . وقال الكميت الشعرَ وهو صغير وكان لا يذيعه ولا يتكسب به ، ويكتفى بحرفة تعليم صبيان الكوفة بالمسجد . ولما حَصُفَ شعرُه وقوى أسره ولا سيما قصائده التى أعلن فيها تشيعه لبنى هاشم وآل علىّ أنشد الفرزدقَ مستنصحاً له فى أمر إذاعته إذا أعجبه ، فأمره بإذاعته[1] ، فأذاع قصائدَه البليغة المطوّلة المسماة بالهاشميات ، ثم تكسب بالشعر ومدح الأمراء والولاة وسادات أهل البيت من أبناء على رضى الله عنه ، واحتجّ لهم بشعره ودافع عنهم ، وعرّض نفسه من أجلهم إلى الموت مراراً ، وبقى هذا شأنه

---

(١) كان أول ما قاله الكميت من الشعر الهاشميات فسترها ، ثم أتى الفرزدق فقال له يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى قال له صدقت أنت ابن أخى فما حاجتك ؟ قال نفث على لسانى فقلت شعراً فأحببت أن أعرضه عليك فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره وكنت أول من ستره على قال الفرزدق أما عقلك فحسن وإنى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشدنى ما قلت قال (طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب) . قال الفرزدق فيم تطرب يا ابن أخى ؟ فقال : (ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب) . قال العب يا ابن أخى فإنك فى أوان اللعب ، فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب

قال ما يطربك يا بن أخى ؟ فقال :

ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب

قال أجل لا تتطير فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بنى حواء والخير يطلب

قال ومن هؤلاء ويحك ؟ قال :

إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نابنى أتقرب

قال أرحنى ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رهط النبى فإننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

خفضت لهم منى الجناح مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... محباً على أنى أذم وأقصب

وأرمى وأرمى بالعداوة أهلها ... وإنى لأوذى فيهم وأؤنب

فقال له الفرزدق يا بن أخى أذع ثم أذع فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى .

سبب هجائه اليمانية

حتى هجا حكيمٌ الكلبي من اليمانية وأهل الشام آل على وشيعته وسائر مضر ، فردَّ عليه شعراء المضرية فلم يُفلحوا ، فأغروْا به الكميتَ فاعتذر ، فأسمعوه هجاءه فى بنت عمه وخاله ، فحميَ الكميت لعشيرته وهجا الكلبيَّ واليمانية جمعاء . وكان خالد بن عبد الله القسرى والى العراق بالكوفة يمانيًّا فغضب وسعى به إلى هشام بن عبد الملك ، واحتال حتى أبلغه شعره فى ذم بنى أمية ومدح بنى هاشم ، فأمره بقتله ، فقبض عليه وسجنه ، فاحتال الكميت وفر من سجنه ، ورحل إلى الشام ، واستجار بقبر معاوية بن هشام فأمنه . وخطب بحضرته خطبة بليغة ، وارتجل قصيدته التى يعتذر فيها ويتوب من تشيعه ، ويمدح بنى أمية ويقول :

اليوم صرت إلى أميةَ والأمور لها مصاير

فعفا عنهُ وأجازه ، وكتب لخالد ألاَّ يتعرض له . وبقى الكميت على شأنه فى هجاء اليمانية ، حتى كان شعره من أشدّ الأمور التى أثارت العداوة بين الأمتين وبقيت نارها تتأجج حتى أواسط الدولة العباسية ، وإذاك استولى الأعاجم على الملك وأخفتوا صوت العرب جمعاء عدنانيها وقحطانيها . ومات الكميت سنة ١٢٦ هـ .

شعره — كان الكميت من فحول شعراء الأمصار ، كثير الشعر والارتجال ، على إجادة وإحسان ، وكان لكثرة حفظه لأشعار العرب يأتى فى شعره ببعض جمل أو أبيات من كلامهم فيتذرع بذلك متعصبو اليمانية إلى اتهامه بسرقة الشعر ، ومن هؤلاء خلفٌ الأحمر أحد رواة الشعر (١) . وكان لشعره من التأثير السياسى والمذهبى أثر سيئ بين تلك الآثار التى شتتت شمل الوَحدة العربية وعادت عليها بالنكال . بما أحياه من العصبية الذميمة ، وأغرى الشيعة بمناظرة خصومهم ، إذ يقول الجاحظ : ما فتح للشيعة الحِجَاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى (٢) لم تصلح لحى سواهم ... فإن ذوى القربى أحقّ وأوجبُ

(١) هو الراوية المشهور توفى سنة ١٨٠ هـ .

(٢) يريد الخلافة .

يقولون لم يُورَثْ[١] ولولا تُراثه ... لقدشَرِكت فيه بَكيلٌ وأرحب[٢]

ومن هاشمياته :

ألاَ هل عمٍ فى رأيه متـأملُ ... وهل مدبرٌ بعد الإساءة مقبل[٣]
وهل أمة مستيقظون لرشـدهم ... فيكشفَ عنه النَّعسةَ المتزمل[٤]
فقد طال هذا النومُ واستخرج الكرى ... مساويَهم لو كان ذا الميلُ يُعدَل
وُعطلت الأحكام حتى كأننـا ... على ملة غير التى نتنحّل
كلامُ النبيين الهـداة كلامنا ... وأفعـال أهل الجاهليـة نفعل
رضينا بدنيـا لا نريد فراقهـا ... على أننا فيهـا نموت ونُقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جُنَّة[٥] مما نخاف ومعقل[٦]
أرانا على حبِّ الحياة وطولها ... يُجَدَّ بنا فى كل يوم ونَهزل

وقال الكميت يمدح خالد بن عبد الله القسرى[٧] :

لو قيل للجود من حليفك[٨] ما ... إن كان إلا إليك ينتسب
أنت أخوه وأنت صـورته ... والرأس منـه وغيرك الذنب
أحرزت فضل النضال[٩] فى مهل ... فكل يوم بكفك القصب[١٠]
لو أن كعباً[١١] وحاتماً نُشرا[١٢] ... كانا جميعاً من بعض ما تَهب
لا تخلفُ الوعد إن وعدت ولا ... أنت عن المعتفين[١٣] تحتجب
ما دونك اليوم من نوال ولا ... خلفـك للراغبـين منقلب

---

(١) نائب الفاعل الرسول (٢) حيان من همدان (٣) أما آن للغافل أن يتنبه وللنائم أن يستيقظ (٤) الملتف (٥) وقاية (٦) ملجأ .
(٧) هو أمير العراق المقتول سنة ١٢٦ هـ . (٨) حليفك هو الذى يعاهدك على أن يكون أمركما واحداً فى النصر والحماية (٩) المباراة فى الرمى (١٠) القصب كل نبات ذى أنابيب الواحدة قصبة وأحرز القصب أو قصب السبق غلب (١١) هو كعب بن مامة من إياد أحد أجواد العرب المضروب بهم المثل فى الكرم (١٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر المجيد ، مات قبيل الإسلام (١٣) طلاب المعروف والرزق .

وقال يهجو :

قل لبنى أمية حيث حلوا — وإن خفت المهند والقطيعا —
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضىّ السياسة هاشمى يكون حياً لأمته ربيعا

الرواية والرواة

ظهر الإسلام وعمدة العرب فى ضبط علومهم وآدابهم الحفظ والرواية ، فجاءهم من كتاب الله وسنة رسوله بالأمر الخطير ، والعلم الكثير ، فكانت عنايتهم بحفظهما فى الصدور أكثر من كتابتهما فى السطور . ولما اتسع علم المسلمين بما أضيف إليهما من تفسير الصحابة والتابعين ومن أقوالهم فى الدين ، تعددت طوائف الرواية للقرآن والحديث وفنون الأدب .

وإذ كان الإنسان عرضة للنسيان ، وأحوال الناس تختلف فى الصدق والكذب تشدّد الصحابة والمتألهون[١] من التابعين وتابعيهم فى تصحيح الرواية وشدة التوثق من صدق الرواة تحرجاً منهم أن يدخل فى الدين ما ليس منه .

ولما خاف عمر بن عبد العزيز أن تموت السنة الصحيحة بموت رواتها وبما وضعه الزنادقة والشيعة والخوارج ودسوه فيها ، أمر العلماء بتدوين الحديث . وبقى الأمر فى الشعر والأدب كما كان فى الجاهلية : لكل شاعر راو أو عدة رواة . ومن أشهر هؤلاء هُدْبة[٢] بن خشرم راوية الحطيئة . وجميل[٣] راوية هدبة ، وكثير[٤] راوية جرير . وأبو شفقل وعبيد أخو ربيعة بن حنظلة راوية الفرزدق ، ومربع راوية جرير والفرزدق معاً ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، وصالح بن سليمان راوية ذى الرّمة[٥] ، وذو الرمة راوية الراعى[٦] .

(١) المتنسكون المتبتلون (٢) قتل قوداً بالمدينة وعليها سعيد بن العاص من قبل معاوية
(٣) هو ابن عبد الله بن معمر العذرى الشاعر الغزل المتوفى سنة ٨٢ هـ . (٤) تلميذ جميل وراويته وأحد شعراء النسيب المشهورين المتوفى سنة ١٠٥ هـ . (٥) هو غيلان بن عقبة صاحب مية المتوفى سنة ١١٧ هـ .
(٦) هو حصين بن معاوية وسمى بالراعى لأنه كان يكثر وصف الرعاء فى شعره .

وبقى الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر ، فاشتغل العلماء بالرواية ، وصار الراوى منهم يروى لمئات من الشعراء والشواعر وإن لم يكن هو شاعراً ، وأكثر هؤلاء العلماء من الرواة أدرك عصر بنى العباس فيذكر فيه .

ومع تشدد الناس فى تصحيح الرواية سنةً وأدباً حدث فى الشعر والخطب كثير من التصحيف والتحريف والنقص والزيادة ونحو ذلك .

العصر الثالث

عصر الدولة العباسية(١) من ١٣٢ — ٦٥٦ هـ

أثر الحضارة العباسية فى أحوال اللغة وآدابها

نقصد بأحوال اللغة العربية فى ذلك العصر أحوالها بين البلاد الإسلامية فى آسيا وأفريقية والأندلس وجزائر بحر الروم من أوربة ، ولو لم يكونوا تابعين للدولة العباسية فى الملك والسياسة .

كان بنو أمية شديدى التعصب للعرب والعربية . فكان كلّ شىء فى دولتهم عربىّ الصبغة . وكانت جمهرة العرب(٢) منتشرة فى كل مكان امتد إليه سلطانها ، فلما قامت الدولة العباسية بدعوتها لم تجد لها من العرب أنصاراً وأعواناً مثل من وجدت من الفرس وأمم الأعاجم ، فاكتسحت بهم دولة

(١) خلفاء بنى العباس إلى سنة ٣٣٣ :

أبو العباس عبد الله السفاح	(١٣٢ — ١٣٦)	محمد المنتصر	(٢٤٧ — ٢٤٨)
أبو جعفر المنصور	(١٣٦ — ١٥٨)	أبو العباس أحمد المستعين	(٢٤٨ — ٢٥٢)
محمد المهدى	(١٥٨ — ١٦٩)	أبو عبد الله المعتز	(٢٥٢ — ٢٥٥)
موسى الهادى	(١٦٩ — ١٧٠)	محمد المهتدى بالله	(٢٥٥ — ٢٥٦)
هارون الرشيد	(١٧٠ — ١٩٣)	أحمد المعتمد على الله	(٢٥٦ — ٢٧٩)
محمد الأمين	(١٩٣ — ١٩٨)	أحمد المعتضد بالله	(٢٧٩ — ٢٨٩)
عبد الله المأمون	(١٩٨ — ٢١٨)	على المكتفى بالله	(٢٨٩ — ٢٩٥)
أبو إسحاق محمد المعتصم	(٢١٨ — ٢٢٧)	جعفر المقتدر بالله	(٢٩٥ — ٣٢٠)
أبو جعفر هارون الواثق	(٢٢٧ — ٢٣٢)	أبو منصور محمد القاهر	(٣٢٠ — ٣٢٢)
جعفر المتوكل على الله	(٢٣٢ — ٢٤٧)	أبو العباس أحمد الراضى	(٣٢٢ — ٣٢٩)
		إبراهيم المتقى لله	(٣٢٩ — ٣٣٣)

(٢) جمهرة الناس والأشياء جلها ومعظمها كالجمهور . الجمهرة أصلها مصدر استعمل اسم ذات

بنى أمية ، وأسست دولة قوية كان أكثر النفوذ فيها للموالى فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شيء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش والوزارة . وأخذ شأن العرب السياسى يتضاءل[١] من ذلك الحين شيئاً فشيئاً حتى ضعفت النُّعَرَة العربية[٢] فيهم ، وخمدت جَذوة[٣] التباهى بكرم الأصل والنِّجار[٤] بينهم ، بحيث لم يمض قريب من قرن على تكوين الدولة العباسية حتى لم يكن لعرب المشرق فى السياسية شأن يذكر ، وقطعت أرزاقهم من ديوان الجند[٥] . واندمجوا فى غُمار العامة ، واشتغلوا بالصناعة والفلاحة والحرَف المختلفة ، واختلطوا بالأعاجم بالتصاهر والتجاور ، وانغمروا فى مدنية الفرس وحضارتها أيما انغمار ، فكان من المجموع شعب ممتزج لغة وعادة وخلقاً واعتقاداً وفكراً وخيالاً ، فأثر ذلك تأثيراً بيناً فى اللغة لفظاً ومعنى ، وشعراً ونثراً ، وكتابة وتأليفاً . ولم يظهر ذلك بالطبع فى جميع الممالك بنسبة واحدة ، بل كان فى أواسط آسيا أظهر منه فى مصر والشام . أما حال ممالك الغرب والأندلس صدر هذا العصر فلم تبعد كثيراً عما كانت عليه فى العصر الماضى ، ثم سرت إليها عدوى تقليدها للمشارقة فى أكثر الأمور . ويمكن تقريب ذلك بأن كلَّ تغير فى لغة أو اختراع لفن أو علم فى المشرق كان أثره يظهر فى الأندلس بعد نصف قرن أو يزيد قليلاً ؛ إلا أن الصِّبغة العربية كانت مرعية بالأندلس فى الجملة ، وكذلك كانت فى إفريقية[٦] من ممالك مُعظم هذا العصر .

ويمكن إرجاع جميع هذه التغييرات إلى ثلاثة أمور : الأول — ما يتعلق بالأغراض التى تؤديها اللغة . الثانى — ما يتعلق بالمعانى والأفكار . الثالث — ما يتعلق بالألفاظ والأساليب .

أغراض اللغة

كانت أحوال الدولة العربية فى العصر السابق تقرب من الغضاضة والبداوة

(١) تضاءل الشيء خفى وتصاغر شخصه (٢) النعرة الخيلاء والكبر (٣) الجذوة مثلثة الجمرة من النار (٤) الأصل (٥) فعل ذلك المعتصم بن الرشيد ومن بعده
(٦) إفريقية هنا هى المسماة الآن بلاد تونس .

لاستقلالها بالآداب العربية الإسلامية ، فلم تكن اللغة تتناول من المقاصد والأغراض غير ما يتعلق بالدين ومعيشة الجدّ القليلة الترف . فلما قامت الدولة العباسية بما علمتَ ، وتشبه الخلفاء والأمراء والولاة والرؤساء بملوك الفرس ودهاقينهم[1] فى أكثر أمور السياسة والمعيشة ، وحاكتهم العامة فى ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم ، تناولت اللغة فى المشرق أغراضاً لم تعهد فيها من قبل بنقل علوم تلك الأمم وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها . ثم تناولت هذه الأغراض فى المغرب بعدئذ بفرق يسير ، على أن المسلمين من العرب وغيرهم كانوا قد ارتاحت عقولهم ونضج استعدادهم لوضع الأنظمة والقوانين ، واستنباط أحكام الشريعة من أصولها ، وتدوين العربية لحفظ اللسان والدين . فكان من تلك الأغراض ما يأتى :

١ — تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية ، ولم يكن دوّن من ذلك فى صدر الإسلام إلا نزْر يسير لا يذكر بجانب ما دوّن فى هذا العصر .

٢ — الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية ؛ ولم يترجم فى العصر الماضى إلى العربية بعد حساب الدفاتر الديوانية إلا بعض من الرسائل العلمية فلما يُعرف له خبر . واختص المشارقة بالترجمة دون المغاربة لعراقة دولهم فى الملك وعتاده ، ولأنهم ورثوا ممالك ذات علوم وحضارة عظيمة .

٣ — تأدية مقاصد الصناعات المختلفة وخاصة بعد دخول العرب فى غُمار[2] الصنّاع وبعد تعرّب الأعاجم .

٤ — تأدية مقاصد أنواع الخلاعة والسخرية والمجانة[3] مما قل نظيره فى صدر الإسلام .

٥ — المحاضرة والمناظرة والبحث والجدل وتدريس العلوم .

٦ — تأدية المقاصد التى استدعاها الانغماس فى الترف والتنعم بلذائذ

(١) جمع دهقان (بكسر الدال) وهو من العجم تاجرهم أو زعيم فلاحيهم أو رئيس إقليمهم
(٢) غمار الناس جماعتهم ولفيفهم (٣) مجن (من باب قعد) مجوناً ومجانة لم يبال قولا ولا فعلا

بنى أمية ، وأسست دولة قوية كان أكثر النفوذ فيها للموالى فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شىء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش والوزارة . وأخذ شأن العرب السياسى يتضاءل[١] من ذلك الحين شيئاً فشيئاً حتى ضعفت النُّعَرَة العربية[٢] فيهم ، وخمدت جَذوة[٣] التباهى بكرم الأصل والنِّجار[٤] بينهم ، بحيث لم يمض قريب من قرن على تكوين الدولة العباسية حتى لم يكن لعرب المشرق فى السياسية شأن يذكر ، وقطعت أرزاقهم من ديوان الجند[٥] . واندمجوا فى غُمار العامة ، واشتغلوا بالصناعة والفلاحة والحِرَف المختلفة ، واختلطوا بالأعاجم بالتصاهر والتجاور ، وانغمروا فى مدنية الفرس وحضارتها أيما انغمار ، فكان من المجموع شعب ممتزج لغة وعادة وخلقاً واعتقاداً وفكراً وخيالاً ، فأثر ذلك تأثيراً بيناً فى اللغة لفظاً ومعنى ، وشعراً ونثراً ، وكتابة وتأليفاً . ولم يظهر ذلك بالطبع فى جميع الممالك بنسبة واحدة ، بل كان فى أواسط آسيا أظهر منه فى مصر والشام . أما حال ممالك الغرب والأندلس صدر هذا العصر فلم تبعد كثيراً عما كانت عليه فى العصر الماضى ، ثم سرت إليها عدوى تقليدها للمشارقة فى أكثر الأمور . ويمكن تقريب ذلك بأن كلَّ تغير فى لغة أو اختراع لفن أو علم فى المشرق كان أثره يظهر فى الأندلس بعد نصف قرن أو يزيد قليلاً ؛ إلا أن الصِّبغة العربية كانت مرعية بالأندلس فى الجملة ، وكذلك كانت فى إفريقية[٦] من ممالك مُعظم هذا العصر .

ويمكن إرجاع جميع هذه التغييرات إلى ثلاثة أمور : الأول — ما يتعلق بالأغراض التى تؤديها اللغة . الثانى — ما يتعلق بالمعانى والأفكار . الثالث — ما يتعلق بالألفاظ والأساليب .

أغراض اللغة

كانت أحوال الدولة العربية فى العصر السابق تقرب من الغضاضة والبداوة

(١) تضاءل الشىء خفى وتصاغر شخصه (٢) النعرة الخيلاء والكبر (٣) الجذوة مثلثة الجمرة من النار (٤) الأصل (٥) فعل ذلك المعتصم بن الرشيد ومن بعده (٦) إفريقية هنا هى المسماة الآن بلاد تونس .

الحضارة التى جرت فيها الأمم الإسلامية عصرَ الدولة العباسية إلى أمد[1] بعيد ، أو اقتضتها أساليب نظام الملك والدفاع عنه ، كالإمعان فى وصف الأشياء النفسية : من القصور وما فيها من الفراش والرياش والآنية والحلى والجوارى والقيان[2] ، والبساتين وما فيها : من أنواع الرياحين والأزهار والثمار والخضر ، وما يتبع ذلك من مجالس الشرب والمنادمة ومصايد الطير والسمك وأشكال الملاعب ، مما لم يعرف للعرب فى صدر الإسلام أو عُرف وكان قليلاً ممقوتاً ، وكوصف البحر والأساطيل الحربية والمعارك البحرية ، وامتاز بأكثر ذلك المغرب والأندلس ، كما امتازت الأندلس بالإجادة فى وصف مناظر الطبيعة ومحاسن الوجود لملاءمة بيئتها لذلك ، وكادت تلحق بها فى الوصف صقلية وإفريقية إبان ازدهائهما

المعانى والأفكار

إن ما حدث فى مشارق الممالك الإسلامية ومغاربها فى أثناء العصر العباسى من الانقلابات السياسية والاجتماعية، كان له نتيجة ظاهرة فى الحركة الفكرية للمتكلمين بالعربية ، ظهر ذلك فى نثرهم بصور مختلفة ، فمنها :

١ — شيوع المعانى الدقيقة والأفكار الجميلة ، والأخيلة البديعة فوق ما كان عليه الأمر فى صدر الإسلام .

٢ — التهويل والغلو والتفخيم المقتبس فى المشرق من اللغة الفارسية ، والسارى بعضه بالعدوى إلى أهل المغرب والأندلس فى أخريات زمانهم .

٣ — كثرة التعويل على القياس والتعمق فى الأحكام الفكرية ، بالإكثار من الحجج والبراهين العقلية ، وانتحاء[3] مذاهب الفلاسفة فى الشعر والكتابة والتدريس ولا سيما بعد عصر الترجمة ، وأكثرُ ما كان ذلك بالمشرق ، وقلما عُنى به أهل الغرب .

---

(١) الأمد الغاية (٢) جمع قينة (بالفتح) وهى الأمة المغنية .
(٣) مصدر انتحى بمعنى قصد .

الألفاظ والأساليب

غلب على عبارة اللغة العربية فى هذه المدة أمران عظيمان : السهولة والمحسنات البديعية ، ويشمل ذلك ما يأتى :

١ — انتقاء الألفاظ الرشيقة السهلة[١] ، والتأنق فى صوغ العبارات وتوثيق الربط بينهما ، والإكثار من استعمال ألفاظ القرآن الكريم وعباراته[٢] ، والاقتباس منه والاستشهاد به ، لاستعمال الروية ، وقلة الحاجة إلى الارتجال ، وضيق نطاق المحفوظ على المتكلم بالعربية بالدرس والصناعة ، لا على المتكلم بالطبيعة والفطرة ، كما كان الأمر فى العصرين الماضيين ، وزاد فى ذلك المشارقة على المغاربة .

٢ — تفاقمُ الخطب فى استعمال الكلمات الأعجمية فى كثير من الأشياء ، ولا سيما ألوان الأطعمة وأنواع الآنية والفرُش وأدوات الصناعات والعقاقير الطبية وأسماء الأمراض .

٣ — التوسع والإكثار من ألفاظ المجاز والتشبيه والتمثيل والكناية والمحسنات البديعية : كالجناس والطباق والتورية ونحو ذلك ، وخاصة أواخر هذا العصر . وكانت عناية المغاربة بالمجاز والتشبيه أكثر من عنايتهم بالتورية والجناس .

٤ — التوسع فى إدخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء والأمراء وأرباب المناصب العالية ، وكان ذلك فى الأندلس آخر حياتهم .

٥ — الميل إلى استعمال السجع ، وازدياد أمره فى النصف الثانى من هذا العصر .

٦ — التطرف إلى غاية حدّى الإطناب والإيجاز ولكل منهما مقام ، وكان الأندلسيون إلى الإطناب أميل .

(١) نقصد بالسهل هنا ما كان خفيفاً فى النطق وعلى السمع ، مألوف المعنى والاستعمال عند أوساط البلغاء فى عصره . فقد يكون السهل فى زمان صعباً فى آخر .

(٢) واطرد ذلك فى كل شىء حتى شارات الدولة من البنود (الأعلام) والطراز (علم الثوب أى ما يكون فى حاشيته من النقش والكتابة) والسكة أى الأدات التى يضرب عليها النقود .

٧ — وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات ، وإدارة الدولة وأسماء آلات الحرب وغيرها ، وإحداث لغة تأليفية لتعليم العلوم تقاس بمعيار المنطق لا بمعيار البلاغة .

وإذ كانت اللغة إما نثراً وإما شعراً ، والنثر محادثة وخطابة وكتابة ، ناسب أن نلمّ بمجمل كلّ منها فنقول :

النثر

المحادثة (أو لغة التخاطب)

قدمنا لك أن لغة التخاطب بين الخاصة من العرب فى أواخر العصر الماضى كانت العربيةَ الفصيحةَ الخاليةَ من اللحن إلا من آحاد استهجن منهم ، وعيبوا به ، وأن لغة العامة والسوقة من العرب المختلطين بالعجم هى العربية المشوبة بشىء من اللحن . ولغة المتعربين من العجم تقلّ عن هذه فى الفصاحة ، وتزيد عليها فى اللحن بمراتب مختلفة .

فلما تمّ امتزاجُ العرب بالعجم عصر الدولة العباسية ، تكونت بين العامة فى البلاد التى تكثر فيها جمهرة العرب لغات تخاطب عامية ، مؤلفة من العربية المحرّفة وشىء من الدخيل الأعجمى ، إلا بين أهل جزيرة العرب ، فلم يزل تخاطبهم باللسان العربى الفصيح إلى أواسط القرن الرابع . وبقيت لغات التخاطب فى البلاد التى تقل فيها جاليتهم هى اللغات الوطنية الأعجمية ممزوجة ببعض الألفاظ العربية التى أدخلها عليها الإسلام .

وخاف الخلفاء والخاصة من هول تغلب العامية على أبنائهم ، وأشفقوا أن تستطيل على الفصيحة ، فيستغلق على المسلمين فهم الكتاب والسنة وهما كل الدين ، فحرضوا العلماء على تدوين اللغة ، والإكثار من العناية بضبط النحو ، وفنون البلاغة وعلوم الدين ، وكافئوهم ببدر[١] الأموال ، وحشدوا فى قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم وخاصتهم ، فكانوا أمراء الكلام وفحول البلاغة ،

(١) جمع بدره (بالفتح فالسكون) كيس المال ، قيل ألف ، وقيل عشرة آلاف من الدراهم . وقيل سبعة آلاف من الدنانير .

كما كانوا أمراء الملك وسادة الدولة . ولكنّ ذلك كله لم يوقف تيار العامية الزاخر ، واستمر فى طغيانه إلى أن غلب فى النصف الأخير من عصر هذه الدولة على جميع لغات التخاطب ، حتى لغة الخلفاء وعلماء العربية أنفسهم ، وأصبح لكل بلاد عربية لغة تخاطب عاميةٌ خاصة بها .

ولم يدون أسلافنا اللغات العاميةَ خشية أن تزاحم العربية الفصيحة وهى اللسان العامّ بين جميع ممالك الإسلام فتنسخها ، فيرتج باب الدين ، وتتقاطع الأمم الإسلامية فتقتصرَ كل أمة على كتبها ولغتها ، وفى ذلك من انحلال الروابط السياسية والعلمية والدينية ما لا يخفى. نعم إن الأندلسيين والمغاربة فى أواسط هذا العصر وأواخره قد رَفهوا العامية قليلاً بما نظموا بها كثيراً من الموشح ، وأنواع الزجل، والشعر العامىّ . وعروض البلد[١] ، وما دونوه منها، إلا أن ذلك والحمد لله لم يكن طويل الأمد، ولم تعم به البلوى ، فلم تصبح العامية به لغة علم وأدب .

الخطابة

لما كان قيام الدولة العباسية فى المشرق والإدريسية[٢] فى المغرب الأقصى ، والأموية الثانية فى الأندلس[٣] ، من الأمور التى ينشأ منها كثير من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية وكان ذلك يستدعى تأليف العصابات ، ودعوة الناس إلى التشيع لزعماء الأحزاب ، وكان التفاهمُ بالعربية الفصيحة والانجذاب بالبلاغة لا يزال مستحكماً صدر هذا العصر — بقيت دواعى الخطابة متوافرة لتوافر أسبابها فكان بين قواد هذه الدول ودعاتها وخلفائها وولاتها ورؤساء وفودها خطباء مصاقع وبلغاء فطاحل[٤] ثم لما فترَت هذه الدواعى باستقرار الدول ، واشتداد اختلاط العرب بالأعاجم وتولى كثير من الموالى قيادةَ الجيوش وعمالة الولايات والمواسم — ضعف شأن الخطابة لضعف قدرتهم عليها وقلة المستجيبين

---

(١) ذكر أمثلة ذلك العصر التالى لكثرة شيوعه فيه

(٢) أسسها إدريس بن عبد الله حفيد الحسن بن على بن أبى طالب بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ . وبقيت إلى سنة ٣١٩ هـ .

(٣) أسسها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١٣٩ هـ . — وبقيت إلى سنة ٤٢٧ هـ .

(٤) جمع فطحل كهزبر وهو فى الأصل الضخم من الإبل .

لما لتناقص العناصر العربية فى الجند وأهل النجدة . فلم يمض قرن ونصف من قيام تلك الدول حتى بطل شأنُ الخطابة السياسية المذهبية ، إلا قليلا فى المغرب أيام الحفل وقدوم الوفود ، وبقيت الخطابة مقصورة على خطب الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزواج ونحو ذلك ، وقلّ فيها الارتجال أو عدِم جملة ، وحل محل الخطابة فى الأمور السياسية نشرُ المنشورات ، وفى الأمور الدينية مجالس الوعظ والتزهيد والتدريس فى المساجد والمدارس .

نماذج من الخطب

حج المنصور بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة فكان مما حفظ من كلامه :

(وَلقدْ كتبنا فى الزّبور منْ بَعد الذّكر أنّ الأرْضَ يَرثها عبادى الصّالحون) أمر مبرم وقول عَدل ، وقضاء فصل ، والحمد لله الذى أفلج حجته[١] ، وبُعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والفىء إرثاً ، وجعلوا القرآن عِضين[٢] ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون فكم ترى من بئر معطلة وقصر مَشيد ، أمامهم الله حتى بدّلوا السنّة ، واضطهدوا العترة ، وَعندوا واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تُحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً[٣] .

وخطب المأمون بمرْو[٤] وقد ورد عليه كتاب الأمين يعزّيه بالرشيد ويحثه على أخذ البيعة له فقال : إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمرة الجزع الوزر ، والتسليمُ لأمر الله عزّ وجل فائدة جليلة ، وتجارة مُربحة ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب . وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم فإنا لله وإنا إليه راجعون . فما كان إلا عبداً دُعى فأجابَ وأمر فأطاعَ . وقد سدّ أمير المؤمنين ثَلمة ، وقام مقامه ، وفى أعناقكم من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضى ، واغتبطوا بالنعماء والوفاء فى خليفتكم الباقى ، يا أهل الدنيا الموتُ نازلٌ والأجل طالبٌ ، وأمس واعظ ، واليوم مغتنم وغداً منتظر ، ثم نزل :

---

(١) أفلج حجته أظهرها (٢) العضة القطعة وجمعها عضون وجعلوا القرآن عضين أى فرقاً فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً (٣) صوتاً خفياً (٤) بلدة بفارس وهى قاعدة بلاد خراسان .

لما لتناقص العناصر العربية فى الجند وأهل النجدة . فلم يمض قرن ونصف من قيام تلك الدول حتى بطل شأنُ الخطابة السياسية المذهبية ، إلا قليلاً فى المغرب أيام الحفل وقدوم الوفود ، وبقيت الخطابة مقصورة على خطب الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزواج ونحو ذلك ، وقلّ فيها الارتجال أو عدِم جملة ، وحل محل الخطابة فى الأمور السياسية نشرُ المنشورات ، وفى الأمور الدينية مجالس الوعظ والتزهيد والتدريس فى المساجد والمدارس .

نماذج من الخطب

حج المنصور بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة فكان مما حفظ من كلامه :

(وَلَقدْ كتبنا فى الزّبور منْ بعد الذّكر أنّ الأرْضَ يرثها عبادى الصّالحون) أمر مبرم وقول عدل ، وقضاء فصل ، والحمد لله الذى أفلج حجته[١] ، وبُعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والفىء إرثاً ، وجعلوا القرآن عِضين[٢] ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون فكم ترى من بئر معطلة وقصر مَشيد ، أمامهم الله حتى بدّلوا السنّة ، واضطهدوا العترة ، وعَندوا واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تُحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً[٣] .

وخطب المأمون بمرْو[٤] وقد ورد عليه كتاب الأمين يعزّيه بالرشيد ويحثه على أخذ البيعة له فقال : إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمرة الجزع الوزر ، والتسليمُ لأمر الله عزّ وجل فائدة جليلة ، وتجارة مُربحة ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب . وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم فإنا لله وإنا إليه راجعون . فما كان إلا عبداً دُعى فأجابَ وأمر فأطاعَ . وقد سدّ أمير المؤمنين ثَلمة ، وقام مقامه ، وفى أعناقكم من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضى ، واغتبطوا بالنعماء والوفاء فى خليفتكم الباقى ، يا أهل الدنيا الموتُ نازلٌ والأجل طالبٌ ، وأمس واعظ ، واليوم مغتنم وغداً منتظر ، ثم نزل :

---

(١) أفلج حجته أظهرها (٢) العضة القطعة وجمعها عضون وجعلوا القرآن عضين أى فرقاً فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً (٣) صوتاً خفياً (٤) بلدة بفارس وهى قاعدة بلاد خراسان .

وخطب عبد الله بن طاهر الناس وقد تهيأ لقتال الخوارج : إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون[١] عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ؛ الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشِروا[٢] ، وتمردوا ، وشقوا العصا، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا فى الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، فليكن الصبر معقلكم[٣] الذى إليه تلجئون ، وعُدّتكم التى بها تستظهرون، فإنه الوَزَر[٤] المنيع الذى دلكم الله عليه؛والجُنة[٥] الحصينة التى أمركم الله بلباسها ، وغضوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قُدُماً على بصائركم ، فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ؛ فإنه يقول : (إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) أيدكم الله بعز الصبر ووليكم بالحياطة والنصر .

الخطباء

اشتهر فى صدر الدولة العباسية جملة من الخطباء جلهم من بنى هاشم عباسيين وعلويين ، ثم من الخوارج ؛ ومن بعض خطباء الأمصار من بنى منقر وآل الرّقاشى وآل خاقان بالبصرة وبعض زعماء بنى أمية وفقهائهم بالأندلس[٦] وآل الأغلب فى إفريقية . ومن أشهرهم داود بن على ، وشبيب بن شيبة ، وهاك ترجمتهما :

داود بن علىّ

هو داود بن على بن عبد الله بن عباس خطيب بنى عباس ، وأحد مؤسسى دولتهم ، نشأ هو وإخوته وكانوا اثنين وعشرين رجلا فى قرية الحُمَيْمَة من أعمال

(١) الذود المنع والطرد (٢) بطروا (٣) ملجأكم (٤) الوزر بفتحتين الملجأ
(٥) الجنة بالضم كل ما وقى (٦) وأشهرهم المنذر بن سعيد البلوطى .

عمان[١] وكان الوليد بن عبد الملك أجلى علىّ بن عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها غضباً عليه .

وأخذ هو وإخوته علمهم وأدبهم عن أبيهم علىّ حبر قريش وابن حبرها وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم لمن قبائل لخم وجُذام وتنوخ وغسان وقيس ، فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبتهم صفات الحضر من الانغماس فى الترف واللذات والعكوف على الملاهى .

وكان داود أحد النابغين من إخوته فى هذه الصفات ، ويزيد عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم فى وقته ، وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه فى الدولة ، ولاه أبو العباس — عقب بيعته بالكوفة — ولاية الكوفة وسوادها ، ثم ولاه إمارة الحاج فى هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بنى أمية فى مكة والمدينة فى هذا العام أى سنة ١٣٢ هـ وهو أول موسم ملكه العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية بعد ثم ذهب عقب الموسم إلى المدينة فتوفى بها بعد شهرين من قدومه إليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ

ولداود خطبة عظيمة[٢] خطبها يوم بيعة أبى العباس على منبر الكوفة ، أما خطبه فى موسم مكة فهى مختصرة من خطبة الكوفة وهى : « شكراً شكراً إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ، أظنّ عدوّ الله أن لن نقدر عليه أن روخىَ من خطامه ، حتى عثَرَ فى فضل زمامه ؟ فالآن[٣] حيث أخذ القوس باريها ، وعادت القوسُ إلى النَّزَعة[٤] . ورجع الملك فى نصابه فى أهل بيت النبوّة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فرُشنا) ، أمنَ

(١) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية هى الآن مقر إمارة شرق الأردن .

(٢) راجع تاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى

(٣) ظرف لأمن الأسود .

(٤) جمع نازع وهو الرامى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم .

الأسودُ والأحمرُ، لكم ذمة الله، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكم ذمة العباس، لا وربِّ هذه البنية — وأومأ بيده إلى الكعبة — لا نهيج منكم أحداً » .

شبيب بن شيبة

هو شبيبُ بن شيبة بن عبد الله المِنْقَرى[1] التميمى خطيب البصرة فى زمانه . نشأ فى البصرة وامتاز بنبالة نفس ، وسخاء كفّ ، وحسن تواضع ، ونزاهة لسان . كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة القريبة من حد الإعجاز . وهو ابن عم خالد ابن صفوان[2] الخطيب المشهور . وسمعه خالد هذا يتكلم فى رَهطه ، فقال : يا بُنىّ ! لقد نعى إلىّ نفسى إحسانك فى كلامك ؛ فإنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيبٌ إلا مات من قبلهُ ، فقال له شبيب : بل يبقيك الله . ويجعلنى فداءك .

وقال الجاحظ : يقال إنهم لم يروا خطيباً بلديّاً[3] إلا وهو فى أول تكلفه بتلك المقامات كان مستثقلاً مستصلفاً[4] أيام رياضته كلها إلى أن يتوقح[5] وتستجيب له المعانى ويتمكن من الألفاظ إلا شبيب بن شيبة ، فإنه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . وقد يطوّل حتى يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شبيبها   على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها   عجبتَ من كثرتها وطيبها

وعرف شبيب أبا جعفر المنصور[6] قبل خلافته ثم اتصل به بعدها ،

---

(١) بنو منقر بطن من تميم (٢) كان خطيب بنى تميم فى زمنه واشتهر فى بنى أمية وأدرك عصر بنى العباس وسمر للسفاح (٣) أى من أهل الأمصار لا من البادية .
(٤) من الصلف وهو تجاوز الحد فى إظهار الظرف مع العجب والكبر (٥) يقل حياؤه ويجرؤ .
(٦) هو أمير المؤمنين جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس

فجعله فى حاشية ولىّ عهده المهدى[١] وبقى كذلك حتى وُلّىَ المهدى الخلافة فصار من خيرة سُمّاره وجلسائه إلى أن مات فى حدود سنة ١٧٠ هـ .

ومن خطبه القصار ما عزّى به المهدى يوم ماتت ابنته البانوقة وجزع عليها جزعاً شديداً . ويقال إنها كانت أبلغ تعزية قيلت فى هذا اليوم وهى :

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزئت[٢] أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة . ثواب الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده .

الكتابة

الكتابة خطية وإنشائية

الكتابة الخطية

تنوع فى هذا العصر الخط الكوفى إلى أنواع أربت على خمسين نوعاً . من أشهرها المحرّر والمشجر والمربع والمدّور والمتداخل وبقى مستعملاً فى المبانى والسكة إلى حدود الألف ، ثم نسى جملة . وقد جددت منه أنواع فى عصرنا .

أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث فى آخر الدولة الأموية أن استنبط قطبة المحرر من الخط الكوفى والحجازى خطاً هو أساس الخط الذى يكتب به الآن ، واخترع القلم الجليل الذى يكتب به على المبانى ونحوها وقلم الطومار (الورقة الكبيرة) وهو أصغر أنواع الجليل ، وعرض قطته ٢٤ شعرة من شعر ذنب البرْذون ، وحسن عمله غيرُه من كتاب صدر الدولة العباسية . حتى ظهر إبراهيم الشجرى وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثانى : فولد إبراهيم من الجليل قلم الثلثين (أى ثلثى الطومار) وعرض قطته ١٦ شعرة ، وقلم الثلث وعرض

(١) هو أمير المؤمنين محمد المهدى بن المنصور .
(٢) أى أصبت .

قطته ٨ شعرات . وولد يوسف من الجليل القلم الرّياسى"[١] وهو قلم التوقيع .

وعن إبراهيم أخذ الأحول المحرر (من صنائع البرامكة) واخترع النصف وعرضه ١٢ شعرة ، وخفيف الثلث والمسلسل (هو المشتبك الحروف) وغبار الحلبة[٢] والرقاع وغيرها . هذه هى أشهر الخطوط ، وقد تولد منها نحو من ٢٠ خطاً يختص كل منها بعرض خاص . واتفقوا على أن طول الألف يُعتبر معياراً لارتفاع بقية الحروف ، وأن يكون طول الألف مربع مقدار قطة القلم .

وعن الأحوال أخذ مهندس الخط الأعظم الوزير أبو على محمد بن مُقلة وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ، وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التى نعرفها الآن ، وأتما العمل الذى بدأ به قطبة ، فهندسا الحروف وقدّرا مقاييسها وأبعادها ، وضبطاها ضبطاً محكماً ، واخترعا له القواعد ، وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبد الله بن أسد القارئ المتوفى سنة ٤١٠ هـ وعنه أخذ أبو الحسن على بن هلال البغدادى المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ وهو الذى أكمل قواعد الخط واخترع عدة أقلام ، وإليه انتهت الغاية ، وكل من جاء بعده فهو تابع لطريقته ، كأمين الدين ياقوت الملكى المتوفى سنة ٦١٨ هـ كاتب السلطان ملكشاه السلجوقى .

أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبأوا بهذا الإصلاح وبقوا يكتبون على طريقة الخط الحجازى إلى الآن بنوع من التعديل .

ضبط الحروف بالشكل — قد ذكرنا فيما تقدّم طريقة أبى الأسود التى اتبعت فى زمن بنى أمية وصدر بنى العباس ، وبقيت مستعملة فى الأندلس إلى أواسط القرن الرابع . ولما استكثر الناس من إعجام الحروف لتسهيل التعليم ، اشتبهت نقط الإعجام بنقط الشكل ، مع أن هذه كانت تُلون بمداد مخالف ، فكان من الصعب وضياع الزمن كتابتها بمدادين . فاخترع الخليل الشكل

---

(١) نسبة إلى الفضل ذى الرياستين وزير المأمون (٢) شبه لدقته بغبار حلبة الخيل ويكتب به فى بطائق حمام الزاجل .

المستعمل الآن بأن كتب الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف ، والفتحة ألفاً ، والكسرة ياء والشدة رأس شين[١] ، والسكون رأس خاء[٢] ، وهمزة القطع رأس عين[٣] . ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن . وهاك نموذجاً من الخط الكوفي المصحفي مصبوطاً بضبط الخليل وأبي الأسود معاً مرسوماً فيه نقطة الشكل مفرغة :



(١) مختزلة من لفظ (تشديد) (٢) مختزلة من لفظ (خفيف) (٣) مختزلة من لفظ (قطع)

وقالوا سَمعنا وأطعنا
غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المصيرُ
لا يُكلّفُ اللهُ نَفساً إلا وُسعها
لها ما كسبتْ وعليها ما
اكتسبتْ ربَّنا لا تؤاخذْنا
إنْ نَسينا أو أخطأنا ربَّنا
ولا تَحملْ علينا إصراً كما
حَملتهُ على الذينَ منْ قبلنا ربَّنا

ولا تُحملنا ما لا طاقةَ لنا به
واعفُ عنا واغفرْ لنا
وارْحمنا أنتَ مَوْلانا
فانصرْنا على القوْم الكافرين
بسْم الله الرّحمن الرّحيم
ألم اللهُ لا إلهَ إلا هوَ
الحيّ القيومُ نزّلَ
عليكَ الكتابَ بالحقِ مُصدّقاً

ابنُ مقلة

هو الوزير أبو على محمد بن على بن الحسن بن مقلة . إمام الخطاطين ، وأحد كبار الكتاب البارعين . أخذ الخط عن الأحول المحرر صنيعة البرامكة ، وتم على يده ويد أخيه الحسن نقل الخط الكوفى إلى الشكل المعروف فى زماننا .

وكان ابن مقلة يتولى فى أول أمره بعض أعمال فارس ويجبى خراجها ، وتنقلت به الأحوال إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله سنة ٣١٦ هـ . ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٣١٨ هـ وصادر أمواله ونفاه إلى فارس — ثم وزر للراضى فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعزل وبقى معتزلا الوزارة . ثم أطمعه نحسه أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة المستضعف ، فلم يستطع الخليفة كتمان سره وأفشاه إلى ابن رائق ، فقبض عليه وقطع يده اليمنى ، ثم ندم الراضى على ذلك وأمر الأطباء بملازمته إلى أن برأ . وكان يشد القلم على ساعده ويكتب به ، ثم كاد له ابن رائق لما أحس منه مطالبته للوزارة ، وكان عاقبة ذلك أن قطع لسانه أيضاً ، وأقام فى الحبس مدة طويلة قاسى فيها عناء شديداً . ولم يزل به حتى مات سنة ٣٢٨ هـ .

وقالوا سَمعنا وأطعنا
غُفرانكَ ربَّنا وإليكَ المصيرُ
لا يُكلّفُ اللهُ نَفساً إلا وُسعها
لها ما كسبتْ وعليها ما
اكتسبتْ رَبنا لا تؤاخذْنا
إنْ نَسينا أو أخطأنا رَبنا
ولا تَحملْ علينا إصراً كما
حَملتهُ على الذينَ منْ قبلنا ربَّنا

وَلا تُحملنا ما لا طاقةَ لنا به
واعفُ عنا واغفرْ لنا
وارْحمنا أنتَ موْلانا
فانصرْنا على القوْم الكافرين
بسْم الله الرّحمن الرّحيم
ألم اللهُ لا إلهَ إلا هوَ
الحيّ القيومُ نزّلَ
عليكَ الكتابَ بالحقِ مُصدّقاً

ابنُ مقلة

هو الوزير أبو على محمد بن على بن الحسن بن مقلة . إمام الخطاطين ، وأحد كبار الكتاب البارعين . أخذ الخط عن الأحول المحرر صنيعة البرامكة ، وتم على يده ويد أخيه الحسن نقل الخط الكوفى إلى الشكل المعروف فى زماننا .

وكان ابن مقلة يتولى فى أول أمره بعض أعمال فارس ويجبى خراجها ، وتنقلت به الأحوال إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله سنة ٣١٦ هـ . ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٣١٨ هـ وصادر أمواله ونفاه إلى فارس — ثم وزر للراضى فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعزل وبقى معتزلا الوزارة . ثم أطمعه نحسه أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة المستضعف ، فلم يستطع الخليفة كتمان سره وأفشاه إلى ابن رائق ، فقبض عليه وقطع يده اليمنى ، ثم ندم الراضى على ذلك وأمر الأطباء بملازمته إلى أن برأ . وكان يشد القلم على ساعده ويكتب به ، ثم كاد له ابن رائق لما أحس منه مطالبته للوزارة ، وكان عاقبة ذلك أن قطع لسانه أيضاً ، وأقام فى الحبس مدة طويلة قاسى فيها عناء شديداً . ولم يزل به حتى مات سنة ٣٢٨ هـ .

ومن قوله فى تلك الحوادث :

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً ... فإن البعض من بعض قريب

وقوله :

ما سئمت الحياة لكن توثقـ ... ـتُ بأيمانهم فبانت يمينى
بعت دينى لهم بدنياى حتى ... حرمونى دنياهمُ بعد دينى
ولقد حُطت ما استطعت بجهدى ... حفظ أرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذة عيش ... يا حيـاتى بانت يمينى فبينى

الكتابة الإنشائية

كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية[١]

كانت كتابة الرسائل فى أوائل حكم بنى العباس جارية على نظام كتابتها فى أواخر عهد بنى أمية سالكةً الطريق التى سلكها عبد الحميد وابن المقفع والقاسم ابن صبيح[٢] وعمارة بن حمزة[٣] ونظراؤهم : من العناية بجعل عبارتها جزلة بليغة متناسقة الوضع والأسلوب ، لا يقصد بها إلا إفهام المعنى الجيد بوضوح وبلاغة وقوة حجة ، غير منظور فيها إلى زخرف اللفظ ومحسناته . وبقيت كذلك بل زادت حسناً وجمالا ومراعاة لمقتضى الحال إلى أوائل القرن الرابع . ثم أخذت الصناعات اللفظية تغلب عليها تدريجاً بتضاؤل ملكة البلاغة فى الكتاب وتقاصر هممهم عن استيفاء أدائها؛ لتغلب الأعاجم من الديلم البويهيين[٤]

---

(١) نسبت إلى الجمع من قديم وإن كان القياس نسبتها إلى المفرد وباب النسب واسع .

(٢) أصله من القبط أسلم أبوه صبيح زمن بنى أمية وكتب ابنه القاسم لأمرائهم ثم كتب المنصور ، وهو جد أحمد بن يوسف وزير المأمون المشهور

(٣) من موالى العباسيين ويضرب به المثل فى البلاغة والكبر . كتب وعمل للمنصور والمهدى .

(٤) الدولة الديلمية البويهية ٣٢٢ — ٤٨٨ هـ .

أصل أبيهم بويه صياد ورزق السعادة فى أبنائه الثلاثة الذين اقتسموا ملك العراقين العجمى والعربى وفارس والجزيرة (وأكبرهم) عماد الدولة أبو الحسن على (صاحب بلاد فارس) توفى سنة ٣٣٨ هـ . بغير عقب ، ونزل عن ملكه لعضد الدولة ابن أخيه ركن الدولة — (وأوسطهم) ركن الدولة أبو الحسن (صاحب عراق العجم) توفى سنة ٣٦٦ وقسم أملاكه على أولاده الثلاثة —

والترك السلجوقيين[١] على سلطان الخلفاء فى الشرق وتغلب البربر على شمالى إفريقية والأندلس فى الغرب ، فلم يعد فى الملوك والأمراء من يعنيهم أمر العربية وبلاغتها وما زالت كذلك حتى سقطت الدولة العباسية على أيدى الأعاجم من التتار[٢] ، فكان ذلك عصر ابتداء اضمحلال اللغة فى الجملة :

ويمكن التنويه ببعض التغييرات التى طرأت على كتابة الرسائل أو غلبت عليها فى عصر الدولة العباسية بذكر الأمور الآتية :

١ — تعدد أغراض الكتابة وموضوعاتها بتعداد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم الوفيرة ، التى استحدثت فى الدولة وتضاعفت مراراً عما كانت عليه فى العصر الماضى وبما زاد على الرسائل الإخوانية : من استعمالها أواسط هذا العصر فى بعض أغراض الشعر . من الهجاء والمفاخرة ، كما حدث بين البديع والخوارزمى وغيرهما .

٢ — دقة المعانى واستقصاء جميع جزئياتها وترتيب الأفكار ترتيباً منطقياً أو نسبياً[٣] .

٣ — الغلو فى طرفى الإطناب والإيجاز بحسب مقتضيات الأحوال ، فقد كانت الكتب التى تقرأ على العامة من بيعة أو منشور . أو أخذ بسياسة ، أو احتجاج لمذهب . أو تفصيل انتصار جيش أو نحو ذلك ، تكتب بغاية

عضد الدولة فناخسرو ، ومؤيد الدولة بويه ، وفخر الدولة على ، فمات مؤيد الدولة قبل فخر الدولة فانضمت إلى هذا مملكة أخيه ، ثم مات فخر الدولة وخلفه ابنه مجد الدولة (وأصغرهم) معز الدولة أبو الحسن أحمد (صاحب العراق والأهواز المستولى على بغداد) توفى سنة ٣٥٦ تولى بعده عز الدولة بختيار فاغتصب ملكه منه ابن عمه عضد الدولة وضم إليه أكثر أملاك آل بويه والجزيرة فأصبح أكبر ملك فيهم وتوفى سنة ٣٧٢ وملك بعده ابناه صمصام الدولة ثم شرف الدولة ، ثم ابن الأخير بهاء الدولة ، ثم ابن هذا سلطان الدولة ، ثم أخوه مشرف الدولة ثم جلال الدولة بن بهاء الدولة ، ثم اضطرب أمرهم وزالت دولتهم .

(١) ينتسبون إلى جدهم سلجوق وأصلهم من الترك خرجوا على العباسيين فى أواخر دولتهم واستولوا على ممالكهم واستقلوا بها استقلالا داخلياً .

(٢) هم الغزاة الجبابرة الذين خرجوا من صحراء المغول وأغاروا على أكثر ممالك آسيا من الصين وما وراء النهر وخراسان وبلاد العراق وفارس والشام وزالوا الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ . بقيادة زعيمهم الأكبر هولاكوخان .

(٣) كالترتيب بين الأهم والمهم والكل والجزء والمجمل والمفصل .

الإسهاب والتبيين والإيضاح تقريراً لها فى أذهان العامة وتفخيماً لشأن السلطان وتعظيماً لنعم الله عليه وعلى أهل بيته .

وعلى عكس ذلك كانت الكتب التى تصدر عن الخليفة أو الوزير أو الرئيس إلى الولاة والمرءوسين فى أمر أو نهى أو سؤال عن حدث ، فقد كان غلوهم فى الإيجاز فيها يصل إلى درجة الإشارة والرمز ، بل قد يخل بشرط الفصاحة . ومن ذلك التوقيعات[1] التى يوقعها الخلفاء والوزراء والرؤساء على الكتب التى تقدم بقصة حال ، ومن أمثلة الإيجاز كتاب عمرو بن مسعدة[2] فى توصية (كتابى إليك كتابُ معْتَنٍ بمن كتبَ له ، واثق بمن كتبَ إليه ، ولن يضيعَ حامله بين الثقة والعناية) .

٤ — سهولة العبارة وانتقاء ألفاظها وجودة رصفها . فوق ما اتبعه المتأخرون من كتاب العصر الماضى .

٥ — شيوع السجع القصير الفقرات غالباً ، والوَلوع بالمحسنات البديعية كالجناس والطباق والتوجيه وحل الأبيات السائرة وضرب المثل . والتلميح إليه ، وتضمين الأحاديث النبوية ، والحكم المأثور أو الإشارة إليها . والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعر . إلا أن كل ذلك لم يكن ملتزماً فى القرنين الأولين من عمر الدولة ، وإنما كاد يُلتزم بقيةَ أزمانها وخاصة وقت هرمها ، فغلب السجع على كل الرسائل حتى كتب الفنون ، ثم طالت فقراته : وتنوعت أقسامه . وأصبحت التورية محك البراعة بين الأدباء والكتاب . ولم يغل أهل الأندلس وشمالى إفريقية فى ذلك غلو أهل المشرق .

٦ — زيادة أنواع البدء والختام فى الرسائل ، فزاد العباسيون فى الصورة العامة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه صيغة الصلاة والسلام عليه

---

(١) جمع توقيع وهو أن يعلق ذو الأمر أسفل كتاب رفع إليه بما يراه ، بعبارة موجزة تؤثر عنه .

(٢) هو أحد وزراء المأمون ومن أبلغ كتاب الإيجاز .

بعد التحميد وتلقب خليفتهم فيها بالإمام ، وتكنى بأبي فلان . واتبعوا أيضاً صورة ابتداء عبد الحميد ، وهي بعد البسملة :

(أما بعد فالحمد لله) ويكرر الحمد أو يفرد ، وقد يحذفون (أما بعد) ويبتدئون بصيغة (الحمد لله) إلخ .

ومن الصيغ التي يعزى اختراعها أو مبدأ شيوعها للعصر العباسي البداءة بالدعاء إما بتقديم (أمابعد) أو بغيرها . وأكثر مايكون ذلك في الرسائل الأخوية .

ومن أمثلة الدعاء (أدام الله نعمته عليك ، وأيدك بروح من عنده ، وأطال الله بقاء المولى أو الشيخ[1] أو الأستاذ) إلخ .

ومن الصور التي كانت تستعمل أيضاً :

(كتابي إليك) ويردفونه بما يناسب من دعاء أو ثناء أو وصف . ثم صاروا يخاطبون الخلفاء والسلاطين بالدعاء لهم أو لديوانهم[2] أو لحضرتهم أو لمجلسهم أو لمقرهم .

وكانت صور الأختام لا تقل عن صور الافتتاح . فقد كان بلفظ (والسلام) أو (والسلام عليك ورحمة الله وبركاته) ثم استعمل في الختام (إن شاء الله) بعد الدعاء أو غيره . وقد يكون بحمدلة وصلاة وسلام . وذلك في الكتب السلطانية . وقد يزداد عليها الحسبلة .

٧ — زيادة الرسوم في الألقاب والدعاء وتخصيص كل ذي مرتبة بلقب أو دعاء بما يشعر بتعظيم الملوك والأمراء وتفخيمهم والتهويل بشأنهم . وذاع ذلك أواخر هذا العصر .

٨ — اختراع المقدمات في أوائل الرسائل المطولة والعهود والمنشورات . وجملة القول أن الكتابة في هذا العصر عامة . وفي صدره خاصة كانت أرقى ما وصل إليه الإنشاء العربي .

---

(١) شاع استعمال لفظ « الشيخ » أو « الأستاذ » أو « الرئيس » في النصف الثاني من حياة الدولة لرؤساء الكتاب والوزراء في الدولتين السامانية والبويهية .

(٢) شاع الدعاء للديوان العزيز (ديوان الإنشاء) وللحضرة وللمقر وللمجلس أواخر الدولة .

نماذج من الرسائل والتوقيعات والمقامات[1]

كتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئ بمولود :

أما بعدُ فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنتُ به بَهِجاً ، أعد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقك ، وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سَرِيًّا ، أجملَ صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سرورى بذلك ، وأكثرت حمد الله عليك . فبارك الله فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، يشدّ عضدك ، ويكثر عددك ، ويقر عينك .

وكتب عمر بن مسعدة إلى المأمون فى رجل يستشفع له بالزيادة فى منزلته عنده وجعل كتابه تعريضاً لنفسه :

أما بعد فقد استشفع بى فلان (يا أمير المؤمنين) لتطوُّلك علىّ فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون . وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته . والسلام — فوقّع المأمون :

قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما . ووقفناك عليهما .

ووقع أيضاً إلى رجل من أوليائه فى أمر تظلم فيه : من علامات الشريف أن يظلم من فوقه ، ويظلمه من دونه . فأى الرجلين أنت؟ !

ومن توقيعات جعفر بن يحيى البرمكى فى قصة مُتنصح : بعض الصدق قبيح (أى فى الوشاية) ووقع أيضاً فى قصة مُستمنح قد كان وصله مراراً : دع الضرع يَدُرّ لغيرك كما درّ لك .

ومن مقامات بديع الزمان الهمذانى المقامة العلمية ، وهى :

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت فى بعض مطارح الغربة مجتازاً ، فإذا أنا برجل يقول لآخر : بم أدركت العلم ؟ — وهو يجيبه — قال : طلبته فوجدته

(١) جمع مقامة وهى قصة خيالية ذات مغزى أدبى تكتب بعبارة يكثر فيها الغريب والسجع والمحسنات البديعة لقصد حفظ اللغة وأساليبها .

بعيد المرام . لا يصاد بالسهام . ولا يُقسَم بالأزلام[١] . ولا يرى فى المنام . ولا يُضبط باللجام . ولا يورث عن الأعمام . ولا يُستعار من الكرام . فتوسلت إليه بافتراش المدَر[٢] ، واستناد الحجر . ورد الفجر . وركوب الخطر ، وإدمان السهر . واصطحاب السفر . وكثرة النظر . وإعمال الفكر . فوجدته شيئاً لا يصلح إلا للغرس . ولا يغرس إلا فى النفس . وصيداً لا يقع إلا فى الندْر[٣] ؛ ولا ينشَب إلا فى الصدر . وطائراً لا يخدعه إلا قنص اللفظ ، ولا يعلقه إلا شرك الحفظ . فحملته على الروح . وحبسته على العين . وأنفقت من العيش . وخزنت فى القلب . وحرّرْت بالدرس . واسترجعت من النظر إلى التحقيق . ومن التحقيق إلى التعليق . واستعنت فى ذلك بالتوفيق . فسمعت من الكلام ما فتق السمع . ووصل إلى القلب . وتغلغل فى الصدر . فقلت : يا فتى ومن أين مطلع هذه الشمس ؟ فجعل يقول :

إسكندرية داري لو قرّ فيها قراري
لكنّ بالشام ليلي وبالعراق نهاري

وكتب أبو محمد القاسم على الحريرى فصلاً من المقامة البغدادية على لسان عجوز تستمنح :

اعلموا يا مآل الآمل ، وثمال[٤] الأرامل[٥] ، أنى من سَرَوات[٦] القبائل ، وَسريّات[٧] العقائل[٨] ، لم يزل أهلى وبعلى يحلّون الصدْر ، ويسيرون القلب ، ويُمطون الظهر ، ويولون اليد . فلما أردَى الدهر الأعضاد[٩] وفجعَ بالجوارح[١٠] الأكباد . وانقلبت ظهراً لبطن ، نبا الناظر ، وجفا الحاجب ، وذهبت العين ، وفقدت الراحة ، وصَلَدَ[١١] الزّند ، ووهنَت اليمين ، وضاع اليسار ، وبانت المرافق ، ولم يبق لنا ثَنية[١٢] ولا ناب[١٣] فمذ اغبرّ العيش الأخضر ، وازورّ[١٤]

---

(١) جمع زلم كجبل : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية (٢) الطين اليابس (٣) النادر (٤) من يعول عليه (٥) المساكين من رجال ونساء (٦) سادات (٧) رفيعات القدر (٨) الكرائم (٩) يريد الأعوان (١٠) الأعضاء والمراد الأولاد والخدم (١١) لم يور ناراً (١٢) فتية من النوق (١٣) الجمل المسن (١٤) مال وانقبض .

الخبوب الأصفر (١) اسود يومى الأبيض . وابيض فودى(٢) الأسود ؛ حتى رثى لى العدو الأزرق . فحبذا الموت الأحمر .

الكتـّاب

كان أكثر كتاب المشرق فى هذا العصر من سلائل فارسية أو سوادية(٣) وقد بلغوا بحذقهم سياسة الملك ونبوغهم فى البلاغة أن ارتقوا عند خلفاء العباسيين إلى مرتبة الوزارة التى لم تكن معروفة قبلهم فى الإسلام . وأول كاتب منهم ارتقى إليها هو أبو سلمة الخلال . وأشهر من بلغ نفوذه وسلطانه مبلغاً زاحم فيه الخليفة وأصبح الملك فى قبضته يحيى بن خالد بن برمك(٤) وابناه جعفر والفضل . ثم محمد ابن الزيات فى زمن المعتصم والواثق وكان كتاب الأندلس والمغرب أكثرهم من سلائل عربية ؛ وكانت الحجابة فى الأندلس أرقى من رتبة الوزارة ؛ والوزير عندهم يطلق على قرين الخليفة ومستشاره الخاص . فإذا تولى مرتبة الكتابة والإدارة للدولة سمى ذا الوزارتين .

ومن أشهر كتاب هذا العصر فى الشرق ابن المقفع . ويحيى بن خالد بن برمك وابناه : جعفر والفضل . وإسماعيل بن صبيح(٥) . وعمرو بن مسعدة ؛ وأحمد ابن يوسف ؛ وابن الزيات(٦) . والحسن بن وهب(٧) ؛ وعلى بن الفرات(٨) ، وابن مقلة ؛ وابن العميد . والصاحب بن عباد ؛ وأبو بكر الخوارزمى ؛ والبديع ؛ والصابى(٩) ؛ والعماد الكاتب(١٠) ؛ والقاضى الفاضل .

---

(١٠) أى الدينار .   (٢) الفود جانب الرأس
(٣) أهل السواد عندهم سكان الفرات من سلائل البابليين والأشوريين وربما سموهم نبطاً .
(٤) كان من أكبر بطانة المهدى ومربياً لولده الرشيد ثم صار وزيراً ومدبراً لدولة الرشيد
ثم وزيراً للرشيد ابناه الفضل فجعفر ، فأما جعفر فقتله الرشيد سنة ١٨٧ وأما يحيى وابنه الفضل
فاتا فى سجن الرشيد   (٥) كان وزيراً للرشيد بعد جعفر   (٦) هو محمد بن عبد الملك
الزيات كان كاتباً شاعراً داهياً جباراً وزر للمعتصم والواثق والمتوكل سنة ٢٣٣ هـ .
(٧) كان صاحب ديوان الرسائل للمتوكل   (٨) كان وزيراً للمقتدر   (٩) كان صاحب
ديوان الرسائل ببغداد زمن عز الدولة بن بويه وهو من كتاب الإطناب   (١٠) كان كاتباً
لنور الدين بن زنكى صاحب الجزيرة وحلب ثم صار من رؤساء الكتاب عند صلاح الدين الأيوبى

ومن أشهر كتابه في الأندلس ابن شهيد[١] . وأبو المطرف بن عميرة[٢]
وابن زيدون ، ولسان الدين الخطيب .

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد فحول البلاغة وثاني اثنين مهدا للناس طريق الترسل ورفع لهم معالم صناعة الإنشاء . أولهما عبد الحميد .

منشؤه وعمله — كان ابن المقفع من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب فكان أبوه داذويه المقفع يعمل في جباية الخراج لولاة العراق من قبل بني أمية : وهو على دين المجوسية وولد له ابنه هذا حوالي سنة ١٠٦ هـ . وسماه (رَوْزَبَة) فنشأ بالبصرة وهي يومئذ حلبة العرب[٣] ومجمع الفقهاء والرواة المحدثين وأصحاب اللغة . وحاضرة البر والبحر . وقرارة المربد[٤] . منتدى البلغاء والخطباء والشعراء . فكان لكل ذلك فوق ذكائه المفرط . وتأديب أبيه وأخذه له بتعليم الفارسية وصناعة الكتابة أعظمُ أثر في تربيته وتهيئته لأن يصير من أكبر كتاب العربية وعلمائها وأدبائها والمترجمين إليها .

ولما ذاع فضله استكتبه في عصر بني أمية داود[٥] بن يوسف بن عُمر هُبيرة . ثم كتب في عصر بني العباس لعيسى بن علي عم الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي أيام ولايته على كرمانَ . وعلى يديه أسلم بمحضر من الناس وتسمى (عبد الله) وتكنى بأبي محمد بدل أبي عمرو . ثم ألزمه أخوه إسماعيل ابن علي بعض بنيه ليؤدبه ثم كان آخر أمره في خدمة أخيهما سليمان بن علي أيام ولايته على البصرة ويظهر أنه اتصل في أثناء ذلك بأبي جعفر المنصور اتصالَ معرفة لا اتصال خدمة ، فترجم له كثيراً من الكتب الفارسية واليونانية المنقولة قديماً إلى الفارسية . وبقي في خدمة أعمام الخليفة بقية عمره حتى قتل

(١) كان وزيراً للخليفة الناصر الأموي الأندلسي (٢) كان من كتاب ملوك الطوائف والبربر بالأندلس (٣) الحلبة جماعة الخيل للسباق وتستعمل مجازاً في الطائفة من عظماء الرجال (٤) مكان بطرف البصرة من طريق القادم من البادية يجتمع فيه فصحاء عرب البصرة ويخطبون ويتناشدون وهو الذي خلف عكاظ في الجاهلية (٥) أحد ولاة بني أمية على العراق .

بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان، لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام بترجمة كتب الزنادقة إلى العربية . وكانت هذه التهمة مما جعل الخليفة يهمل تحقيق مقتله عندما شكا عماه عيسى وسليمان الوالي القاتل إليه ، لا كما يقال من أن الخليفة أمر الوالى بقتله انتقاماً منه لكتابته صورة أمان يؤخذ على الخليفة لأحد أعمامه الخارجين[1] وإحراجه فيه بالأيمان المغلظة ، إذ أن ذلك مما يجل عنه مقام أبي جعفر .

أخلاقه وبلاغته — كان نادرة فى الذكاء غاية فى جمع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس ، متأدباً متعففاً قليل الاختلاط إلا بمن هو على شاكلته ، كثير الوفاء لأصحابه وكان أمة فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ورشاقة أساوب ، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول : « البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » وكان يرى أن التتبع لغريب الكلام طمعاً فى نيل البلاغة هو العى الأكبر ، وينصح للكتاب باتباع ما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة . وقد ذاعت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد فى توخى السهولة وسلامة التعبير مع العناية بإجادة المعنى ، بين الكتاب من أهل زمانهما ومن بعدهما ؛ وإنما صعبت عبارة ابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير ونحوهما : لأنه ساقهما مساق الفلسفة ، ويغلب على أساليبه فيهما القياس المنطقى وأفكار الفلاسفة الدقيقة التى قلما تظهر للقارئ إلا بعد الكد . ويمتاز عبد الحميد — وإن لم يكن ابن المقفع دونه فى البلاغة — بما تسنى له من وضع الأنظمة للرسائل الديوانية

---

(١) هو عبد الله بن على ، خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جموعه وفر عبد الله إلى البصرة محتمياً بأخويه إسماعيل وسليمان فغضب المنصور منهما فلم يجيباه إلا بأمان لعبد الله يمليان شروطه فتقبل ذلك المنصور فأمر ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أماناً يتصعب فى شروطه فكان مما كتب (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون فى حل من بيعته) فاشتد ذلك عليه وخاصة أمر البيعة ، فيقال إنه أوعز إلى سفيان والى البصرة بقتله خفية ، فزاره ابن المقفع يوماً لأمر فقتله وحرقه وذرى رماده .

وتنسيق صور لها ، لأنه أتيح لعبد الحميد ما لم يتح لابن المقفع من رياسة الكتابة فى دواوين الخلافة ، ويمتاز ابن المقفع بعلمه وترجمته لكثير من الكتب الفلسفية والأدبية .

فقد ترجم ابن المقفع كتباً عدة من الفارسية إلى العربية من أشهرها كتاب كليلة ودمنة[١] . وله فى الأدب كتاب الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، وكتاب الدرة اليتيمة ، وهى لا تزال مكنونة فى طىّ الخفاء ، وإنما طبع الأدب الكبير معنوناً باسمها خطأ ، ثم طبع فى مصر مسمى باسمه الحقيقى . وهاك نموذجاً من قصار رسائله .

قال فى السلامة — (أما بعد) فقد أتانى كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح من قِبَلَك . وفى الذى ذكرت من ذلك نعمةٌ مجللةٌ عظيمة ، يُحمد عليها وليها المنعم المتفضل المحمود . ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها .

وسألت أن أكتب إليك بخبرنا . ونحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبتُ فى ذكرها لم يكن فى ذلك إحصاء للنعمة ، ولا اعتراف بكنه الحق فترغب للذى تزداد نعمه علينا فى كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً[٢] ، وأن يرزقنا من كل نعمة كفاءها[٣] . من المعرفة بفضله فيها والعمل فى أداء حقها إنه ولى قدير .

---

(١) المشهور أن ابن المقفع ترجم هذا الكتاب من الترجمة الفارسية الفهلوية عن الهندية ويرى بعض أهل الأدب من المتقدمين وكثير من أدباء الإفرنج المستعربين أنه وضعه وأنه نحله الهند القدماء لترغيب قراء زمانه فى مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التى لم يكونوا يأبهون لها إلا إذا أسندت إلى القدماء ونحن نتابع أصحاب هــذا الرأى ولنا ولهم فى ذلك أدلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها

(٢) أى دخله شىء من الريب ونحوه

(٣) أى جزاؤها .

إبراهيم الصُّولى

هو أبو إسحق إبراهيم بن عباس بن محمد بن صول[١] ، كاتب العراق وأشهر أصحاب المقطعات . نشأ ببغداد فى بيت كتابة وبلاغة ، فتلقى العلم والأدب عن أهله وأئمة زمانه . واشتغل بالشعر فى حداثته فبرع فيه ، وتكسب به ، ورحل إلى العمال والأمراء يمدحهم ويستميح جدواهم . ثم قصد الفضل ابن سهل وزير المأمون أيام مقامه معه بخراسان[٢] . ومدحه ومدح على بن موسى الرضا العلوى الذى جعله المأمون بمساعى الفضل ولى عهده . فوهب له علىّ عشرة آلاف درهم . وجعله الفضل كاتباً لأحد قواده . وبعد أن قتل الفضل وُشى به إلى المأمون فوجد عليه ثم عفا عنه .

وبقى ينتقل فى أعمال النواحى والدواوين حتى كان زمن الواثق عاملاً على الأهواز[٣] فتحامل عليه وزيره ابن الزيات (وكان قبل صديقاً له) فعزله وسجنه بها . فكتب إليه كتباً بليغةً ، وقصائد كثيرة يستعطفه بها . فلم يزدد بذلك إلا جفاء وغلظة . ثم اطلع الواثق على ذلك فأطلقه . وتولى ديوان الضياع والنفقات فى خلافة المتوكل . وكانت بلاغته وظرفه يستران ضعفه فى عمله لقلة بضاعته فى الحساب . ولم يُعقه عن تقلد الوزارة إلا اشتهاره بالخلاعة . ومات بسرّ مَنْ رأى سنة ٢٤٣ هـ وعمره سبعون سنة .

وكان إبراهيم أحد كتاب الدنيا فى زمانه ويلقب بكاتب العراق .

وكانت معانيه التى يستخدمها فى كتابته كلها مبتكرة . وباعتماده على نفسه واختراعه للمعانى صار كلامه قدوة لغيره حتى ضارع الأمثال فى الشهرة نثراً ونظماً . وهو أحد الذين راعوا الازدواج فى فقرات الكتابة ، فاقتدى بهم غيرهم وأحد الذين اشتهروا فى التعازى .

---

(١) كان صول هذا وأخوه فيروز ملكى جرجان وهما من الترك تمجسا وتشبها بالفرس ثم أسلما على يد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة فاتح جرجان زمن بنى أمية ، فلما قتل يزيد دخل ابنا صول محمد وسعيد فى الدعوة العباسية وتعلم أولاد سعيد الكتابة (٢) أقام المأمون بخراسان مدة ولايته عليها زمن الأمين كله ومدة محاربته له ثم بعد قتله وأول الخلافة إليه بقى بها حتى خلعه أهل بغداد وولوا إبراهيم بن المهدى خليفة فرجع إلى بغداد وفر إبراهيم (٣) إقليم شرقى البصرة .

ومن رسائله تعزية على لسان المنتصر بالله إلى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين: (أما بعد) تولى الله توفيقك وحياطتك، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك، إن أفضل النعم نعمة تُلُقِّيَتْ بحق الله فيها من الشكر، وأوفرَ ثواباً حادثةٌ أدّى حقَّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر. ومثلك من قدّم ما يجب لله عليه فى نعمة فشكرها، وفى مصيبة فأطاعه فيها. وقد قضى الله سبحانه وتعالى فى محمد بن إسحاق مولى أمير المؤمنين (عفا الله عنه) قضاءهُ السابقَ والموقَّعَ، وفى ثواب الله ورضا أمير المؤمنين (أدام الله عزه) وتقديم ما يقدّم مثله أهلُ الحجا والفهم ما اعتاضه معتاضٌ وقدّمه موفق. فليكن (الله عزّ وجل) وما أطعته به وقدمت حقّه فيه أولى بك فى الأمور كلها، فإنك إن تتقربَ إليه فى المكروه بطاعته يحسنْ ولايتك فى توفيقك لشكر نعمه عندك.

ومن رسائله القصار على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه، وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش:

أما بعد فإن أمير المؤمنين يَرَى من حق الله عليه مما قوّم به من أوَد، وعدّل به من زَيغ، ولمّ به من منتشر: استعمالَ ثلاث يُقدمُ بعضَهن على بعض: أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرُها.

أناة فإن لم تُغن عقّب بعدها وعيداً فإن لم يغن أغنتْ عزائمه

ابن العميد

هو الأستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمدُ بن الحسين العميد كاتبْ المشرق، وعماد ملك آل بُويه وصدر وزرائهم.

وهو فارسى الأصل من أهل مدينة (قُمّ)[1] كان أبوه كاتباً مترسلاً بليغاً

---

(١) بلد بفارس.

من كبار كتاب الدولة السامانية(١) . فنشأ ابنهُ مُولعاً بمعرفة العلوم العقلية واللسانية ، فبرعَ فى علوم الحكمة والنجوم ونبغ فى الأدب والكتابة حتى قيل فيه : (بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمتْ بابن العميد) ثم رحل عن أبيه إلى آل بويه . وتقلد شريف الأعمال فى دولتهم . إلى أن تولى وزارة ركن الدولة(٢) سنة ٣٢٨ هـ فساس دولته ووطد أركانها . وتشبه بالبرامكة ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء . وكان يشاركهم فى كل ما يعلمون إلا الفقه . وما زال فى وزارته محطّ الرّحال وكعبة الآمال . حتى توفاه الله سنة ٣٦٠ هـ

وكان ابن العميد أوّل من فتح باب الوَلوع بالرسائل البديعية . متوخياً فيها السجع القصير الفقرات . مقتبساً من القرآن الكريم بعض الآيات . ومن السنة بعض الأحاديث المأثورة . مشيراً إلى الحوادث المشهورة . ناثراً فيها الأبيات الحكيمة ، مؤثراً بعض الحلية البديعية : كالجناس والمطابقة . مضمناً الأمثال السائرة . وحاكاهُ فى طريقته هذه فحولُ معاصريه . فأصبح عميد رُفقتهم وضَليع حَلبتهم . وكلهم كارع من حياضه . قاطف من رياضه .

---

(١) هى من الدول التى استقلت فى أواسط الدولة العباسية استقلالا داخلياً ، كانت تملك أواسط آسيا ، ومقرها بخارى وما وراء النهر ، وهم من سلالة الأكاسرة .

أمراء الدولة السامانية

نصر بن أحمد الساماني	(٢٦١ – ٢٧٩)	عبد الملك بن نوح	(٣٤٣ – ٣٥٠)
إسماعيل بن أحمد الساماني	(٢٧٩ – ٢٩٥)	منصور بن نوح	(٣٥٠ – ٣٦٦)
أحمد بن إسماعيل	(٢٩٥ – ٣٠١)	نوح بن منصور	(٣٦٦ – ٣٨٧)
نصر بن أحمد	(٣٠١ – ٣٣١)	منصور بن نوح	(٣٨٧ – ٣٨٩)
نوح بن نصر	(٣٣١ – ٣٤٣)	عبد الملك بن نوح	ثمانية أشهر

بقية خلفاء العباسيين

عبد الله المستكفي بالله	(٣٣٣ – ٣٣٤)	المنصور الراشد بالله	(٥٢٩ – ٥٣٠)
القاسم المطيع لله	(٣٣٤ – ٣٦٣)	محمد المقتفي لأمر الله	(٥٣٠ – ٥٥٥)
أبو بكر الطائع لله	(٣٦٣ – ٣٨١)	يوسف المستنجد بالله	(٥٥٥ – ٥٦٦)
أحمد القادر بالله	(٣٨١ – ٤٢٢)	حسن المستضيء بأمر الله	(٥٦٦ – ٥٧٥)
عبد الله القائم بأمر الله	(٤٢٢ – ٤٦٧)	أحمد الناصر لدين الله	(٥٧٥ – ٦٢٢)
عبد الله المقتدى بأمر الله	(٤٦٧ – ٤٨٧)	محمد الظاهر بأمر الله	(٦٢٢ – ٦٢٣)
أحمد المستظهر بالله	(٤٨٧ – ٥١٢)	منصور المستنصر بالله	(٦٢٣ – ٦٤٠)
فضل المسترشد بالله	(٥٢١ – ٥٢٩)	عبد الله المستعصم بالله	(٦٤٠ – ٦٥٦)

(٢) ركن الدولة هو أبو على بن بويه والد عضد الدولة المشهور .

إن لم يكن بالاقتباس منه فبالتشبه به . وإن كان هو أقلهم التزاماً بالمسجوع ، وأقربهم إلى المطبوع .

ومن رسائله إلى عبد الله الطبري :

كتابي إليك وأنا بحال لو لم ينغصها الشوق إليك ، ولم يرنّق[1] صفوها النزوع نحوك لعددتها من الأحوال الجميلة . وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة . فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة . ونعمة تامة . وحظيت منها فى جسمى بصلاح . وفى سعيى بنجاح . لكن ما بقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك . ويخلو ذَرعى مع[2] خلوّى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك . وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى . وناظم لشمل أنسى . وقد حُرمت رؤيتك . وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس . متشيعة ذات انقسام[3] . وينفع أنس بيت بلا نظام[4] . وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سروراً بملاحظة خطك . وتأمل تصرفك فى لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى . وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وَعقدى[5] . وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك . فإن كان كذلك[6] ، وإلا فقد (غطى هواك وما ألقى على بصرى) .

الصاحب بن عباد

هو كافى الكفاة أبو القاسم إسمعيل الصاحب بن عباد وزير آل بويه وكاتبهم وأحد المذيعين للسجع والجناس .

ولد سنة ٤٢٦ هـ بطالَقان قزوين . وكان أبوه من خيرة كتاب دولة بنى بويه ووزرائهم . تعلم العلم والأدب والكتابة من أبيه ، ثم اتصل بابن العميد ، فلزم صحبته وأخذ عنه الأدب ، وتولى له كتابة خاصته . ثم تنقلت به الأحوال

(١) يكدر (٢) الذرع : الخلق أى لا يتسع خلق وصدرى مع خلوى منك
(٣) أى شطرها عندى وشطرها عندك (٤) أى أنك أنت نظامه وقد غبت عنه ففاته النظام .
(٥) أى اعتقادى (٦) أى فهو ما أرجوه – وكثيراً ما يحذفون الجواب فى مثل هذا المقام .

ف خدمة ملوك بنى بويه ، فكان وزيراً لمؤيد الدولة . ثم لأخيه فخر الدولة ، وله فى ملكهما اليد المطلقة ، والأمر النافذ ، حتى مات سنة ٣٨٥ هـ . وكان مجلسه على تيهه وعجبه بنفسه آخر مجلس لوزير جمع بين العلماء والقراء والكتاب والمصنفين والمتكلمين والشيعة ، ولهم منه حظ موفور ، وله منهم لسان شكور .

ويعد ابن عباد فى الكتابة ثانى ابن العميد فى حلبته ، وأبلغ من سلك طريقته غير أنه أولع بالسجع والجناس ، ولا يعرف بعدهما من بلغ بشرف العلم والأدب مبلغهما ، ولا حل من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما .

وهو فى العلم من كبار المصنفين ؛ ومن أعظم مصنفاته الكثيرة كتابه (المحيط) فى اللغة فى سبع مجلدات أو عشر .

ومن رسائله ما كتب به إلى بعض السادة وقد أهدى إلى ابن عباد مصحفاً :

البرّ (أدام الله الشيخ) أنواع ؛ تطول به أبواع(١) ؛ وتقصر عنه أبواعٌ ، فإن يكن فيها ما هو أكرم منصباً وأشرف منسباً ، فتحفة الشيخ إذ أهدى مالا تشاكله النعمُ ، ولا تعادله القِيَم كتاب الله وبيانه ؛ وكلامه وفرقانه . ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ؛ طبع(٢) دون معارضته على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ؛ فقصر عنه الثقلان ؛ وبقى ما بقى الملوان ، لائح سراجه ؛ واضح منهاجه ، منير دليله ؛ عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد . وفضائل القرآن ، لا تحصى فى ألف قرآن(٣) ، فأصف الخط الذى بهر الطرف ؛ وفاق الوصف ، وجمع صحة الأقسام(٤) ، وزاد فى نخوة الأقلام ، بل أصفه بترك الوصف ، فأخباره آثاره ، وعينه فُراره(٥) ، وحقاً أقول : إنى لا أحسب أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا المصحف لزائد عن جميعها زيادةَ الفرْع على الغرّة ، بل زيادةَ الحج على العمرة .

---

(١) جمع باع (٢) ختم بالطابع أى لا يعارض (٣) القرآن الثانية بمعنى الجمع أى أن فضائله لا تحصى فى ألف كتاب جامع (٤) أى الأجزاء أى نسبة أجزاء الحروف . (٥) مصدر فر عن الأمر بحث عنه و (عينه فراره) مثل يضرب لما يدل ظاهره على باطنه .

فى خدمة ملوك بنى بويه ، فكان وزيراً لمؤيد الدولة ، ثم لأخيه فخر الدولة ، وله فى ملكهما اليد المطلقة ، والأمر النافذ ، حتى مات سنة ٣٨٥ هـ . وكان مجلسه على تيهه وعجبه بنفسه آخر مجلس لوزير جمع بين العلماء والقراء والكتاب والمصنفين والمتكلمين والشيعة ، ولهم منه حظ موفور ، وله منهم لسان شكور .

ويعد ابن عباد فى الكتابة ثانى ابن العميد فى حلبته ، وأبلغ من سلك طريقته غير أنه أولع بالسجع والجناس ، ولا يعرف بعدهما من بلغ بشرف العلم والأدب مبلغهما ، ولا حل من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما .

وهو فى العلم من كبار المصنفين ، ومن أعظم مصنفاته الكثيرة كتابه (المحيط) فى اللغة فى سبع مجلدات أو عشر .

ومن رسائله ما كتب به إلى بعض السادة وقد أهدى إلى ابن عباد مصحفاً :

البرّ (أدام الله الشيخ) أنواع ، تطول به أبواع[١] ، وتقصر عنه أبواعٌ ، فإن يكن فيها ما هو أكرم منصباً وأشرف منسِباً ، فتحفة الشيخ إذ أهدى مالا تشاكله النعمُ ، ولا تعادله القيِّم كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ، طبع[٢] دون معارضته على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الملوان ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد . وفضائل القرآن ، لا تحصى فى ألف قرآن[٣] ، فأصف الخط الذى بهر الطرف ، وفاق الوصف ، وجمع صحة الأقسام[٤] ، وزاد فى نخوة الأقلام ، بل أصفه بترك الوصف ، فأخباره آثاره ، وعينه فُراره[٥] ، وحقاً أقول : إنى لا أحسب أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا المصحف لزائد عن جميعها زيادةَ الفرْع على الغرّة ، بل زيادةَ الحج على العمرة .

---

(١) جمع باع (٢) ختم بالطابع أى لا يعارض (٣) القرآن الثانية بمعنى الجمع أى أن فضائله لا تحصى فى ألف كتاب جامع (٤) أى الأجزاء أى نسبة أجزاء الحروف . (٥) مصدر فر عن الأمر بحث عنه و (عينه فراره) مثل يضرب لما يدل ظاهره على باطنه .

أبو بكر الخوارَزْمِيّ

هو أبو بكر محمدُ بنُ العباس الخُوارَزْمِيّ الكاتب الشاعر اللغوى الأديب الرّحالة فخرُ خوارَزْم وصاحب الرسائل المشهورة .

ولد بخوارَزْم(١) ونشأ بها . وكان ضليعاً فى كل فن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر . جاب الأقطار ، ودخل الأمصار ، من الشام إلى أقصى خراسان ، فى استفادة العلم والأدب وإفادتهما . وكان كثيرَ الحفظ للشعر غزير مادة اللغة . قيل إنه قصد حضرة الصاحب بن عباد وهو بأرّجان ، فلما وصل إلى بابه . قال لأحد حجابه : قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول . فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال الصاحب : قل له قد ألزمت نفسى ألا يدخل علىّ من الأدباء إلاّ من يحفظ عشرين ألفَ بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ، فأذن له فى الدخول . فدخل عليه فعرفه وانبسط له .

---

(١) إقليم على بحر خوارزم المسمى الآن بحيرة أرال وما رواه ياقوت عن بعض متأخرى أدبائها وعن مستعجمى أهلها أنهم ينطقونها بضم الخاء ضمة مختلفة إلى الفتحة وأنه لا تحقيق الواو ولا للألف أى أنه ينطبق بهما كحرف (O) الفرنسى عدول عن التعريب الصحيح المطابق لقواعد النطق العربى ، ولذلك لم يقع فى شعر فصحاء الأدباء ، من أمثال الصاحب ابن عباد فى قوله :

أقول لركب من خراسان قافل ـ أمات خوارزميكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم

. فلو نطقت فى هذا الشعر كما ينطقها مستعجمو أهلها لاختل الوزن . والذى يدل على أن تحقيق الواو والألف هو أصل العربية ما رواه ياقوت نفسه عن شاعر عربى من بنى أسد فى أبيات :

وخافت من جبال السغد نفسى وخافت من جبال خوارزم

بلجرى الشاعر على أنها مركبة من كلمتين خوار بمعنى (لحم) ورزم بمعنى (حطب) فى قصة مروية عن قدماء أهلها ، فافهم ذلك وارفض كل تعريب لا يطابق الهجاء العربى .

وتقلب الخوارزمى فى خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، فى الدول المتفرعة عن الخلافة ، وجلهم يومئذ من الشيعة ، فاصطبغ بصبغة التشيع أيضاً ، حتّى ألقَى عصا التسيار بمدينة نيسابور[1] وطاب عيشه بها ، إلى أن مُنى فى آخر أيامه بمساجلة بديع الزمان الهمذانى ومناظرته ومناضلته ، وأعانه عليه قوم من أعيان البلدَة ووجوهها ، فانخذل انخذالاً شديداً ، وكسف باله . ولم يحلْ عليه الحول حتّى مات سنة ٣٨٣ ﻫ .

وكان الخوارزمىّ ممن يجرى على طريقة ابن العميد فى الكتابة متوخياً جزالة الألفاظ ، محتفلا بصحة المعانى ، مع ميل إلى الغريب .

ومن قصار رسائله ما كتبه إلى تلميذ له :

إن كنت (أعزّك الله) لا ترانا موضعاً للزيارة فنحن فى موضع الاستزارة ، وإن كنتَ تعتقدُ أنك قد استوفيتَ ما كان لدينا ، فسقط حقنا عنك وبَقِىَ حقك علينا ، فقد يزورُ الصحيحُ الطبيبَ بعد خروجه من دائه . واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعيةُ على باب الأمير المعزول ، فتتجمل له ولا تعيِّره عزلَهُ ولو لم تزرنا إلا لتُرينا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلا صائباً وفى القياس واجباً .

بديع الزمان الهمذانى

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الكاتب المترسل والشاعر المبدع ، حافظ عصره وأذكى دهره ، وقدوة الحريرى فى إنشاء المقامات ، وقريع الخوارزمى فى المبادَهات والمكاتبات .

نشأ بهمذان[2] ، ودَرَس العربيةَ والأدب ونبغ فيهما ، وضرب فى الأرض يتكسب بأدبه ، ثم أقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائةَ مقامة[3] بلفظ .

---

(١) كانت مدينة شهيرة من مدن خراسان دمرها التتار عند اجتياحهم الممالك الإسلامية فخربت ولم تعمر بعد (٢) مدينة شمال فارس (٣) أطلقت المقامة فى ذلك العصر على كل قصة خيالية أنشئت بعبارة مسجوعة غالباً محلاة بأنواع البديع ، مشتملة على كثير من الغريب .

رشيق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسجَ الحريرىّ . ثم شجر بينه وبين الخوارزمى ما كان سبباً فى هبوب ريحه وبعد صيته . إذ لم يكن فى الحسبان أن أحداً يجترئ على الخوارزمى .

وبموت الخوارزمى خلا له الجو عند الملوك والأمراء ، فجوّل فى حواضرهم ، ثم استوطن هراة[1] وصاهر أحد أعيانها العلماء ، فحسنت حاله ، ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ هـ .

وكان البديع أسرع أهل زمانه بديهةً ، وأكثر كتابته وشعره مرتجل . وكانت عبارته لينةً سهلةً قصيرة السجع ، تشهد بأن صاحبها لم يكدح فيها خاطره ، ولم يتعمل فى صنعها . وكان لحدّة ذهنه وغزارة مادته ، وتمكنه من صناعته ، تلقى عليه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال إلى العربية شعراً ، ويقترح عليه الكتابُ فيبتدئُ بآخر سطوره وينتهى بأوله ، ويخرجه كأحسن ما يكون .

(ومن كتابته ما كتبه موصياً وارث مال) :

وصلت رُقعتك يا سيدى والمصاب لعمر الله كبير . وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزة رشد كأنه الغىّ ، وقد مات الميت فليحى الحى ، فاشدّد على مالك بالخمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ (رحمه الله) وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد مولّك بما ألف بين سُراه وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجمُ الشيطان عُودك . فإن استلانه رماك بقوم يقولون : خير المال ما أتلف بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحباب والأحباب ، والعيش بين الأقداح والقداح ، ولولا الاستعمال لما أريد المال ، فإن أطعتهم فاليوم فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم واطرَبا للكأس ، وغداً واحربا من الإفلاس . يا مولاى ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً والجاهل نَقراً ، وذلك المسموع من الناى هو اليوم فى الآذان زمر ، وغداً فى الأبواب سمر ، والعمر مع هذه

---

[1] هى مدينة عظيمة ببلاد الأفغان قيل إن الإسكندر المقدونى هو الذى بناها .

الآلات ساعة ، والقنطار فى هذا العمل بضاعة ، وإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يمثلون لك الفقر حِذاء عينك، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ،وتناقش عرْسك ، وتمنع نفسك ، وتبوء فى دنياك بوزرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ! ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين ، لا منع ولا إسراف . والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ؛ وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه ، فليكن لله فى مالك قسط . وللمروءة قسم ، فصل الرحم ما استطعت ، وقدّر إذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقدير ، خير لك من أن تكون فى جانب التبذير .

ابن زيدون

هو الكاتب الشاعرُ ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومى الأندلسى . ولد سنة ٣٩٤ هـ . ونشأ فى مدينة قُرطبة[١] حيث كان أبوه من أعيان فقهائها ، وتأدب على كبار أئمتها . وقال الشعر وأجاده وحفظ من مشهور شعر القدماء والمحدثين ما جرى مجرى الأمثال ، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحكمها شيئاً كثيراً ، ولما نبه شأنه بين شعراء قرطبة وكتابها وأدبائها ، اتصل بأبى الحزم بن جَهْور أحد ملوك الطوائف ثم بابنه أبى الوليد بعده ، فحظى عنده ، ومدحه بالقصائد الطنانة ، وصدرت عنه فى دولته الرسائل البديعة، حتى أصبح لسان دولته الناطق ، وحُسامها المسلول . فحسده أعداؤه، وأفسدوا ما بينه وبين مليكه وأحس منه أبو الوليد بن جهور دالة عليه ، ظنها ممالأة لأعدائه فاعتقله . ومكث فى محبسه مدة استشفع فيها إليه بقصائد أبدعها ، ورسائل استنفد فيها جهده فما ألانت له قلباً . ولا ثنت له عطفاً، فأعمل الحيلة فى فراره من سجنه، وخلص إلى المُعْتَضد بن عبّاد ملك إشبيلية[٢] إذ كان أشد ملوك الطوائف رغبة فيه وأكثرهم تمسكاً بالأدب ،

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير بالأندلس . وكانت قاعدة الدولة الأموية ، وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم .

(٢) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير أيضاً بالغرب الجنوبى من الأندلس ولا تزال إلى الآن من أعمر مدنها .

كما كان أبسطهم رقعة ملك ، فألقى إليه مقاليد وزارته ، وأصبح صاحبَ أمره ونهيه ، وشريكه جدّه وأنسه .

ولما مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد كان له كما كان أبوه ، وأغدق عليه بره ونعمه . ومكث ابن زيدون على هذه الحال حتى مات بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ .

ولما كان ابن زيدون منذ نشأته مطبوعاً على الشعر غلبت ملكته عليه فى كثير من كتابته ؛ إذ كانت مجموعةَ أبيات منثورة ، وتلميحات إلى حوادث مشهورة ، وأمثال وحكم فى فقار غير مسجوعة غالباً ، سالكاً فيها طريق التهويل والمبالغة فى فُروضه وأقيسته وتشبيهاته ، وجرى على ذلك فى رسالتيه الهزلية التى كتبها على لسان وَلاّدَةَ بنت المستكفى يتهكم فيها بالوزير أبى عامر ابن عَبدوس ، والجدّية التى استعطفَ بها ابن جهور . كتابته

وقد شرحهما الأدباء وعنُوا بتفصيل ما فيهما من الأخبار والأشعار والحكم وتراجم الشعراء ، وأشهر تلك الشروح شرح ابن نُباته للهزلية ، والصفدى للجدّية . ولولا جمع هاتين الرسالتين لكثير من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسختْ شهرتُه بالكتابة عند المتأخرين شهرته بالشعر عند المتقدمين ، حتى كان يلقب عندهم ببحترىّ المغرب . ولا يقدح ذلك فى بلاغته ، وفصاحة عبارته ، فمقام الرجل فى سعة اطلاعه ، وسرعة خاطره ، أشهر من أن يُنوّه به ، فقد قيل إنه دفن بنتاً له ووقف ليشكر الناس ، لتشييع جنازتها ، فما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، وتلك غاية لا تدرك فى القدرة على صناعة الكلام :

ومن فصوله فى الرسالة الجدية :

هذا العتبُ محمودٌ عواقبه ، وهذه النبوة[1] غَمرة[2] ثم تنجلى ، وسحابة

---

(١) الجفوة (٢) أصلها من غمرة الماء ، تستعمل فى كل كربة تعترى المرء.

صيف عن قليل تقشّع(١)، ولن يَريبنى(٢) من سيدى أن أبطأ سَيْبُه(٣)، أو تأخرَ — غيرَ ضنين — غَناؤُه(٤) فأبطأ الدِّلاء(٥) فيضاً أملؤُها، وأثقل السحائب مشياً أحفلها(٦)؛ وأنفع الحيا(٧) ما صادف جدْباً؛ وألذ الشراب ما أصاب غليلاً(٨). ومع اليوم غدٌ، ولكل أجل كتابٌ؛ له الحمد على اهتباله(٩)؛ ولا عَتبَ عليه فى إغتفاله(١٠).

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً ... فأفعاله اللائى سررْن ألوف(١١)

القاضى الفاضل

هو أبو على عبد الرحيم البيسانى(١٢) اللَّخمى(١٣)، كاتب الديار المصرية، وصاحبُ الطريقة الفاضلية والكتابة البديعية. ولد بمدينة عسقلان(١٤) سنة ٥٢٩ وتعلم على أبيه(١٥) وغيره، ولما شدا من العربية شيئاً قدم مصرَ وهو شابٌ أواخرَ الدولة الفاطمية، لتعلم الكتابة والخدمة فى الديوان؛ وتوجه إلى ثغر الإسكندرية. وتعلم فى ديوان ابن حديد قاضيها وكاتبها. وظهر فضله فيما كان يرسله إلى القاهرة من الرسائل، فاستقدم أيام الظافر إليها؛ وكان من كتاب ديوانه، ولازم خدمة أكابر القضاة والكتاب فى الديوان وأخذ عنهم وحاكاهم.

ولما سقطت الدولة الفاطمية تولى وزارة صلاح الدين بن أيوب، وكان يتردد بين مصر والشام فى الحروب الصليبية، ودبر المملكة أحسن تدبير. وبقى فى الوزارة حتى مات صلاح الدين، فوزر لابنه العزيز على مصر، ثم وزر من بعده لأخيه الأفضل، ومات سنة ٥٩٦ هـ.

---

(١) تزول (٢) يرقبنى فى الريب وسوء الظن (٣) عطاؤه وعرفه والمراد به هنا الرضا والعفو (٤) نفعه ومعروفه (٥) جمع دلو (٦) أملؤها (٧) المطر (٨) شدة العطش (٩) الاحتبال الاغتنام أى على اغتنائه منه نعمته السابقة. (١٠) أى إهماله لى (١١) البيت للمتنبى وواحداً خبر يكن (١٢) نسبة إلى بلدة بفلسطين (١٣) نسبة إلى قبيلة لخم اليمانية (١٤) بلدة على ساحل فلسطين شمال غزة، وهى خربة الآن (١٥) هو قاضى عسقلان بهاء الدين على البيسانى.

وكان خيّراً . ديناً محسناً . وفيّاً . مغرماً بجمع الكتب . وبلغ عدد ما جمعه من أقطار الأرض منها نحو مائة ألف مجلد . ومهر القاضى الفاضل فى الكتابة ، وطوّح به استقلاله فيها إلى توليد طريقة غريبة . أخذ أصولها عن بعض كتاب الشام والعراق ومصر . فجعل أصولها السجع الطويل غالباً . والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتوجيه . وغالى جدّاً فى التورية والجناس . فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعية محضة . تجرى مع مناسبات الألفاظ أكثر من جريانها مع إصابة الغرض والبلاغة . وكانت كتابة القاضى الفاضل مع كل هذه القيود بليغة فى ذاتها لسعة اطلاعه وغزارة مادته . وسرعة بديهته . وصفاء خاطره . إلا أن طريقته خدعت بعده كتاب مصر والشام ، وغرّبت إلى الأندلس . فتكلف الجرى عليها كل قليل البضاعة من الأدب ، معتمداً على تعمل البديع الذى لا يكلف صاحبه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعاً منه . فظهرت سيئات هذه الطريقة فى العصور التى تلت عصره .

وكتب من رسالة يصف قلعة فتحت : هى نجم فى سحاب وعُقاب فى عِقاب [١] وهامة . لها الغمامة عمامة . وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة [٢] عاقدة حُبْوة [٣] صالحها الدهر ألا يخلها بقرعة [٤] ، بادية عصمة صافحها الزمن على أن يروعها بخلعة [٥] . فاكتنفت بها عقاب منجنيقات لم تطبع حمص فى العقارب ، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة فى الأقارب [٦] . فلم يكن غير ثلاث إلا وقد أثرت فيها الحجارة جُدَرِيّاً بضربها . ولم تصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها ، فاتسع الخرق على الراقع ، وسقط سعده عن الطالع ، إلى مولد من هو إليها طالع ، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً .

---

(١) جمع عقبة (٢) ما يقص من الظفر (٣) الحبوة : أن يجمع الأعرابى بين ظهره وساقيه فى جلوسه بثوب أو عمامة وهى جلسة مريحة (٤) بحادثه (٥) الخلع نوع من الطلاق (٦) أى أن حجارة المنجنيقات تضرب حجارة القلعة .

وكان خيِّراً . ديناً محسناً . وفيَّاً . مغرماً بجمع الكتب . وبلغ عدد ما جمعه من أقطار الأرض منها نحو مائة ألف مجلد . وبهر القاضى الفاضل فى الكتابة وطوّح به استقلاله فيها إلى توليد طريقة غريبة . أخذ أصولها عن بعض كتاب الشام والعراق ومصر . فجعل أصولها السجع الطويل غالباً . والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتوجيه . وغالى جداً فى التورية والجناس . فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعية محضة . تجرى مع مناسبات الألفاظ أكثر من جريانها مع إصابة الغرض والبلاغة . وكانت كتابة القاضى الفاضل مع كل هذه القيود بليغة فى ذاتها لسعة اطلاعه وغزارة مادته . وسرعة بديهته . وصفاء خاطره . إلا أن طريقته خدعت بعده كتاب مصر والشام ، وغرّبت إلى الأندلس . فتكلف الجرى عليها كل قليل البضاعة من الأدب . معتمداً على تعمل البديع الذى لا يكلف صاحبه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعاً منه . فظهرت سيئات هذه الطريقة فى العصور التى تلت عصره .

وكتب من رسالة يصف قلعة فتحت : هى نجم فى سحاب وعُقاب فى عِقاب [١] وهامة . لها الغمامة عمامة . وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة [٢] عاقدة حُبْوة [٣] صالحها الدهر ألا يحلها بقرعة [٤] ، بادية عصمة صافحها الزمن على أن يروعها بخلعة [٥] . فاكتنفت بها عقاب منجنيقات لم تطبع حمص فى العقارب . وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة فى الأقارب [٦] . فلم يكن غير ثلاث إلا وقد أثرت فيها الحجارة جُدَرِيَّاً بضربها . ولم تصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها ، فاتسع الخرق على الراقع . وسقط سعده عن الطالع . إلى مولد من هو إليها طالع ، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً . وسيرت الجبال فكانت سراباً .

---

(١) جمع عقبة (٢) ما يقص من الظفر (٣) الحبوة : أن يجمع الأعرابى بين ظهره وساقيه فى جلوسه بثوب أو عمامة وهى جلسة مريحة (٤) يحادثه (٥) الخلع نوع من الطلاق (٦) أى أن حجارة المنجنيقات تضرب حجارة القلعة .

التدوين والتصنيف

كانت الحاجة إلى التدوين قد اشتدت فى مبدإ الدولة العباسية لاتساع ممالك الإسلام ، ولدخول كثير من الأمم المتحضرة فيه ، ولتعدد الوقائع والحوادث التى لم يكن لها نظير فيما سبق من السنة . فهب العلماء إلى تهذيب ما كتب فى الصحف المتفرقة ، وما حفظوه فى الصدور . ورتبوه وبوّبوه وصنفوه كتباً. وكان من أقوى الأسباب لإقبال العلماء على التصنيف حث الخليفة أبى جعفر المنصور عليه وحمله الأئمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه ، وبذله فى سبيل ذلك الأموال الجزيلة . ولم يقتصر على معاضدة العلوم الإسلامية بل أوعز إلى العلماء والمترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا إلى العربية من الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والتنجيم والآداب ، وتابعه فى ذلك أولاده وأحفاده ، حتى زَخرت بحور العلم واختُرعت الفنون وتفرعت المسائل ؛ ودوّنت الكتب فى كل فنّ .

وانقسمت بذلك العلوم قسمين عظيمين :

(ا) العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية .

(ب) العلوم الكونية والمنقولة .

ولكل من هذين فى نشأته طريق محدودة ، ورجال معدودة . ويعتبرون أن سنة ١٤٣ هـ . هى مبدأ النهضة العلمية العربية(١) .

كتابة التصنيف والتدوين

وكانت كتابة التصنيف والتدوين فى القرن الأول وبعض الثانى من النهضة عبارة عن سلسلة من الروايات المسندة إلى رواياتها من أحاديث نبوية ، أو أقاويل صحابة ، أو فتاوى فقهاء ، أو أشعار أعراب ، أو أخبار فتوح ، أو نوادر

(١) وهى السنة التى حج فيها المنصور والتقى فى المدينة بمالك بن أنس وأمره بتأليف كتاب الموطأ فى الفقه والحديث وعند رجوعه إلى الأمصار أوعز بنفسه وبولاته إلى العلماء بتدوين الكتب فى كل فن ، وكان أكثرهم يحجم عن التأليف تورعاً وخوفاً من الزلل ومن أن علمهم قد يفضى على طول الزمان إلى تحريف الدين وخلطه بآراء الناس .

أو غير ذلك . وبعضها يروى بلفظ أصحابها غالباً كما فى الشعر والخطب والرسائل ، وبعضها بلفظ الراوى كما فى أخبار الفتوح والتاريخ والقصص . ثم ظهرت بعد ذلك فى العلوم الشرعية واللسانية طبقات الاستنباط والتعليل والتفريع ، والشرح والاختصار ، وجمع الفروع تحت كليات عامة ، فلم يكن للمؤلفين بدٌّ من حذف أسانيد الروايات وترك المحافظة على نقلها بلفظها إلا فى الحديث ونحوه .

أما كتب العلوم المترجمة فكانت عبارتها هى تفسير ألفاظها الأعجمية بالعربية ، ولم تكن ترجمتها جيدة فى عهد المنصور ، ثم صُحِّحت ترجمتها فى زمن الرشيد والمأمون . ثم لما أتقن كثير من فلاسفة المسلمين هذه العلوم كتبوا فيها بعبارتهم وكانت أول أمرها بليغةً مفهومةً ، ثم عموْها على بعض الفقهاء المكفرين لهم والمغرين الأمراء والسلاطين بقتلهم ، حتى أصبحت عبارة كتب الفلسفة والتوحيد أصعبَ ما يقرأ باللسان العربى .

العلوم اللسانية ونشأتها

العلوم اللسانية هى الأدبُ ، والتاريخ ، والعروض ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة

الأدب

علم الأدب بالمعنى الذى ذكرناه فى أول الكتاب يمتاز من بقية العلوم الصناعية ذوات القواعد كالنحو والبلاغة ، ومن التاريخ وفروعه ، وإن كان يتوقف على الإلمام بها ، وكانت كتبه أول هذا العصر رسائل يبحث كلٌّ منها فى ضرب خاصٍّ من ضروبه ، كرسائل ابن المقفع ورسائل سهل بن هرون[1] فى الأخلاق ، وكتاب النوادر وكتاب الأراجيز ، وكتاب الشعر للأصمعى ، وكتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة[2] ، وإذا تابعنا من يقول إن ابن المقفع هو الذى ابتدع كتاب كليلة ودمنة ونحله الهند والفرس

---

(١) هو أحد الكتاب والمؤلفين من أبناء الفرس وكان شعوبياً يتفلسف ويفضل البخل على الجود ، وخدم فى دولة المأمون بالترجمة والتأليف والقيامة على الكتب (٢) هو معمر بن المثنى أحد أئمة العربية وقرين الأصمعى فى المنزلة والتلمذة للخليل . وكان شعوبياً أيضاً توفى سنة ٢٠٩ .

كان هذا الكتاب أول كتاب ظهر فى الأدب العربى الخاص بموضوع واحد وأول كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة منه : كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ، واقتفى أثره أحمد بن طيفور(١) فى كتابه العظيم المنظوم والمنثور فى أربعة عشر جزءاً ، ثم أبو العباس محمد المبرّد(٢) فى الكامل والروضة ، ثم أبو حنيفة الدّينورى(٣) ، وأبو بكر محمد الصّولى(٤) وابن قتيبة(٥) صاحب أدب الكاتب ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبو على القالى(٦) صاحب الأمالى ، وأبو الفرج الأصبهانى(٧) صاحب الأغانى ، وغيرهم .

ومن أشهر المؤلفين فى الأدب الجاحظ وأحمد بن عبد ربه والحريرى وها هى ذى تراجمهم .

الجاحظ (٨)

هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة .

ولد حوالى سنة ١٦٠ بمدينة البصرة ، ونشأ بها فتناول كلّ فن ، ومارس كل علم عرف فى زمانه ، مما وضع فى الإسلام ، أو نقل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال ، فهو راوية ، متكلم ، فيلسوف ، كاتب ، مصنف ، مترسل ، شاعر ، مؤرخ ،

(١) هو من تلاميذ الجاحظ توفى سنة ٢٨٠ ويوجد من كتابه هذا ثلاثة أجزاء فى دار الكتب المصرية

(٢) أخذ العلم من تلاميذ الأصمعى وكان إمام البصريين فى زمنه وكتابه الكامل من خير كتب الأدب المطبوعة وتوفى سنة ٢٨٥ هـ

(٣) هو أعلم علماء النبات وكتاب النبات له من أمهات كتب هذا الفن وله غيره تأليفات كثيرة فى الأدب وتوفى سنة ٢٨٢ هـ

(٤) من كبار مؤلفى الأدب وظرفاء الندماء وألعب أهل زمانه بالشطرنج توفى سنة ٣٣٥

(٥) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم من كبار الأدب وأئمة اللغة والنحو توفى سنة ٢٧٦ هـ

(٦) كان من كبار أدباء المشرق رحل إلى خلفاء بنى أمية بالأندلس وحظى عندهم وأصله من قالى بأرمينية توفى سنة ٣٥٦ هـ

(٧) هو على بن الحسين من سلالة بنى أمية وكتابه الأغانى أشهر من أن يذكر توفى سنة ٣٥٦ هـ

(٨) يسمى الجاحظ والحدقى أيضاً لجحوظ حدقتى عينيه وكان دميم الوجه .

عالم بالحيوان والنبات والموات ، وصّافٌ لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران: الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة ، والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة ، فهو أول من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان وغيرهما .

وكان غاية فى الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة ، إلى دعابة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس أنفسهم وينتحلونه : من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية ، وعدم مبالاة بوقوع المتورعين فيه . وكان سمحاً جواداً كثير المواساة لإخوانه . وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكِه المجلس ، غاية فى الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام . وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم ، وإحدى حجج اللسان العربى .

فصاحته وكتابته

قرأ الجاحظ أكثر الكتب المعروفة فى زمنه إسلامية ومنقولة ، فاستخلص بذكائه العجيب من كل ذلك علوماً جمة ، فألف أشتاتها على تنافرها ، ونسَّق ضرُوبها مع تضاربها ، فتطامن له بلطفه شامخها ، وانقاد له بحسن رياضته حَرُونها فتهيأ لملكته منها جملة مطاوعة لإرادته يستنبط منها ما شاء ، ويُصرّفها أنّى شاء . وانتحل لنفسه من طرق البلغاء والمصنفين طريقة كان أبا عُذرتها ، وابن بَجْدتها[1] وهى طريقته التى تحبب القراء فى القراءة بتوخى التصنيف فى الموضوعات الشهية اللذيذة ، أو التى لم يسبق إليها كاتب ، أو الأمور الحقيرة التى لا يخطر على البال أن يؤلف فيها كلام ، مع سهولة عبارة ، وجزالة لفظ ، وإطناب غير ممل : باستعمال كثير من مترادف الألفاظ والجمل العذبة ، واستطراد مروّح على النفس : بإيراد طريف الأخبار والنوادر ، ومزج للجد بالهزل ، واستقصاء وتغلغل فى وصف ما يعنى بشرحه أو الاحتجاج له ، وتلطف لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر .

(١) يقال فلان أبو عذرة هذا الأمر أى أول من سبق إليه ، وابن بجدة هذا الأمر أى العالم به .

وأقام الجاحظ أكثر عمره بالبصرة يعيش معيشة الأدباء والعلماء ، محبوباً لولاتها وأعيانها ، محبواً منهم بالعطايا والمنح ، بما يصنفه لهم من الكتب المتفقة مع أهوائهم المختلفة ، وتكسب قليلاً بالكتابة فى ديوان السلطان زمن وزارة ابن الزيات ، وكان كثير الانتجاع للخلفاء والوزراء ورجال الدولة ببغداد وسر من رأى ، حتى فلج بالبصرة ، وبقى بها مفلوجاً مدة إلى أن انتقل إلى بغداد فمات بها ودفن بمقبرة الخيزران[١] سنة ٢٥٥ هـ ، وله أكثر من مائتى كتاب ، طبع منها فى مصر كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء ، وكتاب التاج (فى أخلاق الملوك) ومجموع لبعض رسائله .

أحمد بن عبد ربه

هو أديب الأندلس وشاعرها أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد .

ولد رحمه الله تعالى سنة ٢٤٦ هـ ، ونشأ بمدينة قرطبة . ودرس علوم العربية من الشعر والأخبار والملح والنوادر والتاريخ واللغة والنحو ، فنبغ فى جميعها ، وحفظ منها ما لم يحفظه أحد من علماء زمانه ، وقرأ رسائل المحدثين من المشارقة وما ترجم من كتب الأوائل فى أكثر العلوم ، وأودع زبدة ذلك كتابه العقد الفريد .

وكان رحمه الله يشتغل فى حداثته بالشعر ويجرى فى مضمار اللهو والطرب ، ونظم فى ذلك من القصائد والمقطعات الرقيقة الجميلة ما جعل المتنبى — على صلفه وكبره — حين سمع شعره يسميه (مليحَ الأندلس). ثم أقلع فى كبَره عن صبوته ، وأخلص لله فى توبته ، فاعتد أشعاره التى قالها فى الغزل واللهو عملاً باطلاً ، وعمل على أعاريضها وقوافيها قصائد فى الزهد يعارضها وسماها الممحصات. ونال من خلفاء بنى أمية بالأندلس دنيا عريضة ، وحل عندهم فى المكان الأسمى . وبقى بقرطبة رئيساً مسوّداً حتى فلج ، وعاش كذلك عدة سنين ، ثم مات بها سنة ٣٢٨ هـ .

(١) الخيزران هى أم الرشيد .

كتاب العقد الفريد

لا يختلف اثنان فى أن كتاب العقد الفريد من أجمل كتب الأدب العربى ، وأرباها فائدة ، وأصدقها خبراً ، وأحسنها تبويباً وتفصيلاً .

اقتصر مؤلفه فى أكثره على جمع أخبار المشرق ، وأخبار كتابه وأدبائه ليتحف بها أهل وطنه ؛ إلا أن اشتهاره وجزالة فائدته لم يقفا به عند هذا الحد ؛ بل رجع إلى المشرق وعدّ من أركان الأدب بين كتبهم ؛ فأقبلوا على دراسته والاقتباس منه . ولا سيما متأخريهم . وأما منزلة الكتاب بيننا الآن فهو أستاذ كل متأدب فى عصرنا هذا . ولبث الناس فى نصف القرن الماضى وقلما كانت لهم فى الأدب والكتابة مادّةٌ سواه . وسوى مقدمة ابن خلدون ؛ لسبقهما فى الطبع والنشر أكثر الكتب . ولولا أنهما وقعا محرّفين فى جميع مرار طبعهما لقلّ أن يفضلهما كتابُ أدب طبع إلى الآن .

وللعقد الفريد فوق هذا مزيةٌ لا يعدله فيها سواه . وهى جمعه لكثير من الرسائل والخطب والقصص والفوائد التاريخية التى بادت الأصول المأخوذة هى عنها ، وبقيت مخلّدةً فيه : مثل مشاورة المهدى لأهل بيته ، وخطب الوفود وغير ذلك ؛ ويؤخذ عليه بعضُ هفوات صغيرة فى نقله بعض أخبار المشرق بلا تحقيق ؛ وعذره فى ذلك مقبول .

الحريرىّ

هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى الكاتب الشاعر اللغوى النحوى ، صاحب البدائع المأثورة ؛ فى مقاماته المشهورة .

وهو عربى الأصل ينتسب فى ربيعة الفرَس . ولد سنة ٤٤٦ بمشان البصرة وسكن محلةَ بنى حرَام بمدينة البصرة فنسب إليها ، وانقطع لتعلم اللغة والنحو والأدب حتى صار نادرة زمانه فيها ، وامتاز بصناعة الإنشاء البديعى . فحاكى بديع الزمان الهمذانى فى عمل المقامات ، وأنشأ خمسين مقامة ، أتى فيها على كثير

من موادّ اللغة وفنون الأدب ، وأمثال العرب وحكمها ، وبعض مسائل العلوم الدقيقة ، بعبارة مُسجعة مزينة بأنواع البديع ، ولا سيما الجناس ، ترغيباً للطلاب فى حفظ اللغة وأدبها وتفكيهاً لهم بقراءتها . ونحل وقائعها أبا زيد السَّروجى ، وهو أعرابىٌّ فصيحٌ من سَرُوج[1] كان قد قدم البصرة وأعجب به علماؤها ، وسمى راويها عنه الحارث بن همام ، يريد نفسه ، وأهداها إلى الوزير جمال الدين بن صَدَقة وزير المسترشد العباسى ، فأصبحت هذه المقامات أمثل مثال يحتذى فى الكتابة البديعية التى غلبت الكتاب فى أواخر العصر العباسى ، وتوارثها من بعدهم إلى قُبيل عصرنا الحاضر ، وإن لم يستطيعوا الإجابة فيها وقد شُرحت المقامات عدّة شروح ، وترجمت إلى عدة لغات . وغاية ما أخذه كتاب الإفرنج عليها وحدة مغزاها ، وأن أكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة . كالشحاذة والاستجداء .

وللحريرى العذر فى ذلك ، لأن فرض روايتها عن الأعراب (وهم كانوا لا يقدمون المدن إلا منتجعين مستجدين) يجعل خياله مقبولاً .

وله غير المقامات شعرٌ كثير ورسائل بديعة وكتب فى النحو واللغة : منها كتابه درّة الغواص فى أوهام الخواصّ ، وملحة الإعراب فى النحو . وتوفى بالبصرة سنة ٥١٥ هـ .

فن التاريخ

قدمنا أن أول ما وضع فى التاريخ باللغة العربية هو الكتاب الذى وضعه عُبيد بن شَرِيَّة لمعاوية رضوان الله عليه ، وفى صدر الدولة العباسية وضع كثيرٌ من العلماء كتباً فى التاريخ بأقسامه التى من أشهرها :

١ — فن السير والمغازى — وأشهر من ألف فيه من الأوائل محمد بن إسحاق[2] .

٢ — فن الفتوح — وأشهر من ألف فيه منهم الواقدى[3] والمدائنى[4] وأبو مِخْنَف[5] .

---

(١) بلدة كانت بالجزيرة الفراتية (٢) توفى سنة ١٥١ هـ (٣) هو أبو عبد الله محمد ابن عمر بن واقد مولى بنى هاشم توفى وهو قاض ببغداد سنة ٢٠٧ هـ (٤) المؤلف الثقة أبو الحسن على بن عبد الله المدائنى توفى سنة ٢٢٥ هـ (٥) هو لوط بن يحيى المؤرخ الأخبارى توفى سنة ٢٥٧ هـ .

٣ – فن طبقات الرجال – وأشهر علمائه القدماء ابن سعد[1] كاتب الواقدى والبخارى .

٤ – فن النسب – وأشهر كبار علمائه الكلبى[2] وابنه .

٥ – فن أخبار العرب وأيامهم – وأشهر علمائه أبو عبيدة والأصمعى .

٦ – قصص الأنبياء وكتب فيه كثيرون .

٧ – تاريخ الملوك – ومن أقدم من كتب فيه ابن قتيبة والهيثم بن عدى[3] وابن واضح اليعقوبى[4] ثم شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبرى[5] الجامع كتابه هذه الفنون السابقة مرتباً على حسب السنين الهجرية ، وحاكاه بعده ابن الأثير[6] علىّ فى تاريخه الكامل .

العروض والقافية

أوّل من اخترع علم العروض الخليلُ بن أحمد من غير سابقة تعلم على أستاذ أو تدرّج فى وضع ، بل ابتدعه جملة واحدة وحصرَ فيه أوزان العرب فى خمسة عشر بحراً ، وزاد عليه تلميذُ تلميذه الأخفش بحراً آخرَ ، ثم لم يزد عليهما أحد ممن تأخر عنهما شيئاً يُعتدّ به .

أما القافية فقد كان العلماء قبل الخليل يتكلمون فيها ، ولكن الخليل هو أول من فصّل الكلام فيها وجعلها علماً مدوناً .

النحو

جاءت الدولة العباسية والنحو علم يدْرَس فى المساجد بالبصرة والكوفة ، ولكن البصريين سبقوا الكوفيين فى الاشتغال به ، كما سبقهم الكوفيون فى الاشتغال بالشعر وعلم الصرف .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن منيع الزهرى توفى سنة ٢٣٠ هـ . (٢) هو أبو نصر محمد بن السائب النسابة المفسر توفى سنة ١٤٦ هـ . وابنه هو النسابة أبو المنذر هشام بن محمد توفى سنة ٢٠٤ هـ (٣) هو أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدى الراوية المؤرخ توفى سنة ٢٠٦ هـ

(٤) هو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الرحالة توفى سنة ٢٧٨ هـ

(٥) توفى سنة ٣١٠ هـ (٦) توفى سنة ٦٣٠ هـ

ومن أكبر الأئمة الذين اشتغلوا بالنحو وهذبوه وفصلوه من البصريين أبو عمرو ابن العلاء[١] ، وتلميذه الخليل ، وتلميذ الخليل سيبويه صاحب أول كتاب عظيم جامع وضع فى النحو ؛ ثم بعده الأخفش[٢] تلميذ سيبويه وشارح كتابه . ومن الكوفيين مُعاذ الهرّاء[٣] والرؤاسى[٤] وتلميذهما الكسائى وتلميذه الفرّاء[٥] .

ثم لما زخرت بغداد بالعلوم وكثرت الفتن بالبصرة والكوفة . هاجر منهما إليها كثير من العلماء امتزجت مذاهبهم وتكوّن منها مذهب بغدادى جديد . وكذلك اختار الأندلسيون لأنفسهم مذهباً رابعاً[٦] . وكل هذه المذاهب مقتبسة إما من مشافهة الأعراب الفصحاء ؛ أو من مدارسة دواوين شعرهم ، أو من مدارسة القرآن الكريم . وفى النحو والصرف ما لا يحصى من الكتب : مطولات ومختصرات . وهو من العلوم التى نضجت وأينعت .

علم اللغة

ويسمى متن اللغة . ونعنى به معرفةَ معانى ألفاظها المفردة . وأوّل ما وضع الأئمة فيه رسائلُ وكتبٌ صغيرةٌ فى موضوعات خاصة : كالألفاظ المتعلقة بخلق الإنسان أو الجمل أو الفرس أو النخلة أو السيف . فلما ظهر الخليلُ أحصى ألفاظ اللغة بطريقة حسابية فى كتاب . ورتبه على حروف المعجم . مقدّماً حروفَ الحلق ومبتدئاً منها بالعين . ولذلك سمى معجمة « كتاب العين »

(١) هو الحجة الثبت اللغوى النحوى الراوية واسمه كنيته . توفى سنة ١٥٤ هـ

(٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط توفى سنة ٢١٥ هـ

(٣) هو أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء واضع علم الصرف وأقدم نحاة الكوفة . توفى سنة ١٨٧ هـ

(٤) هو أبو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسى الكسائى والفراء وأول من ألف فى نحو الكوفيين

(٥) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء إمام النحاة الكوفيين والبغداديين توفى سنة ٢٠٧ هـ

(٦) لم يتكون مذهب الأندلسيين إلا بعد أن قلت رحلاتهم إلى المشرق فى القرن الرابع وما بعده لكثرة الفتن فيه ولكساد سوق العلم عند ملوكه من الأعاجم وفساد السليقة فى الجزيرة . وكان الأندلسيون قد نقلوا من ألسنة وكلام العرب الكثير الجم فعكفوا عليه واستدركوا على المشارقة ما فاتهم من قواعده ، وعدلوا عن بعض آرائهم فيه . وحفظوا تراثه لأهل العربية زمناً كاد يصفر الشرق من أهله أواخر العصر العباسى والعصر الذى بعده . ومن أشهرهم فى هذا العصر ابن سيده وابن خروف وابن عصفور والأعلم الشنتمرى وابن الصائغ .

ثم ألف أبو بكر بن دُرَيد[١] معجمه العظيم الذى سماه الجمهرة مرتباً له على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن . وأدرك عصره الأزهرى[٢] فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل ثم وضع الجوهرى[٣] كتابه المسمى بالصحاح على ترتيب الجمهرة ، وابن سيده[٤] الأندلسى كتابه المحكم على ترتيب الخليل ، وابن فارس[٥] كتابه المجمل ، والصاحب بن عباد كتابه المحيط . وهذه هى أصول كتب اللغة . وما بعدها : من العباب والتكملة ومجمع البحرين للصاغانى[٦] والنهاية لابن الأثير[٧] ، ولسان العرب لابن مكرّم[٨] ، والمصباح للفيومى[٩] والقاموس للفيروزابادى[١٠] فهو جمع لها أو اختصار منها .

علوم البلاغة

المعانى والبيان والبديع

لم يصنف العلماء فى هذه العلوم إلا بعد أن فرغوا من تدوين العلوم التى تحفظ الكلام العربى من حيث إعرابه وتصريفه ومادته ، فلما أتموا ذلك بحثوا فى بلاغة الكلام .

ويظهر أن أول كتاب دوّن فى هذه العلوم كان فى علم البيان وهو كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة تلميذ الخليل ، ثم تبعه العلماء . ولا يعلم أول من ألف فى المعانى بالضبط . وإنما أثر فيها كلام عن البلغاء ؛ وأشهرهم الجاحظ فى إعجاز القرآن وغيره . وأول من دوّن كتباً فى علم البديع ابنُ المعتز وقُدَامة

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى توفى سنة ٣١١ هـ (٢) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر المتوفى سنة ٣٧٠ هـ (٣) هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى فى حدود سنة ٤٠٠ هـ

(٤) هو أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسى الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

(٥) هو أبو الحسين أحمد فارس الرازى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ

(٦) هو أبو الفاضل رضى الدين الحسن بن محمد الصاغانى الرحالة المتوفى سنة ٦٥٠ هـ

(٧) هو أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ

(٨) هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المشهور بابن منظور أيضاً توفى سنة ٧١١ . وهو من أهل العصر التالى .

(٩) هو أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ من أهل العصر التالى .

(١٠) هو أبو طاهر مجد الدين بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٦ هـ من أهل العصر التالى .

ابن جعفر (١). وقبل ذلك كان البديع يستعمل فى الشعر عملاً . وبقيت هذه العلوم تتكامل ويزيد فيها العلماء حتى جاء فحلُ البلاغة عبدُ القاهر الجرجانى (٢) فألف فى المعانى كتابه دلائل الإعجاز ، وفى البيان كتابه أسرارَ البلاغة ، وجاء بعده السكاكى (٣) فألف كتابه العظيم مفتاح العلوم ، فبسط مسائل البلاغة بما لم يزد عليه غيره فيها شيئاً كبيراً من أصول الفن .

الخليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى الأزدى البصرى نابغة العرب ، وسيد أهل الأدب ، ومخترع العروض ، ومبتكر المعجمات ، وصاحب الشكل العربى المستعمل الآن .

ولد سنة ١٠٠ هـ بالبصرة ونشأ بها ، وأخذ العربيةَ والحديث والقراءة عن أئمة زمانه ، وأكثرَ الخروج إلى البوادى ، وسمع الأعراب الفصحاء ، فنبغ فى العربية نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه ، وكان غاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، فبسطه وفرّع على أصوله وجعله علماً مضبوطاً ، ولقن ذلك تلميذه سيبويه فكان كتابه الذى يعتبر أصل كل كتاب فى النحو معقوداً أكثره بلفظ الخليل . والخليل هو الواضع للشكل المستعمل الآن فى ضبط الحروف .

ومما يشهدُ له بحدّة الفكر وبعد النظر اختراعه العروض علماً كاملا لم يحتج إلى تهذيب بعده ، وابتكارُه طريقة تدوين المعجمات بتأليف كتاب العين ، وتدوينه كتاباً دقيقاً فى الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية أو اشتغال بلهو وزاد فى الشطرنج قطعة سماها جملاً لعبَ بها الناسُ زمناً . وبقى الخليل مقيماً بالبصرة طول حياته زاهداً متعففاً متقشفاً مكبًّا على العلم والتعليم حتى مات سنة ١٧٠ هـ ويقال فى سبب موته إنه قال أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضى به الجارية إلى البقال فلا يظلمها ، فدخل المسجدَ وهو يعمل فكره فاصطدم فى سارية صدمة شديدة ارتج منها دماغه ، واعتل من ذلك ومات رحمه الله تعالى .

---

(١) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣١٠ هـ

(٢) هو أبو بكر عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ

(٣) هو أبو يعقوب سراج الدين يوسف السكاكى الخوارزمى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ

سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر إمامُ البصريين وحجة النحويين وصاحب الكتاب شيخ الكتب[١].

ولد بالبيضاء من سُلالة فارسية ونشأ بالبصرة . وكان يطلب أوّل أمره الحديث والفقه ، فعيبتْ عليه لحنةٌ لحنها فى مجلس شيخه فخجل وطلب النحو ولازم الخليل . وأخذ عن غيره أيضاً . وكان الخليل يُؤثره على أصحابه . فدوّن جميعَ ما أخذه عنه ونقله عن غيره فى كتابه الذى لم يُجمع قبله مثله . ولولا هذا الكتابُ الذى رواه عنه وشرحه تلميذه الأخفش ما كان لسيبويه خبرٌ يشهر : لوفاته كهلاً ولقلة من أخذ عنه هذا الكتابَ ؛ ولأنهُ لا يُعرف له كتاب غيره . وبحسبك هو . ولما أحس فضل معرفته فى النحو وأنه أصبح شيخَ البصريين . خرج إلى بغداد وافداً على البرامكة ؛ فجمعه يحيي بن خالد بالكسائى شيخ الكوفيين ؛ فتناظرا فى مجلس أعدّ لذلك . فكان من مسائل المناظرة أن سأله الكسائى : ما تقول فى قول العرب : (كنت أظن أن العقربَ أشدّ لسعةً من الزّنبور فإذا هو هى . أو فإذا هو إياها) فقال سيبويه : فإذا هو هى ، ولا يجوز النصب ، فقال الكسائىّ : العربُ ترفع ذلك وتنصبه ؛ واشتد بينهما الخلافُ وتحاكما إلى رُواة الأعراب بباب يحيي فقضَوْا للكسائى . فاستكان سيبويه ، فقال الكسائى ليحيي (أصلح الله الوزير) وفدَ عليك مؤملاً فإن رأيت أن لا تردّه خائباً . فأمر له بعشرة آلاف درهم .

وما يُرْوى فى هذه الحكاية من غير هذا الوجه فمن زيادة مُتعصبى البصريين ، وليس فى العلم كبيرٌ . وخرجَ سيبويه بعد هذه المناظرة إلى ناحية بلدته البيضاء بفارس ، ومات بها سنة ١٨٠ هـ . بعد عشر سنين من المناظرة . وسنه نيف وأربعون سنة .

---

(١) كان إذا ذكر الكتاب عند النحويين والأدباء فإنما ينصرف إلى كتاب سيبويه فهو علم عليه بالغلبة ، وهو أصل كل كتاب فى النحو ، ولهذا ولتقدم وضعه أطلقنا عليه (شيخ الكتب)

الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة أحد القراء السبعة، وإمام الكوفيين فى النحو واللغة.

نشأ بالكوفة وتعلم على الكبر بعد لحنة لحنها أمام جمع من طلبة العلم، فلازم أئمة الكوفة حتى أنفدَ ما عندهم، ثم خرج إلى الخليل بالبصرة وجلس فى حلقته، وأعجبه علمه فقال له: من أين علمك هذا؟ قال: من بوادى الحجاز ونجد وتهامة، فخرج إليها وأنفدَ خمس عشرةَ قنينة حبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظَ عنهم. ولما رجع من البادية وجه إليه المهدىّ فخرج إلى بغداد فحظىَ عنده وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد، ثم جعله الرشيد مؤدب ولده الأمين، وبقى وجيهاً عنده، فكان يجلسه هو والقاضى محمدَ بن الحسن[1] صاحب أبى حنيفة على كرسيين متميزين بحضرته، ويأمرهما أن لا يتزعجا لقيامه ومجيئه. وما زالا على هذه الكرامة حتى خرج الرشيدُ إلى الرىّ[2] وهما فى صحبته، فماتا فى يوم واحد فبكاهما وقال: دفنتُ الفقه والعربية بالرىّ وذلك سنة ١٨٩ هـ. وقد انتهت إليه إمامة القراءة والعربية بالكوفة وبغداد. واختار لنفسه قراءةً أقرأ بها الناس. وكان يروى الشعر وليس له فيه جيدُ نظر.

العلوم الشرعيه

التفسير

لم يدوّن علم التفسير فى كتب جامعة تجمع سُوَر القرآن الكريم كلها إلا فى عصر الدولة العباسية. وكان التفسير عبارة عن نقل روايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبين المرادَ من آياته. وأوّلُ طبقة من المفسرين أدركت الدولة العباسية أو نشأت فى صدرها طبقة سفيان بن عُيينة[3] ووكيع

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى أحد صاحبى أبى حنيفة (٢) كانت من حواضر بلاد الفرس وبالقرب من أطلالها أنشئت مدينة طهران الحالية (٣) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون مولى بنى هلال المحدث الفقيه المفسر توفى سنة ١٩٨هـ بمكة.

... التفاسير في رو... طرقه الصحيحة ... مطلقة صحة وضعفاً ، وطبع ببعض ... ثم جاءت بعد هذه الطبقة طبقة أبي جعفر محمد ... الطبري (٥) وتفسيره أول كتاب عظيم صحيح وضع في التفسير على ... ومنهم استمد ... الثعلبي (٦) وتلميذه الواحدي (٧) ... وتابعه في ذلك ... ثم نشأت طائفة أدخلت في التفسير بعض مباحث ... بعضهم ... الأخرى كالنحو ، والفقه ، والأصول ، والكلام ، والبلاغة ، والقصص . ... طائفة إلى التفسير بالرأي والقياس ؛ فانقسم التفسير قسمين ، سلفياً ... واستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا .

الحديث

أول كتاب جمع في الحديث الكتابُ الذي أمر الخليفة الأموي عمر بن ... بتدوينه ، ولم يعرف له خبرٌ بعدُ . ثم أخذ العلماء يدوّنون فيه بعض ... خلافة المنصور أبي جعفر وأولاده . فدوّن الإمام مالكٌ موطأه في الحديث ... ولما اشتدت رغبة الناس في طلب الحديث . وضع كثير من الزنادقة ... المتظاهرين بالإسلام كثيراً من الأحاديث فتجرد لها الأئمة الأعلام . يميزون صحيحها من فاسدها . وكان من أفضل القائمين بذلك إسحق بن راهويه ... عبد الله محمد بن إسمعيل البخاري الذي دوّن كتابه في الأحاديث الصحاح

---

(١) هو أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح صاحب أبي حنيفة وأحد المحدثين المفسرين ... سنة ١٩٨ هـ

(٢) هو أبو يعقوب إسحق بن إبراهيم الملقب براهوية التميمي الحنظلي نسباً المفسر المحدث ...

(٣) هو مقاتل بن سليمان البلخي المفسر متهم بضعف الرواية توفي سنة ١٥٠ هـ

(٤) هو عبد الله بن العباس ابن عم النبي (صلى الله عليه وسلم) بن عبد المطلب بن هاشم حبر ... سنة ٦٨ هـ

(٥) هو أبو جعفر محمد بن جرير ...

(٦) هو أبو عبد الله أحمد ...

ابن الجراح [١] وشعبة بن الحجاج وإسحق بن راهويه [٢] ومُقاتل بن سليمان [٣] والفراء .
ومن أشهر التفاسير التى رُويت فى طريقتهم تفسيرُ ابن عباس [٤] ، وقد رُوى من طرق مختلفة صحةً وضعفاً ، وطبع ببعض طرقه الضعيفة فى مصر ؛ فهو بذلك أقدمُ تفسير نعرفه . ثم جاءت بعد هذه الطبقة طبقة أبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى [٥] وتفسيره أوّل كتاب عظيم صحيح وضع فى التفسير على مذهب السلف ، وتابعه فى ذلك الثعلبى [٦] وتلميذه الواحدى [٧] ومنهم استمدّ كل ذى تفسير بعدهم . ثم نشأت طائفة أدخلت فى التفسير بعض مباحث العلوم الأخرى كالنحو ، والفقه ، والأصول ، والكلام ، والبلاغة ، والقصص . ثم تجردت طائفة إلى التفسير بالرأى والقياس ، فانقسم التفسير قسمين ، سلفيًّا وفنيًّا . واستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا .

الحديث

أوّلُ كتاب جمع فى الحديث الكتابُ الذى أمر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز بتدوينه ، ولم يعرف له خبرٌ بعدُ . ثم أخذ العلماء يدوّنون فيه بحضّ الخليفة العباسى أبى جعفر وأولاده . فدوّن الإمام مالكٌ موطأه فى الحديث والفقه . ولما اشتدت رغبة الناس فى طلب الحديث ، وضع كثير من الزنادقة واليهود المتظاهرين بالإسلام كثيراً من الأحاديث فتجرد لها الأئمة الأعلام ، وبينوا صحيحها من فاسدها ، وكان من أفضل القائمين بذلك إسحق بن راهويه وتلميذه محمد ابن إسمعيلَ البخارى الذى دوّن كتابه فى الأحاديث الصّحاح

---

(١) هو أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح صاحب أبى حنيفة وأحد المحدثين المفسرين العباد توفى سنة ١٩٨ هـ

(٢) هو أبو يعقوب إسحق بن إبراهيم الملقب براهوية التميمى الحنظلى نسباً المفسر المحدث توفى سنة ٢٣٨ هـ (٣) هو مقاتل بن سليمان البلخى المفسر متهم بضعف الرواية توفى سنة ١٥٠ هـ

(٤) هو عبد الله بن العباس عم النبى (صلى الله عليه وسلم) بن عبد المطلب بن هاشم حبر قريش وعالمها توفى بالطائف سنة ٦٨ هـ (٥) هو أبو جعفر محمد بن جرير الفقيه المجتهد المفسر المؤرخ توفى سنة ٣١٠ هـ (٦) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المفسر المشهور توفى سنة ٤٢٧ هـ (٧) هو أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الواحدى المصنف المفسر توفى سنة ٤٦٨ هـ .

فقط ، وتبعه تلميذه مسلمُ بن الحجاج[١] ، والإمام أحمدُ بن حنبل ، وأصحاب كتب السنة الصحاح ، وهم : الترمذى[٢] — وأبو داود[٣] — والنسائى[٤] — وابن ماجة[٥] . هذه هى أصول الكتب فى الحديث ، وبعضهم جمعها ، وبعضهم اختصرها .

الإمام البخارى

هو أبو عبد الله محمدُ بن إسمعيلَ بن إبراهيم بن المغيرة ، إمام المسلمين ، وسيد المحدّثين ، وصاحب الجامع الصحيح أجلّ كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله العزيز .

ولد ببخارى ، من سلالة فارسية سنة ١٩٤ هـ ونشأ بها يتيماً . فحفظَ القرآن وألم بالعربية وهو صبى ، وحببَ إليه سماعُ الحديث ، فكان أول سماعه من علماء بخارى ، وهو لم يناهز البلوغَ حتى حفظ عشرات الألوف من الأحاديث ، وكان أهل الرغبة فى الحديث يتعادَوْن خلفه ويجلسون فى بعض الطريق : ويكتبون عنه ، وهو بعدُ شابٌ لم يَطرّ شاربه[٦] . وخرج مع أمه وأخيه إلى مكة فحجوا وتخلف هو لطلب الحديث ، ودخل من أجله أكثر ممالك المشرق : من خراسان والجبل والعراق والشام ومصر ، وأخذ من علمائها وأئمتها ومنهم أحمد بن حنبل ، وتفقه على مذهب الشافعى ، ثم صار له مذهب خاصّ . ولما نضج علمه واجتمع له يقينه شرع فى تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها بعد أن عَرّف عللها ووجوهها معرفة لم تتم لأحد قبله ، فكان بذلك المقدَّم على علماء الأرض ، واستخرج كتابه (الجامع الصحيح) من ستمائة ألف

---

(١) هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى أحد الشيخين وصاحب ثانى الصحيحين ، ولد سنة ٢٠٦ هـ وتوفى سنة ٢٦١ هـ (٢) هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (وترمذ مدينة على جيحون) . (٣) هو أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ (وسجستان الإقليم الشمالى من بلوجستان) .

(٤) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ونساء بفتح النون وفتح السين وبعدها همزة مدينة بخراسان (٥) هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة المتوفى سنة ٢١٣ هـ

(٦) أى لم ينبت شاربه .

حديث فى ستَّ عشرةَ سنة ، جمع فيه تسعة آلاف حديث ، مكرَّر بعضها بتكرر وجوهها ، وقال : إنى جعلته حجةً بينى وبين الله ، فأجمع علماء السنة على أنه لم يكن فيها أصحَّ منه .

وبقى طولَ حياته يتردد بين الأمصار ، حتى اشتاق إلى بلاده فرجع إليها ، وابتلى فيها بفتنة َخلق القرآن ، فأثار عليه والى بخارَى العامة فأخرجوه منها ، ومات فى (خَرْتَنْك) قرية من قرى سمرقند سنة ٢٥٦ هـ .

علم الفقه

لما كان المروىّ عن رسول الله وظاهرُ نص القرآن لا يستوعبان كلَّ أحكام الوقائع المختلفة المتجددة بتجدد الزمان والمكان ، كان الاجتهاد ضروريًّا فى الدين وجاءت الدولة العباسية وأهل الحجاز يرجحون جانب الأخذ بالحديث لكثرة رواته بينهم وإمامهم فى مذهبهم مالكُ بن أنس ، وأهل العراق يرجحون الأخذ بالقياس ، وإمامهم فى مذهبهم أبو حنيفة ، لكثرة ما وضعه متزندقة العراق فى الحديث ، ثم لما دخل أهل الحجاز العراقَ وتساوى الفريقان فى معرفة الأحاديث عملوا بهما ، ونشأ من ذلك عدة مذاهب : أشهرها مذهب الشافعى ومذهب أحمد بن حنبل ، وهذه المذاهب الأربعة هى التى ارتضاها معظم الأمة فى أمر دينها ودنياها .

ثم كان لكل مذهب أئمة مجتهدون فيه .

الإمام أبو حنيفة النعمان

هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت فقيه العراق وقدوة أهل الرأى وصاحب المذهب المقضىّ به الآن فى أكثر الممالك الإسلامية .

ولد سنة ٨٠ هجرية ، من سلالة فارسية ونشأ بالكوفة وعاصر بعض الصحابة ، واشتغل بالفقه ، وأخذ كلَّ علمه ممن شافه الصحابة ونقل عنهم ، واستنبط فقهه من القرآن الكريم ، وما صح عنده من الحديث على قلته ، مع استعمال الرأى والقياس وتابعه فى ذلك أكثر أئمة العراق ، لقلة رواة الحديث الصحيح بينهم ، وكثرتهم فى الحجاز . وكان من أعبد الناس وأكثرهم تهجداً

وقراءة للقرآن الكريم ، وأكثرهم ورعاً وتوخياً للكسب من وجه حل . رَضِيَ أن يعيش تاجر خز ورغب عن وظائف الملوك والخلفاء . وعرض عليه القضاء من قبل أمراء بني أمية ثم المنصور فأبى ، فسجنه وآذاه . حتى قيل إنه مات في سجنه ، وكان يعتذر بأنه لا يأمن نفسه أن تزل . وقرأ عليه علماء الكوفة وبغداد ، وتخرج عليه منها الأئمة من أصحابه : كمحمد بن الحسن وأبي يوسف[1] وزفر[2] ومات رحمه الله ببغداد سنة ١٥٠ هـ .

الإمام مالك

هو أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز ، وهو عربي من سلالة أقيال حمير .

ولد سنة ٩٥ بالمدينة المنورة ونشأ بها . وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعباد ورحل إليهم . وأخذ عنهم ، وما زال يدأب في التحصيل وجمع السنة ، حتى صار حجة من حجج الله في أرضه وضرب به المثل فقيل : (لا يفتى ومالك بالمدينة) وعرف الخلفاء قدره فأجلوه ، وحملوا إليه بدرهم . وسعى به إلى عامل المنصور بالمدينة فجرده وضربه سبعين سوطاً . ولما بلغ ذلك المنصور غضب على عامله وعزله ، وأقدمه إلى بغداد على قتب . ولقي المنصور مالكاً من قابل في موسم الحج فاعتذر إليه واستسمحه . وفاتحه في كثير من مسائل الدين . وطلب منه أن يجمع ما ثبت لديه ويدونه في كتاب ويوطئه للناس ، فاعتذر فلم يقبل منه عذراً ، فألف كتابه الموطأ في الحديث والفقه ، فجاء ولي عهده المهدي من قابل حاجاً فسمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار وألف لتلاميذه . ولم يلبث أن مات المنصور ، وزاحم فقه أهل العراق فقهه ، ولكن ذلك لم يمنع الرشيد أن يرحل هو وأولاده إليه بالحجاز ، ليسمع موطأه فسمعه وأغدق عليه وكان مالك أول أمره فقيراً ، فلما كثرت منح الخلفاء له حسن حاله فأظهر نعمة الله عليه ، ووصل أهل العلم وأشركهم في

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري نسباً صاحب أبي حنيفة وناصر مذهبه وأول من تسمى بقاضي القضاة بمدينة السلام (بغداد) توفي سنة ١٨٢ هـ

(٢) هو أبو الهذيل زفر بن الهذيل التميمي العنبري صاحب أبي حنيفة توفي سنة ١٥٨ هـ

ماله ؛ ومنهم الشافعي ، أما أخلاقه من الكرم والطلاقة والوقار والنبل والتواضع والحب لرسول الله عليه الصلاة والسلام فإنها تجل عن الوصف : حتى إنه كان لا يركب دابة فى المدينة إجلالاً لأرض ضمت جسد رسول الله . وتوفى سنة ١٧٩ هـ بالمدينة ودفن بالبقيع[١] .

الإمام الشافعي

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع . عالم قريش وفخرها ، وإمام الشريعة وحبرها . وهو من ولد المطلب بن عبد مناف . ولد بمناينة غزة[٢] سنة ١٥٠ هـ . وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها فقيراً تربيه أمه . ويواسيه ذوو قرابته من قريش ، وما ميز حتى صار نادرة الدنيا ذكاء وحفظاً : حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين وأولع بالنحو والشعر واللغة . ورحل إلى البادية فى تطلبها ولم يناهز سن البلوغ حتى حفظ منها شيئاً كثيراً . ثم تفقه وحفظ موطأ مالك وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة . ثم رحل فى هذه السن إلى مالك وقرأ عليه الموطأ من حفظه . فقال مالك : إن يكن أحد يفلح فهذا الغلام ، وأضافه وخدمه بنفسه . ثم رجع إلى مكة ، وعلم بها العربية والفقه ، وصحح عليه الأصمعي شعر الهذليين . ثم إن الرشيد ولى أحد أصدقاء الشافعي عملا باليمن فخرج معه ، وولى بعض الأعمال فأحسن التصرف ، ثم وشى به إلى الرشيد ، وقبض عليه ، فلم يتبين شيئاً فى أمره ، فأطلقه ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ هـ . فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وأملى بها مذهبه القديم ؛ وفى سنة ١٩٩ هـ . أو سنة ٢٠٠ هـ . خرج إلى مصر وألقى فيها عصاه ، وسكن الفسطاط فكانت دار هجرته وبها أملى مذهبه الجديد[٣] بجامع عمرو واستنبط الشافعي مذهبه من القرآن والحديث والقياس وبعض الرأى . فكان مذهبه وسيطاً بين أهل الرأى من أصحاب أبي حنيفة وبين أهل الحديث من أمثال مالك وأحمد ،

(١) هى مقبرة المدينة المنورة (٢) من مراقى الشام قريبة من حدود البلاد المصرية

(٣) لأنه فى أثناء إقامته بالعراق وفى مروره بالجزيرة والشام فى رحلته إلى مصر لقى كثيراً من ثقات المحدثين وعلم منهم ما لم يعلم ورأى من عرف الناس فى الحجاز واليمن والعراق والجزيرة والشام ما جعله يعدل عن بعض آرائه فى جلب المصلحة ودرء المفسدة

وتوفى سنة ٢٠٤ هـ . وقبره بمصر معروفٌ مشهور . وكان الشافعى أفضل من رأى الناسُ ذكاءً وعقلاً وحفظاً وفصاحة لسان وقوة حجة ، ولم يناظر أحداً إلا ظهر عليه .

وإجمال القول أنه كان إماماً فى كل شىء حتى الرى بالسهام فكان يصيب منه تسعة من عشرة .

الإمام أحمد بن حنبل

هو الإمام الصابر المحتسب أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى نسباً ، حافظ السنة وقدوة أهل الحديث ، وأعبدُ أهل زمانه . ولد ببغداد من سلالة عربية سنة ١٦٤ هـ ، فتعلم العلم وطلب الحديث وسمع من أئمة وقته ، وكان الحديث وقتئذ قد أينع وكثرت رجاله وصنفت كتبه وتميز صحيحه من موضوعه ، فلقى مَنْ لا يحصى من رجاله ، فجاب البلاد وطوف الأمصار حتى حفظ مئات الألوف من الأحاديث ، واختار منها نيفاً وأربعين ألف حديث ضمنها كتابه المسند ، واستنبط مذهبه من السنة مشوباً بشىء من القياس والرأى ، وظهرت فى مدته فتنة خلق القرآن[1] فامتحن بها فى مجلس المعتصم ، ليجيبهم إلى القول بخلق القرآن فلم يفعل فضرب سبعة وعشرين سوطاً ضرباً موجعاً فسال منه الدم وأغمى عليه ، ولما خيف عليه التلف أطلق فبقى فى منزله مدة مريضاً ، ثم عُوفىَ واشتغل بالعلم والتعليم ببغداد حتى مات سنة ٢٤١ هـ .

علم الكلام

كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسنة ، وما وقع فيهما من المتشابه أو أوهم التشبيه المنافى لتنزيه المعبود توقفوا فيه خوف أن يحيد بهم تغلغلهم فى التأويل عن القصد فيقعوا فيما وقع فيه من قبلهم فيتفرق أمرهم ويكونوا شيعاً ، ومن لم يتوقف منهم لم يبعد عنهم كثيراً ، غير أن ذلك لم يقنع من دخل الإسلام من الطوائف التى امتلأت دياناتها

(١) كان الخليفة المأمون ينكر على من يقول إن القرآن قديم لأن ذلك يقتضى تعدد القدماء المفضى إلى تعدد الآلهة بل يقول إنه حادث مخلوق .

بالشبه والأوهام فكثر جدلهم فى شبههم بالأقيسة الصناعية والعقلية ، فاضطر العلماء أن يحاوروهم ويعارضوهم بمثل ذلك ، وساعدهم الخلفاء وأولهم المهدى الذى حرضهم على تدوين علم الكلام (التوحيد) فافترق المرضىّ عن مذهبهم من علماء الكلام فرقتين : فرقة اعتقدت ما يقرب من مذهب السلف وسُموا الجماعة وأصحاب الحديث ، وفرقة اعتزلتها وخالفتها فى بعض المسائل ومقدّمها واصل بن عطاء[1] وسموا المعتزلة أو أصحاب العدل ، وجرى رجال الحكومة العباسية على هذا المذهب ونصروه حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى ، فألف من مذهب المعتزلة ومذهب غيرهم مذهبه الكلامى الذى سمى بعد بمذهب الأشاعرة وغلب على كل مذهب سواه إلا بعض مذاهب قليلة كمذاهب الشيعة (وبقى كثير منها إلى الآن) ومذاهب الخوارج والإباضية وبقى منهم إلى عصرنا بقية فى الجبل الأخضر من برقة وفى جزيرة جربة على ساحل تونس ، وفى جنوبى الجزائر وبلاد البحرين وعمان .

أبو الحسن الأشعرى

هو أبو الحسن على بن إسماعيل شيخ طريقة أهل السنة والجماعة ، وإمام المتكلمين وصاحب المذهب الكلامى المنتشر الآن فى أكثر بقاع العالم الإسلامى .

ولد بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ . ونشأ بها وأخذ علم الكلام عن أبى على الجبائى شيخ المعتزلة ، وتبعه فى الاعتزال واحتج له حتى صار لسان المعتزلة أكثر من ثلاثين عاماً . ثم هداه البحث فى السنة ومذاهب المتكلمين من الصفاتية والفقهاء وأصحاب الحديث . فرأى أن كلا الفريقين من هؤلاء ومن المعتزلة غال فى نظره . فتوسط ، وتغيب عن الناس مدة ألف فيها كتبه فى نصرة أهل السنة والرد على أكثر عقائد المعتزلة ، ثم خرج إلى المسجد الجامع بالبصرة يوم

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الخطيب المتكلم كان يجلس إلى الحسن البصرى يأخذ منه العلم فلما قالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر خرج واصل عن الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ومنزلته بين المنزلتين فغضب منه الحسن فاعتزل مجلسه وانضم إليه عمرو بن عبيد بن باب وتبعهما أقوام سموا المعتزلة ومات سنة ١٨١ هـ

الجمعة ورقى المنبر وعرف الناس بنفسه وبمذهبه القديم والجديد ، ودفع الكتب التى ألفها على مذهب أهل السنة للناس ، فنصب له المعتزلة بالرد والتزييف ، فما زال يدحض حججهم حتى انقطعوا عن مناظرته ، وتبعه كثير منهم ومن غيرهم .

وكان أبو الحسن من أورع الناس وأزهدهم مع دُعابة ومزاح ، وكان يعيش من غلة قرية وقفها جده بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله على ذريته ، وكان شافعى المذهب ؛ توفى سنة ٣٢٤ هـ . وممن نصر مذهبه الفخر الرازى والغزالى ، وقاربه فى مذهبه القاضى أبو منصور الماتريدى .

الغزالى[١]

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى الشافعى حجة الإسلام وصاحب كتاب إحياء علوم الدين :

ولد سنة ٤٥٠ هـ . ونشأ بطوس[٢] وتعلم بها مبادئ العلوم ثم رحل إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين الجوينى[٣] وهو يومئذ عالم الشافعية فى الشرق ، فما زال يتلقى عنه العلم حتى صار من أكابر متكلمى الأشاعرة وفقهاء الشافعية ، حتى أصبح أستاذه يفاخر به العلماء ويتباهى بتعليميه وتخريجه . ولما مات الجوينى ذهب إلى بغداد ولقى الوزير نظام الملك[٤] صاحب المدرسة النظامية الشهيرة ، وناظر بحضرته العلماء فظهر عليهم وأقر له فحول العراق بالفضل فتولى التدريس بالمدرسة النظامية أربع سنوات ثم طرأت عليه حال زهادة

---

(١) الغزالى بتشديد الزاى نسبة إلى الغزال قال ابن خلكان وذلك هو المشهور وقيل إنها مخففة نسبة إلى غزالة قرية من قرى طوس (٢) طوس مدينة عظيمة بخراسان دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا (٣) هو أبو المعالى ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى الفقيه الشافعى توفى سنة ٤٧٨ هـ و (الجوين) ناحية كبيرة من خراسان

(٤) هو الوزير أبو على الحسن بن إسحق بن العباس الملقب نظام الملك، قوام الدين العالم الصالح المتصوف محب العلم والعلماء ، وزر للسلطان ألب أرسلان وولده السلطان ملك شاه السلجوقيين المتغلبين على خلفاء بغداد ، وبنى مدرسته النظامية ببغداد وهى أول مدرسة بنيت خاصة بالتدريس ، وكان قبل فى المساجد الجامعة ، وجعل الرواتب للمدرسين والطلبة ، وأجرى عليهم الجرايات ، وقتل سنة ٤٨٥ هـ

فى الدنيا فسلك طريق الصوفية باعتدال ، ورغب عن الاختلاط بالناس ، ثم حج وذهب إلى الشام يدرس ويسيح لزيارة بعض مشاهد أنبيائها ، ثم دخل مصر وأقام بالإسكندرية مدة ، ثم عاد إلى وطنه طوس ، واشتغل بتأليف الكتب الجليلة ، ثم لزم التدريس بنيسابور ، ثم عاد إلى وطنه حيث قضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر ، حتى مات بالطابران قصبة طوس سنة ٥٠٥ هـ .

ويعتبر الغزالى من مؤيدى مذهب الأشاعرة المسمين بأهل السنة ، ومن أكبر أئمة الشافعية ، وهو يعد خير من تكلم فى التصوف بحال لم تشبها نحل غلاة الصوفية الخارجين بها عن مألوف العقل البشرى المعتاد ، ويعتبر كتابه « إحياء علوم الدين » من أفضل كتب التصوف والأخلاق وإظهار حكمة القرآن والشريعة . وأصبحت كتابته فيه أبلغ كتابة توخى أسلوبها علماء هذه المقاصد وغيرهم من المصلحين حتى عصرنا هذا .

نشأة العلوم الكونية المنقولة وترجمتها

وأشهر المترجمين والمشتغلين بها من المسلمين ومواليهم

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة ، وتشمل أربعة علوم — المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والإلهيات .

وتشمل الطبيعيات : علم الطبيعة ، والكيمياء ، وفن المواليد الثلاثة والطب والصيدلة ، والفلاحة .

وتشمل الرياضيات : علم الحساب وعلم الجبر ، وعلم الهندسة ، وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا)[1] وعلم الفلك الشامل للهيئة والتنجيم ، ومن متعلقاته علم الجغرافيا الرياضية .

ويلحق بهذه العلوم علم السياسة وتدبير المنزل والمال وعلم الأخلاق والموسيقى .

وتشمل الإلهيات : علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية كالبحث عن صفات الخالق والقوى النفسية والجن والملائكة ونحو ذلك .

(١) يرى بعض مهندسى عصرنا هذا العلم بعلم القوى .

وهذه العلوم فطرية فى الإنسان من حيث إنه مفكر متمدين لا تختص بها أمة دون أخرى ، فكان الاشتغال بها ضروريًّا لكل أمة أصبحت ذات حضارة ، ولذلك ترجم المسلمون بعضها فى عصر بنى أمية ، واستخدم المنصور العباسى كثيراً من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود فى الطب والفلك والسياسة ، ومن أشهر هؤلاء جُرجيس الكبير[1] بن بختيشوع ونوبخت[2] وابنه أبو سهل وابن المقفع ، ولما مات المنصور فتر أمر الترجمة إلى زمن الرشيد والبرامكة فحثوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية ، وصححوا بعض ما ترجم زمن المنصور .

ثم جاء عصر المأمون فزخرت بحور الترجمة ، وبعث إلى بلاد الروم جماعة من المترجمين كابن البطريق[3] وسَلْم صاحب بيت الحكمة ، والحجاج بن مطر ، وحنين[4] بن إسحق ، فاختاروا كتباً حملوها إلى بغداد ، وترجمت وتعلمها الناس وصححوا أغلاطها واستدركوا عليها ، ولم يمض قرن من تأسيس الدولة العباسية حتى برع المسلمون فى هذه العلوم كلها ، وظهر منهم من الحكماء والفلاسفة من كاد يلحق فلاسفة اليونان ، ومن هؤلاء فيلسوف الإسلام والعرب أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح الكندى[5] وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسى[6] . وبنو موسى[7] بن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر

---

(١) كان رئيس البيمارستان بجنديسابور زمن المنصور فاستدعاه إليه واتخذه طبيبه الخاص حتى ١٥٢ هـ فاستأذنه فى العودة إلى بلده فات به (٢) آل نوبخت كثيرون كلهم اشتغل بالفلك والنجوم والحكمة ، وكانوا ينقلون من الفارسية . وكان نوبخت ينقل هو وأولاده من الفارسية واليونانية ، وكان منجماً للمنصور فلما ضعف عن الخدمة أحضر ولده أبا سهل إلى المنصور ليقوم مقامه فقبله وهو الذى كناه أبا سهل (٣) هو يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان أميناً على الترجمة تولى ترجمة كتب أرسطو وبعض كتب بقراط (٤) هو حنين بن إسحق العبادى عربى الأصل من العباديين نصارى الحيرة برع فى الترجمة من اليونانية توفى سنة ٢٦٠ هـ .

(٥) من سلالة الأشعث بن قيس ، كان مترجماً وعالماً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد والهيئة ، وترجم منه كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ، وله أكثر من ٢٣٠ مؤلف (٦) هو العالم المتفنن فى كل علم والمؤلف فى كل فن ، كان نديماً للمعتضد الخليفة العباسى فأنكر عليه بعض أمور فقتله سنة ٢٨٦ هـ (٧) كان بنو موسى بن شاكر وذريتهم من أفضل علماء الرياضة والفلك ، وكان أبوهم موسى من أتباع المأمون فمات تاركاً أولاده الثلاثة صغاراً فرعاهم المأمون وعنى بتعليمهم الحكمة وعلوم الأوائل فبرعوا فيها الغاية ولا سيما

رياضيى هذا العصر ، وأول المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة ، ومحمد بن موسى الخوارزمى[١] مخترع علم الجبر والمقابلة ومذيع الحساب الهندسى بين العرب .

ثم ذهب طور الترجمة والتصحيح وتلاه طور التأليف والتكميل والاختراع[٢] فأتى فيه بالعجب العجاب أبو نصر محمد بن طرخان الفارابى ، الحكيم الكبير مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون ، والتى استنبط الإفرنج بمحاكاتها آلة المعزف (البيانو) المتوفى سنة ٣٣٩ هـ . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى[٣] الطبيب الكيميائى الشهير المتوفى سنة ٣١١ هـ . والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو الحسين بن سينا[٤] المتوفى سنة سنة ٣٢٨ هـ . وأبو الريحان أحمد بن محمد البيرونى[٥] الفلكى الرياضى المقوم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ — وكان لدولة الفواطم فى مصر اشتغال بهذه العلوم فاشتهر فى دولتهم فى الفلك والرياضيات ابن يونس[٦] وفى الطب ابن رضوان[٧] وغيرهما . ولم يعن أهل الأندلس بهذه العلوم عناية أهل المشرق ؛ وأشهر من نبغ منهم فيها أبو الوليد القاضى محمد

الرياضيات والحيل والآلات ، وأنفقوا على نقل كتب اليونان وترجمتها أموالا طائلة وهم الذين حققوا للمأمون مقدار الدرجة الأرضية وصححوه وكان أجلهم أبو جعفر محمد توفى سنة ٢٥٩ هـ .

(١) ليس من أولاد موسى وكان منقطعاً لخزانة كتب الحكمة للمأمون ، وبرع فى الفلك والعدد

(٢) هو حكيم المسلمين بلا مدافع والذى تخرج بكتبه الرئيس ابن سينا . والفارابى من أصل تركى من مدينة فاراب إحدى مدن الترك فيما وراء النهر ، دخل بغداد فتعلم العربية ومهر بها ثم قرأ المنطق والفلسفة على أبى بشر متى بن يونس ، ثم ذهب إلى حران بالجزيرة فقرأ على يوحنا ابن خيلان الحكيم ، ثم رجع إلى بغداد ودرس وألف ، ثم رحل إلى الشام ومصر ، ثم أقام بدمشق زمن سيف الدولة بن حمدان فأجرى عليه أربعة دراهم كل يوم حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ

(٣) هو من أصل الرى كان فى أول أمره ضارباً بالعود ثم أكب على كتب الحكمة والطب وعانى بنفسه صناعة الحل (التحليل) والكيمياء فاستنبط كثيراً من المركبات الكيميائية مثل زيت الزاج (الحامض الكبريتى) والغول (الإسبرتو) وكان يقيم بالرى وبغداد ويتنقل بالبلدان ، وله أكثر من ٢٠٠ مؤلف .

(٤) كان أبوه من بلخ عمل ببخارى للدولة السامانية فنشأ ابنه بها ، وتعلم من صغره الحكمة فهذ الأوائل والأواخر ، ولم يجىء فى الملة بعده من الملة فاقة فيها عدا ما اهتدى إليه المحدثون فى الطب الحديث ، وتنقل فى أواسط آسيا ، وخدم فى الدولة السامانية والبويهية ووزر لأحد ملوكهم .

(٥) بيرون من بلاد السند   (٦) هو أبو الحسن على الشهير بابن يونس صاحب الزيج الحاكمى فى أربع مجلدات كبار وكان آية فى الفلك والتنجيم والرياضيات مات سنة ٣٩٩ هـ .

(٧) هو الطبيب المنجم على بن رضوان مات سنة ٤٦٠ هـ .

ابن رشد وأبو القاسم الزهراوى ؛ ومن كسب هؤلاء الأئمة اقتبس أهل (أوربة) كثيراً من أصول مدنيتهم .

الشعر

كان الشعر فى عصر صدر الإسلام ينبع من المعين الذى تنبع منه أئمة العربية وفحول الفصاحة : أعنى جزيرة العرب والعراق والجزيرة الفراتية . فلما قرت دولة العرب فى العراق والأندلس أصبحت بغداد وقرطبة قبلة الشعراء ووجهة الأدباء . ومن لم يقصدهما للإقامة فى ظلال الخلفاء والملوك قصدهما للنجعة والامتياح ؛ ولم يمض على بغداد وقرطبة قرن من تأسيس دولتيهما حتى صارتا عشين للأدب وميدانين لتسابق جياد الفحول فى كل فن ولا سيما الشعر . فقد كان له عند الخلفاء والوزراء والقواد سوق نافقة . حتى عند رؤساء الأعاجم من الديلم والترك . وحتى تكلف بعضهم أن يعانيه وينظمه بل ينبغ فيه . ودام كذلك إلى انتهاء الدولة العباسية ؛ وبهذه العناية العظيمة به وكثرة قائليه ومنتحليه تفنن الناس فأدخلوا عليه فنوناً لم تعهد فيه . واستعملوه فى كل غرض حتى التعبد به ، وتشكل أسلوبه وتنوعت معانيه بما يطابق أغراض استعماله ولكنهم لم يخرجوا بها فى الجملة عن أسلوب العرب فى ابتدائهم بالنسيب بالديار والأطلال ، تذكاراً لوطنهم القديم ؛ وتظرفاً بالتشبه بالأعراب . على أن النسيب بمثل هذه الأمور لم يعد ملتزماً فى مطالع القصائد منذ صدر الدولة العباسية ، بل كثيراً ما كان يحل محله ذكر القصور(١) . ونعيم العيش وصحبة إخوان الطرب(٢) وغناء القيان والرحلة إلى الممدوح على السفن(٣) ونحو ذلك ، أو يستبدل به ذكر الخمر(٤) ؛ وأوصافها والحث على اصطباحها واغتباقها ، بل لم يقف

---

(١) كقول أشجع : قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام

(٢) كقول ابن هانئ : بسم الصباح لأعين الندماء اونشق جيب غلالة الظلماء

(٣) كقول بشار فى وصف سفينة :

تلاعب تيار البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

إلى ملك من هاشم فى نبوة ومن حمير فى الملك والعدد الدثر

(٤) كقول أبى نواس : ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

الأمر عند هذا الحد حتى تعداه إلى التنديد بالنسيب بالأطلال وتهجين من يلهج بذكرها[١] .

أما التغييرات التي طرأت على الشعر إبان الدولة العباسية فهي :

أولاً — ما يتعلق بفنون الشعر وأغراضه . ثانياً — ما يتعلق بلفظه وأسلوبه .

ثالثاً — ما يتعلق بمعانيه وأخيلته رابعاً — ما يتعلق بأوزانه وقافيته .

الأمور التي حدثت في فنون الشعر وأغراضه

١ — زيادة استعماله في إثارة العصبية والمفاخرة في النسب[٢] والمذهب السياسي[٣] والديني والعلمي[٤] . وفي الأغراض السياسية من استحقاق الخلافة وتحريض ولاة الأمور وتهديدهم وانتقاد أعمالهم في شعر كثير من شعراء الدولة .

٢ — الإغراق في التملق المشين في شعر كثير من شعراء الدولة . وذلك لكثرة المشتغلين بالشعر من الأدباء وقلة موارد الكسب الشريف . فلم يجد الشاعر سوقاً رائجة لبضاعته إلا أبواب الخلفاء . ولم ير لنفسه شعراً أسير ولا جائزة أربى إلا بمديح أغرق فيه وخرج به عن الذوق[٥] بل العقل[٦] بل الشرع[٧] .

٣ — ازدياد المجون والتهتك وحكاية المخازي والفسوق ونحو ذلك . والإقذاع

---

(١) يظن أن أول من خلع هذا التقليد أبو نواس في جملة قصائد له . ومن قوله في ذلك :

يا ربع شغلك إني عنــك في شغل ... لا ناقتي فيــك لو تدري ولا جملي

وكقوله : صفة الطـلول بـلاغة القـدم ... فاجعـل صفاتك لابنـة الكرم

(٢) إما بين العرب والعجم كما في شعر بشار وعبد الله بن طاهر وسعيد بن حميد وغيرهم من طوائف الشعوبية ، وإما بين اليمانية والمضرية ، كما في شعر مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر وأبي نواس وخلف الأحمر (٣) كالمفاخرة بين شيعة آل أبي طالب وآل العباس كما في شعر مروان بن أبي حفصة والسيد الحميري وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي (٤) كما في شعر أبي محمد اليزيدي وغيره (٥) كقول أبي نواس في ممدوحه :

كيف لا يدنيــك من أمل ... من رسول الله من نفــره

(٦) كقول المتنبي : ونالوا ما اشتهوا بالحـزم هوناً ... وصاد الوحش نملهـم دبيبا

وقول علي بن جبلة : إنمـا الدنيا أبو دلف ... بين باديـه ومحتضـره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيـا على أثره

(٧) كقول ابن هانئ الأندلسي : ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحـد القهار

فى الهجاء والتصريح المعيب بأسماء العورات ، والتعرض للحُرَم لتناقص الوازع الديني ، وازدياد الزنادقة وفجّار الموالى والكتاب بعدوى تمازج الأخلاق والعادات .

٤ — إغراق شعراء (المسلمين) فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوة بها وذكر سُقاتها وندمائها[1] والغزل بالمذكر والاستقصاء فيه حتى غلب على ما سواه[2] .

٥ — ازدياد وصف الرياض[3] والبساتين والقصور ومجالس الأنس وأحوال الطبيعة ومصايد الوحوش والطير والسمك والأمور الدقيقة .

٦ — ازدياد الوعظ والتزهيد فى الدنيا[4] والحكمة وضرب المثل وتأديب النفس والقصص والحكايات[5] وأول من نظم ذلك أبان بن عبد الحميد اللاحق[6] ناظم كليلة ودمنة للبرامكة .

٧ — ضبط قواعد العلوم من فقه وغيره[7] .

الأمور التى حدثت فى المعانى والأخيلة الشعرية

١ — ترتيب الأفكار وأخذ بعضها بحجز بعض بحيث قل الاقتضاب وشذوذ الانتقال من معنى إلى مباين له ، كما كان يقع كثيراً فى الشعر القديم .

٢ — استعمالُ الخيال الفرضى الوهمى الذى لا يتصور تحققه فى الخارج أو فى الذهن مما يستدعيه الغلو والتغلغل فى المدح أو الهجو أو التشبيه .

٣ — اختراع الأخيلة الجميلة التصور فى التشبيه والاستعارة والأوصاف وحسن التعليل .

٤ — استعمال طرق الحكمة وقواعد الفلسفة وشعائر الدين ونحو ذلك[8] فى محاولة الإقناع .

---

(١) كما فى شعر أبى نواس ومن تابعه (٢) كما فى شعر والبة بن الحباب وأبى نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وغيرهم (٣) راجع نماذج الوصف وترجمتى ابن المعتز وابن خفاجة (٤) كما فى شعر أبى العتاهية و بقية الصوفية (٥) انظر ترجمة الطغرائى

(٦) هو مولى الرقاشيين بصرى ذهب إلى بغداد واتصل بالبرامكة ومنحوه على نظم كليلة ودمنة خمسة عشر ألف دينار .

(٧) وأكثر من ذلك بعد أبان بن عبد الحميد اللاحق أبو العتاهية ومن بعده .

(٨) كما فى شعر صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم .

الأمور التى حدثت فى لفظ الشعر وأسلوبه

١ — هجرُ الألفاظ الغريبة بالتدريج .

٢ — زيادة دخول الكلمات الأعجمية فيه تظرّفاً ، كما فى شعر أبى نواس وغيره .

٣ — رقة الأسلوب مع بقاء الجزلة ووضوح المعنى .

٤ — اختراع البديع والاستكثارُ من أنواعه .

الأمور التى حدثت فى الأوزان الشعرية والقافية

١ — الإكثار من النظم فى البحور التى لم تنظم منها العرب إلا قليلا كالمضارع والمقتضب .

٢ — اختراع أوزان ولدها الخليل من بحور الشعر ونظم منها كثير من المولدين .

٣ — اختراع أوزان أخرى كبعض أوزان اخترعها مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو العتاهية ونظموا منها كالمواليا[١] . وزاد هذا الأمر تفاقماً اختراع الموشحات[٢] والزجل[٣] فى أواخر الدولة العباسية .

ومن الأمور التى حدثت فى القافية :

١ — المخمس[٤] : وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى من الوزن وقافية أخرى إلى آخر القصيدة .

٢ — المزدوج[٥] : وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم آخرين من قافية أخرى ، وأكثروا منه جداً فى نظم كتب الأدب والعلوم كما فى نظم الألفية .

---

(١) وأول من اخترعه مولاة البرامكة كانت ترثيهم به وتصيح بعد كل قطعة منه (واموالياه) فحملت إلى الرشيد ، وكان قد تقدم بمعاقبة من يرثيهم بشعر فقالت الجارية ليس هذا شعراً لأنه عامى ملحون (وإن جاء على وزن البسيط) فسمى نظمها المواليا لصياحها (٢) اخترعها مقدم ابن معافر القبريرى من الأندلسيين وأخذ عنه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد (٣) اخترع بعد التوشيح فى الأندلس أيضاً ، وبرع فيه إمام الزجالين أبو بكر بن قزمان وستأتى أمثلة هذه الفنون فى العصر التالى لكثرة شيوعها فيه .

(٤) كقول خالد القناص :

وما نطقت واستعجمت حين كلمت ... وما رجعت قولا وما إن ترمرمت

وكان شفائى عندها لو تكلمت ... إلى ولو كانت أشارت وسلمت

ولكنها ضنت على بشيهان

(٥) يقال إن أول من نظمه بشار ثم تبعه أبان وأبو العتاهية .

نماذج من الشعر فى الأعراض الآتية

الحماسة — قال بشار بن برد :

وجيش كجُنح الليل يزحفُ بالحصى … وبالشوك، والخطّى حمرٌ ثعالبه[1]
غدونا له والشمسُ فى خدْر أمها … تطالعنا والطلّ لم يجر ذائبه
بضرْب يذوق الموتَ من ذاق طعمه … وتُدْرك من نجّى الفرار مثالبه[2]
كأنّ مُثارَ النقع فوق رءوسنا … وأسيافنا ليلٌ تهاوَى كواكبه
بعثنا لهم موتَ الفجاءة إننا … بنو الموت خفاق علينا سبائبه[3]
فراحوا فريقٌ فى الإسار ومثله … قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربه

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى يفتخر بولائه لخزيمة بن خازم النَهشلى من سروات أمراء العرب فى الدولة العباسية :

إذا مضرُ الحمراء كانت أرومتى … وقام بنصرى خازمٌ وابنُ خازم
عطستُ بأنف شامخ وتناولت … يداى الثريا قاعداً غير قائم

وقال أبو الطيب المتنبى :

وإنى لمن قوم كأن نفوسهم … بها أنفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظْما
فلا عَبرتْ بى ساعة لا تُعزّنى … ولا صحِبتنى مُهجةٌ تقبل الظلما

المدح — وقال مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة الشيبانى :

بنو مطر[4] يوم اللقاء كأنهم … أسود لها فى غيل خَفّانَ[5] أشبُل
همُ يمنعونَ الجار حتى كأنما … لجارهمُ بين السماكين منزل
بهاليل[6] فى الإسلام سادوا ولم يكن … كأولهم فى الجاهلية أوّل

---

(١) الثعالب جمع ثعلب وهو هنا طرف الرمح الداخل فى جبة السنان ، أى والرماح حمر أطرافها من دماء الأعداء. (٢) أى مثالب الفرار من الخزى والعار (٣) جمع سبيبة وهى الشقة من الثياب (٤) بطن من شيبان منه معن (٥) مأسدة الكوفة (٦) جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير .

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا … أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم … وإن أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وقال أبو تمام :

تعوّد بسط الكف حتى لو انه … ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غيرُ روحه … لجاد بها ، فليتق الله سائلُه

وقال أبو عبادة البحترى :

كلما قلتُ أطلقَ الشكرُ رِقّ … رجعتنى له أياديه عبدا
أين عمرُ الزمان حتى أؤدى … شكر إنعامك الذى لا يؤدى

وقال أبو الفياض الطبرى :

يد تراها أبدا … فوق يد وتحت فمْ
ما خلقت بنانها … إلاّ لسيف أو قلمْ

الرثاء قال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

ألمِاّ على مَعن وقولا لقبره : … سقتك الغوادى مَرْبعاً ثم مَرْبعاً[1]
فيا قبر معن أنت أولُ حُفرة … من الأرض خُطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريتَ جودَه … وقد كان منه البر والبحر مُترَعا[2]
بلى قد وسعتَ الجود والجودُ ميتٌ … ولو كان حياً ضقتَ حتى تصدّعا[3]
فتى عيش فى معروفه بعدَ موته … كما كان بعد السيل مَجْراه مرتعى[4]
ولما مضى معنٌ مضى الجود وانقضى … وأصبح عِرْنينُ المكارم أجدَعا[5]

وقال أشجع السلمى :

مضى ابنُ سعيد حين لم يَبقَ مَشرقٌ … ولا مَغربٌ إلا له فيه مادح
وما كنت أدرى ما فواضل كفه … على الناس حتى غيَّبته الصفائح

(١) الغادية السحابة تنشأ غدوة (٢) المترع الملآن (٣) تصدع : تتصدع : أى تتشقق
(٤) مرعى ترعى فيه الإبل (٥) العرنين الأنف أو أوله ما يلى الحاجبين وهو موضع الشمم.

فأصبحَ فى لحد من الأرض مَيتاً ... وكانت به حيًّا تَضيق الصحاصح[1]
فما أنا من رُزْء وإن جلّ جازعٌ ... ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حىّ سواك ولم يَقم ... على أحد إلا عليك النوائح
لئن حسنتْ فيكَ المراثى وذكرُها ... لقد حَسنتْ من قبلُ فيك المدائح

الهجاء — وقال حماد عجرد :

حُريث أبو الصلت ذو خبرة ... بما يصلح المعدة الفاسدهْ
تخوّف تخمة أضيافه ... فعوّدهم أكلة واحده

وقال خلفٌ الأحمر :

لنا صاحبٌ مولع بالخلاف ... كثير الخطاء قليل الصواب
ألجُّ لجاجاً من الخنفساء ... وأزهى إذا ما مشى من غراب

وقال أبو على البصير :

لعمر أبيك ما نسب المعلى ... إلى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلادَ إذا اقشعرتْ ... وصوّح نبتُها رُعىَ الهشيم[2]

وقال العتابى :

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ... فأصبحت ذا يُسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشفَ الإثراء منك مخازياً ... من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر

وقال الأبيوَردى :

وقصائد مثل الرياض أضعتها ... فى باخل ضاعت به الأحساب
فإذا تناشدها الرواة وأبصروا الـ ... ـممدوح قالوا : ساحر كذاب

الاعتذار — وقال على بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك ألا حرمةٌ ... تجود بعفوك أن أبعدا

---

(١) الصحاصح جمع صحصح وهو ما استوى من الأرض . (٢) صوح يبس . والهشيم : الجاف من النبات .

لئن جلّ ذنب ولم أعتمد لأنت أجل وأعلى يدا
ألم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ورشيداً هدى
ومفسد أمر تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلنى أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

وقال إبراهيم بن المهدى فى أبيات يعتذر بها للمأمون :

الله يعلم ما أقول فإنها جهد الألية من مُقرّ خاضع
ما إن عصيتك والغواة تمدنى أسبابها إلاّ بنية طائع

وقال أيضاً :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فكنه

وقال الحسن بن وهب :

ما أحسن العفو من القادر لا سيما عن غير ذى ناصر
إن كان لى ذنب (ولا ذنب لى) فما له غيرُك من غافر
أعوذ بالود الذى بيننا أن يفسُد الأول بالآخر

الوصف — وقال ابن المعتز يصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عن الليل :

ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكرَ الرياض للأمطار؟
قد تولت زُهر النجوم وقد بشّـ ر بالصبح طائر الأسحار
وغناء الطيور كل صباح وانفتاق الأشجار بالأنوار
وكأن السحاب يجلو عروساً وكأنا من قطره فى نِثار

وقال طباطبا يصف الليل والنجوم :

ربّ ليل صحبته كاسف البا ل كئيباً حليف همّ شتيت
مؤنساً ربطه بطول أنين وهو لى موحش بطول السكوت
تحت سقف من الزمرد قد رصّـ ع حسناً بالدرّ والياقوت

لئن جلّ ذنب ولم أعتمدْ ... لأنت أجل وأعلى يدا
ألم ترَ عبداً عدا طوره ... ومَولى عفا ورشيداً هدى
ومفسدَ أمر تلافيته ... فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلنى أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى

وقال إبراهيم بن المهدى فى أبيات يعتذر بها للمأمون :

الله يعلم ما أقول فإنها ... جهد الألية من مُقرّ خاضع
ما إن عصيتك والغواة تمدنى ... أسبابها إلاّ بنية طائع

وقال أيضاً :

ذنبى إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى ... من الكرام فكنه

وقال الحسن بن وهب :

ما أحسن العفو من القادر ... لا سيما عن غير ذى ناصر
إن كان لى ذنب (ولا ذنب لى) ... فما له غيرُك من غافر
أعوذ بالود الذى بيننا ... أن يفسُد الأول بالآخر

الوصف — وقال ابن المعتز يصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عن الليل :

ما ترى نعمة السماء على الأر ... ض وشكرَ الرياض للأمطار؟
قد تولت زُهر النجوم وقد بشـ ... ـر بالصبح طائر الأسحار
وغناء الطيور كل صباح ... وانفتاق الأشجار بالأنوار
وكأن السحاب يجلو عروساً ... وكأنا من قَطره فى نثار

وقال طباطبا يصف الليل والنجوم :

ربّ ليل صحبته كاسف البا ... ل كئيباً حليف همّ شتيت
مؤنساً ربطه بطول أنين ... وهو لى موحش بطول السكوت
تحت سقف من الزمرد قد رصـ ... ـع حسناً بالدرّ والياقوت

وقال أبو بكر الصنوبرى يصف ديكاً :

مغرّد الليل ما يألوك تغريدا ... ملّ الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا
لما تطرّب هز العطف من طرب ... ومدّ للصوت لما مدّه الجيدا
كلابس مُطرَفاً مُرخى ذوائبه ... تضاحك البيض من أطرافه السودا
حالى المقلد لو قيست قلائده ... بالورد قصر عنه الورد توريدا

الاجتماع والسياسة — قال شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم لعبد الله عم السفاح يغريه بالأمويين وقد حضروا لديه ووضعت لهم الكراسى والنمارق :

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وترَ هاشم فشفوْها ... بعد ميْل من الزمان وياس
لا تُقيلنّ عبد شمس عثاراً ... واقطعنْ كل رقلة[1] وغراس
ذلُّها أظهر التودّد منها ... وبها منكم كحزّ المواسى
ولقد ساءنى وساء سوائى ... قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرعَ الحسين وزيد[2] ... وشهيد بجانب المهراس[3]
والقتيل الذى بحرّان[4] أضحى ... ثاوياً بين غربة وتناسى

وقال يزيد المهلبى من قصيدة يرثى بها المتوكل ويبكت بها بنى العباس فى نبذهم العرب واستغنائهم بمماليك الترك :

لما اعتقدتم أناساً لا حلومَ لهم ... ضعتم وضيعتمُ من كان يُعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قومهم الجِذمُ والأنساب تجمعهم ... والمجد والدين والأرحام والبلد
إذا قريش أرادوا شدّ ملكهمُ ... بغير قحطانَ لم يبرح به أوَدُ[5]

---

(١) نخلة (٢) هو ابن زين العابدين على بن الحسين (٣) إماه بأحد قتل عنده حمزة عم النبى (٤) بلد بالشأم قتل فيه إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس — وإبراهيم هذا أخو السفاح (٥) عوج .

الحكمة والمثل – قال صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدّبته فى الصّبا ... كالعود يُسقى الماء فى غَرْسه
حتى تراه مُونقاً ناضراً ... بعدَ الذى أبصرْتَ من يُبسه
والشيخُ لا يترُك أخلاقه ... حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمسه
إذا ارْعوى عاد إلى جهله ... كذى الضنى عاد إلى نكسه

وقال بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنهُ ... مقارف ذنب مرّةً ومجانبه
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القذى ... ظمئتَ وأىّ الناس تصفو مشاربه

وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طُويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرْف العود

قال أبو الطيب المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
لا يخدعنك من عدوّ دمعه ... وارحمْ شبابك من عدوّ ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدّم
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفةٍ فلعلة لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يَرْعوى ... عن غيه وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ... ومن الصداقة ما يضرّ ويُؤْلم

الشعر

ولم يقصر الشعر على الموالى فى صدر الدولة العباسية كالكتابة ، بل اشتركوا فيه هم وغيرهم من أعراب البادية أحياناً ، ومن سلائل العرب بالأمصار أخرى ،

غير أن بضعة من فحول صدر الدولة كانوا موالى مثل بشار وأبى نواس ومسلم وأبى العتاهية وابن الرومى .

ومن أشعر شعراء الأمصار من العرب أبو تمام والبحترى وابن المعتز والمتنبى وأبو فراس وأبو العلاء المعرّى وابن هانئ الأندلسى والشريف الرضى . ثم فتر أمر الشعر فى البادية إلا قليلاً ، وأصبح الشعراء المجوّدون لا ينجمون إلا من الحواضر عرباً كانوا أو موالى .

التكسب بالشعر

أتى عصر الدولة العباسية والتكسب بالشعر ضارب بجرانه : والرحلة به إلى الخلفاء والولاة نحلة مألوفة ، فلم يتركها بنو هاشم وولاتهم من العرب ومستعربى الأعاجم حرفة تمشى على رسلها ، حتى ساقوها قدماً إلى غاياتها بوفير عطاياهم ، وجزيل جوائزهم ، وجعل لهم المهدى والرشيد والمأمون أياماً لملاقاتهم : واستماع ما تنتجه قرائحهم ، ترفيهاً للغة وإعلاء لشأن الأدب ، وبالغوا فى إكرام الشعراء إلى حد أوجب الشك فى صحة الأخبار المروية عنهم فى ذلك . فبعد أن كانت جوائز الصدر الأول حقائب الحنطة والزبيب والتمر ، أو الأذواد من الإبل وبعض التخوت من الثياب صارت بدر الدنانير وعشرات الألوف من الدراهم ، عدا الجوارى المولدة ، والعبيد الفارهة ، والخيول المطهمة ، بل الضياع العامرة ، ذات الغلات الوافرة ، ولقد ارتقى كثير من الشعراء بشعرهم إلى رتبة الوزارة ، وولاية النواحى كمسلم بن الوليد ، وأبى تمام ، ومحمد بن عبد الملك الزيات[1] ، وابن زيدون ، وإبراهيم الصولى حتى طمع بعضهم أن ينال به الملك ، كالمتنبى ، وابن عمار الأندلسى[2] غير أنه دهى هذه الصناعة ما دهى العرب عامة أخريات هذا العصر ، باستعجام السلاطين والقواد فتكسب كثير من الشعراء بالكتابة

(١) هو الوزير العظيم الشاعر الكاتب السياسى الجبار محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل نكبه المتوكل لحقد قديم وعذبه حتى مات سنة ٢٣٣ هـ (٢) هو الشاعر البليغ ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار المهرى الأندلسى الشاى وزير المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية من ملوك الطوائف خرج عليه واستقل بناحية تدمير فقتله المعتمد سنة ٤٧٧ هـ

فى الهولويين وقصروا مدحهم على ملوكهم ، وقلت الرحلة بالشعر إلى الأقاليم ، واستبدل الشعر بالمدح الأوصافَ والألغازَ والأحاجىَّ والسخرية والمزاح ، مما بلغ أشده فى العصر التالى .

(١) بشار بن بُرْد

هو أبو معاذ بشار المرعَّث[١] بن برد أشعر مخضرمى الدولتين ورأس الشعراء المحدثين ، وممهد طريق الاختراع والبديع المتفننين ، وأحد البلغاء المكفوفين .

وأصله من فرس طخارستان[٢] . من سبى المهلب بن أبى صُفْرَةَ وقع ملكُ أبويه لبنى عقيل بن كعب ، فنشأ بشارٌ فيهم وتربى فى منازلهم ، واختلف إلى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر . وكان أكمه جلود الوجه . قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، متوقد الذكاء ، صادقَ الحس ، لطيف الهداية ، شديد المجون والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بمجافاة الدين ، قليل المبالاة بالورع فيه ؛ متهماً بالزندقة ، شعوبيًّا متعصباً على العرب ، شديد التبرم[٣] بالناس ، نهاشاً لأعراضهم ، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشاراً ولا بشارٌ يعرفه . فإنه إن لم يصبه فى عرضه أصابه فى ماله .

وقال بشار الشعرَ ولم يبلغ عشر سنين ، وما بلغ الحلم إلا وهو مَخشىٌّ معرة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشاراً هو رأس المحدثين ، وأسبقهم إلى معاطاة البديع ، وطرّق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المقذع ، وأنه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتقَ عن المعانى الدقيقة والأخيلة اللطيفة ؛ حتى عد شعره برزخاً بين الشعر القديم والحديث ، ومجازاً يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة .

---

(١) لأنه كان فى أذنه (رعثة) أى قرط .
(٢) اقليم بناحية ما وراء النهر على جيحون .
(٣) التضايق بالناس .

وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها . وغلب عليه الهجاء والتشبب بالنساء والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمنه ، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون ، لما رأوا من سوء أثره فى شبان البصرة ، وقد نهاه المهدى عن التشبيب فكان إذا مالت له نفسه يذكر منهُ ما يشاء ، ويقول إن الخليفة منعه من كذا وكذا وإنه له مطيع . وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة فلم يزد على أن حرمه الجائزة ، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود وكان متورعاً ، فهجاهما فكان ذلك إلى زندقته سببَ قتله سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين . وهاجى بشارٌ الشعراء المفلقين . ونصب له منهم حمادُ عجرَد واحتدم بينهما اللجاج والتقاذف بالأقوال المقذعة ؛ وظهر حمادٌ عليه فى بعض أهاجيه وآلمهُ وإن لم يسقط منزلته .

ومن شعره فى المشورة والحكم والنصائح :

إذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستعنْ ... برأى نَصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة(١) ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغلَّ(٢) أختها ... وما خير سيف لم يؤيدْ بقائم
وخل الهوينى(٣) للضعيف ولا تكن ... نَئوماً فإن الحر ليس بنائم

وقال يفتخر بولائه لمضر :

إذا ما غضبنا غَضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما(٤)
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ... ذُرَا منبر صلى علينا وسلما(٥)

وقال يهجو عبيد الله بن قَزْعة :

خليلىَّ من كعب أعينا أخاكما ... على دهره إن الكريم معين
ولا تبخلا بخلَ ابن قَزْعة إنه ... مخافة أن يُرجى نداه حزين

(١) مذلة ونقيصة (٢) حديد أو حبل تشد به اليد إلى العنق (٣) تصغير الهوان مؤنث الأهون ، ومعناه التباطؤ والتمهل (٤) أى شققنا النقع الذى يحجب الشمس كالسحب بإعمال سيوفنا حتى تمطر السماء (المفهوم من المقام) دماً .
(٥) يريد أن كل خطيب يفتتح خطبته بالصلاة والسلام على محمد وآله وهم من مضر .

كأن عُبيدَ الله لم يلق ماجداً ولم يدر أن المكرماتِ تكون
فقل لأبي يحيى متى تدركُ العلا وفى كل معروف عليك يمين
إذا جئته فى حاجة سدّ بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين

ومن أبياته السائرة :

الحر يلحَى والعصا للعبد وليس للمُلْحِف مثل الرد

تسقط الطير حيث ينتثر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

(٢) أبو نُواس

هو أبو على الحسن بن هانئ ، الشاعر المتفنن ، الجادّ الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدّثين بعد بشار .

وهو فارسى الأصل ولد بقرية من كورة خوزستان[1] سنة ١٤٥ هـ . ونشأ يتيماً . فقدمت به أمه البصرةَ بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب فى الأدب فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته إلى عطار بالبصرة . فمكث عنده لا يفتر عن مُعاناة الشعر ، والاختلاف إلى الأدباء والمجان إلى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفىّ فى إحدى قدَماته إلى البصرة . فأعجبَ كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبة إلى الكوفة ، فبقى معه ومع ندمائه من خلعائها ، وتخرج فى الشعر وفاقهم جميعاً . وقدمَ بغدادَ وقد أربتْ سنّه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم . وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه . فمدحه بقصائد طنانة ، وحبسه مرة على هجوه مُضر .

وكان يقصد عمال بعض الولايات ويمدحهم ، ومنهم الخصيب عاملُ مصر ، ثم انقطع إلى مدح محمد الأمين . وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيزه فسجنه . ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد سنة سنة ١٩٩ هـ[2] .

---

(١) شرق البصرة

(٢) هذا رأى جامع ديوانه حمزة الأصبهانى ، [illegible] روايات أخرى .

كأن عُبيدَ الله لم يلق ماجداً ولم يدر أن المكرماتِ تكون
فقل لأبي يحيى متى تدركُ العلا وفى كل معروف عليك يمين
إذا جئته فى حاجة سدّ بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين

ومن أبياته السائرة :

الحر يلحَى والعصا للعبد وليس للمُلْحِف مثل الرد
تسقط الطير حيث ينتثر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء
ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

(٢) أبو نُواس

هو أبو على الحسن بن هانئ ، الشاعر المتفنن ، الجادّ الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدَثين بعد بشار .

وهو فارسى الأصل ولد بقرية من كورة خوزستان(١) سنة ١٤٥ هـ . ونشأ يتيماً . فقدمت به أمه البصرةَ بعد سنتين من مولده . فتعلم العربية ورغب فى الأدب فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته إلى عطار بالبصرة . فمكث عنده لا يفتر عن مُعاناة الشعر ، والاختلاف إلى الأدباء والمجان إلى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفىّ فى إحدى قدَماته إلى البصرة . فأعجبَ كل منهما بالآخر . فأخرجه والبة إلى الكوفة ، فبقى معه ومع ندمائه من خلعائها ، وتخرج فى الشعر وفاقهم جميعاً . وقدمَ بغدادَ وقد أربتْ سنّه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم . وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه . فمدحه بقصائد طنانة . وحبسه مرة على هجوه مُضر .

وكان يقصد عمال بعض الولايات ويمدحهم ، ومنهم الخصيب عاملُ مصر . ثم انقطع إلى مدح محمد الأمين . وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيزه فسجنه . ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد سنة سنة ١٩٩ هـ(٢) .

(١) شرقى البصرة (٢) هذا رأى جامع ديوانه حمزة الأصبهانى ، وفى ابن خلكان روايات أخرى .

وكان أبو نواس جميلَ الصورة ، فكهَ المحضر ، كثير الدّعابة ، حاضرَ البديهة ، متيناً فى الشعر واللغة والأدب ، متعصباً لليمانية على المضرية. وأكثر علماء الشعر ونقدّته وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعرُ المحدَثين بعد بشار وأكثرهم تفنناً ، وأرصنهم قولاً ، وأبدعهم خيالاً ، مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعرٌ مطبوع برّز فى كل فن من فنون الشعر ، وامتاز بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات وأراجيزه الطرديات[1]، وكان شعره لقاحَ الفساد ، والقدْوَةَ السيئة لنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر ، والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم ، إذ لم يكن ذلك معروفاً قبله وقبل شيطانه والبة . وزاد على ذلك انفراده (بالإبداع) فى وصف الخمر ، فكان أُنموذَج سوء لمن تأخر ؛ فافتتن بشعره الشبان فى زمانه وبعده ، وحاكوه ، وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعد ظريفاً إلا إذا مزج شعره بشىء من ذلك ، وإن لم يقع فى محظوراته .

ومن جيد شعره قوله فى التشبيب والمدح :

تقول غداة البين إحدى نسائهم ... لى الكبد الحرّى فسر ولك الصبر
وقد خضبتها عبرة فلدمعها ... على خدّها خد[2] وفى نحرها نحر[3]
وقالت : إلى العباس؟ قلت فمن إذاً ... ومالى عن العباس معدى[4] ولا قصر
فهل يكفلنْ إلا براحته الندى ... وهل يُزهونْ إلا بأوصافه الشكر

وقوله فى الحماسة :

ومستعبد إخوانه بثرائه ... لبست له كبراً أبرّ على الكبر
إذا ضمنى يوماً وإياه محفل ... رأى جانبى وعراً يزيد على الوعر
أخالفه فى شكله وأجره ... على المنطق المنزور والنظر الشزر
لقد زادنى تيهاً على الناس أننى ... أرانىَ أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لسانىَ حاجة ... إلى أحد حتى أغيب فى القبر

---

(١) هى أقواله فى مطاردة الصيد وفيها يصف تبكيره إلى الصيد وكلابه وأوابد الوحش وكان من أبرع خلق الله وصفاً لكلب حتى نحله الرواة طرديات غيره (٢) شق (٣) شق أيضاً (٤) أى تجاوز لأنه مصدر ميمى من عدا بمعنى تجاوز .

فلا تطمعن فى ذاك منى سُوقة ... ولا ملك الدنيا المحجب فى القصر
فلو لم أرث فخراً لكان صيانتى ... فمى عن سؤال الناس حسبى من الفخر

وقوله ينعت كلباً :

أنعت كلباً أهله من كَدِّه ... قد سعدت جدودهم بجده
وكل خير عندهم من عنده ... يظل مولاه له كعبده
يبيت أدنى صاحب من مهده ... وإن عَرى جلله ببرده
ذا غرة محجلاً بزَنده ... تلذ منه العين حسن قده
تأخير شدقيه وطول خده ... تلقى الظباء عنتاً من طرده
يشرب كأساً شدها بشده ... يصيدنا عشرين فى مُرقدِّه(١)
يا لك من كلب نسيج وحده

ومن أبياته السائرة قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

(٣) مسلم ابن الوليد

هو صريع الغوانى أبو الوليد مسلمُ بن الوليد الأنصارى : أحد الشعراء المفلقين والبلغاء المبدعين .

قال الشعر فى صباه ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء مكتفياً بما يناله من قليل العطاء وينفقه على مَلذاته مع إخوانه من خلفاء الشعراء ، ثم انقطع الى يزيد بن مَزْيد الشيبانى قائد الرشيد ، ثم اتصل بالخليفة هرون الرشيد وعدّ من شعرائه ، ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه ولما أصبح الحل والعقد بيدى ذى الرياستين : الفضل بن سهل وزير المأمون فى أوّل خلافته قرّبه وأدناه

(١) إسراعه

لأنه كان من خاصته قبل وزارته ، وولاّه أعمالاً بجرجان اكتسب منها ألف درهم ، ثم لزم منزله إلى أن أنفقها فى اللذات : وعاد إلى الفضل فقلده الضياع بأصبهان فاكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما مات الفضل لزم منزله وتنسك ولم يمدح أحداً حتى مات بجرجان(١) سنة ٢٠٨ هـ .

شعره وسلم أوّل من تكلف البديعَ فى شعره واستكثر منه فى قوله ، وسبقه بشارٌ إلى استعمال البديع إلا أنه لم يبلغ شأوَ مسلم فيه ؛ وقد عد العلماء هذا التصنع والتكلف إفساداً للشعر ؛ إذ تبعه فى ذلك الشعراء : مثل أبى تمام والبحترى وابن المعتز وغيرهم .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين فضمنه المعانى اللطيفة . وكساه الألفاظ الظريفة فله جزالة البدويين ورقة الحضريين .

طائفة من شعره ومن كلامه فى المدح :

وَرَدْنَ رواق الفضل فضل بن خالد ... فحط الثناء الجزلَ نائلهُ الجزلُ
بكفّ أبى العباس يُستمطر الغنى ... وتستنزل النُّعْمى ويسترعف النصْلُ(٢)
ويستعطف الأمر الأبىّ بحزمه ... إذا الأمر لم يعطفه نقضٌ ولا فتلُ

وقوله :

قالوا أبو الفضل محمود فقلت لهم ... نفسى الفداءُ له من كل محذور
يا ليت علته بى غير أن له ... أجرَ العليل وأنى غير مأجور

ومن قوله فى الرثاء :

أما القبور فإنهنّ أوانس ... بجوار قبرك والديار قبور
عمت مصيبته وعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور
ردت صنائعه إليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور

ومن هجائه لدعبل الخزاعى :

أما الهجاء فدقّ عرضُك دونه ... والمدح عنك كما علمتَ جليل

---

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين إلى الجنوب الشرقى منه (٢) رعف سال بالدم أى يستدمى السيف .

عجبت لقلت حقيقة عرضك له   عرضٌ عززتَ به وأنت ذليل

ومن جيد قوله:

زموا لينتقلوا فيه عن عقوته   خليب تراب القبر عنه عن قبر

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

دلت على عيبها الدنيا وصدقها   ما استرجع الدهر مما كان أعطاني

(٤) أبو العتاهية

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد. أشهر أهل زمانه شعراً، وأكثرهم قولاً، وأسهلهم لفظاً، وأسرعهم بديهة وارتجالاً. وأولَ من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد في الدنيا والنهي عن الاغترار بها. وأكثرَ من سلكه.

ولد بعين التمر(1) سنة ١٣٠ هـ. ونشأ بالكوفة في عمل أهله وكانوا باعةَ جرار؛ إلا أنه رغب بنفسه عن عملهم. وقال الشعر في صباه وانصرف بجملته إليه حتى صار كما قال هو عن نفسه. (لو شئتُ أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلتُ) فذاع صيته؛ وسلك طريق خُلعاء الكوفة — ثم قدم بغداد ومدح المهديَّ وعرف بعض خدم قصر الخلافة وجواريه. فعشق منهن عتبة جارية. ولما يئس منها سلا عنها بعضَ الشيء؛ ودرس كثيراً من مذاهب المتكلمين والشيعة والمجبرة والزهاد؛ فكان يسلك كل مذهب منها عدة أيام، ثم ينتقل عنه إلى الآخر؛ حتى انتظم له من كل ذلك عقيدةٌ خاصةٌ. أفضت به إلى العبادة والزهد في الدنيا قولاً وعيشةً على إفراط منه في حب المال وشح له واستبداد به على الأهل والولد والخادم.

ولم يلبث عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل؛ وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله؛ وهو في خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جوائزهم. ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة؛ حتى حبسه الرشيد لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه. ثم أطلقه بعد أن أجاب

(1) قرية قرب الأنبار.

فاذهب فأنت طليق عرضك أنه عرْضٌ عزَزْتَ به وأنت ذليل

ومن جيد قوله :

أرادوا ليخفوا قبره عن عَدوّه فطيب تراب القبر دل على القبر

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

دلت على عيبها الدنيا وصدّقها ما استرجع الدهر مما كان أعطانى

(٤) أبو العتاهة

هو أبو إسحقَ إسماعيلُ بن القاسم بن سُوَيد ، أطبع أهل زمانه شعراً ، وأكثرهم قولاً ، وأسهلهم لفظاً ، وأسرعهم بديهة وارتجالاً ، وأوّل من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها ، وأكثرَ من الحكمة .

ولد بعين التمر[1] سنة ١٣٠ هـ . ونشأ بالكوفة فى عمل أهله وكانوا باعةَ جرار ، إلا أنه رَبأ بنفسه عن عملهم . وقال الشعر فى صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه . (لو شئتُ أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلتُ) فذاع صيته ؛ وسلك طريق خُلعاء الكوفة — ثم قدم بغداد ومدح المهدىّ وتعرف ببعض خدم قصر الخلافة وجواريه ؛ فتعشق منهن فتاة تدعى عُتبة . ولما يئس منها لها عنها بعضَ الشىء ، ودرس كثيراً من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبرية والزهاد ، فكان يسلك كل مذهب منها عدة أيام ؛ ثم ينتقل عنه إلى الآخر ، حتى اختار له من كل ذلك عقيدةً مختلفةً ؛ أفضت به إلى العبادة والزهد فى الدنيا قولاً ومعيشةً على إفراط منه فى حب المال والجمع له والبخل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل ، وقصر قوله على الزهد فى الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ؛ وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جوائزهم . ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر ألبتة ، حتى حبسه الرشيد لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه . ثم أطلقه بعد أن أجاب

(١) قرية قرب الأنبار .

طلبته وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه . وترك الغزل والهجاء ، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ هـ . ببغداد .

ويمتاز شعره بالسهولة المتناهية بالإضافة إلى أهل عصره . وانطباعه ورقته وقرب معانيه : مما يجول بخواطر الخاصة والعامة ، ولا سيما الزهاد منهم : فكان بذلك شاعر الملوك والسوقة .

ومن شعره يمدح المهدى :

أتته الخلافة منقادة إليـــه تجرّر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يكُ يصلح إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولولم تطعه بنات القلوب لما قبلَ الله أعمالها
وإن الخليفة من بغض لا إليه ليبغض من قالها

وكتب على البديهة فى ظهر كتاب :

ألا إننا كلنا بائدُ وأى بنى آدمْ خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكلٌّ إلى ربه عائد
فياعجبا كيف يعصى الإ! ه أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحـــد

ومن حكمه وأمثاله مزدوجته التى ضمنها أربعة آلاف مثل . ومنها :

حسبك مما تبتغيـــه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
هى المقاديرُ فلمنى أوفذَرْ إن كنت أخطأت فما أخطا القدر

ومنهـــا :

إن الشباب والفراغ والجـــده مَفسدةٌ للمرء أىّ مَفسده

ومن قوله :

ما الناس إلا للكثير المال أو لمسلط ما دام فى سلطانه

فإذا الزمان رماها ببليـــة ... كان الثقات هناك من أعوانه(١)

ومن قوله أيضاً :

عذيرى من الإنسان لا إن جفوته ... صفا لى ولا إن صرت طوع يديه

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب ... يروق ويصفو وإن كدرت عليه

(٥) أبو تمام

منشؤه

هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان ، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البحترى ، وثالثهم المتنبى . والمشهور فى نسبه أنه عربى طائى (٢) ولد سنة ١٩٠ هـ . بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق وكان أبواه فقيرين . ونقل صغيراً إلى مصر فنشأ بها وكان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو . ولعل طول مقامه بالمسجد (وهو يومئذ عش العلماء) حبب إليه العلم والأدب ، فتعلم العربية وحفظ ما لا يحصى من شعر العرب ، ونبغ فى قوله . ثم خرج إلى مقر الخلافة فمدح المعتصم وحظى عنده ، ومدح وزيره محمد ابن الزيات والحسن بن وهب(٣) صاحب ديوان رسائله وغيرهم ، ورحل إلى كبار العمال بممالكهم ومدحهم بالقصائد الخالدة ، وقربوه منهم إلى حد الصداقة والإخاء ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر ، فولاه الحسن بن وهب بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات سنة ٢٣١ هـ(٤) .

وكان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة ، حاضر الذهن ،

---

(١) أى من أعوان الزمان .

(٢) اختلف فى صحة نسبه إلى طىء فكثير يقول إن أباه كان نصرانياً من أعاجم الشام وكان اسمه (تدوس) فغير إلى (أوس) ونحن نرجح رأى من يقول بعربيته ومنهم صاحب الأغانى الذى يقول فيه إنه (من نفس طىء صليبة) .

(٣) أجداد آل وهب وذريتهم أهل كتابة وبلاغة كتبوا الأمراء والخلفاء منذ صدر الإسلام إلى أواسط الدولة العباسية .

(٤) فى مولد أبى تمام ووفاته روايات عدة اخترنا منها هذه .

سريع الجواب ، قلما عُرف من أهل زمانه مثله فى حدّة الخاطر ولطافة الحس[1] .

شعره وُيعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدَّثين ، انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد مُلئتْ بترجمة علوم الأوائل وحكمها : من اليونان والفرس والهند ، فحصُف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة . وكان أول من استكثر من الحكم والأمثال فى القصائد ، والاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية ، والكنايات الخفية ، ولو أفضى به ذلك إلى التعقيد أحياناً ، وحاول ستر ذلك بالجناس والطباق والاستعارة فسلم له بعضُها واعتل عليه بعضها[2] ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالكلف فى صفحة البدر ، ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها سابق وعجز عن محاكاتها كل لاحق .

وهو الذى مهد طريق الحكم والأمثال للمتنبى وأبى العلاء وغيرهما : ولذلك كان يقال : إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر هو البحترى .

ولم يرزق أحدٌ السعادة فى شعره وتناول الناس له نقداً وشرحاً واشتهاراً به مثل هؤلاء الثلاثة .

وأجاد أبو تمام فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدر بشعر .

وأشهرها القصيد التى رثى بها محمد بن حُميد الطائى[3] ومنها :

---

(١) حكى أنه لما مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية وانتهى فيها إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له أبو يوسف يعقوب الكندى الفيلسوف وكان حاضراً « الأمير فوق من وصفت » فأطرق ملياً وقال ارتجالاً :

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

(٢) كقوله : خان الصفاء أخ خان الزمان أخا ... عنه فلم يتخون جسمه الكمد

وكقوله : يوم أفاض جوى أغاض تعزيا ... خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

(٣) هو أبو نصر محمد بن حميد ، وهو وإخوته من شيعة الدولة العباسية وأنصارها وقوادها ، قتل فى إحدى وقائع الخرمية أصحاب بابك الخرمى .

سريع الجواب ، قلما عُرف من أهل زمانه مثله فى حدّة الخاطر ولطافة الحس[١] .

ويُعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدَثين ، انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد مُلئتْ بترجمة علوم الأوائل وحكمها : من اليونان والفرس والهند ، فحصُف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة . وكان أول من استكثر من الحكم والأمثال فى القصائد ، والاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية ، والكنايات الخفية ، ولو أفضى به ذلك إلى التعقيد أحياناً ، وحاول ستر ذلك بالجناس والطباق والاستعارة فسلم له بعضُها واعتل عليه بعضها[٢] ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالكلف فى صفحة البدر ، ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها سابق وعجز عن محاكاتها كل لاحق . شعره

وهو الذى مهد طريق الحكم والأمثال للمتنبى وأبى العلاء وغيرهما : ولذلك كان يقال : إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر هو البحترى .

ولم يرزق أحدٌ السعادة فى شعره وتناول الناس له نقداً وشرحاً واشتهاراً به مثل هؤلاء الثلاثة .

وأجاد أبو تمام فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدر بشعر .

وأشهرها القصيد التى رثى بها محمد بن حُميد الطائى[٣] ومنها :

---

(١) حكى أنه لما مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية وانتهى فيها إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له أبو يوسف يعقوب الكندى الفيلسوف وكان حاضراً « الأمير فوق من وصفت » فاطرق ملياً وقال ارتجالا :

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

(٢) كقوله : خان الصفاء أخ خان الزمان أخا ... عنه فلم يتخون جسمه الكمد

وكقوله : يوم أفاض جوى أغاض تعزياً ... خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

(٣) هو أبو نصر محمد بن حميد ، وهو وإخوته من شيعة الدولة العباسية وأنصارها وقوادها ، قتل فى إحدى وقائع الخرمية أصحاب بابك الخرمى .

نموذج من شعره

كذا فليجِل الخطب وليفدح الأمر — فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد — وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله — وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه — إذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا فى سبيل الله من عطلت له — فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة — دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه — ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة — تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه — من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده — إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما — هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله — وقال لها من تحت إخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه — فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء(١) :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى — فالسيل حرب (٢) للمكان العالى
وتنظرى(٣) خبب(٤) الركاب(٥) ينصها(٦) — محيى القريض(٧) إلى مميت المال

ومن قوله فى الحجاب :

يأيها الملك النائى بغرته — وجوده لمرجى جوده كثب(٨)
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا — إن السماء ترجى حين تحتجب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها — على ما فيك من كرم الطباع

---

(١) من رؤساء الكتاب فى دولة المأمون والمعتصم . (٢) أى محارب (٣) انتظرى
(٤) سرعة سير (٥) إبل السفر (٦) يسوقها (٧) يريد نفسه (٨) قريب .

وقال :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ⁂ ويُكدى الفتى فى دهره وهو عالم

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ⁂ هلكن إذاً من جهلهن البهائم

وقال فى وصف سحابة :

سحابة صادقة الأنواء ⁂ تجرّ أهداباً على البطحاء

تجمع بين الضحك والبكاء ⁂ بدت بنار وثنت بمـاء

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عمورية ويسخر فيها بالمنجمين وأولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ⁂ فى حدّه الحدّ بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ⁂ متونهن جلاء الشك والريب

(٦) البحترى[١]

هو أبو عُبادة الوليد عُبيد الطائى الشاعر المطبوع ؛ أشهر من استحق لقب (شاعر) على الإطلاق بعد أبى نواس .

ولد سنة ٢٠٦ هـ . بناحية منبج[٢] فى قبائل طئ وغيرها من البدو الضاربين فى شواطئ الفرات ؛ ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحة العرب ؛ ولازم وهو فتى أبا تمام وعليه تخرج واقتبس طريقته فى البديع بغير إفراط ؛ وخرج إلى العراق وأقام فى خدمة المتوكل والفتح بن خاقان محترماً عندهما مرعى الجانب ؛ إلى أن قتلا فى مجلس كان هو حاضره ؛ فرجع إلى منبج ؛ وبقى يختلف أحياناً إلى رؤساء بغداد وسر من رأى حتى مات سنة ٢٨٤ هـ .

وكان على فضله وفصاحته ورقة كلامه وبديع خياله من أبخل خلق الله وأوسخهم ثوباً ، وأبغضهم إنشاداً وأكثرهم فخراً بشعره ؛ حتى كان يقول إذا أعجبه شعره : أحسنتُ والله ، ويقول للمستمعين : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله .

---

(١) نسبة إلى بحتر بطن من طئ .

(٢) بين الفرات وحلب .

شعره

والكثير على أنه لم يأت بعد أبي نواس من هو أشعر من البحترى . ولا بعد البحترى من هو أطبع منه على الشعر . ولا أبدع منه فى الخيال الشعرى . ولنشأته البدوية ابتعد فى شعره عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم . فكان شعره كله بديع المعنى حسن الديباجة . صقيل اللفظ . سلس الأسلوب كأنه سيل ينحدر إلى الأسماع . مجوّداً فى كل غرض سوى الهجاء ؛ ولذلك اعتبره كثير من أهل الأدب الشاعر الحقيق . واعتبروا أمثال أبى تمام والمتنبي والمعرى حكماء ؛ ولسهولة شعره ورقته كان أكثر الأصوات التى يتغنى بها فى زمنه من شعره . وله ديوان كبير طبع فى جزءين فى الآستانة وغيرها ومن أحسن

نبذة من

شعره قوله :

دنوت تواضعاً وعلوت مجداً فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

ومن قوله فى سرى الليل وطلوع الفجر :

ولقد سريت مع الكواكب راكباً أعجازها[١] بعزيمة كالكوكب
والليل فى لون الغراب كأنه هو فى حلوكته[٢] وإن لم ينعب[٣]
والعيس[٤] تنصُل[٥] من دجاه كما انجلى صبغ الخضاب عن القذال[٦] الأشيب
حتى تبدّى الفجر من جنباته كالماء يلمع من خلال الطحلب[٧]

ومن قوله فى الحكمة :

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها بنات زمان أرصدتْ لبنيه
متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقبْ إلا خمول نبيه

وقال يمدح أمير المؤمنين المتوكل :

بسرّ من رآ لنا إمام تغرف من بحره البحار
خليفةٌ يُرتجى ويخشى كأنه جنة ونار
كلتا يديه تفيض سحاً كأنها ضرة تغار

---

(١) مآخيرها (٢) فى شدة سواده وظلامه (٣) نعيب الغراب صياحه (٤) الإبل البيض
(٥) تخرج (٦) شعر مؤخر الرأس (٧) ا يطفو على وجه الماء الآسن من الخضرة .

فليس تأتى اليمين شيئاً إلا أنت مثله اليسار
فالملك فيه وفى بنيه ما اختلف الليل والنهار

وقال يصف الربيع :

أتاك الربيعُ الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروزُ فى غسق الدجى أوائلَ وردٍ كنَّ بالأمس نُوَّما
يُفتقها بَرْدُ الندى فكأنه يبثُّ حديثاً كان قبل مكتَّما
فمن شجر ردَّ الربيعُ لباسه عليه كما نَشَّرْت وشياً مُنمنما
أحلَّ فأبدى للعيون بشاشةً وكان قذًى للعين إذ كان مُحرَّما
ورقَّ نسيم الريح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نُعَّما

(٧) ابن الرُّومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُريج الرُّومى مولى بنى العباس ، الشاعر المكثر المطبوع ، صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، والمعانى المخترعة ، والأهاجى المقذعة .

ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ ، ونشأ بها وأقام كل حياته فيها ، وكان كثير التطير جداً وله فيه أخبار غريبة ، حتى كان أصحابه إذا أرادوا أن يعبثوا به أرسلوا إليه من يتطير من اسمه ، فلا يخرج من بيته ، ويمتنع من التصرف سائر يومه . وكان القاسم بن عبيد الله وزير المعتز ، خاف هجوه وفلتات لسانه ، فيقال إنه دس عليه من أطعمه خُشكُنانه(١) مسمومة فأكلها ، ثم أتى منزله وأقام به أياماً ومات سنة ٢٨٣ هـ ببغداد . وقيل بل مرض ووصف له الطبيب دواءً فيه سمٌ فغلطَ فى مقداره وأكثر منه فمات .

وقال ابن الرُّومى الشعر فى كل غرض ولا سيما الوصف والهجاء ، ونبغ فى الشعر نبوغاً لم يقصر به كثيراً عن درجة البحترى ، وربما فاقه فى اختراعه المعانى

(١) ترادف ما يسمى الآن (بسكويتاً) .

النادرة أو توليدها من معانى من سبقه بشكل جديد ، ووضعها فى أحسن قالب ؛ وكان إذا اخترع المعنى أو ولده من كلام غيره لا يزال يستقصى فيه وينظمه بوجوه مختلفة حتى لايدع فيه بقية ؛ وهو ممن جمع صِقال اللفظ وإجادة المعنى . ويكفيه فضلاً أن يكونَ المتنبي أحد رواة ديوانه والآخذين عنه . وكان يكثر القول فى مطوّلاته ، فيرذل منها الكثير. وله ديوان كبير طبع بعضه ، ومن معانيه البديعة قوله :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدّر فيه بُعدَ المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه[١]

وقال يمدح :

كأن مواهبه فى المحـو ... ل آراؤه عند ضيق الحيل
فلو كان غيثاً لعم البـلاد ... ولو كان سيفاً لكان الأجل
ولو كان يعطى على قدره ... لأغنى النفوس وأغنى الأمل

وقال :

كم من يد بيضاء قد أسديتها ... تثنى إليك عنانَ كل وداد
شكر الإلهُ صنائعاً أوليتهـا ... سلكت مع الأرواح فى الأجساد

وقوله فى صانع رُقاق :

ما أنس[٢] لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو[٣] الرّقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتهـا فى كفه كرةً ... وبين رؤيتها قوراء[٤] كالقمر[٥]
إلا بمقدار ما تنداح[٦] دائرة ... فى لجة الماء يلقى فيـه بالحجر

وقال فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلد صحبت به الشبيبة والصِّبا ... ولبستُ ثوبَ اللهو وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

---

(١) حبله (٢) (ما) شرطية و(أنس) فعل الشرط و(لا أنس) جوابه — والمعنى إذا نسيت شيئاً لا أنس كذا (٣) يبسط (٤) واسعة (٥) فى حسن الاستدارة والملاس (٦) تنظم وتنبسط .

وقال وهو يجود بنفسه :

غلطَ الطبيب علىّ غلطة مُوردٍ عجزت موادره عن الإصدار

والناس يلحوْن الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابةُ الأقدار

(٨) ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله ابن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله ، أشعر بنى هاشم ، وأبرع الناس فى الأوصاف والتشبيهات .

ولد سنة ٢٤٨ هجرية فى بيت الخلافة ، وتربى تربية الملوك ، وأخذ عن المبرّد[١] وثعلب[٢] ومؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقىّ[٣] وغيرهم ، ومهرَ فى العربية والأدب وكل علم يعرفه أئمة عصره وفلاسفة دهره ، حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتابها ، وعملوا على أن لا يقلدوه الخلافة خشيةَ أن يكف أيديهم عن الاستبداد بالملك ، وولّوا المقتدر صبيًّا . ثم حدثت فتنٌ عظيمة فتسرع محمد بن داود بن الجراح[٤] (وكان من أفاضل الكتاب والأدباء) وجمع العلماء والكتاب والقضاة وخلعوا المقتدر ، وبايعوا ابن المعتز بالخلافة على غير طلب منه . فلما رأى غلمان المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم حملوا على أتباع ابن المعتز فاختفى فى دار بعض التجار[٥] فقبض عليه وخنق من ليلته . ودفن بخربة بجوار داره سنة ٢٩٦ هجرية .

شعره

وكان ابن المعتز سهلَ العبارة ، كثير مراعاة البديع فى قوله مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع . ولما كان مقامه يجل عن الاكتساب بالشعر قل المدح فى كلامه : إلا فى أهل بيته من الخلفاء وبعض وزراء الدولة . وزاد التشبيهات

(١) هو النحوى البصرى العظيم والأديب الكبير أبو العباس محمد بن يزيد الأزدى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ صاحب الكامل والروضة والمقتضب (٢) هو النحوى العظيم الكوفى أبو العباس أحمد بن يحيى المشهور بثعلب ، توفى سنة ٢٩١ هـ (٣) كان أديباً متفلسفاً أدب عبد الله وروى عنه أخباره وشعره (٤) كان كاتباً عارفاً بأخبار الناس ودول الملوك ، له جملة مصنفات ، قتل فى فتنة ابن المعتز سنة ٢٩٦ هـ (٥) هو أبو عبد الله الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر الجوهرى أخذ منه المقتدر فى حادثة ابن المعتز ألفى دينار وسلم له بعد ذلك سبعمائة ألف دينار ، وكان فيه غفلة وبله على غنى مفرط ، وتوفى سنة ٣١٥ هـ .

البديعة ، وأوصاف محاسن الطبيعة ، ومجالس الأنس ، ومراسلة الإخوان فى الدعوة إليها ، ووصف الصيد وكلابه وبواشقه وفهوده ، والقلم والقرطاس ، ونحو ذلك .

والمتأمل فى شعره يعرف فيه نضرة النعيم ، وترف الملك ورقة الخيال ، ولطف الوجدان .

ومن ابتداءاته الجميلة قوله :

أخذتْ من شبابىَ الأيام ... وتولى الصبا عليه السلام
وارعوى باطلى فبان حديث النـ ... ـفس منى وعفت الأحلام

وقوله :

ما المغانى من بعدهم بالمغانى ... فليكن شأنك البكاء وشانى
امتحَى ربعهم وكان جديداً ... ونأى منهمُ الذى كان دانى
ما مررنا على لوَى فيه نُعمٌ(١) ... مذ مررنا على لوَى نعمان(٢)

ومن شعره قوله يصف فصل الربيع :

حبـذا آذار شهراً ... فيـه للنوْر انتشـار
ينقص الليل إذا حل م ... ويمتـد النهـار
وعلى الأرض اصفرار ... واخضـرار واحمـرار
فكأن الروض وشىٌ ... بالغت فيـه التجار
نقشـه آسٌ ونسريـ ... ـن وورد وبهـار

ومن تشبيهاته قوله فى الهلال :

وانظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حموله من عنبر

وقوله :

انظر إلى حسن هلال بدا ... يهتك من أنواره الحندسا(٣)
كمنجل قد صيغ من فضة ... يحصد من زهر الدجى نرجسا

(١) من أسماء نسائهم (٢) مكان وجبلان ببلاد العرب (٣) الظلام

وقال يصف :

كأن سماءنا لما تجلت … خلال نجومها عند الصباح
رياضُ بنفسج خضِل نداه … تفتح بينه نَوْرُ الأقاحى

وقال :

قد أغتدى والليل فى جلبابه … كالحبشى فرّ من أصحابه
والصبح قد كشر عن أنيابه … كأنما يضحك من ذهابه

وقال :

وفتيان عدوا والليـل داج … وضوء الصبح متهم الورود
كأن بزاتهم أمـراء جيش … على أكتافهم صدأ الحديد

(٩) أبو الطيب المتنبى

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفىّ الكندىّ الكوفى المتنبى ، الشاعر الحكيم صاحب الأمثال السائرة، والمعانى النادرة ، وخاتم ثلاثة الشعراء ، وآخر من شارف شعره غاية الارتقاء .

وهو من سلالة عربية من قبيلة جعفى بن سعد العشيرة : إحدى قبائل اليمانية ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ . فى محلة كندة ونسبَ إليها ، وليس بكندى ، ونشأ بها وأولع بتعلم العربية من صباه . وكان نادرة فى الحفظ لا يسأل عن شىء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر . وكان أبوه فيما يقال سقاء فخرج به إلى الشام ، ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلا بالمعيشة بالبادية ، فخرج إلى بادية بنى كلب ، وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة ، فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة ، إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية ؛ حتى أحاط بغريبها وحوشيها ؛ فعظم شأنه بينهم . وكانت الأعراب الضاربون بمشارف الشام شديدى الشغب على ولاتها

فوشى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية[1] بأن أبا الطيب ادّعى النبوة فى بنى كلب[2] وتبعه منهم خلق كثير ، ويخشى على ملك الشام منه . فخرج لؤلؤ إلى بنى كلب وحاربهم وقبض على المتنبى وسجنه طويلاً ثم استتابه وأطلقه[3] .

فخرج من السجن وقد لصق به اسم المتنبى مع كراهته له ، ثم تكسب بالشعر مدة انتهت بلحاقه بسيف الدولة بن حمدان[4] ، فمدحه بما خلد اسمه أبد الدهر ، وتعلم منه الفروسية ، وحضر معه وقائعه العظيمة مع الروم ، حتى عدّ من أبطال القتال طمعاً منه أن يكون صاحبَ دولة . وبقى أثيراً عنده مقدّماً على جميع حاشيته وبطانته مع صلفه وتيهه . فوشوْا به إلى سيف الدولة . وكان أشدهم حسداً له ابن خالويه النحوى[5] مؤدب سيف الدولة ، فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة فضربه ابن خالويه بمفتاح حديد فى وجهه فشجه ، ولم ينصفه سيف الدولة منه ، فقصد أبو الطيب كافوراً الأخشيدى أمير مصر ؛ رجاء أن ينال عنده ما لم ينل عند سيف الدولة ، ومدحه بقصائد سنية . ووعده كافور أن يقلده إمارة أو ولاية . لكنه رأى تغاليه فى شعره وفخره بنفسه فعدل عن أن يوليه ، وعاتبه بعضهم فى ذلك فقال : يا قوم ؛ من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، أما يدعى المملكة بعد كافور ! فحسبكم . فعاتبه أبو الطيب عتاباً أمضه وآلمه ، واستأذن فى الخروج

---

(١) الدولة الإخشيدية هى دولة استقلت بمصر والشام والحجاز استقلالا داخلياً من سنة (٣٢٤ – ٣٥٨هـ) ورأسها (محمد بن طغج الإخشيد مات سنة ٣٤٤هـ) وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً فجعل الأستاذ أبو المسك كافور الخصى الأسود قيماً عليه فمات أنوجور سنة ٣٤٩هـ وخلفه أخوه على ولم يكن له مع كافور من الأمر شىء ومات سنة ٣٥٥ هـ فتولى كافور ملك مصر وجاءه تقليد الخليفة ومات سنة ٣٥٧ هـ فتولى أحمد بن على بن الإخشيد فأقام شهوراً حتى جاءت الدولة الفاطمية وفتحت مصر .

(٢) راجع مصور جزيرة العرب الملحق بهذا الكتاب .

(٣) راجع تاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى .

(٤) هو أبو الحسن على أشهر أمراء الدولة الحمدانية من قبيلة تغلب وكان سيف الدولة يملك حلب والعواصم ، ثم أخذ دمشق من الأخشيدية ومات سنة ٣٥٦ هـ وكان أخوه الحسن ناصر الدولة يملك الموصل والجزيرة ، وخلف سيف الدولة ابنه سعد الدولة ، وخلف ناصر الدولة ابنه أبو تغلب ثم أخوه الغضنفر .

(٥) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه كان إماماً فى اللغة والنحو وتوفى سنة ٣٧٠ هـ .

من مصر فأبى ، فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ هـ . وخرج منها يريد الكوفة ، ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس ماراً ببغداد . فدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزل صلته وعاد إلى بغداد ؛ وخرج إلى الكوفة . فخرج عليه أعراب بنى ضبة وفيهم فاتك بن أبى جهل ، وكان المتنبى قد هجاه هجاء مقذعاً ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل هو وابنه وغلامه سنة ٣٥٤ هـ .

لا خلاف عند أهل الأدب فى أنه لم ينبغ بعد المتنبى منزلته فى الشعر — من بلغ شأوه أو داناه ؛ والمعرى على غوره وفرط ذكائه وتوقد خاطره وشدة تعمقه فى المعانى والتصورات الفلسفية ؛ يعترف بأبى الطيب ويقدمه على نفسه وغيره .

موازنة بين المتنبى والطائيين شعره

على أنهم مجمعون على أن البحترى من حيث رقة اللفظ وحسن التخيل يفضل أبا تمام والمتنبى ، ويختلفون فى المفاضلة بين الأخيرين من حيث الحكم والمعنى ، ولعل المتنبى أرجحهما . وقد قال المتنبى الشعر فى كل غرض من أغراضه ؛ وأجاد فى وصف المعارك والعتاب والمراثى . وأما مدائحه فهى أكثر بضاعته ؛ وقلما ترك فيها معنى لم يطرقه . ولثقته بنفسه فى اللغة وعلوم العربية جعل غايته فى شعره إبراز معانيه الشريفة ، وأفكاره الدقيقة . على أى لفظ كان وبأى أسلوب تهيأ له ؛ ولو لم يجر على مشهور القياس[1] أو ينطبق على وجوه البلاغة والأساليب الشعرية[2] السهلة ، ولذلك تجد فى كلامه كثيراً من الغرابة[3] والتعقيد اللفظى[4] . وله من الحكم والأمثال ما يربو به على كل شاعر تقدمه . وقد أصبح للغة العربية وآدابها من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه ؛ وما من كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرس إلا وله من حكم المتنبى مدد أيما مدد .

---

(١) كقوله : ولا يبرم الأمر الذى هو حالل … ولا يحلل الأمر الذى هو مبرم

(٢) « : لولم تكن من ذا الورى اللذ منك هو … عقمت بمولد نسلها حواء

(٣) « : مبارك الإسم أغر اللقب … كريم الجرشى شريف النسب

(٤) « : أن يكون أبا البرية آدم … وأبوك والثقلان أنت محمد

شيء من شعره

ومن قوله :

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً ... فلا تظنّنّ أن الليث يبتسمُ
أعيذُها نظرات منك صادقةً ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم
يا من يعزّ علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إن كان سرّكمُ ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم
وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفة ... إن المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم
إذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون همُ

ومن قوله يمدح سيف الدولة ويصف معركة :

أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروْا بجياد ما لهن قوائم[١]
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم[٢]
تجمع فيه كل لسن[٣] وأمة ... فما يفهم الحُدّاثَ إلا التراجم
وقفتَ وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كَلْمَى[٤] هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب ... وصار إلى اللبات[٥] والنصر قادم
حقرت الردينيات[٦] حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهمُ فوق الأحيدب[٧] كله ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

---

(١) كناية عن أنهم مسربلون هم والخيل بالحديد ملء الأرض (٢) أصوات الرعد وأراد بها الأصوات الشديدة (٣) لغة (٤) مجروحة (٥) أعالي الصدور (٦) الرماح (٧) جبل الحدث.

ومن قوله يرثى :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى … أنّ الكواكب فى التّراب تغورُ

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى … رَضْوى [1] على أيدى الرجال يسير

خرجوا به ولكل باك حـــوله … صعقات موسى يوم دُكّ الطور

حتّى أتوا جدثاً كأن ضريحــه … فى كل قلب موحِّدٍ محفور

كفل الثنـــاء له بردّ حيـــاته … لما انطوى فكأنه منشـــور

وديوان شعره مشهور ، شرح وانتقد وكتب فيه أكثر من أربعين تأليفاً ، ومن شروحه المطبوعة شرح العكبَرى وشرح الواحدى .

(١٠) ابن هانئ الأندلسى

هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدىّ الأندلسىّ : شاعرُ الغرب ومُتَنَبِّيه ، والمؤثِرُ فخامة ألفاظه على رقة معانيه ؛ وأحد المفرطين فى غلو المدح واستعمال الاستعارة والتشبيه .

ولد بإشبيلية سنة ٣٢٦ هـ . ولما نُبهَ شأنه اتصل بعامل إشبيلية زمن المستنصر الأموى [2] ومدحه بغرر القصائد ، فأحله منه منزلة سنية وأغدق عليه العطايا فأكب على اللهو والطرب والاستهتار ، واتهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة ، وظهور أثرها فى شعره باستعمال الغلو المفرط فى وصف الممدوح بصفات المعبود وغير ذلك .

ولما شاع ذلك عنه نقمه منه أهل إشبيلية وأشركوا عاملها فى التهمة وكادوا يهمون به ، فأشار عليه بالهجرة من إشبيلية ، فاجتاز البحرَ إلى عُدْوة المغرب ومدح ولاته من قبل المعز الفاطمى . ثم نما خبره إلى المعز [3] فوجه فى طلبه فوفد

---

(١) جبل بالحجاز . راجع مصور جزيرة العرب الملحق بهذا الكتاب .

(٢) هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر توفى سنة ٣٦٦ هـ

(٣) هو أبو تميم معد بن إسماعيل رابع خلفاء الدولة الفاطمية وباعث القائد جوهر لفتح مصر وأسس القاهرة وانتقل إليها المعز ومات بها سنة ٣٦٥ هـ وأوائل خلفاء هذه الدولة كانوا بالمغرب ورأسهم عبيد الله المهدى توفى سنة ٣٢٢ ثم خلفه ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد نزار وتوفى سنة ٣٣٣ هـ ثم خلف هذا ابنه المنصور إسماعيل توفى سنة ٣٤١ هـ ثم ابنه المعز المذكور آنفاً وحكم مصر أولاده وأحفاده وأشهرهم ابنه العزيز ثم ابن العزيز الحاكم بأمر الله ثم ابنه الظاهر ، ثم عدة منهم ، وانقرضت دولتهم سنة ٥٦٧ هـ .

عليه بأفريقية ومدحه فبالغ فى الإنعام عليه ودخل فى دعوة الفاطميين وأعرق فيها ، فاصطفاه المعز واتخذه شاعر دولته .

ولما فتح جوهر مصر وبنى القاهرة ، ورحل إليها المعز ليتخذها دار ملكه شيعه ابن هانئ ، ورجع لأخذ عياله والالتحاق به فتجهز وتبعه ؛ ولما وصل إلى برقة نزل على بعض أهلها فأقام عنده أياماً فى مجلس أنس ، فيقال إنهم عربدوا عليه وقتلوه سنة ٣٦٢ هـ . وعمره ٣٦ سنة ، وقيل فى سبب موته غير ذلك .

شعره

ولم ينبغ فى شعراء جزيرة الأندلس ولا بر المغرب جميعه من متقدميهم أو متأخريهم من يفوق ابن هانئ فى صناعة الشعر أو يساويه . فقد كان عندهم فى الشهرة والإجادة وشرف الشعر بمنزلة المتنبي عند المشارقة ، لا فى الطريقة والمعانى ، وكانا فى عصر واحد . ويسميه كثير من الأدباء بمتنبي المغرب .

ولما بلغ المعز الفاطمى خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيراً وقال : (هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك) ويمتاز شعره بكثرة غريبة ، وفخامة لفظه وطنطنة تراكيبه ، وجلبة عبارته وَهوْل وقعها فى نفس سامعها ، وإن لم تكن كل معانيه مشاكلةً للفظه فى العظم والرّوْعة : كما امتاز بحسن تصوير الخيال ، وإجادة التشبيه والاستعارة المتلائمة العلائق والقرائن وكثرة الغلو الذى يقرب من الكفر فى المديح ونحوه ، مع شدة تحامى الأندلسيين ذلك فى شعرهم وإنشائهم . وابن هانئ ممن يجيد المطولات من القصائد ولو كانت صعبة القوافى .

طائفة من شعره

ومن قوله فى وصف الخيل :

وصواهل لا الهضْب[1] يوم مُغارها[2] ... هَضْبٌ ولا البيد الحزون[3] حزون

عُرفت بساعة سبقها لا أنهـا ... علقت بها يومَ الرهان عيون

وأجـلّ علم البرْق فيها أنهـا ... مرّت بجانحتيـه وهى ظنون

ومن قوله الموهم الكفر فى مطلع قصيدة يمدح بها المعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

(١) الهضب والهضبة الجبل المنبسط على الأرض (٢) أى يوم إغارتها (٣) جمع حزن ضد السهل.

وقوله من قصيدة في مدح المعز ويخاطب حامل مظلته :

لتديرها من حيث دار لشدّما ‍ ‍ ‍ ‍ زاحمت تحت ركابه جبريلا

ومن قوله في مبدأ قصيدة رثاء :

صدَقَ الفناء وكذّب العمر ‍ ‍ ‍ ‍ وجلا العظات[1] وبالغ النُّذُرُ
إنا وفي آمال أنفسنا ‍ ‍ ‍ ‍ طولٌ وفي أعمارنا قِصَرُ
لنرى بأعيننا مَصارعنا ‍ ‍ ‍ ‍ لو كانت الألباب تعتبرُ
مما دهانا أنّ حاضرنا ‍ ‍ ‍ ‍ أجفانُنا والغائب الفِكَرُ
وإذا تدبرنا جوارحنا ‍ ‍ ‍ ‍ فأكلهنّ العينُ والنظرُ
أيّ الحياة ألذ عيشتها ‍ ‍ ‍ ‍ من بعد علمي أنني بَشَرُ
خرِسَتْ (لعمر الله) ألسنتا ‍ ‍ ‍ ‍ لما تكلم فوقنا القَدَرُ

(١١) أبو العلاء المعرّى

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّى التنوخى[2] الشاعر الفيلسوف المتفنن الزاهد . صاحب التصانيف والرسائل المأثورة .

وهو عربى النسب من قبيلة تَنوخ من بطون قضاعة . وبيته بيت علم وقضاء وُلد بمعرّة النعمان[3] سنة ٣٦٣ هـ . وجدر فى الثالثة من عمره فكف بصره ، وتعلم النحو والعربية على أبيه وغيره من أئمة زمانه . وكان يحفظ كل ما يسمعه من مرة وانتفع كثيراً من كتب آل عمار[4] أمراء طرابلس الشام .

(١) المفعول محذوف أى جلا العظات الشبهات والغفلات فى أمر الدنيا .

(٢) راجع مصور جزيرة العرب فى هذا الكتاب (٣) بلدة بين حماة وحلب أضيفت إلى النعمان بن بشير الصحابى لأنه اجتاز بها فدفن بها ولداً له ثم أقام بها (٤) أسرة استبدوا زمناً بطرابلس الشام وضواحيها وجمعوا من الكتب ما لا يحصى فأحرقها الصليبيون عند استيلائهم على طرابلس . وأشهر هذه الأسرة أبو الطيب بن عمار قاضى طرابلس المتوفى سنة ٤٦٤ هـ ثم ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمار

وقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة ، ودخل بغدا وأقبل عليه السيد المرتضى[١] إقبالاً عظيماً ثم جفاه[٢] .

ولما رجع إلى المعرّة أقام ولم يبرح منزله وَنسكَ وسمّى نفسه رَهن المحبسين : محبس العمى ومحبس المنزل . ووفد عليه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفون ، وكاتبه الوزراء والعلماء ، وبقى فى منزله مكبًّا على التدريس والتأليف ونظم الشعر ، مقتنعاً بعشرات من الدنانير فى العام يستغلها من عقار له ، مجتنباً أكلَ الحيوان وما يخرج منه مدة ٤٥ سنة ، مكتفياً بالنبات والفاكهة والدبس[٣] ، متعللاً بأنه فقير وأنه يرحم الحيوان . وعاش عزباً إلى أن مات سنة ٤٤٩ هـ . بالمعرة ، وأوصى أن يكتب على قبره .

هـــذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحدْ

وله كثير من الشعر يناقض بعضه بعضاً[٤] فى حقيقة العالم والشرائع والمعبود ، وللناس فى اعتقاده أقوال كثيرة . والظاهر أنه كان شاكًّا متحيراً . شعره

وكان أبو العلاء المعرى أحكم مَن رأى الناسُ بعد المتنبي . ويزيد عليه فى الغريب والأخيلة الدقيقة ، والتكلم فى الطبائع ووسائل الاجتماع وعادات الناس وأخلاقهم ؛ ومكرهم وظلمهم ونظام الدول والقوانين والشرائع والأديان ،

---

(١) هو السيد الشريف أبو القاسم على بن الحسين أخو الشريف الرضى . وهو صاحب (أمالى السيد المرتضى) توفى سنة ٤٣٦ هـ .

(٢) وذلك أنه جرى يوماً بحضرة المرتضى ذكر المتنبى فتنقصه فقال المعرى وكان يتعصب له لو لم يكن له إلا القصيدة التى مطلعها « لك يا منازل فى القلوب منازل » لكفاه فضلا . فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه وقال لمن بحضرته : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة فإن للمتنبى ما هو أجود منها ولم يذكرها ؟ فقيل : السيد النقيب أعرف فقال : أراد قوله فى هذه القصيدة :

وإذا أتتــك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامــل

(٣) هو عسل التمر والفاكهة

(٤) فبينما هو يقول :

لا أطلب الأرزاق والـ ـمولى يفيض على رزقى
إن أعط بعض القوت أعـ ـلم أن ذلك ضعف حقى

إذ يقــول :

إذا كان لا يحــظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحمقــا
فلا ذنب يارب السماء على امرئ رأى منك مالا يشتهى فتزندقا

يفضله الإفرنج ومستعربوهم عليه ، وهو فى هذه الأمور معدوم النظير ، ولم ينظم فى الملة أحد غيره فيها . وشعره فى المدائح والمراثى والوصف وبقية أغراض الشعر الأدبية أرق من شعره فى النقد والفلسفة . إلا أن أكثر شعره من هذا القبيل ضمنه ديوانه المسمى لزوم ما لا يلزم ، فتقيد فيه بقيود حبست أفكاره وبهكت معانيه ، فجاءت ألفاظه فيه غريبة وأساليبه معقدة ، وعندنا أن هذا أمقت شذوذ له ، وإلا فما للفيلسوف والقيود اللفظية ، وقد كان له فى نظم الأفكار التى لم تخطر على قلب أحد سواه مُغنية وشهادة على براعته وسبقه ، ولله فى خلقه شُئون .

طائفة من شعره

ومن مراثيه مرثيته المشهورة ، ومنها :

غَيرُ مُجد فى ملّتى واعتقادى … نَوح باك ولا ترنمّ شاد
وشبيه صوت النعىّ إذا قيـ … ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكتْ تلكم الحمامة أم غنـ … ـتْ على فرْع غصنها الميّاد[1]
صاح هذى قبورُنا تملأ الرّحـ … ـبَ فأين القبورُ من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الـ … أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهـ … ـد هوانُ الآباء والأجداد
سر إن اسطعتَ فى الهواء رويداً … لا اختيالاً على رُفات العباد
رُبَّ لحد قد صار لحداً مراراً … ضاحكٍ من تزاحم الأضداد
ودفين على بقــايا دفين … فى طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين[2] عمن أحسا … من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهــار … وأنارا لمدْلج فى سَوَاد
تَعبٌ كلها الحياة فمــا أعـ … ـجبُ إلا من راغب فى ازدياد
إنّ حزناً فى ساعة الموت أضعا … فُ سرُور فى ساعة الميلاد

---

(١) أى إنى لا أعرف الفرق بين صوت النعى وصوت البشير كما لا يعرف الناس صوت الحمامة فبعضهم يسميه بكاء وبعضهم غناء .

(٢) هما نجمان فى بنات نعش الصغرى (الدب الأصغر) .

خُلِقَ النَّاسُ للبقاء فضلَّت أُمَّةٌ يحسبونهم للنفاد
إنما يُنقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

وهي طويلة ومنها :

بان أمرُ الإله واختلف النا سُ فداعٍ إلى ضلال وهاد
والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدَثٌ من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغتـ ـرّ بكوْن مصيره للفساد

ومن قوله الموهم في اللزوميات :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

(١٢) ابن خفاجة الأندلسي

هو أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن خفاجة شاعر شرقيّ الأندلس ، وأحدُ وُصّاف الطبيعة :

وُلد بجزيرة شقر[١] من أعمال بلنسية سنة ٤٥٠ هـ . فتعلم وتأدب ونظم الشعر ، وأحسن فيه ، وكتب الرسائل الإخوانية البليغة ، وما زالت شمس أدبه في صعود حتى صار واحد زمانه في الأندلس : شعراً ونثراً ، وحلاوة منطق ، وحسن محاضرة ، وعلو همة ، فقلما تعرض لاستماحة ملوك الطوائف[٢] مع تهافتهم على أهل الأدب . وكان في صباه طروباً عاكفاً على الملذات ، ثم أقلع في كهولته عن صبوته وغلب على شعره وصف الحوادث الجوية ومناظر الطبيعة بأخيلة جميلة ، وتشبيهات بديعة وله غزل رقيق ، ومدح بارع ، ورثاء بليغ . ويمتاز شعره بالجزالة وكثرة المعاني وازدحامها في اللفظ ، حتى يحتاج في فهمها إلى التأمل ، على خلاف مذهب الأندلسيين في ذلك ، وتوفي سنة ٥٣٣ هـ .

شعره

(١) هي بلدة بين شاطبة وبلنسية من شرق الأندلس ، وسميت جزيرة لأن الماء محيط بها من أكثر جهاتها (٢) لما انقرضت دولة بني أمية بالأندلس تقسم ولاتها نواحيها واستبد كل منهم بعمل وسموا ملوك الطوائف .

طائفة من شعره

ومن قوله يصف زهرة :

وماثسة تُزْهى وقد خلع الحيا | عليها حِلى حمراً وأرديةً خضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضةً | ويجمدُ فى أعطافها ذهباً نضرا

وقوله :

ويوم جرى برقه أشقرا | يطارد من مُزنه أشهبا
ترى الأرض فيه وقد فُضضت | ووجه السماء وقد ذهبا

وقوله يصف نهراً :

متعطف مثل السوار كأنه | والزهر يكنفه مجرّ سماء
قد رقّ حتى ظُنّ قُرصاً مفرغا | من فضة فى بُردة خضراء
وغدت تحفّ به الغصون كأنها | هدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى | ذهب الأصيل على لُجين الماء

(١٣) الطغرائى(١)

هو مؤيد الدين الأستاذ العميد فخر الكتاب أبو إسماعيل الحسين بن محمد الطغرائى صاحب لامية العجم . وهو أصبهانى الأصل ، برع فى الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه ، ولم ينبغ بعده فى الشرق من يضاهيه . وترقت به الحال فى خدمة سلاطين آل سلجوق إلى أن صار وزيراً للسلطان مسعود بن محمود السلجوقى صاحب الموصل . ولما قهره أخوه السلطان محمود كان أولّ من اعتقل الوزير أبو إسماعيل الطغرائى ، فدس بعض حسدته من رؤساء الكتاب إلى السلطان محمود أنه ملحد فقتله ظلماً سنة ٥١٣ هـ .

وله ديوان شعر جيد مطبوع فى الأستانة .

ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون الشعر ، وقد كان قالها ببغداد

(١) الطغرائى من يكتب الطغراء (وهى الطرة) وكانت تكتب فى الدولة السلجوقية فوق البسملة بخط معلق فيها نعوت السلطان وألقابه .

سنة ٥٠٠ هـ. يشكو فيها الزمان وأهله. وهي مشهورة مشروحة بشروح كبار وصغار أكثرها مطبوع، ومطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل

ومنها:

حب السلامة يثني همّ صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذْ نفقاً ... في الأرض أو سلماً في الجوّ واعتزل
ودعْ غمار العلا للمقدمين على ... ركوبها واقتنع منهنّ بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنة ... والعزّ تحت رسيم الأينُق الذلل

وقال يصف:

وكأنما الشمس المنيرة إذْ بدت ... والبدر يجنح للمغيب وما غرب
متجاربان: لذا مجنّ صاغه ... من فضة، ولذا مجنّ من ذهب

وقال يصف سحابة:

سارية ذات عُبوس برقها ... يضحك والأجفان منها تَهمل
كحلة دكناءَ في حاشيتها ... فيها طرازٌ مذهّب مسلسل
إذا دنت عشارها صاح بها ... قاصف رعد وحدتْها الشمأل

وقال يصف غديراً:

عجنا إلى الجزْع الذي مدّ في ... أرجائه الغيمْ بساط الزّهَرْ
حول غدير ماؤه المنتمي ... إلى بنات المزْن يشكو الحصَر
لو لاذت الريح سموماً به ... لانقلبت وهي نسيم السحر
حصباؤه درّ ورَضراضه ... سُحالة العسجد حول الدّرر
قد كسته الريح من نسجها ... درعاً به يلقى نبال المطر
وألبسته الشمس من صبغها ... نوراً به يخطف نور البصر
كأنها المرآة مجلوة ... على بساط أخضر قد نشر

وقال وقد رزق مولوداً على كبر :

هذا الصغير الذى وافى على كبر … أقر عينى ولكن زاد فى فكرى
سبع وخمسون لو مرّت على حجر … لبان تأثيرها فى صفحة الحجر

ومن كلامه فى القصص والأمثال :

شؤم الوشاية

لقد جاء فى أمثالهم أن ثعلبـا … وذئباً أصابا عند ليث تقدّما
أضرّ به جوع شديد فشفه(١) … وأبقى له جلداً رقيقاً وأعظما
ففاز لديه الذئب يوماً بخـلوة … فقال : كفاك الثعلب اليوم مطعما
فكله وأطعمه(٢) فما هو شكلنا … ولست أرى فى أكله لك مأثما
فلما أحسّ الثعلُبان(٣) بكيده … تطيب عند الليث واحتال مقدما
وقال : أرى بالملك داء مماطلاً … تهدّم منـــهُ جسمه وتحطما
وفى كبد الذئب الشفاء لدائه … فإن نال منها ينج منه مسلّما
فصادف منه ذا قبولاً فعندها … أحال(٤) على الذئب الخبيث فصما
فأفلت مسلوخ الإهاب(٥) مرملاً(٦) … فلما رآه الثعلبـــان تبسما
وصاح به يا لابس الثوب قانئاً(٧) … متى تخل بالسلطان فاسكت لتسلما

(١٤) البهاء زُهير

هو الوزير الشاعر الكاتب أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن على المهلبى الأزدى المصرى صاحب السهل الممتنع ، والغزل الرقيق ، والعتاب الرفيق .

ولد بوادى نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ هـ . ونشأ بمصر .

وأجاد فنون العربية ، فبرع فيها نظماً ونثراً وخطّاً . ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب (من ملوك الدولة الأيوبية) وخرج معهُ فى خدمته إلى بلاد الشام والجزيرة ، فلما نكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم إلى

(١) شفه الهم والمرض أنحله (٢) أى وأطعمنا منه (٣) الثعلب المذكر (٤) أقبل
(٥) الجلد (٦) أى ملطخاً بالدم (٧) أى شديد الحمرة .

ابن عمه الملك الناصر صاحب الكَرَك وقبض على الصالح واعتقله بقلعة الكرك ، حفظ البهاء عهدَ صاحبه ولم يخدم غيرَه ، وأقام بنابلس حتى تقلبت الأحوال واسترد الصالح ملك الديار المصرية ، فقدم إليها فى خدمته واتخذه وزيرَه وموضع سره ، وأحله منزلة لم تكن لغيره : لحسن وفائه ورياضة أخلاقه ودماثة سجاياه . ونفع بخدمته خلقاً كثيراً ، وبقى أثيراً عند الملك الصالح حتى مات ، فلزم داره . وحدث فى القاهرة فى شوال سنة ٦٥٦ هـ . وباء مات به ودفن بالقرافة وهى السنة التى سقطت فيها بغداد فى أيدى التتار .

شعره

وكانت سهولة طباع زهير تفوق سهولة شعره . وإن كان الشعر يشف عن أخلاق صاحبه ورقته فأحرى به أن يكون شعر زهير . ولم يك فى متأخرى المحدثين من هو أسهل نظماً ولا أرقّ لفظاً ولا أكثر تشريفاً للمعانى المبتذلة منه . وأجود شعره ما كان فى المغازلة والمعابثة والمعاتبة ، ولم تنفق له سوق كبيرة فى غيرها ، وأكثر معانيه عادية عامية ، إلا أنه كساها ديباجة من لفظه وسهولة أسلوبه رفعتها فى أعين أهل الذوق إلى مرتبة أحرار المعانى . وله ديوان شعر طبع مراراً فراجعه .

طائفة من شعره

ومن شعره فى غير الغزل وقد غرقت به سفينة فسلم بنفسه منها وذهب ما كان معه :

لا تُعتِب الدهر فى خطب رماك به … إن استرد فقدْماً طالما وهبا
حاسب زمانك فى حالىْ تصرفه … تجدْه أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة … فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهى الروح قد سلِمتْ … لا تأسفنّ لشىء بعدها ذهبا
ما كنتَ أول مقروحٍ بحـادثة … كذا مضى الدهر لا بِدعاً ولا عجبا
ورب مالٍ نما من بعد مَرزئة … أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا

وقال يمدح :

أنا ذا زهير ليس إلاَّ م جودُ كفك لى مُزينه[1]

(١) يشير إلى زهير بن أبى سلمة المزنى الجاهلى مادح هرم بن سنان .

ابن عمه الملك الناصر صاحب الكَرَك وقبض على الصالح واعتقله بقلعة الكرك ، حفظ البهاء عهدَ صاحبه ولم يخدم غيرَه ، وأقام بنابلس حتى تقلبت الأحوال واستَرد الصالح ملك الديار المصرية ، فقدم إليها فى خدمته واتخذه وزيرَه وموضع سره ، وأحله منزلة لم تكن لغيره : لحسن وفائه ورياضة أخلاقه ودماثة سجاياه . ونفع بخدمته خلقاً كثيراً ، وبقى أثيراً عند الملك الصالح حتى مات ، فلزم داره . وحدث فى القاهرة فى شوال سنة ٦٥٦ هـ . وباء مات به ودفن بالقرافة وهى السنة التى سقطت فيها بغداد فى أيدى التتار .

شعره

وكانت سهولة طباع زهير تفوق سهولة شعره . وإن كان الشعر يشف عن أخلاق صاحبه ورقته فأحرى به أن يكون شعر زهير . ولم يك فى متأخرى المحدثين من هو أسهل نظماً ولا أرقّ لفظاً ولا أكثر تشريفاً للمعانى المبتذلة منه . وأجود شعره ما كان فى المغازلة والمعابثة والمعاتبة ، ولم تنفق له سوق كبيرة فى غيرها ، وأكثر معانيه عادية عامية ، إلا أنه كساها ديباجة من لفظه وسهولة أسلوبه رفعتها فى أعين أهل الذوق إلى مرتبة أحرار المعانى . وله ديوان شعر طبع مراراً فراجعه .

طائفة من شعره

ومن شعره فى غير الغزل وقد غرقت به سفينة فسلم بنفسه منها وذهب ما كان معه :

لا تُعتِبِ الدهر فى خطب رماك به ... إن استَرد فقِدْماً طالما وهبا
حاسب زمانك فى حالىْ تصرفه ... تجدْه أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة ... فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهى الروح قد سلِمتْ ... لا تأسفنّ لشىء بعدها ذهبا
ما كنتَ أول مقروحٍ بحـادثة ... كذا مضى الدهر لا بِدعاً ولا عجبا
ورب مالٍ نما من بعد مَرزئة ... أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا

وقال يمدح :

أنا ذا زهير ليس إلا ... م جودُ كفك لى مُزينه[(١)]

(١) يشير إلى زهير بن أبى سلمة المزنى الجاهلى مادح هرم بن سنان .

أهوى جميـل الذكر عنـ ـك كأنما هو لى بثينه[1]
فاسأل ضميرك عن ودا دى إنه فيه جُهينه[2]

وله لغز فى قفل :

وأسود عار أنحل البَرْدُ جسمـه وما زال من أوصافه الحرْص والمنعُ
وأعجب شىء كونه الدهر حارسـا وليس له عينٌ وليس له سمع

الرواية والرواة

جاءت الدولة العباسية وقد اتسع نطاق الرواية ، واختص كل فريق من الناس برواية شىءٍ ، فنهم من انقطع لرواية القراءات ، ومنهم من انقطع لرواية الحديث ، ومنهم من انقطع لرواية العربية والشعر والأخبار ، ومنهم من انقطع لرواية الفتوح والسير وغير ذلك .

فلما دُوِّنت الكتب فى عصر الدولة العباسية أفرغ الرواةُ ما حفظوه فى هذه الكتب خوفاً عليه من الضياع ، فكان عصرُهم الأولُ عصرَ جمعٍ وتدوين ، حتى إذا ما جمعت كل هذه العلوم فى بطون الكتب ، أخذ أمر الرواية يضمحل شيئاً فشيئاً فى أكثر العلوم ولا سيما الأدب ، ثم اقتُصرَ فى الرواية على تصحيح النطق والأداءِ ، فيقرأ التلميذ على الشيخ القرآنَ أو الحديثَ أو اللغةَ أو الشعرَ وهو يجيز له أداءها كما سمعَ .

وكانت الرواية الشغلَ الشاغلَ للعلماء فى صدر الدولة العباسية لاهتمام الأمة بها ، وبذل الخلفاء المعونة لأربابها . فاندس بين الرواة كثير من الوضّاعين وأدخلوا كثيراً من الروايات المكذوبة فى الحديث وغيره . واضطُرَّ العلماء إلى البحث عن تمحيص الصحيح ، فعنوا شديد العناية بتاريخ الرجال ، ومراتب الأخذ عنهم ، وميزوا ما أمكن تمييزُه من الموضوع . ولكل علم رواةٌ مشهورون .

(١) يشير إلى جميل الشاعر المحب صاحب بثينة المضروب به المثل فى تعرف الأخبار .

(٢) يشير إلى قبيلة جهينة

وقد سبق الكلام على رواة العلوم والفنون فى تاريخ وضعها ، ونريد هنا ذكر بعض رواة الأدب إذ كان هو غايةَ درسنا .

فمن رواة الأدب والشعر خاصةً حمَّاد الرواية الكوفى(١) وخَلَف الأحمر(٢) البَصرى وأبو عمرو الشيبانى الكوفى(٣) والسكرى البغدادى(٤) .

ومن رواة الأدب بجميع فنونه لغة وشعراً وأخباراً أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى والأصمعى وأبو زيد الأنصارى وأبو عبيد القاسم بن سلاّم(٥) ومحمد ابن سلاّم الجُمَحى(٦) وغيرهم ، ونذكر على سبيل الاختصار ترجمة أشهرهم فى الرواية وهو الأصمعى فنقول :

الأصمعى

هو شيخُ رُواة الأدب الإمامُ الثَّبْتُ الثقة التقىُّ ، أبو سعيد عبد الملك ابن قُرَيْب بن عبد الملك بن على بن أصمع الباهلى البصرى .

نسب إلى جده أصمع ، وولد سنة ١٢٣ هجرية من بيت عربى قديم العهد فى الكتابة .

ونشأ بالبصرة فأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمة البصرة كأبى عمرو

---

(١) هو أبو القاسم حماد الراوية بن أبى ليلى سابور الكوفى الديلمى مولى بكر بن وائل كان أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ، وهو الذى جمع السبع الطوال المسماة بالمعلقات توفى سنة ١٥٥ هـ (٢) هو أبو محرز خلف الأحمر بن حيان مولى بلال بن أبى بردة ابن أبى موسى الأشعرى وفيه يقول الأخفش : لم ندرك أحداً أعلم بالشعر من خلف ، مات فى حدود سنة ١٨٠ هـ (٣) هو أبو عمرو إسحق بن مرار الشيبانى الكوفى كان راوية أهل بغداد واسع العلم باللغة والشعر ثقة فى الحديث نبيلا فاضلا جمع أشعار العرب فى عدة دواوين لكل قبيلة ديوان فكانت نيفاً وثمانين قبيلة . عمر كثيراً حتى أربى عليه ١١٩ سنة وتوفى سنة ٢٠٦ هـ .

(٤) هو أبو سعيد الحسن بن الحسين كان راوية ثقة من كبار الجامعين للشعر جمع شعر جماعة من الشعراء منهم امرؤ القيس والنابغة الذبيانى والجعدى وزهير ولبيد وأشعار بنى هذيل وبنى شيبان وبنى يربوع وبنى ضبة والأزد وبنى نهشل وتوفى سنة ٢٧٦ هـ.

(٥) كان أبوه عبداً رومياً اشتغل بالحديث والأدب والفقه فبرع فى جميعها . وكان ثقة ديناً توفى سنة ٢٢٤ هـ . (٦) هو أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى البصرى صاحب كتاب طبقات الشعراء وكان من أعلم الناس بالشعر والأخبار توفى سنة ٢٣١ هـ .

ابن العلاء والخليل بن أحمد ، وأخذ عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون البصرة ، وأكثر الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب وساكنهم ، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات ، يحجُّ في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم ، حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره .

وتعلم من خلف الأحمر نقد الشعر ومعانيه ، وكان أحفظ أهل زمانه ، حتى قال مرة إني أحفظ اثني عشر ألف أرجوزة فقال له رجل : منها البيت والبيتان ؟ فقال : ومنها المائةُ والمائتان . وراجت بضاعةُ الأصمعي عند الرشيد وأخذ جوائزَه الكثيرةَ ورزق السعادة في رواية الأخبار والمُلح دون أهل زمانه ، فتهافت الناس على نقلها في كتبهم لرضاهم عن مذهبه وتسننه[1] وكان يحجم عن تفسير القرآن الكريم والحديث تحرجاً[2] وخوفاً من الزلل ؛ وكان مع كل صفاته الحسنة بخيلاً مخشوشناً ، وعُمِّرَ حتى أدرك زمن المأمون ، وأراد المأمون أن يُقْدِمَه إليه فاعتذر بكبر السن ، ومات سنة ٢١٦ هجرية . وله من الكتب المؤلفة والرسائل والأمالي شيء كثير .

خلاصة أثر الحضارة العباسية في اللغة العربية

لما كانت حضارة الدولة العباسية قائمة على أساس الحضارتين الفارسية واليونانية باتخاذ خلفائها من أولئك أكثرَ شيعتهم ونصرائهم ، وإيثارهم على العرب بالملك والزعامة ، وتقليدهم إياهم في نظام ملكهم وطرق معايشهم ، ونقلهم عن هؤلاء علومهم وفلسفتهم ، كان لذلك آثار واضحة في حالة اللغة العربية حسناً وقبحاً .

أما الآثار الحسنة فهي :

١ — اتساع أغراض اللغة من حيث تدوين العلوم بها وترجمتها إليها وتدريسها ، والمناظرة فيها ، وتأدية مقاصد الصناعات ، ومظاهر الملك والترف والنعيم : من وصف القصور والبساتين ، ومناظر الطبيعة ، وأدوات الزينة ،

(١) أي أخذه في أعماله بالسنة النبوية المطهرة

(٢) أي ابتعاداً عن الحرج والإثم .

وأساطيل الحرب ، وحصونها وقلاعها ونحو ذلك .

٢ — اتساع أفكار المتكلمين بها وتنوع أخيلتهم ، مما أدى إلى ابتكار معان جديدة ، أو توليد حديثة من قديمة .

٣ — سهولة الألفاظ وتنوع الأساليب ، والتأنق فى صوغها ، وانفساح طرق التشبيه والكناية والاستعارة ، ووضع كثير من اصطلاحات العلوم والصناعات ، وحدوث لغة أدبية متعددة الصور والرسوم ، ولغة تأليفية تقاس بمعيار النطق والبرهان العقلى ، دون بها ما لا يحصى من المؤلفات التى جعلت العربية أكثر من سبعة قرون أغنى لغات العالم علوماً وأدباً .

وأما آثارها السيئة فهى :

١ — كثرة ما دخل عليها من الدخيل الذى قلما خضع لقوانينها الصرفية والنحوية ، بل كان كالصخرة الخشنة ، لم يصقلها استعمال الفصحاء ، ولا تهافت العامة .

٢ — كثرة التأنق فى الحلية اللفظية : كالسجع والجناس والتورية ، والمبالغة والتهويل فى الألفاظ والمعانى ، والتفخيم فى الألقاب وصدور المكاتبات وكثرة التملق فى المدح ، والإقذاع فى الذم ، والإعراق فى وصف الخمر ومجالس الفجور ، والغزل بالمذكر ، والمجون والخلاعة ، مما ورثوا أكثره من المدنية الفارسية .

٣ — ضعف قوة الارتجال واستعجام الألسن ، مما أفضى إلى اضمحلال أمر الخطابة بالتدريج .

العصر الرابع
عصر الدول المتتابعة التركية
٦٥٦ — ١٢٢٠ هـ

حالة اللغة العربية وأدبها
فى ذلك العصر

لما اكتسح التتار ممالك الدولة العباسية ، وخربوا البلاد ، وقتلوا العباد ، وأبادوا الكتبَ ، وافترقوا إلى ممالك متعددة بآسيا وشرقى أوربة ، لم يلبثوا أكثر من نصف قرن حتى أسلموا وشرعوا يخدمون الإسلام بتقريب العلماء إليهم وترغيبهم فى التأليف ، فأفاد ذلك فى إدامة الحركة العلمية فى الجملة ، وإن لم يفدِ اللغة العربية فائدة تذكر ، لمكان العُجْمَة منهم ، أما علوم العرب وأدبها فلم يكن َمباءة ترجع إليها إلا البلاد العربية كالشام ومصر ، فأصبحت القاهرة هى المثابة الأخيرة للعرب والعربية ؛ نعم إن حكومتها كانت تركية أو شركسية ، ولكن لم يكن لرجالها وجنودها عصبية قوية تجعل لغتهم تزاحم العربية ، فبقيت بطبيعة الحال اللغةُ الرسمية هى العربيةَ ، وأصبح العلماء هم رجالَ الإدارة والكتابة والقضاء والحِسبة وغيرها من المناصب الملكية ، واقتصر المماليك على مراتب الجندية والمناصب العسكرية . غير أن تلك الحال لم َتدُم أكثر من مدة المماليك وصدر الدولة العثمانية الوارثة لهم ، ثم أصبحت اللغة التركية العثمانية هى اللغةَ الرسميةَ للأعمال الديوانية والسياسية فى جميع الممالك العثمانية ، فزاحمت العربيةَ مزاحمة ظهر أثرُها بيِّناً فى تحرير الرسائل الديوانية والمعاهدات السياسية ، ودخل فى اللغة أثناء دولتى المماليك والعثمانيين كثير من الألفاظ التركية والفارسية[1] .

---

(١) من ذلك : الأتابكى ، الجاشنكير ، الدوادار ، الخواجه ، اسفهسلار ، شراب خاناه ، فراش خاناه ، طبلخاناه —

وعاصر دولة المماليك بمصر والشام دولة بنى الأحمر بالأندلس[١] ودولة بنى مرين[٢] والدولة الحفصية[٣] بشمالى أفريقية ؛ فكانت حالة لغة الأدب فيها وخاصة الأندلس أخريات هذا العصر خيراً منها فى مصر ، إذ كانت جمهرة السلائل العربية فيها حافظةً صفَّها ، لقلة طروء العناصر الأجنبية عليها .

النثر

لغة التخاطب

كادت تحل محل اللغة العامية العربية (فى أعالى الجزيرة وشرقى العراق) اللغة الفارسية والتركية والكردية ممزوجة بشىء من الألفاظ العربية .

أما بقية الجزيرة والعراق ومصر والشام ، فقد بقيت العامية العربية لسان الجميع فيها ، حتّى الملوك والسلاطين ؛ لغلبة العناصر العربية فيها .

ولما لم يتهيأ لرؤساء المماليك وسلاطينهم إجادة العربية الفصيحة عضدوا العامية بإقبالهم على أدبائها وإحسانهم إلى من ينظم بها ، فكان ذلك سبباً فى اتساع دائرة الزجل والمواليا ومزاحمتهما للشعر الفصيح ، بل دون بها بعض العلماء ؛ وإن لم يكن ذلك كثيراً . فأصبحت بذلك لغة أدب وكتابة وقراءة ، ثم أخذت العناية بها فى الانحطاط أواخر هذا العصر ، حتى صارت أحطَّ ما كانت عليه فى عصر من العصور ، وكانت تتساوى فيها لغة النساء ولغة الرجال .

= قال فى صبح الأعشى (الطبلخاناه) ومعناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات ، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف (بأمير علم) يقف عليها عند ضربها فى كل ليلة . ويتولى أمرها فى السفر ولها (مهتار) متسلم لحواصلها يعرف (بمهتار الطبلخاناه) وله رجال تحت يديه ما بين (دبندار) وهو الذى يضرب على الطبل و (منفر) وهو الذى يضرب بالبوق (وكوسى) وهو الذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من الصناع اهـ . ومن ذلك أيضاً أون باشا و بيك باشا و يوز باشا و بيجى وآخرجى وقهوجى ونوبتجى و باطجى وخشتخانة وكتبخانة وأدب خانة .

(١) هى آخر دولة عربية بالأندلس ويسمى سلاطينها بنى نصر .

(٢) هى دولة بربرية من الدول المتفرعة من دولة الموحدين ، كانت تملك المغرب الأقصى .

(٣) هى إحدى الدول المتفرعة من دولة الموحدين و رثها الترك العثمانيون .

الخطابة

لم تتغير الخطابة عما كانت عليه أواخر الدولة العباسية من حيث قَصْرها على خطب الجمع والأعياد ، وتلاوة بعض المرسومات والمنشورات ، إلا قليلاً من الخطب السياسية كان يعدها ملوك المغرب قبل إلقائها .

وبقيت لغة الخطابة العربية وحدها أو مع الترجمة إلى الأعجمية فى الممالك التى استعجم لسانها ، لمكان العربية من الدين ، ولم يبق من أمرها أواخرَ هذا العصر ، إلا ما كان يُقرأ مكتوباً فى الكتب ، بل قل حفظها واستظهارها فى غير القاهرة ، وانتقل وعظها من حسن الذكرى فى أمر الدين والدنيا إلى التخويف من القبر ووحشته ، ووصف الجنة ونعيمها وجهنم وأهوالها .

الكتابة

الكتابة الخطية

دَرَجَ الخط فى هذا العصر فى الطريق الذى مهدها ابن مقلة وابن البوّاب وياقوت الملكى وياقوت المستعصى ، واستعملت فيه أكثر أنواعه ، إلا أنه اشتهر من بينها تسعة أنواع .

١ — الجليل (على قاعدة الثلث المعروفة لنا) وتشاهد نماذجه المتعددة على جدران مساجد القاهرة ، ومدارسها وأربطتها ، وخرائب قصور أمرائها .

٢ — قلم الطومار (على قاعدة الثلث أيضاً) وكانت تكتب به أسماء السلاطين وعلاماتهم على المنشورات والعهود ونحوها (راجع صبح الأعشى الجزء الثالث) .

٣ — قلم الثلث ويشبه قلم الثلث عندنا ، ومنه الثلث المبسوط الحروف المسمى الآن بالريحانى كما فى هذا الشكل .



٤ ـ النسخ على قاعدته المعروفة إلاّ أن بعض حروفه معلق الأطراف إلى فوق ويقرب مما نسميه الآن خط التعليق ـ وكانت تكتب به كتب العلم والأدب .

٥ ـ التعليق ـ وكان يطلق على الثلث الخفيف عندنا مع تعليق خراطيم الحروف إلى أعلى .

٦ ـ قلم الرقاع ـ وكان وسطاً بين النسخ والتوقيع ، وكانت تكتب به كتب العلم الأدب والرسائل .

٧ — القلم المسلسل المشتبك الحروف — وكانت تكتب به عامة الرسائل المطوّلة والعقود وكتب الوقف ونحوها .

٨ — الخط الفارسى — وكان استعماله عامًّا فى أواسط آسيا وفارس .

٩ — الخط الأندلسى — وكانت أنواعه لا تختلف إلا بالصغر أو الكبر ، وربما مال الجليل منه إلى بعض قواعد الثلث فى أواخر عصورهم ، كما يشاهد على جُدران الحمراء بغرناطة .

وكان النقط والشكل فى هذا العصر قليلَىْ الاستعمال فى الرسائل الديوانية الإخوانية كثيريهما فى كتب العلم .

وما زال الخط يجرى فى مضماره حتى قبض على عنانه مُكتتبو الترك العثمانيين ، فحوّلوا بعض أنواعه وخاصةً قلم الرقاع (الرقعة) إلى ما نعرفه ، وارتقوا بالمسلسل إلى الغاية ، وولدوا منه خط العلامة السلطانية (الهمايونى) وأبدعوا فى بقية الأنواع بما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق .

ومن أشهرهم الشيخ حمد الله الأماسى إمام الخطاطين العثمانيين . وجلال الدين ، والحافظ عثمان .

الحافظ عثمان

هو الحافظ عثمان بن على أحد نبغاء المجوّدين من خطاطى الترك العثمانيين والبارعين فى كتابة مصاحف القرآن المبين .

ولد رحمه الله بالآستانة ونشأ بها وتعلم بمدارسها ، وحفظ القرآن الكريم فلقب لذلك بالحافظ ، واتصل بالوزير مصطفى باشا الشهير بكبريلى زاده فأظله برعايته زمناً ، وحبب إليه من صغره تجويد الخط ، فكان يختلف لذلك إلى أشهر الخطاطين فى عصره ، كالأستاذ درويش على وغيره ، حتى حصل على إجازة الإجادة ، حتى خطر له أن يصحح محاكاته لأسلوب الأستاذ المولى حمد الله تعليم الخط ، ولم تعدُ سنُّه ثمانى عشرة سنة ، ولم يكتف بفوقه قرناءه فى الأماسى ، فانقطع إلى من يجيد هذه الطريقة كالمولى إسماعيل فأجادها ،

٧ ـ القلم المسلسل المشتبك الحروف ـ وكانت تكتب به عامة الرسائل المطوّلة والعقود وكتب الوقف ونحوها .

٨ ـ الخط الفارسى ـ وكان استعماله عامًّا فى أواسط آسيا وفارس .

٩ ـ الخط الأندلسى ـ وكانت أنواعه لا تختلف إلا بالصغر أو الكبر ، وربما مال الجليل منه إلى بعض قواعد الثلث فى أواخر عصورهم ، كما يشاهد على جُدران الحمراء بغرناطة .

وكان النقط والشكل فى هذا العصر قليلىّ الاستعمال فى الرسائل الديوانية الإخوانية كثيريهما فى كتب العلم .

وما زال الخط يجرى فى مضماره حتى قبض على عنانه مُكتّبو الترك العثمانيين ، فحوّلوا بعض أنواعه وخاصةً قلم الرقاع (الرقعة) إلى ما نعرفه ، وارتقوا بالمسلسل إلى الغاية ، وولدوا منه خط العلامة السلطانية (الهمايونى) وأبدعوا فى بقية الأنواع بما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق .

ومن أشهرهم الشيخ حمد الله الأماسى إمام الخطاطين العثمانيين . وجلال الدين ، والحافظ عثمان .

الحافظ عثمان

هو الحافظ عثمان بن على أحد نبغاء المجوّدين من خطاطى الترك العثمانيين والبارعين فى كتابة مصاحف القرآن المبين .

ولد رحمه الله بالآستانة ونشأ بها وتعلم بمدارسها ، وحفظ القرآن الكريم فلقب لذلك بالحافظ ، واتصل بالوزير مصطفى باشا الشهير بكبريلى زاده فأظله برعايته زمناً ، وحبب إليه من صغره تجويد الخط ، فكان يختلف لذلك إلى أشهر الخطاطين فى عصره ، كالأستاذ درويش على وغيره ، حتى حصل على إجازة تعليم الخط ، ولم تعدُ سنُّه ثمانى عشرة سنة ، ولم يكتف بفوقه قرناءه فى الإجادة ، حتى خطر له أن يصحح محاكاته لأسلوب الأستاذ المولى حمد الله الأماسى ، فانقطع إلى من يجيد هذه الطريقة كالمولى إسماعيل فأجادها ،

وأصبح بذلك نابغةَ عصره ، وبذَّ الخطاطين جميعاً ، حتى قال فيه إسماعيل أفندى المعروف بأغا قبولى أحد الخطاطين المشهورين : إننا رغم تجويدنا هذه الصناعة ، لا نرى من يستحق لقب خطاط على الإطلاق غير مولانا عثمان .
ولما ذاع صيته اختير معلم خط للسلطان مصطفى خان الثانى ، والسلطان أحمد خان الثانى سنة ١١٠٦ هـ . فنال بذلك حظوة رفيعة ومنزلة سنية ، لم يقابلها بغير القناعة والزهد والتواضع والإخلاص لتعليم تلاميذه ، ولو على قارعة الطريق .

وكان يخص يوم الأحد بتعليم الخط للفقراء مجاناً ، ويوم الأربعاء لتعليم الأغنياء . وللحافظ عثمان جليل الفضل على الخط العربى ، بما كتبه من نسخ المصاحف التى بلغت خمسة وعشرين مصحفاً ، عدا مقداراً عظيماً جداً من الرقاع والألواح وأجزاء القرآن ودلائل الخيرات ، إذ قد نقل بعض هذه بالتصوير الشمسى فذاع فى الأقطار الإسلامية وطبع منه مئات الألوف ، وحاكاه بها من لا يحصى من المعلمين والمكتبين .

ومن هذه المصاحف مصحف حفظ بجامع أياصوفيا وبخزانة جامع نور عثمانية . وبخزانة المرحوم المفضال نور الدين بك مصطفى[1] بشارع درب الجماميز بالقاهرة جملة رقاع من خطه .

وأصيب رحمه الله فى آخر عمره بالفالج ، وشفى منه وعاد إلى خدمة الصناعة ، ولكنه لم يطل عمره بعد أكثر من ثلاث سنوات ، فتوفى رحمه الله سنة ١١١٠ هـ . ودفن برباط (قوجة مصطفى باشا) بعد، أن غبَّر نحو أربعين سنة يعلم الخط .

الكتابة الإنشائية

كتابة الرسائل

اتبعت فى كتابة الرسائل فى أثناء هذا العصر طريقة القاضى الفاضل ، التى أساسها المعانى الخيالية والتزام السجع وإطالة فقَاره ولا سيما الأخيرة منها ، والاستعارة ، والطباق ، ومراعاة النظير ، والتوجيه ، والغُلو فى التورية والجناس .

---

(١) ومنه نقل حضرة محمود أفندى حمزة خلاصة هذه الترجمة منقولة عن التركية .

وَعضَدَ هذه الطريقة من كتاب هذا العصر شهابُ الدين محمودٌ الحلبي[1] ومُحيي الدين بن عبد الظاهر، وابنُ فضل الله العُمَرى وأولاده . وبقيت هذه الطريقة مرعية فى مصر والشام حتى نهاية دولة المماليك وصدر حكومة العثمانيين .

ولما غلبت اللغة التركيةُ العثمانيةُ على كتابة الدواوين وأصبحت رسمية فى الحواضر والأمصار ، أخذ شأن الكتابة العربية فى الاضمحلال ، وتناقصت الرغبةُ فى إحسان صناعتها ، وقل النابغون فيها ، ولم يعد فى استطاعة الكاتب العربى إصابة وجوه البلاغة ، فضلاً عن إحسانه استعمال المحسّنات اللفظية . فأصبحت الكتابة بذلك مُجرّد َفقار من السجع المتكلف . خاليةً من كل مزية إلا المبالغة والتهويل .

وأكثر ما كانت تستعمل فى الرسائل الإخوانية وما أشبهها . بل عجز الكتّاب فى أواخر هذا العصر أن يكتبوا لإخوانهم من إنشائهم ، فوُضعت دواوين كتابية تشمل عدة صور من المكاتبات المعتادة ؛ يستعير منها المراسل صورة تناسب غرضه تارة وتارة لا تناسبه — أما كتابة من عاصر المماليك من أهل الأندلس فكانت أمثل كتابة فى هذا العصر ، على ما فيها من التكلف أيضاً ، بحيث يمكن قياسها بكتابة المتأخرين من أهل العصر الماضى .

الكتّاب

القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر الجُذامى المصرى . مؤيد الطريقة الفاضلية ، ورأس المترسلين فى دولة المماليك البحرية .

ولد سنة ٦٢٠ هـ . ورباه والده تربية شريفة جمع بها بين علوم الفقهاء وبلاغة الأدباء وظرف الشعراء ، فكان فى زمانه زعيم كل هؤلاء . وبرع فى كتابة الرسائل . سالكاً طريقة القاضى الفاضل . وخدم فى ديوان الإنشاء مدة الملك

(١) ولد بدمشق وتخرج على ابن مالك النحوى وعلماء الشام ثم انتقل إلى مصر وأقام بها مدة يتقلب فى مناصبها ثم جهز إلى دمشق رئيساً لديوان إنشائها إلى أن توفى سنة ٧٢٥ هـ .

الظاهر بيبرس البندقداري[١] وولديه وبعض أيام المنصور قلاوون[٢] ؛ ويعتبر محيي الدين وابنه محمد فتح الدين من واضعي اصطلاح الإنشاء ونظام ديوانه ، الذي بقي مرعيًّا في مصر والشام حتى نسخه النظام التركي العثماني ، وتوفى سنة ٦٩٢ هـ . وله تآليف ورسائل ومكاتبات سلطانية كثيرة وشعر رائق .

ومن فصوله فصل من رسالة كتبها على لسان الملك المنصور قلاوون يردُّ على صاحب اليمن في تعزيته على موت ابنه ، ويظهر التجلد على فقده :

« ولنا (والشكر لله) صبرٌ جميلٌ ، لا نأسف معه على فائت ، ولا نأسى على مفقود ، وإذا علم الله (سبحانه) حسن الاستنابة إلى قضائه ، والاستكانة إلى عطائه عوّض كل يوم ما يقول المبشر به هذا مولى مولود . وليست الإبل بأغلظَ أكباداً ممن له قلبٌ لا يُبالي بالصدَمات كثُرَتْ أو قلتْ ، ولا بالتباريح حقُرَتْ أو جلَّت ولا بالأزَمات إن هي توالت أو تولَّتْ ، ولا بالجفون إن ألقَتْ ما فيها من الدموع والهجوع وتخلت . ويخاف من الدهر من لا حلَبَ أشطرَه ، ويأسفُ على الفائت من لا بات بنبأ الخطوب الخطرة . على أن الفادح بموت الملك الصالح (رضى الله عنه) وإن كان مُنكياً[٣] ، والنافح بشجوه وإن كان مبكياً ، والنائحَ بذلك الأسف وإن كان لنار الأسف مذكياً ، فإن وراءه من تثبيت الله عز وجل ما ينسفه نسفاً ، ومن إلهامه الصبرَ ما يجددُ لتمزيق القلوب أحقَّ ما به تُرفى ، وبكتاب الله (تعالى) وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) عندنا حسنُ اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحاً » .

شهاب الدين بن فضل الله العمري

هو الشاعر الكاتب المصنف القاضي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محي الدين يحيي بن فضل الله العمري ، سليل عمر بن الخطاب ، وصاحب كتاب مسالك الأبصار .

---

(١) هو أشهر سلاطين المماليك البحرية توفي سنة ٦٧٦ هـ . أما ولداه فهما الملك السعيد محمد بركة ، تولى الملك سنتين وشهراً وخلع ، والملك العادل سلامش ملك خمسة أشهر وخلعه الأمير قلاوون وتولى بدله . (٢) هو الملك المنصور قلاوون الصالحي النجمي من أعظم ملوك المماليك توفي سنة ٦٨٩ هـ (٣) الصواب ناكياً . وهي لهجة كانت شائعة في كتابه ذلك العصر .

ولد بمدينة دمشق سنة ٧٠٠ هـ . وتفقه وتأدب على أبيه وغيره من أئمة وقته ، فخرج واحد زمانه علماً وأدباً وترسُّلاً وتصنيفاً وشعراً . ولم يكن بين عصره وعصر القاضى الفاضل من يدانيه فى شىء من ذلك على كثرة النابغين فيهما ، وكان أعلمَ أهل القطرين بتاريخ الملوك وطبقات العلماء والأدباء ، وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية : كالهند والصين والترك وغيرها ، فوق الفقه الذى نال فيه مرتبة الإفتاء ، وكان أبوه وعمه يتناوبان كتابة السر فى مصر والشام لسلاطين آل قلاوون ونوابهم ، وخلفهما فى ذلك شهاب الدين وأخوه وأولادهما فى مناصب رياسة دواوين الإنشاء وكتابة السر وغيرهما لآل قلاوون وآل برقوق . وتوفى ابن فضل الله سنة ٧٤٩ هـ .

ومن إنشائه فى وصف قِطِّ زَبَّاد من رسالة طويلة : وقط الزَّباد الذى لا تحكيه الأسود فى صُوَرها ، ولا تسمح غزلان المسك بما يَخْزُنه من عرفه الطيِّب فى سُرِرها كم تنقل فى بيوت طابت موطناً ، ومشى من دار أصحابه فقالوا (ربنا عَجِّل لنا قِطَّنا) .

ومن فصول رسائله فصل كتبه من رسالة على لسان سلطانه إلى نائب الشام مع طيور صيد جَوَارح أرسلها إليه :

« صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح ، وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادمةٌ بجناح ، ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بَنى رسمه ، وجرت عادة صدقتنا الشريفة أن تُحتسَب فى قسمه ، وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مَطَار ، ولا يوقد القرى فى غير حاليقها جذوة نار ، ولا تؤم طيراً إلا وترشُ الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار . وهى طائركم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه ، وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزينًا بأحسنه » .

ومن تآليفه كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى بضع وعشرين مجلدة ولا يعلم قبله كتاب وسع من علوم التاريخ ووصف الأرض والفَلَكَ والأدب ما وسعه ، وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف فى فن إنشاء الدواوين ، وكتاب « فواضل السَّمر فى فضائل آل عمر » .

لسان الدين بن الخطيب

هو ذو الوزارتين ، الكاتب الشاعر ، الفقيه ، المصنف ، الحكيم ، الخطيب ، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب .

ولد سنة ٧١٣ هـ . بمدينة غَرناطة من بيت عربي عريق في العلم والأدب والخطابة والرياضة وقيادة الجند ، وقرأ وتأدب وتفقه على مَشيَختها ، واجتمع له من الحكمة والأدب ملكة بذَّ بها أدباء الأندلس كتابة وشعراً وتصنيفاً وسياسة .

واشتهر باديء أمره بنظم الشعر فأنشأ القصائد البليغة ، وأشاد بمدح السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر فجعله في عداد كتابه ، ثم اجتباه وأضاف إليه الوزارة وفوض إليه جميع شؤون المملكة ؛ وما برح على هذه الخطوة حتى مات سلطانه ، وتولى ابنه مكانه فأقره على الوزارة ، ثم وشى به حساده من الفقهاء والكتاب عند السلطان ؛ وكادوا له المكايد ، واتهموه بالإلحاد في الدين حتى أحفظوه عليه . فلما أحس تنكره له فر إلى المغرب الأقصى . فأكرمه سلطانه ثم ابنه من بعده ؛ إلى أن ثار عليه ثائر ، وساعد ملك بني الأحمر هذا الثائر بشرط أن يسلمه ابن الخطيب فتم له أمره وسُجن بفاس ، وخُنق في سجنه ثم دفن من الغد بها سنة ٧٧٦ هـ .

وكان ابن الخطيب خاتمة بلغاء الأندلس وآخر الرؤساء والأعيان من كتاب الرسائل والتأليف . وكان في عدوة الأندلس يضارع ابن خلدون في عدوة أفريقية : فقهاً ولغة وأدباً وتاريخاً وشعراً ؛ غير أن ابن خلدون كان قليل الحفل بالسجع والزخرف ، وكان بابن الخطيب لوثة منهما .

وكانت عبارة رسائله مشوبة بصبغة يسيرة من أسلوب الفقهاء ورسوم العلماء ، وتُشفع غالباً بشيء من شعره : إما متخللاً لها وإما متقدماً صدرها . شأن أكثر كتاب الأندلس .

وقلما صدرت عنه رسالة موجزة ، ومن قصار رسائله رسالة الشوق كتبها إلى ابن خلدون وهي بعد الديباجة :

أما الشوق فحدّث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبرُ فسَلْ به أيّةَ درج ،

بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج . وأنى بالصبر ، على إبر الدبر ، بل الضرب الهبر ، ومطاولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ، وهل للعين أن تسلو سلو المقصر ، عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائى والمشاهد ، وفى الجسد مضغة يصلح إذا صلحت : فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت . وإذا كان الفراق هو الحمام الأول : فعلام المعول ؟ أعيت مراوضة الفراق ، على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق : أن تفضى إلى السياق :

تركتمونى بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سنى ندماً تارة وأستميح الدمع أحيانا

التدوين

ألف علماء هذا العصر تآليف جمة : أخلفت على العربية بعض ما أباده التتار والصليبيون من الكتب النفيسة : ويرجع أكثر الفضل فى ذلك إلى علماء مصر والشام وجالية الأندلس إليهما . أما أعاجم المشرق فهم وإن ألفوا فى العلوم الإسلامية والفلسفية فقد كان تأثير بيئتهم الأعجمية جاعلا كتبهم على شرف موضوعها وجلال مباحثها صعبة التناول : ضعيفة الأثر فى تقدم اللسان العربى. ونذكر هنا لمعاً يسيرة من أحوال العلوم العربية ومؤلفيها فى هذا العصر .

الأدب

قد كان لأدباء القاهرة من الكتاب السبق فى وضع الكتب الجامعة ، التى تبحث فى عدة علوم أدبية أو ملحقة بها . ومن هؤلاء :

شهاب الدين النويرى[1] صاحب نهاية الأرب[2] وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار ، وشهاب الدين القلقشندى صاحب صبح الأعشى[3]

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد البكرى النويرى المؤرخ الأديب ، نسب إلى نويرة إحدى قرى مديرية بنى سويف توفى سنة ٧٣٢ هـ (٢) باشرت دار الكتب المصرية طبعه وأنجزت منه عشرة أجزاء . (٣) هو شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى نزيل القاهرة ، تفقه ومهر وعانى الأدب وكتب فى الإنشاء ، وكتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء

ومن ألّفَ في الأدب بمناحٍ مختلفة :

جمالُ الدين الوطواط صاحب الغُرر والعُرر ، وشهاب الدين الحلبي صاحب منازل الأحباب ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل ، وشهاب الدين أحمد الأبشيهي صاحب المستطرف ، والنواجي[1] صاحب حلبة الكميت .

بقية العلوم الإسلامية

لم تكن مصر ولا الشام في العصور الأولى َميداناً لتسابق جِياد علماء اللغة كما كان العراقان والأندلسُ .

ولما أباد التتارُ بقيةَ العلماء والنحاة في الشرق ، كاد أفق المشرق والشام ومصر يصفرّ من النحاة وأهل اللغة ، لولا أنْ تداركها الله بدخول التتار في الإسلام ومعاضدتهم هم والدول التي خلفتهم للعلم والعلماء ، وبجلاء بعض كبار النحاة واللغويين من الأندلس والغرب قبيل حادث التتار وبعده : كابن مالك[2] والشاطبي[3] وأبي حيان[4] وابن منظور الأفريقي ، فجددوا النحو واللغة بمصر والشام ، وتخرج عليهم تلاميذ أفاضل ، كانوا كواكب العصور المتأخرة فدونوا العلم وحفظوه لمن أتى بعدهم ممن نشئوا في العصور المظلمة .

على أن أكثر هؤلاء العلماء المتأخرين لم يكونوا منقطعين للعربية وحدها ، بل كان لهم تخرج في كثير من العلوم ولا سيما الشرعية ، التي كانت الرغبة

أحسن ما كتب في تاريخ الإنشاء طبع في مصر في ١٤ مجلدة ، توفي سنة ٨٢١ هـ . (قلقشندة إحدى قرى مديرية القليوبية) .

(١) هو شمس الدين محمد بن حسن بن علي ، فاق أهل عصره في الأدب وألف كتباً كثيرة فيه توفي سنة ٨٥٩ هـ و (نواج) إحدى قرى مديرية الغربية

(٢) هو العلامة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني ، نزيل دمشق الشام ، إمام النحاة ومجدد النحو في المشرق ، وحافظ اللغة وصاحب الألفية والتسهيل توفي سنة ٦٧٢ هـ . و (جيان) بفتح الجيم وتشديد الياء مدينة من مدن الأندلس شرق قرطبة

(٣) هو الشاطبي النحوي محمد بن علي ابن يونس الأندلسي البلنسي تصدر بالقاهرة في اللغة والنحو وروى عنه أبو حيان وتوفي سنة ٦٨٤ هـ .

(٤) هو الإمام أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي نحوي عصره ولغويه ومقرئه توفي سنة ٧٤٥ هـ

فيها حينئذ تفوق كلَّ رغبة . ولم يعنَ فى مصر والشام والغرْب بنوع من العلوم الكونية إلا بالرياضة العملية من الهندسة والحساب والميقات . وهُجِرت العلوم الفلسفية والمنطق ، بل حكم بعضُهم بكفر متحلها ، وبقى كثيرٌ من علماء المشرق من الفرس والأفغان والهنود يزاولها إلى وقتنا هذا ، من غير تأثير لم فى ترقية شأنها عما كانت عليه .

كتاب التدوين والتصنيف

أما كتابة التدوين فكانت فى المتون ونحوها موجزة جدًّا ، جارية على أسلوب الأقيسة المنطقية . وكانت فى الشروح والمطوّلات مبسوطة كثيرة النقل عن الأئمة ، غزيرة الاستدلال بالبراهين والأدلة العقلية ، وكان للشافعية فى الإيجاز وتنقيح التحرير الباع الأطول . وبقيت هذه الحال حتى أوائل الحكم العثمانى . ثم اخترع تأليف الحواشى والتقريرات والرسائل الخاصة بشرح قاعدة أو جملة أو قصيدة . وضعُفت عبارتها وازدادت تعقيداً وغموضاً ، حتى أصبح ذلك مما يتنافس فيه ، ويظن فى صاحبه العلم والدقة .

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر ابن خلكان — وابن خلدون — والسيوطى وابن مُكَرَّم — والفيروزابادى — وعز الدين بن عبد السلام(١) — وابن حجر العسقلانى(٢) — وابن هشام النحوى(٣) — ولسان الدين بن الخطيب — وسعد الدين التفتازانى(٤) — والسيد الجرجانى(٥) — والشهاب الخفاجى .

---

(١) هو الفقيه المجتهد الشافعى علامة الزمان عز الدين . نشأ فى الشام وتعلم بها وتصدر قدم مصر فأقام بها أكثر من ٢٠ سنة وتوفى سنة ٦٦٠ هـ

(٢) هو إمام الحفاظ فى زمانه قاضى القضاة أبو الفضل أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى ثم المصرى صاحب شرح البخارى والإصابة فى تمييز الصحابة وغيرهما من نفائس الكتب توفى سنة ٨٥٢ هـ

(٣) هو إمام النحويين وفخر المصريين ، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى صاحب مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، ولد سنة ٧٠٨ هـ وتوفى سنة ٧٦١ هـ ودفن بجوار باب النصر ولا يزال قبره معروفاً

(٤) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله العلامة فى النحو والتصريف والبلاغة والتوحيد والفلسفة والفقه والأصول . انتهت إليه معرفة العلوم بالمشرق توفى بسمرقند سنة ٧٩١ هـ

(٥) هو علامة المشرق السيد الشريف على بن محمد على الحنفى الجرجانى ، كان نظير سعد الدين فى أكثر العلوم ، ويزيد عليه فى فصاحة المنطق ، وجرت مناظرات بينهما فى مجلس الطاغية تيمورلنك وتوفى بشيراز ٨١٦ هـ .

فيها حينئذ تفوق كلَّ رغبة . ولم يعْنَ في مصر والشام والغرب بنوع من العلوم الكونية إلا بالرياضة العملية من الهندسة والحساب والميقات . وهُجِرت العلوم الفلسفية والمنطق ، بل حكم بعضُهم بكفر منتحلها ، وبقى كثيرٌ من علماء المشرق من الفرس والأفغان والهنود يزاولها إلى وقتنا هذا ، من غير تأثير لهم في ترقية شأنها عما كانت عليه .

كتاب التدوين والتصنيف

أما كتابة التدوين فكانت في المتون ونحوها موجزة جداً ، جارية على أسلوب الأقيسة المنطقية . وكانت في الشروح والمطوّلات مبسوطة كثيرة النقل عن الأئمة ، غزيرة الاستدلال بالبراهين والأدلة العقلية ، وكان للشافعية في الإيجاز وتنقيح التحرير الباع الأطول . وبقيت هذه الحال حتى أوائل الحكم العثماني . ثم اخترع تأليف الحواشي والتقريرات والرسائل الخاصة بشرح قاعدة أو جملة أو قصيدة . وضعُفت عبارتها وازدادت تعقيداً وغموضاً ، حتى أصبح ذلك مما يتنافس فيه ، ويظن في صاحبه العلم والدقة .

ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر ابن خلكان — وابن خلدون — والسيوطي وابن مُكَرَّم — والفيروزابادي — وعز الدين بن عبد السلام[1] — وابن حجر العسقلاني[2] — وابن هشام النحوي[3] — ولسان الدين بن الخطيب — وسعد الدين التفتازاني[4] — والسيد الجرجاني[5] — والشهاب الخفاجي .

---

(١) هو الفقيه المجتهد الشافعي علامة الزمان عز الدين . نشأ في الشام وتعلم بها وتصدر ثم قدم مصر فأقام بها أكثر من ٢٠ سنة وتوفي سنة ٦٦٠ هـ (٢) هو إمام الحفاظ في زمانه قاضي القضاة أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ثم المصري صاحب شرح البخاري والإصابة في تمييز الصحابة وغيرهما من نفائس الكتب توفي سنة ٨٥٢ هـ (٣) هو إمام النحويين وفخر المصريين ، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري صاحب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ولد سنة ٧٠٨ هـ وتوفي سنة ٧٦١ هـ ودفن بجوار باب النصر ولا يزال قبره معروفاً (٤) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله العلامة في النحو والتصريف والبلاغة والتوحيد والفلسفة والفقه والأصول : انتهت إليه معرفة العلوم بالمشرق توفي بسمرقند سنة ٧٩١ هـ (٥) هو علامة المشرق السيد الشريف علي بن محمد علي الحنفي الجرجاني ، كان نظير سعد الدين في أكثر العلوم ، ويزيد عليه في فصاحة المنطق ، وجرت مناظرات بينهما في مجلس الطاغية تيمورلنك وتوفي بشيراز ٨١٦ هـ .

ابن خلكان

هو قاضى القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر خلكان الإربِلى .

وُلد سنة ٦٠٠ هـ . بمدينة إربل[1] من بيت كبير عريق فى الفضل ، وتوفى والده وهو ابن سنتين . فنشأ بإربل وأقام بها إلى سنة ٦٢١ هـ . فرحل إلى حلب ومكث بها سنين ، ثم إلى دمشق وأقام بها مدة ، ثم أقام بمصر وتولى القضاء بها ، وفيها ألف أكثر تاريخه العظيم (وفَيَات الأعيان) ثم تقلبت به الأحوال بين مصر والشام إلى أن مات بدمشق سنة ٦٨١ هـ .

وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، حسن المحاضرة لطيف المعاشرة ، واسع الاطلاع شديد التحرى والضبط .

تاريخه (وفياتُ الأعيان وأنباء أبناء الزمان) أفضل ما بأيدى الناس من كتب التراجم ؛ لشدة عنايته بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبُلدان ، وتحقيق الحوادث بحسب الإمكان . هذا فوق مزيته الكبرى : وهى بناؤه على تعيين الوفيات . وتنزهه عن رواية أقوال الفحش والخنا ، وإن كان يؤخذ عليه روايته لكثير من الأخبار التى لا تخلو من مبالغة ؛ أو وضعها على علاتها متوخياً فى ذلك أمانة النقل . وقد اشتمل هذا التاريخ على ٨٤٦ ترجمة . ثم تم عليه محمد بن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . بكتابه الذى سماه فوات الوفيات ، ولكنه لم يدرك شأو سابقه ، لا فى الضبط ولا فى ذكر تاريخ الوفيات .

ابن خلدون

هو حكيم المؤرخين ، وعلم المحققين الفقيه القاضى الكاتب الشاعر المنصف عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون .

وكان بيت خلدون هذا من أشرف بيوتات الشرف والرياسة وقيادة الجند

---

(١) بلدة قرب الموصل .

بأشبيلية من قديم الزمان ولم ينقطع منهم إلى خدمة العلم والأدب غير المترجم وأبيه وكان أهله قد انتقلوا إلى تونس عند تغلب الأسبان على أشبيلية . ويتصل نسبهم بوائل بن حُجْر من أقيال اليمن من حضرموت .

وُلد ابن خلدون بتونس سنة ٧٤٢ هجرية فحفظ القرآن الكريم وقرأه بالسبع ، وتلقى العلم والأدب من أبيه ومن كبار العلماء ، وقرأ العلوم العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب .

ولم يزل مُكِبًّا على تحصيل العلم حتى دهم أفريقية طاعونٌ جارف ، مات فيه أبواه وأكثر ذوى قرابته وشيوخه ، فاحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يَطِرّ شاربه ، فكتب لبعض ملوك الدولة الحفصية بتونس ودولة بنى مَرين بفاس ، ثم وصل بعد ذلك إلى ملوك بنى الأحمر بالأندلس ، فحظى عندهم حتى حسده على ذلك صديقه لسان الدين بن الخطيب فأقاع عنها ، وذهب إلى صاحب بجاية بالمغرب الأوسط فوَزّر له ، وبقى يتردد بين المغرب الأوسط والأقصى وأفريقية والأندلس ، حتى حسن فى عينه التخلى عن السياسة والانقطاع إلى العلم ، فنزل على بعض قبائل العرب على حدود الصحراء أربعة أعوام ، ألف فيها تاريخه ومقدمته التى لم ينسج أحد من المتقدمين ولا المتأخرين على منوالهما ، ثم عزم على الحج فدخل مصر سنة ٧٨٤ هـ . زمن سلطانها برقوق[1] ثم استقدم أهله وولده من المغرب فغرقت بهم السفينة ، فأقام بمصر حزيناً ، وجلس للتدريس بالجامع الأزهر ، وتولى قضاء المالكية سنة ٨٧٧ هـ . وأظهر العدل فى أحكامه ، واستقال من القضاء ثم عاد إليه ، وخرج مع كثير من علماء مصر فى جيش السلطان فرج[2] بن برقوق لمدافعة تيمورلنك[3] عن

---

(١) هو الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن أنص الجركسى أول ملوك الجراكسة وسمى برقوق لجحوظ عينيه ، حكم مصر والشام ثم خلع ثم حكم ثانية وبقى سلطاناً حتى توفى سنة ٨٠١ هـ .

(٢) هو الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق حكم ثم خلع ثم حكم ثم قتل سنة ٨١٥ هـ .

(٣) هو الطاغية الجبار تيمورلنك من سلالة جنكيز خان من جهة النساء ، ملك أواسط آسيا وأعالى الهند وفارس وكاد يقضى على الدولة العثمانية فى بدء نشأتها مع إسلامه وإلمامه بكثير من العلوم توفى سنة ٨٠٧ هـ ودفن بسمرقند .

الشام فوقع مع كثير من العلماء فى أسر تيمور ، فأدخل عليه فخلبه بسحر بيانه ، فأكرمه وسرحه إلى مصر ليأتى له بتاريخه ومقدمته ، فذهب ولم يعد إليه ، وبقى بمصر يشتغل بالتدريس تارة والقضاء أخرى ، حتى مات وهو قاضى المالكية بمصر للمرة السادسة سنة ٨٠٨ هـ .

منزلته فى الكتابة والتاريخ والشعر

أحيا ابن خلدون فى عصره الكتابة المرسلة الفطرية ، الخالية من السجع وتكلف البديع فى عصر بلغ غايته . وإلى ذلك عمد فى كثير من فصول مقدمة تاريخه ، فجاء بعض كتابته فيها بمنزلة من البلاغة لا تقل عن كتابة فحول القرن الثالث ، ولم يكن الانتفاع بالمقدمة وكتابته فى وقت أظهر مما كان فى أوائل العصر الحاضر ، إذ كانت هى الأسلوب الأمثل لكتاب الصحف والمجلات فى بدء نهضتنا الأخيرة .

وكان ابن خلدون إماماً حكيماً فى التاريخ أكثر مما كان إماماً فى الكتابة ، فإنه يعتبر من أكبر واضعى علمى العمران والاجتماع بما خطه فى مقدمته .

ولم تعد أحكامه فى سياسة الممالك الاستبدادية التى ذكرها فى مقدمته مطردة فى عصرنا هذا ، إذ أصبحت طريقة الحكم بممالك عصرنا دستورية ، إلا أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عن حالتها السابقة .

ويؤخذ على ابن خلدون فى مقدمته إنحاؤه على العرب وقسوته فى الحكم عليهم فى كثير من سياسة الملك .

ويمتاز تاريخه بأنه التاريخ الوحيد الذى فصل الكلام على دول المغرب من البربر وغيرهم .

وكان ابن خلدون شاعراً ، طويل النفس ، وشعره بالإضافة إلى شعر عصره غاية فى الجودة ، وإن وصفه هو بأنه متوسط بين الجودة والقصور تواضعاً منه .

جلال الدين السيوطى

هو عبد الرحمن جلال الدين ابن الإمام كمال الدين الخُضَيرى السيوطى ، العالمُ المحدِّث المفسر المتفنن الجامع المختصر ، صاحب التصانيف المشهورة ، ورسائل العلم المأثورة .

ولد سنة ٨٤٩ هـ . ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وعمره دون الثمان ، ثم حفظ متونَ الفقه والنحو ، وأخذ العلمَ عن مشايخ وقته ، وابتدأ فى التصنيف وسنه ١٧ سنة . ثم لازم الأشياخَ وطلبَ العلم فى بقاع الأرض ، فدخل الشامَ والحجازَ واليمنَ والهندَ والمغربَ والتكرُور[١] ونبغ فى كثير من العلوم ورزق التبحُّر فى التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع .

وتولى التدريس والإفتاء ولم يكن أشهر منه فى زمنه . ويُعدّ السيوطى من الأئمة الذين حفظوا العلم للخلف وسهّلوا سُبُلَه للمتأخرين . وقد ترك للناس أكثرَ من ثلثمائة مُصنَّف[٢] ، ولو لم يكن له إلا الإتقان فى علوم القرآن ، والمزهر فى أصول اللغة ، والأشباه والنظائر فى دقائق النحو وأصوله ، والهمْع على الجمع فى فروع النحو وأصوله والصرف ، لكفاه ذلك فخراً .

وتوفى سنة ٩١١ هجرية ودفن بالمقبرة المنسوبة إليه شرقى القاهرة الجنوبى .

الشعر[٣]

ولما كان أكثرُ سلاطين الإسلام وملوكه وأمرائه فى هذا العصر بالمشرق والشام ومصر أعاجمَ بالفطرة ، كان ميلهم إلى الشعر العربى غيرَ طبَعىّ ، وعطفهم على فحول الشعراء البلغاء ضعيفاً ، ولذلك انقرض الشعر العربى من أواسط آسيا ، وبقيت صُبابةٌ منه بالعراق والجزيرة ، وبقى على شىء من

(١) هى جزء من السودان الغربى يقابل بلاد مراكش جنوباً والسنغال شرقاً وهى المسماة عند الأوربيين بأعمال (النيجر) وكان من أعظم بلاده مدينة (تنبكتو) بضم فسكون مكررين ثلاثاً ومدينة (مالى) وهى من البلاد التابعة لفرنسا الآن

(٢) كذا فى حسن المحاضرة للسيوطى .

(٣) يجدر بمن يريد التوسع فى معرفة أحوال الشعر غرضاً ولفظاً ومعنى فى هذا العصر أن يقرأ على الأقل شرح بديعية ابن حجة المسماة بخزانة الأدب .

الرونق فى الشام ومصر والأندلس والمغرب ، غير أنه قلّ التكسُّبُ به فيها ، فمال أكثر الشعراء إلى انتحال الكتابة فى الدواوين صناعة ، واستعملوا الشعر فى تملق الملوك والرؤساء ، وفى إظهار التفصُّح والتسلية . فهُجِر قوله فى الأغراض الهامة . وعدلَ به إلى أغراض غير فطرية ، إما مقبولة فى الجملة : كمدح النبى صلى الله عليه وسلم[١] والشكوى إليه[٢] ، أو مدح بعض الأولياء[٣] ، أو اللَّهَج بأحوال التصوف والزهادة ونحو ذلك . وإما تافهة كالأغراض الآتية :

١ — الغزل غير الحقيقى وبخاصّة بالمذكر ، وزاده مَقتاً وسماجة صدوره عن كبار العلماء ومشايخ الصوفية .

٢ — إظهار البراعة بنظم مقطعات تتضمن غزَلاً أو وقائع خيالية لمجرد العثور على لفظ تصح فيه تورية[٤] أو يلتئم معه جناس[٥] .

٣ — ازدياد المجّانة والخلاعة والهجاء المقذِع .

٤ — وصف كثير من الأشياء والآلات التى لا يؤبه لها كالناعورة[٦] والمخدة[٧]

---

(١) كما فى البردة والهمزية وبديعيات ابن حجة وصفى الدين وعز الدين وديوان البرعى وغير ذلك (٢) وغلب ذلك فى الأندلس عند مضايقة الأسبانيين لهم .

(٣) ويكثر ذلك فى دواوين المتصوفين والقصاص وكتب مناقب الأولياء وطبقاتهم .

(٤) كقول السراج الوراق :

وأحمق أضافنا ببقله ... لنسبة بينهما ووصله
فمن أقل أدباً من سفله ... قد مد فى وجه الضيوف رجله

(٥) كقول الصلاح الصفدى :

يا من إذا ما أتاه ... أهل المودة أرلم
أنا محبك حقاً ... إن كنت فى القوم أولم

(٦) كقول ابن الوردى :

ناعورة مذعورة ... ولهانة وحائرة
الماء فوق كتفها ... وهى عليه دائرة

(٧) كقول النواجى :

فى نفع ولذة للنفوس ... وحياة وراحة للجلوس
كم نايم أرحته باتكاء ... وتواضعت عند دفع الرؤوس

والبساط[١] ورقعة المصلى[٢] وكالمروحة والسكين والدواة والسراج والمِبْخرة .

٥ — الألغاز والأحاجى[٣] .

أما معانيه فقلّ فيها الاختراع ودقة التصوير ، وضرب الأمثال وإبراز الحكمة ، وإن كثر تنوع التشبيه وتخيل الاستعارة .

وأما ألفاظه وأسلوبه فشاع فيها ما يأتى :

١ — الاقتصارُ على الألفاظ السهلة ، وهجرُ الغريب بل اللفظ الجزل حتى استعملوا الألفاظ العامية[٤] أو التركية الفاشية فى ذلك الزمان .

٢ — الاقتصارُ على التراكيب السهلة ، واستعمال كثير من الأمثال العامية[٥] .

٣ — تكلف البديع ولا سيما التورية والجناس ، ثم قل ذلك فى أواخر هذا العصر ، لضعف الشعراء عن استخراجه والترفق فى استعماله .

٤ — إظهار الحِذْق بالاستكثار من الألفاظ المصغَّرة[٦] أو المهملة أو المعجمة[٧]

---

(١) كقول ابن نباته :

بساط يملأ الأحداق حسناً ... ويهدى للقلوب بها سرورا
ويشرح حين يبسط كل صدر ... وخير البسط ما يرضى الصدورا

(٢) كقول ابن الوردى :

سجادة أذكرتنى ... منك الذى كنت أعلم
أهديتها لمحب ... صلى عليها وسلم

(٣) كقول النابلسى فى سراج :

ما اسم تراه فى النها ... ر كاسداً إذ لا احتياج
وإن طرحت الربع منـ ... ـه فى الدجى تلقاه راج

(٤) كقول أبى المواهب البكرى :

إن فى الشاروخ معنى ... لذوى الألباب عبره
إن تعالى فهو فرد ... أو تدلى فهو كثره

(٥) كقول بدر الدين الأزهرى :

لقد عثرت بجنح الليل رجلى ... على شخص ولم يك فى حسابى
فقال مجاوباً لى : أنت أعمى؟ ... فقلت : نعم ودواس الكلاب

(٦) كقول الحلى :

لحيظك والمقيلة مع نظيمى ... سحير فى سحير فى سحير

(٧) كقول الحلى :

فى يفسن بنض نسق ... فيقضى بغبنى فى بغبق

وقوله

كم ساهر حرم لمس الوساد ... وما أراه سؤله والمراد

جملة أو بصورة خاصة[١]، أو لزوم ما لا يلزم، أو ما لا يستحيل بالانعكاس[٢]، أو التاريخ الشعرى[٣]، ولا سيما آخر هذا العصر الذى بلغ فيه التاريخ الشعرى غايته.

٥ ـ كثرة تضمين[٤] الشعر المشهور، وكذلك التشطير والتخميس.

٦ ـ كثرة الاقتباس[٥] من القرآن الكريم والحديث، وقلما يكون بغير تورية.

أما أوزان الشعر فلم يحدُث فيها فى هذا العصر أوزان جديدة، وإنما شاع فيه استعمال الأوزان المولدة، ونظم كثير من الموشحات الفصيحة والعامية وكثير جداً من المواليا[٦] والزجل[٧] والقومة[٨] وكان

---

(١) كقول ابن حجة فى المعجم من أعلى فقط:

وقد أمنت وزال الخوف منحذفاً   نحو العدو ولم أخفر ولم أذم

(٢) كقول عز الدين الموصلى:

لم يستحل بانعكاس فى سجيته   (مدن أخا طم معط أخا ندم)

(٣) كقول الخلى المصرى:

مغنى البرايا بنى لله مدرسة   لها من الأنس أنوار تغشيها
على الهدى أسست واليمن أرخها   دار العلوم فيحيا العدل منشيها

(٤) كقول الصفدى:

ملكت كتاباً أخلق الدهر رسمه   وما أحد فى دهره بمخلده
إذا عاينت كتبى الجديدة جلده   (يقولون لا تهلك أسى وتجلد)

(٥) كقول جمال الدين بن نباته:

الله سخر لى (وعاذلتى)   من حف بى الإكرام والكرما
حتى تلوت قبل رؤيتهم   (يا ليت قومى يعلمون بما)

وكقول صفى الدين العزى:

رب ثقيل إمام قوم   يؤم بالناس ثم يجحف
خالف فى الفعل قول طه   «من أم بالناس فليخفف»

(٦) تقدم الكلام فى المواليا ومن أمثلته فى هذا العصر قول بعضهم فى التوجيه بالأزهار وغيرها:

لك خد يا حى عالم يا كيت الطرد   عليه لو نفس صباره وحر وبرد
ناداه والعارض التمام حوله فرد   ما فاتك الحسن يا شقيق الورد

(٧) لا حد لأوزانه وإنما أشهرها (مستفعلن فعلن فعلن) أربع مرات لكل دور، وربما قالوا فعلان بدل (فعلن) الأخيرة كقول بعضهم:

من السكرك جانا الناصر   وجب معه أسد الغابة
وركبتك يا شيخ هنطش   ما كانت إلا كدابه

(٨) نوع من الزجل كان يوقظ به الناس للسحور فى رمضان ووزنه (مستفعلن فعلان) أربع مرات لكل دور كقول بعضهم:

يا سيد السادات   لك فى الكرم عادات
أنا بن أبو نقطه   تعيش أبوها مات

وكان[1] ونحوها ، وأعجب ذلك ملوك مصر ولا سيما بنى قلاوون[2] وبرقوق فأثابوا الزجالين وقربوهم . وراج الزجل فى أيامهم حتى كاد ينسخ الشعر الفصيح ، ومن أشهر هؤلاء الزجالين شيخهم الشيخ خلف الغبارى زجال آل قلاوون ، الذى استخدم الزجل فى كل أغراض الشعر .

الشعراء

ظهر فى هذا العصر شعراء كثيرون ، من أشهرهم :

١ — شيخ شيوخ حماة شرف الدين الأنصارى المتوفى سنة ٦٦٢ هـ .

٢ — جمال الدين ابن نباتة المصرى وسنترجم له .

٣ — شهاب الدين التَّلَّعْفَرِى المتوفى سنة ٧٦٥ هـ .

٤ — الشاب الظريف المتوفى سنة ٦٨٧ هـ .

٥ — الإمام البوصيرى وسنترجم له .

٦ — ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

٧ — أبو بكر بن حجة المتوفى سنة ٨٣٧ هـ .

٨ — صفى الدين الحلى وسنترجم له .

٩ — فخر الدين بن مكانس المتوفى سنة ٨٦٤ هـ .

١٠ — ابن معتوق الموسوى وسنترجم له .

البوصيرى

هو الكاتب الشاعرُ المتصوّف ، شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى[3] البوصيرى صاحب البردة والهمزية .

كان أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص . وُلد بدلاص[4]

---

(١) نوع من الزجل ودوره مركب من أربعة شطور . الأول وزنه (مستفعلن فاعلاتن) . والثانى (مستفعلن مستفعلن) أو (مستفعلن مستفعلان) والثالث مثل الأول والرابع (مستفعلن فعلان) كقول بعضهم :

تحضر ولكن قلبك ... غايب وذهنك مشتغل
فكيف يا متخلف ... تحسب من الحضار

(٢) هم أولاد الملك المنصور قلاوون الصالحى النجمى سابع سلاطين المماليك البحرية وأشهرهم الملك الناصر بن قلاوون .

(٣) صنهاجة إحدى قبائل البربر وأصل وطنها الصحراء جنوب المغرب الأقصى

(٤) قرية من قرى مديرية بنى سويف أيضاً

سنة ٦٠٨ هـ . ونشأ بُبوصير[١] ثم انتقل إلى القاهرة . وتعلم علوم العربية والأدب فقال الشعر البليغ فى جدّه وهزله ، ونظم من جزْله ومرْذوله ، وفصيحه وعاميه . وكتب الرسائل الأنيقة ، واتخذ كتابة الدواوين صناعة ، فتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وباشر مديرية الشرقية مدّة ، وله فى ذم مباشرى الشرقية قصيدة طويلة ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة ، وحسن استعمال البديع فى مدائحه النبوية ، إلا أنه لم يحفل بهذه المزايا فى غيرها ، فجارى شعراء زمانه فى أسلوبهم حتى فى استعمال بعض الألفاظ المولدة والأهاجى المقذعة . ثم تنسك وتصوف .

شعره

ومن شعره قصيدة البردة الشهيرة التى وقع الإجماع على أنها أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد بانَتْ سُعادُ ونحوها من مدائح الصحابة ؛ قيل إنه فُلج فنظمها فى مرضه وتوسل بها إلى رسول الله فشفى من مرضه .

وأوّلها :

أمِن تَذَكّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دَمعاً جَرَى من مُقلة بدَمِ

أم هبّتُ الريحُ من تلقاء كاظمةٍ [٢] ... وأومض البرقُ فى الظلماء من إضَمِ [٣]

فما لعينيك إن قلت أكْفُفا هَمَتا ... وما لقلبك إن قلتَ استفق يَهِمِ

أيحسَبُ الصب أن الحبّ مُنكتِمٌ ... ما بينَ منسجمٍ منهُ ومضطرمِ

ومن حكمها البديعة المشوبة بمحاسن البديع قوله :

والنفس كالطفل إن تُهمِلهُ شبّ على ... حُبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ

فاصرف[٤] هواها وحاذرْ أن توليه ... إن الهوى ما تولى يُصمِ[٥] أو يَصِمِ

وراعِها وهى فى الأعمال سائمة[٦] ... وإن هى استحلتِ المرعى فلا تسمِ

كم حسّنَتْ لذةً للمرء قاتلةً[٧] ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسَمِ

واخش الدسائس من جُوع ومن شبع ... فرُبَّ مخمصة شرّ من التخم

---

(١) هى بوصير قوريدس من قرى بنى سويف أيضاً .

(٢) راجع مصور بلاد العرب الملحق بهذا الكتاب

(٣) وادى يبتدئ من غرب المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر)

(٤) الصرف فى عرف زمانهم العزل عن الحكم ضد التولية

(٥) جواب (ما) الشرطية ، أى ما تولى يصم من أصميت الصيد إذا قتلته وأنت تراه (أو يصم) من وصم العود إذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب

(٦) يلمح إلى ما يستعمل فى رعى الإبل

(٧) الأبيات يلمح فيها إلى صناعة الطب ، والاستفراغ والامتلاء والحمية من ألفاظها

واستفرغ الدمعَ من عين قد امتلأت   من المحارمِ والزم حِمْيَة الندم

وقد اتخذ شعراء المدائح النبوية هذه القصيدة نموذجاً ينسجون على منواله ، فكانت من أقوى الأسباب التى حملت شعراء هذا العصر وما يليه عن الإكثار من المدائح النبوية ، وكذلك اتخذها أصحاب البديعيات مثالاً يحتذونه فعارضوها بقصائدهم وزناً وقافية ، فلم يَلحقوا لصاحبها غباراً .

وقصيدة البوصيرى الهمزية فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم لا تقلُّ عن البردة فى فصاحتها ، وأوّلها :

كيف تَرقَى رقيَّكَ الأنبياءُ   يا سماءً ما طاوَلَتْها سماءُ

لم يساوك فى عُلاك وقد حا   ل سنًى منك دونهم وسناءُ

ومنها :

صاح لا تأس إن ضَعُفتَ عن الطا   عة واستأثرت بها الأقوياء

إن لله رحمة وأحقُّ النـ   اس منه بالرحمة الضعفاء

فابق فى العرج عند مُنقلب الذّو   د ففى العوْد تسبق العرجاء

لا تقل حاسداً لغيرك : هذا   أثمرت نخله وتَخلى عفاء

وأتِ بالمستطاع من عمل البر   فقد يُسقط الثمارَ الإناء

وله قصيدة أخرى على وزن بانت سعاد ، وأولها :

إلى متى أنت باللذات مشغولُ   وأنت عن كل ماقدَّمت مسئول

وتوفى البوصيرى سنة ٦٩٥ هـ . بالإسكندرية وقبره بها مشهورٌ يزار .

٢ — صفى الدين الحلى

هو الشاعر البديعُ عبد العزيز بن علىّ الشهير بابن سَرَايا الطائى الحلى شاعر الجزيرة .

ولد سنة ٦٧٧ هـ . ونشأ بمدينة الحلة من مدن الفرات ، فتأدب ونظم الشعر وأجاده وأصبح فيه أشهرَ شعراء عصره ، وخدم به الملكَ المنصور نجمَ الدين

غازى بن قره رسلان. أحد ملوك الدولة الأرتُقية ملوك ماردين[١] وديارِ بكرٍ[٢] من ذيول الدولة السلجوقية ، فحظى عنده ومدحه بكثير من القصائد ، ومنها جملة بعدد حروف المعجم أوائل حروفِ أبياتها كَرَوِيِّها ، وتسمى القصائد الأرتقيات ، وطبعت على حدتها ومع ديوانه .

واتصل بعده بابنه الملك الصالح شمس الدين ثم ذهب إلى الحج ، وعرج مُنْصَرَفه منه على مصر فمدح الملك الناصرَ بن قلاوون ، وأشار عليه كاتبُ سره القاضى علاء الدين بن الأثير بجمع ديوانه ، فجمعه مرتباً على اثنى عشر باباً .

وتوفى سنة ٧٥٠ هـ . ويعتبر صفى الدين من أئمة البديع المبتدعين فى أنواعه المغالين فى استعماله فى شعرهم بلا كثير تكلف ؛ وهو أولُ من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماةِ بالبديعيات ، على مثال بردة البوصيرى وقد نظم من كل فنون النظم : الفصيح والعامىّ من جِدِّيهما وهزليهما : فقال القصائد المطولة ، والمقاطعات والموشحات والمخمسات والمشطرات والمواليا والزجل والقومة وكان وكان ، وغيرها ؛ وله جملة مصنَّفات غير ديوانه .

وشعره فى جملته سهل الألفاظ حسن المعانى ، إلا ما كان يتكلفه للمعاياة وإظهار الحذق فإنه ردىء النسج ، ثقيل على السمع وله من ذلك فى ديوانه شىء كثير[٣] . ومن قوله فى الأدب : نبذة من شعره

اسمعْ مخاطبةَ الجليس ولا تكنْ ... عجلاً بنطقك قبلَ ما تتفهَّم

لم تعطَ معْ أذنيك نطقاً واحداً ... إلا لتسمعَ ضعفَ ما تتكلم

وقوله :

إذا الجَدّ لم يك لى مُسعداً ... فما حرَكاتى إلا سكونُ

(١) من مدن الجزيرة (٢) هى التى كانت تسمى قديماً آمد .

(٣) كقوله من المنقطع الذى لا يتصل منه حرف بالآخر :

إذا زار دارى زور ودود ... أود وأورده ورد ودى

وكقوله من المتصل الذى لا ينفصل منه حرف عن الآخر :

سل ملتق عطفاً عسى يتعطف ... فلقد لمى قلباً فما يتعطف

إذا لم يكنْ ما يريد الفتى ... على رغمه فليردْ ما يكون

وقوله :

بقدر لغات المرء يكثر نفعُهُ ... فتلك له عند الملمَّات أعوان
تهافتْ على حفظ اللغات مجاهداً ... فكل لسان فى الحقيقة إنسان

وقوله فى وصف عود الطرب :

وعود به عاد السرور لأنــه ... حوى اللهوَ قدْماً وهو ريَّان ناعم
يغرِّب فى تغريده فكأنه ... يُعيد لنا ما لقَّنَتْه الحمائم

وقوله يصف القاهرة المعزِّية :

لله قاهرة المعـزّ فإنهـــا ... بلد تَخصَّص بالمسرة والهنا
أوَ ماترى فى كل قطر مُنْية[1] ... من جانبيها وهى مجتمع المنى

وقوله يصف نيل مصر حين وفائه :

وفى النيل إذ وفَّى البسيطة حقها ... وزاد على ما جاده من صنائع
فما إن توفّى الناس من شكر مُنعم ... يشـــار إلى إنعـــامه بالأصابع

(٣) ابن نباتة

هو الشاعر الأديب والكاتب المصنف ، جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباتة ، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك ، وصاحب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، ووارث القاضى الفاضل فى التعصب للتورية .

وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم خطيب سيف الدولة الحمدانى .

ولد رحمه الله تعالى بمصر بالفسطاط سنة ٦٧٦ هـ . ونشأ بالقاهرة ، وتلقى العلم والأدب على كبار مشيختها ورؤساء دواوينها وأكب على قراءة شعر القاضى الفاضل ورسائله ، ورسخت فيه طريقته : من الوَلوع بالتورية والتوجيه

(١) كمنية ابن الخصيب ومنية الشيرج ومنية غمر .

والطباق . فعمل على تأييدها والإشادة بها ، فكان بعد الفاضل إماماً لهذه الطريقة نظماً ونثراً ، وحاكاه آخرون من أدباء عصره كصلاح الدين الصفدى[١] وكثيراً ما أغار على معانيه وتورياته ، وكزين الدين بن الوردى وغيرهما ، ولم يأت بعده من شعراء مصر والشام من بلغ غايته فى لطف التصور ورقة اللفظ وانسجام العبارة ، واستعمال المعانى البلدية .

وابن نباتة ممن لا يُعنى باستعمال الجناس ، ولا يحفل به كابن الوردى وابن حجة ، وإن وقع أحياناً فى شعره . واختلط فى أواخر عمره ومات بالبيمارستان المنصورى[٢] بالنحاسين سنة ٧٦٨ هـ .

ومن شعره قوله :

نبذة من شعره

يا مشتكى الهمّ دعه وانتظر فرجاً ... ودار وقتك من حين إلى حين
ولا تعاندْ إذا أصبحتَ فى كدَرٍ ... فإنما أنت من ماء ومن طين

وقوله فى رثاء ولده عبد الرحيم :

يا لهفَ قلبى على عبد الرحيم ويا ... شوقى إليه ويا شجوى ويا داثى
فى شهر كانونَ وافاه الحِمامُ لقد ... أحرقت بالنار يا كانونُ أحشائى

وله ديوان عظيم طبع فى مصر ، وله عدّة مصنفات : منها سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون وكتاب مجمع الفوائد ، وكتاب القطر النباتى ، والفاضل من إنشاء الفاضل ، وفرائد السلوك فى مَصايد الملوك .

(٤) ابن معتوق الموسوى

هو شهاب الدين بن معتوق الموسوى شاعر العراق فى عصره ، وسابق حلبته فى رقة شعره .

ولد سنة ١٠٢٥ هـ . ونشأ بالبصرة وبها تعلم وتأدّب وقال الشعر وأجاده ، وكان فى نشأته فقيراً ، فاتصل بالسيد على خان أحد أمراء البصرة من قبل

---

(١) هو خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (٢) هو المشهور بمستشفى قلاوون ولم يبق منه إلا قسم الرمد .

الدولة الصفوية الإيرانية ، وكانت وقتئذ تملك العراق والبحرين ، ومدحه مدحاً رقيقاً ، وأكثر شعره مقصور عليه وعلى آل بيته فغمره بإحسانه .

وصف شعره

وابن معتوق من كبار شعراء الشيعة ، لنشوئه فى دولة شيعية غالية ، فأفرط فى التشيع فى شعره ، وجاء فى مدح على والشهيدين بما يخرج عن حد الشرع والعقل ؛ ويمتاز شعره بالرقة وكثرة الاستعارات والتشبيهات ، حتى لتكاد الحقيقة تهملُ فيه جُملة .

وله ديوان شعر مشهور طبع مراراً بمصر وغيرها ، ويشتمل على قصائد ومقطعات ودوبيت ومواليا وبعض فصول من النثر سماها ابنهُ جامعُ ديوانه بنوداً .

ومن قوله يهنىء أميراً بالنصر على أعدائه ، ويصف إيقاعه بهم ويلمح لآيات من القرآن الكريم :

وأخرجتهُمْ فى رغمهم عن ديارهم ... وما اعتقدوا هذا إلى أوّل الحشر
وألقَوْا حبال المُنكَرات وخيّلوا ... فعارضتهمْ فى آية السيف لا السحر
كفى الله فيك المؤمنين لدى الوغى ... قتال العدا حتى سلمتَ من الأزْر
ولو لم يكفّ البأسَ عفوُك عنهمُ ... لعدت وقد عاد الحديد من التبر[1]
فما لبثوا إلا قليلاً فكم ترى ... لهم من ظليم[2] فرّ عن بيضة الخِدْر
تولوا مع الخُفّاش فى غَسَق الدجى ... وخافوا طلاب الشمس فى عَقِب الفجر
إذا ما لهم عِقْبان راياتك انجلتْ ... أعيروا من الغربان أجنحةَ الغر
رميتهمُ فى فيلق قد تغردت ... به طائرات النجح فى عذب السُّمْر

وله من قصيدة :

لله أيام لهوى بالعقيق وإن ... كانت قصاراً وساءتنى قُصارها
أوقاتُ أنس كأن الدهر أغفلَها ... إذ من صروف الليالى ما عَرفناها
لم نَشك من مِحَن الدنيا إلى أحد ... من البرية إلا كان إحداها

---

(١) أى فى حمرة الدماء. (٢) الظليم ذكر النعام يريد به الفارس الفار عن حرمه .

العصر الخامس
وهو عصر النهضة الأخيرة
من ١٢٢٠ هـ – إلى الوقت الحاضر

حالة اللغة العربية وآدابها فى هذا العصر

كانت حالة البلاد العربية فى أوائل القرن الثالث عشر غاية ما وصلت إليه من الفساد والاضمحلال حكومة وأخلاقاً ولغة وأدباً ، فرأت أوربة أن قد آن الأوان لأن تجدِّدَ غاراتها عليها ففعلت ، ولكن لا بشكل الحروب الصليبية الممقوتة ، بل بدعوى نشر متاجرها وبث علومها وآدابها ، وبمحاربة الواقفين لها فى طريقها ، فابتدئَ ذلك بحملة نابليون على مصر والشام ، فكانت هى أول ناشر لعلم أوربة وأدبها فى العلوم العربية ، وإن سبقها بقليل بعض الدعاة المسيحيين من أممها .



فلما استولى محمد علىّ باشا على مصر بحذقه ودهائه ، كان أول قاعدة أراد أن يبنى عليها مملكته وسلطانه متابعةُ الأوروبيين فى الإدارة والتربية وتنظيم الجيش : لما رآه من آثار الفرنسيين بمصر ، ولما شاهده من تقدمهم فى أثناء اشتراكه فى حربهم مع الترك والإنجليز ، فاستعان بفرنسا وبعض ممالك أوربة على إدخال المدنية الأوربية فى بلاده ، فتمّ له بعضُ ذلك ، إلا أن أحوال البلاد الطبَعيةّ والدينيةّ واللغوية لم تكن تُسهل على مستخدمى الأوربيين ومن معه من الألبانيين والترك أن يستقلوا بجميع أمور البلاد . فرأى بحكمته أن يربى من أبناء البلاد وجاليةِ الترك والألبان من يكونُ خير واسطة لنقل معارف الأوربيين إليها ، فبعث إلى أوربة بثلاثة بُعوث علمية فى أزمنة مختلفة[1] كونت بعدُ ثلاث طبقات من العلماء والأطباء والمهندسين والضباط . فنقلوا إلى اللغة العربية عشرات الكتب الجليلة فى العلوم المختلفة ، فأحدث ذلك فى اللغة العربية انقلاباً عظيما . واكتسبت من سعة الأغراض والمعانى والألفاظ العلمية والأساليب الأجنبية ، وطرق البرهنة والاستنباط وترتيب الفكر ثروةً طائلةً . وعهدَ إلى هؤلاء الأساتذة ومن سبقهم ومن لحقهم من الأوربيين فى إنشاء المصانع الوفيرة ، والمدارس الكثيرة ملكية وحربية وحاول أن يجعل اللغة التركيةّ أساسية أوشبه أساسية فى التعليم والسياسة والإدارة فتعذّر عليه ذلك ، واضطُرّ إلى مجاراة طبيعة البلاد ، فأصبحت العربية لغةَ كل ذلك ، وظهرت على اللغة التركية واللغات الأوربية المختلفة التى كانت تدرس وجوباً معها . وكان من الأزهر الشريف أكثر المدد الذى استمده محمد على لتربية البعوث العلمية ، وتدريس العلوم العربية بالمدارس . ورأى العلماء والأدباء أنه صارت لهم دولة منظمة متحضرة تتقبل منهم بقول مقبول حسن كل ما يحسنونه من نتيجة كدهم وثمرة أفكارهم ؛ فالتفوا حولها وصار للدولة كتابٌ وشعراء ومنشئون فى جريدتها (الوقائع) أول جريدة عربية واقتدى بمصر أهل الشام . وصادف

البعوث فى أوربة

أثر البعوث فى اللغة

أثر الأزهر

---

(١) وقد أوردنا فى الصفحة التالية صور بعض طلبة البعوث العلمية التى أرسلها محمد على باشا إلى أوربة .



الأسماء مرتبة من اليمين إلى اليسار

(الصف الأول)

مصطفى مخرجى	(مهندس)
رفاعة بك	(ناظر مدرسة الألسن)
حسن بك	(وزير بحرية)
محمد بيومى	(مدرس بمدرسة الطب)

(الصف الثانى)

محمد على باشا الحكيم	(طبيب وجراح)
محمد شباسى	(مدرس بمدرسة الطب)
الوزير على مبارك باشا	
أوى بن كلهو ولد فى يمو	(من أهالى الصومال)
مختار بك	(أحد وزراء المعارف)

(الصف الثالث)

محمد السكرى	(مدرس بمدرسة الطب)
أمين بك	(ناظر الذخائر)
مظهر بك	(مهندس القناطر الخيرية)
محمد شافعى	(أحد نظار مدرسة الطب)

ذلك امتداد نفوذ دعاة المسيحية من الأمريكان البروتستنت واليسوعيين الكاثوليك وغيرهم ، فهاجر كثير من السوريين إلى مصر وانتظم فى سلك الحكومة والمدارس المصرية ، ودخل كثير من نصاراهم مدارس الدعاة الذين كان أكثرهم من المستعر بين العارفين باللغة العربية ؛ فدرسوا العلوم وألفوا الكتب باللسان العربى ، ونبغ من مدارسهم رجال كانوا زهرةً سوريةً ؛ وغلب عليهم الأدبُ : من الشعر والكتابة وترجمة الروايات الأدبية ؛ واتخذوا ذلك صناعة لهم يتكسبون بها فى الشام ومصر ؛ فعاد ذلك على القطرين بالتقادم فى الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر والإرادة .

ومن الأسف أن هذه النهضة لم يستمر سيرها فى مصر كما استمر فى الشام بل ركدت ريحها زمن عباس باشا الأول وزمن سعيد باشا ؛ ثم تنسمت فى عصر إسماعيل وما لبثت أن صارت رُخاء طيبةً ؛ فأعاد رحمه الله سيرة جده فى نشر العلم ؛ فافتتح المدارس والمكاتب وأنشأ الجسور والقصور والمصانع ؛ ووجد أكثر رجال البعوث العلمية الذين رباهم جدّه على قيد الحياة ؛ فاتخذ منهم المدرسين ورؤساء الإدارة وزاد على جدّه فى إرسال البعوث العلمية إلى أوربة ؛ وظهرت ثمرة أعماله فى حياته وكادت مصر توشك أن تكون قطعة من أوربة ؛ كما قال هو فى بعض حديثه .

وباطراد سيرها على هذا النظام تصبح زهرة الشرق كله إن شاء الله تعالى .

ويمكننا تلخيص أسباب النهضة الأدبية فى الأمور الآتية :

١ — اتصال المدنية الغربية بالمدنية الشرقية من أوائل القرن الماضى ، وابتدأ ذلك بحملة بونابرت ؛ واتخاذ الدعاة المسيحيين من الأمريكان والبروتستنت واليسوعيين وغيرهم بلاد الشرق مجالاً لأعمالهم وجعلهم اللغة العربية فى أوّل أمرهم اللغة الرسمية لنشر تعاليمهم وآدابهم . وكان لعملهم فى سورية أثر أبين منه فى مصر ؛ فأنشأوا المستشفيات والمدارس وانتظم فيها كثير من نصارى الشام ، فخرجت عدة طبقات منهم لهم الفضل فى نشر اللسان العربى

وتوسيع دائرته وعلومه وآدابه .

ومن أركان هذه النهضة فى سورية الشيخ ناصيف اليازجى وابنه الشيخ إبراهيم والدكتور فنديك المتعرب الأمريكانى وأحمد فارس وأديب إسحق وغيرهم .

٢ — ازدياد عدد المستعربين بأوربة والشرق ، وسعيهم المتواصل فى إيجاد المطابع العربية ، وطبعهم فيها نفائس كتب العرب ، وعنايتهم بطبعها وتنقيحها ، وإنشاء الجمعية الآسيوية الباحثة فى أحوال الشرق وعلومه ، وتعد مجلتها الآسيوية من كنوز العلم والأدب .

٣ — إيجاد المدارس النظامية المتعددة التى أنشأها المغفور له محمد على باشا ، بمساعدته الأساتذة الأوربيين ، ثم علماء المصريين ؛ والمدارس التى أنشأها المغفور له الخديوى إسماعيل . وأعظمها خدمة للعربية وآدابها مدرسة دار العلوم التى أنشئت فى زمنه باقتراح رجل مصر وعالمها المرحوم على مبارك باشا . فتخرج فى هذه المدرسة مئات من المعلمين والقضاة والمحامين وكتاب الدواوين . وتربى على أيديهم إما مباشرة وإما بواسطة جميع متعلمى العصر الحاضر وفيهم أفاضل الأمة من محرريها وكتابها وقضاتها ومحاميها وشعرائها . ولا يغمطها هذه الفضيلة إلا كل جاحد مكابر ، ويكفى دليلاً على إثبات هذا الفضل لها ؛ ما أورده حكيم المصريين الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده ، فى تقريره عن الامتحان النهائى للمدرسة الذى رأسه سنة ١٩٠٤ قال : «وإنى أنتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة فى نفسى وما أعتقده من منزلتها فى البلاد المصرية ومن اللغة العربية : أن الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية وإهمال أهلها فى تقويمها ، ويوجهون اللوم إلى الحكومة لعدم عنايتها بأمرها ، ولم أسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة ولا يذكرونها من حسنات الحكومة . فإن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، لوجدها تموت فى كل مكان ووجدها تحيا فى هذا المكان ؛ وإن أول فضل فى تقديم اللغة العربية بتسهيل طرق تناولها ، وتأليف بعض الكتب المفيدة للمتعلمين فى المدارس الابتدائية

كان للمتخرجين فيها ، ثم هم أساتذة المدارس الابتدائية والثانوية ، ولا يشك عاقل فى أن تلامذة تلك المدارس يكتبون وينطقون على نمط أقوم مما كان يكتب وينطق عليه أساتذتهم من قبل » ا هـ . والفضل كل الفضل فى تأهيل طلابها لقبولهم فيها راجع للأزهر الشريف ، الذى كان ويكون إن شاء الله المورد العذب لطلاب العربية وفنونها .

٤ — البعوث العلمية الذين أرسلهم محمد على باشا ثم إسماعيل باشا إلى ممالك أوربة لتلقى العلوم المختلفة ، وقد كانت مدد هذه البعوث تصل أحياناً إلى ١٢ سنة .

٥ — شيوع تعلم اللغات الأجنبية وجعل تعليمها إجباريًّا بمصر والشام فى مدارس الحكومة ، والجمعيات ومدارس الرهبان والدعاة : فنشأ من ذلك نقل كثير من المعانى والأساليب الإفرنجية التى يقبلها الذوق العربى فأثرّت بذلك اللغةُ وحصُفَتْ أفكار أهلها ، واتسعت أغراض القول فى وجوههم . وترجم منها ألوف الكتب والروايات والمقالات السياسية والعلمية إلى العربية : فاستفاد منها أيضاً من لا يعرف اللغات الأجنبية علماً جمًّا وأدباً غزيراً .

٦ — إيجاد المطابع العربية بمصر والشام والقسطنطينية : وطبعها كثيراً من الصحف السيارة ، وكتب العلم والأدب وخاصة الروايات .

ومن أهم الكتب المطبوعة التى جددت حياة اللغة والأدب : كتب المعجمات مثل الصحاح والقاموس وشرحه ولسان العرب والمخصص . وكتب الأدب : مثل الأغانى والعقد الفريد وكامل المبرد والمقامات للحريرى ، والبديع وأمالى القالى ، وصبح الأعشى ، ودواوين الشعر والرسائل الكثيرة ، وأمهات كتب التاريخ كالطبرى وابن الأثير وابن خلدون ومقدمته الجليلة ذات الأثر البين فى الأدب والكتابة فى العصر الحاضر ، ونفح الطيب وغيرها .

وللأوروبيين عظيم الفضل ، باختراع المطابع العربية فى أواسط القرن الخامس عشر المسيحى ، كما اخترعوا غيرها من قبل ، وطبعوا بها الكتب

العربية الجليلة بإيطاليا وفرنسا وأول مطبعة عربية وصلت إلى الشرق كانت مع اللجنة العلمية التى صحبت حملة بونابرت ، وطبع بهـا فى مصر كتاب التهجية العربية والتركية والفارسية سنة ١٧٩٨ م ثم كتاب القراءة العربية ، ثم معجم فرنسى وعربى ثم كتاب فى نحو اللغة المصرية العامية .

ولما استولى محمد على باشا على ملك مصر أنشأ دار الطباعة العامرة ببولاق ، وصب حروفها على أجمل قاعدة نسخية وفارسية من حجوم مختلفة ، فطبعت ابتداءً بعض الكتب التركية والفارسية ، ثم أخذت فى طبع نحو ثلثمائة كتاب من الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية فى العلوم الحديثة : كالرياضيات والطبيعيات والطب والجراحة . أما الكتب الأدبية فتأخر طبعها قليلاً ، ومن أول ما طبع منها كليلة ودمنة وخزانة الأدب الكبرى للبغدادى ومقدمة ابن خلدون ، ومقامات الحريرى وتفسير الرازى والقاموس ، والأغانى .

ثم فشت المطابع فى الشام على أيدى رؤساء الرهبانيات والدعاة ، وطبعت أولا كتبها الدينية . ثم بعض كتب أدبية وظهرت بُعيدَ هذا الوقت دار الطباعة العامرة بالقسطنطينية فطبعت كثيراً من الكتب الشرقية والفارسية ، ثم طبعت بعد كتباً كثيرة فى الفقه والنحو والصرف والبلاغة والفلسفة والأصول والكلام وغير ذلك .

ثم شرع كثير من المصريين فحاكوا حروف مطبعة بولاق ، وأنشأوا مطابع عدة بالقاهرة والإسكندرية ، سهلت طرق العلم على الطلبة وخصوصاً فقراء طلبة الأزهر .

٧ — إنشاء الصحف العربية بمصر والشام والقسطنطينية .

وأول جريدة عربية هى الوقائع المصرية التى صدرت سنة ١٨٢٨ م ، وحرر أول عددها باللغة التركية ، ثم عهد فى تحريرها إلى الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين صاحب السفينة ، فحررت فصولها بالعربية والتركية ، ثم اقتصر فيها فى الأزمان الأخيرة على العربية ، ثم صارت تطبع نسخ منها بالعربية ونسخ بالفرنسية ، كانت تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع وبقيت كذلك إلى وقتنا هذا .

وأول جريدة عربية فى سورية كانت جريدة حديقة الأخبار الصادرة فى سنة ١٨٥٨ م ، وأول جريدة عربية ظهرت فى القسطنطينية سنة ١٨٦٠ م كانت الجوائب لصاحبها أحمد فارس ، وظهرت بعدها فى سورية جريدة سورية الرسمية سنة ١٨٦٥ م .

ومن أول الجرائد التى ظهرت بمصر بعد الوقائع جريدة وادى النيل (القديمة) وتلتها جرائد أخرى : مثل الإسكندرية ، والزمان ، والاعتدال ، والفلاح ، والأهرام ، والمقطم ، والمؤيد ، واللواء ، والعلم ، والجريدة ، والشعب ؛ وفى سورية من نظائرها كثير .

ولنصارى السوريين فضل السبق على المصريين فى اتخاذ صناعة تحرير الصحف حرفة بسورية أولاً ، ثم بمصر ثانياً ، وهم أول من قام بإنشائها بمصر بعد الوقائع ووادى النيل . ولكنهم لم ينفردوا بها أكثر من عشر سنين ، ثم زاحمهم المصريون فاشتركوا معهم فى تحرير صحفهم وتصحيحها ؛ ثم اشتغلوا بجرائد أو مجلات خاصة مثل : التنكيت والتبكيت للسيد عبد الله النديم ، والمؤيد للشيخ على يوسف ، واللواء لمصطفى كامل باشا ، والجريدة ، والعلم ، والشعب ، والأخبار ، والنظام ، ووادى النيل الثانية ، والأهالى . ثم السياسة والبلاغ وغيرهما لبعض الأحزاب المصرية .

ومن أشهر جرائد السوريين التى كان لها جزيل الفضل على نشر العربية ، وتحبيب القارئين فى القراءة : جريدة الفلاح لصاحبها سليم حموى ، وقد احتجبت بعد موت صاحبها ، وجريدة الأهرام وأول من أسسها سليم تقلا ، ثم خلفه أخوه بشارة تقلا ثم ابن بشارة جبرايل تقلا ، والمقطم لصاحبيها فارس نمر ويعقوب صروف .

هذا وإلى المطابع والمطبوعات من كتب وصحف ومجلات يرجع أكثر الفضل فى تكوين النهضة الحاضرة .

فبها قلت مؤونة اقتناء الكتب إلى حد لم يحلم به أسلافنا ، فسهلت على الحكومة نشر التعليم بين الناشئين ؛ ونشرت التوسع فى العلم والأدب لجميع

طبقات الراغبين ، وضبطت أعمال المصالح والدواوين ، وقربت مسافة الخلف بين أصناف الناس فى الأفكار والعادات والأخلاق ووسائل الاجتماع ، وحفظت للتاريخ أخبار الوقائع والحوادث اليومية عظيمها وحقيرها بما يطابق الحقيقة أو يقاربها ، ونحو ذلك مما لا يحصى .

٨ – تنظيم التقاضى والترافع منذ إنشاء المحاكم الأهلية[١] ، ونشأ عن ذلك صناعة مستقلة ، أداتها فصاحة اللسان وقوة الحجة فى الخصومة ، وهى صناعة المحاماة ، ونشأ بجانبها نظير لها فى مناصب المحاكم هى مرافعة وكلاء النيابة فى إثبات التهم ، واستتبع كلتاهما الإجادة فى تحرير القضاة صور الأحكام ووجدت لغة قانون قضائية أكسبت العربية ثروة عظيمة .

٩ – حدوث الأندية والجمعيات العلمية والأدبية . لإلقاء الخطب والمحاضرات . وللسيد جمال الدين الأفغانى الفضل فى إحداثها بمصر .

١٠ – حدث فن التمثيل باللغة العربية – وأوّلُ ما ظهر فى الشام ثم انتشر فى مصر ، بيدَ أنهُ لم يُؤدّ بعدُ كلّ الغرض المطلوب منه : لجهل أكثر الممثلين بصناعته ، وضعفهم فى العربية الفصيحة ، وسوء اختيار القصص الممثلة الملائمة لبلاد شرقية إسلامية .

١١ – إحداث الشهادات الدراسية واعتبار الحصول عليها شرطاً فى خدمة الحكومة ، والاحتراف بالحرف العلمية كالطب والهندسة والمحاماة .

١٢ – تنظيم التعليم بالأزهر الشريف والمعاهد الدينية وإدخال كثير من العلوم الحديثة بين مواد دراستها . وللشيخ محمد عبده جليل الفضل فى اقتراح هذا الإصلاح الذى جعل مساعدة الأزهر بالمال والآراء السديدة وضمان مستقبله موضوع عناية دولتنا السنية – هذا وقد سبقت مصر والشام غيرهما من البلاد العربية ، ثم اقتفى أثرهما العراق والحجاز واليمن والهند وتونس .

---

(١) وقد سميت أخيراً « المحاكم الوطنية » .

النثر

المحادثة أو لغة التخاطب

كانت العامية فى أوائل هذه العصور غاية فى الانحطاط ، ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين دخل فى عباراتهم كثير من الفصيح ، وانتقل ذلك لمعاشريهم من الأميين وبعض النساء . وساعد على ذلك أيضاً جعل التقاضى باللغة الفصيحة وكثرة الصحف والمجلات والروايات . وترقى الزجل والمواليا والواو[1] ، وبلغ الزجل فى عصر إسماعيل باشا وتوفيق باشا غايته ، ومن أشهر رجاله المرحوم محمد عثمان جلال بك ، والمرحوم السيد عبد الله النديم ، والمرحوم الشيخ محمد النجار ، والمرحوم الشيخ أحمد القوصى ، وغيرهم ، إلا أنه أخذ يضمحل فى عصرنا هذا بغلبة الشعر الفصيح عليه ، وترفع كبار الرجال عن استماعه .

الخطابة

كان المصريون والسوريون أوائلَ هذا العصر لا يستعملون الخطابة فى غير الأغراض الدينية ، ثم اتسعت دائرة الأفكار فى عصر إسماعيل باشا ، وصادف ذلك مجىء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر ؛ والتف حوله كثير من الأزهريين ولفيف من أدباء المصريين والسوريين ؛ فأدخلهم فى عداد جمعيته وألف منهم أندية كانوا يتناوبون الخطابة فيها فى الأمور الدينية والأخلاق ، ثم تعدت ذلك إلى الأمور السياسية .

وانتشرت الخطابة بين شبان مصر وفشت بعد عصر إسماعيل باشا وولدت رجال الثورة العرابية .

---

(١) هو نوع من الزجل وزنه مثل وزن بحر المجتث (مستفعلن فاعلاتن) أو فاعلاتان أربع مرات ، واخترع هذا النوع أواخر العصر الماضى وفشا جداً فى صعيد مصر صدر العصر الحالى . ومنه قول ابن عروس المتصوف :

مسكين من يطلخ الفاس ... ويريد مرق من حديده

مسكين من يصحب الناس ... ويريد من لا يريده

ومن أشهر خطبائهم السيد عبد الله النديم ، وكان لا يجارى فى سرعة البديهة وشدة التأثير فى سامعيه ، ويحسن الخطابة بالفصيحة والعامية ، والشيخ محمد عبده وغيرهما .

ولما أسست الجمعيات والأندية الأدبية بمصر ، شغلت موضعاً فسيحاً فى عالم الخطابة وبلغت فى عصرنا هذا بسبب حالة مصر السياسية مبلغاً عظيما ، وأصبحت فى حال زاهرة لا تقل كثيراً عما كانت عليه فى عصور الدول الإسلامية الغابرة .

الكتابة

الكتابة الخطية

وقف الخط فى سبيل تقدمه عند الحد الذى رسمته له الطبقة الناشئة فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر من خطاطى الترك ؛ وكل من نشأ بعدهم فإنما هو متبع طريقهم وحاذٍ حذوهم .

وأشهر من نبغ فى العصر الذى نحن بصدد الكلام فيه عبد الله الزهدى ؛ وهو الذى خط بالقلم الجليل جدران المسجد النبوى ، وجدران سبيل والدة عباس باشا الأول بالصليبة بالقاهرة ؛ وجامع الرفاعى ؛ ومحمد مؤنس أفندى ، وتخرج عليه وعلى تلميذه المرحوم محمد جعفر بك[1] جميع خطاطى قطرنا المصرى .

عبد الله بك الزهدى

هو الخطاط الشهير والمجود الخطير عبد الله بك الزهدى .

ولد بالآستانة ونشأ بها وتلقى الخط على مشهورى عصره أمثال حافظ راشد أفندى الشهير بأيوب على ومصطفى أفندى عزت الذى كان قاضى عسكر . ومن هذا الأخير حصل على إجازة الخط ، فعين معلماً له بجامع نور عثمانية بالآستانة ، ثم ندبه السلطان عبد المجيد لكتابة خط الحرم المدنى فسافر إلى الحجاز ، ولما قدم منه مجتازاً مصر أبقاه المرحوم إسماعيل باشا ؛ وأمر بتعيينه

(١) كان مدرساً للخط بمدرسة دار العلوم وهو الذى كتب حروف المطبعة الأميرية المستعملة الآن .

مدرساً للخط بالمدرسة الخديوية فقام بهذه الوظيفة خير قيام ، ثم كلفته الحكومة كتابة الآيات القرآنية وغيرها على الكعبة الشريفة فأبدع فيها أيما إبداع ، ولا تزال كتابته عليها تشهد له بالبراعة وحسن الرونق ، وقد عهد إليه إسماعيل باشا كتابة الخط على سبيل أم عباس بالصليبة فأجاد كعادته ، ولا تزال هذه الكتابة ماثلة للعيان ، وقد تخرج عليه كثيرون فى القطر المصرى ممن جودوا الخط وكان لهم فضل عظيم فى نشره وتحسينه . واستمر يعلم الخط بالمدرسة حتى توفى سنة ١٢٩٦ هـ .

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :

مات رب الخط والأقلامُ قد ... نكست أعلامها حزناً عليه
وانثنت من حسرة قاماتها ... بعد ما كانت تباهى فى يديه
ولذا قد قلت فى تاريخه ... مات زهدى رحمة الله عليه

٤٤١ ٢٦ ٦٤٨ ٦٦ ١١٥
١٢٩٦

الكتابة الإنشائية

مضى العصر المتقدم وليس لكُتاب الدواوين فى أواخره شأن يذكر لجعل التركية هى اللغة الرسمية . وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير فى الممالك العثمانية إلا قليلاً ، وشرعت تتغير فى مصر ، إلا أنه لم يكن تربى بها من فتيان المسلمين من يتولى الكتابة فى مناصب الحكومة . فكانت مقاليدها فى يد كتبة القبط واشتهر من بينهم المعلم غالى[1] .

ثم استخدمت الحكومة رجال البعوث العلمية وتلاميذ المدارس المنشأة بمصر والسوريين فى أعمال الكتابة فتقدمت شيئاً ما . ويعرف ذلك من صورها السقيمة المدرجة فى أعداد الوقائع المصرية لذلك العصر . ثم لما أنشئت المدارس النظامية وتولى التدريس بها مشايخ الأزهر . ثم متخرجو مدرسة دار العلوم ، نشأت طبقة من كتاب الدواوين رقوا كتابتها . وقد هجر السجع الذى أكثر

(١) كان رئيساً للكتاب وكاتب سر محمد على باشا وقتل سنة ١٨٢١ .

منه الأقدمون ، إلا أن عبد الله باشا فكرى أشهر المصلحين للكتابة الديوانية الفصيحة ألمّ به فى كثير من مكاتباته الرسمية .

ومن أهم البواعث على اجتناب زخرف البديع فى الإنشاء تعلم اللغة الأجنبية والترجمة عنها ؛ لأنها أقرب إلى الطبيعة من الطرق الموروثة عن مستعربى الفرس فى العصور الوسطى .

أما كتابة التأليف والصحف فإنها أخذت تنحو منحى كتابة ابن خلدون فى مقدمته ؛ لانكباب كثير من المدرسين والقارئين والمحررين على دراساتها ومحاكاتها .

ولما ولت الحكومة الشيخ محمد عبده تحرير الوقائع الرسمية والإشرافَ على تحرير الجرائد . ترقت كتابتها كثيراً ودرجت فى سبيل التقدم إلى الآن .

كتابة التدوين

كان أكثر الكتب التى ألفت أو ترجمت فى مصر علمية ، لشدة احتياجها إليها فى تأييد حكوماتها ، وإدخال إصلاحات فى زراعتها وماليتها وإدارتها وقضائها . أما سورية فكانت حالة الأدب فيها فى النصف الأول من العصر الحاضر خيراً منها فى مصر ، ولكن مصر نهضت فى النصف الثانى ، واسترجعت حياتها الأدبية ، وأدخلت دراسة أدب اللغة فى مدارسها وألفت فيه عدةُ كتب . وانحط فيه شأن سورية فى العربية ، ولا سيما بين طوائف النصرانية لعدول جمعيات البعوث الدينية عن التعليم باللغة العربية إلى اللغة الأجنبية ، فلم ينبغ فى العربية من السوريين فى السنوات الأخيرة من يضارع سابقيهم .

ويعتبر عصرنا الحاضر من أزهى عصور العربية بمصر ، فقد أصبحت قبلة العالم العربى ومركز حضارته وبلاغته : بمن نشأ فيها من كبار العلماء والمؤلفين والمترجمين والمهندسين والقضاة والمحامين وكتاب الجرائد والمجلات ، والخطباء والشعراء والمدرسين ، وسلك العلم فى سيره طريقاً حديثاً غير طريق أهل الأزهر .

ومن أشهر العلماء الأزهريين فى هذا العصر : الشيخ الجبرتى والشيخ حسن العطار والشيخ العروسى والشيخ التميمى والشيخ الباجورى والشيخ عليش والشيخ الأبيارى والشيخ السقا والشيخ الأنبابى والشيخ الأشمونى الأخير والشيخ الشربينى وغيرهم .

ومن غير الأزهريين من أهل النهضة الحديثة رفاعة بك شيخ المترجمين والمؤلفين ، وعلى مبارك باشا مؤسس دار العلوم وأشهر المؤلفين المصريين ، والنطاسى الشهير محمد على باشا ، والسيد صالح مجدى بك ، ومحمود باشا الفلكى وأحمد ندى بك ، وعبد الله باشا فكرى ، وقدرى باشا ، ودرّى باشا .

نماذج من النثر

كتب الأستاذ المرحوم الشيخ حمزة فتح الله إلى صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكرى معتذراً :

مولاى — أما الشوق إلى رؤيتك فشديد ، وسل فؤادك عن صديق حميم ، وود صميم ، خلّة لا يزيدها تعاقب الملَوَين ، وتألق النيرَين ، إلا وثوقاً فى العرا ، وإحكاماً فى البنا ، ونماء فى الغراس ، وتشييداً فى الدعائم . ولا يظنن سيدى أن عدم ازديارى ساحته الشريفة ، واجتلائى طلعته المنيفة ، لتقاعس أو تقصير ، فإن لى فى ذلك معذرة اقتضت التأخير ، والسيد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقه ، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة . وبعد فرجائى من مقامكم السامى أن لا تكون معذرتى هذه عائقاً لكم عن زيارتى ، فلكمْ مِنّةٌ طوقتمونيها ، ولكم فيها فضل البداءة وعلىّ دوام الشكران ، والسلام .

وكتب المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان وقد أهدى كتاباً :

الإنسان الكامل ، والمولى الفاضل ، دام كماله ، وزاد إقباله

كتابى إلى الأستاذ ، والهدايا تزيد فى التوادّ ، وتوسع فى قوة الارتباط ، إن كانت لغير من حظرها عليه الشرع القويم ، والشيخ منّى بمنزلة الأخ من أخيه ، وأنا منه بمثابة الولد من أبيه ، ولا داعية إليه سوى الصلة به ، ولا أريد

به عهد الوداد . (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) وقد اخترت لك من كتب الأدب العربي القديم كتاباً حديث العهد بالوجود . بعثته إلى حضرتك معترفاً بأنه نموذج فضلك . ومنى أدبك ، يعترف لك مُهديه . بأنه وسط المناسبات ، ونظر إلى الرغبات ، وقبل أن تشتغل بالبحث فيه عن اسمه والأوصاف ، أعلمك بأنه كتاب المنسوب والمضاف ، فهنيئاً له بالشيخ يقدره حق قدره ، وهنيئاً الشيخ به يزيده في أمره ، وإن قبول الأستاذ لهديتي مكفول بحسن أخلاقه ، وطهارة أعراقه . وبعلمه بأن النفع بها وهي عنده أعم وأوفى ، فله الحمد على ما قبل . والشكر على ما أولى .

وكتب المرحوم الشيخ حسن أفندي توفيق يعتب على صديق له :

عذلت أيها الصديق ولا حين عذل ؛ حيث أملت أن أكون لك كما أنت لي . وأنا ذلك الخدن الذي ملئت جوانحه شوقاً ؛ وحشيت أحشاؤه صدقاً . أغرك إرجاء المكاتبة . أم صمت الأقلام . والقلوب كالسبيكة إذا أصدأها السكون فهي خالصة الباطن . أو كحجرة الزند تتأجج وهي مغبرة الظاهر ؛ بل تحكم لديك الشك فحكمت وكان عهدي بك اليقين ؛ ومع هذا فإني لشكرك على عذلك، وأحمدك على فضلك ؛ فلا لوم إلا بين أودّاء ؛ وما اختياري لهذا أن أقرع عصاك ، بل أن أجعل شكك يقيناً في صديق رؤيتك أشهى آماله ، ولقاؤك أعظم أمنياته . والسلام .

الكتاب والعلماء

رفاعة بك رافع الطهطاوي

هو الكاتب الشاعر الأديب المترجم السيد رفاعه بك الحسيني الطهطاوي شيخ الترجمة وإمام النهضة الحديثة .

وُلد بطهطا من أسرة شريفة افتقرت بعد غنى فتنقل به والده في بعض بلاد مديرية قنا بضع سنين تعلم في أثنائها القرآن الكريم ، ودرس مبادئ العربية فحفظ كثيراً من المتون على أخواله .

ثم لم توفى والده تولت والدته تربيته ، فأرسلته إلى الجامع الأزهر فأكمل

دراسته فيه ، ثم انتخب إماماً لبعض فرق الجيش ، ولم يلبث أن اختاره المرحوم محمد على باشا إماماً ومعلماً لأول بعث علمى أرسل إلى فرنسا سنة ١٢٤١ هـ. فراقته علوم أوربة وعظمتها ، فأكب بنفسه على تعلم اللغة الفرنسية حتى أجادها فهماً وإنشاء ، وإن لم يجدها نطقاً وارتجالا ، وكتب فى إقامته بباريس كتاب رحلته إلى أوربة ، وترجم قلائد المفاخر ، فى غرائب الأوائل والأواخر ، فسر بذلك محمد على باشا ، فلما عاد إلى مصر سنة ١٢٤٧ هـ. اختاره رئيساً للترجمة بمدرسة أبى زعبل ، فترجم بها كثيراً من الكتب والدروس واشترك هو وأستاذه



رفاعة بك رافع الطهطاوى

الشيخ حسن العطار فى اقتراح إنشاء الوقائع المصرية وتحريرها . ثم نقل إلى مدرسة المدفعية (الطبجية) بطرة لترجمة الكتب الهندسية ، ثم صار مديراً لمدرسة الألسن والترجمة ، فبلغ عدد تلاميذها ٢٥٠ تلميذاً . تمّ على أيديهم ترجمة ما نقل من علوم أوربة الحديثة إلى العربية زمن محمد على باشا وإسماعيل باشا ، ولما ألغيت مدرسة الألسن زمن عباس باشا الأول ، تقلب فى عدة مناصب ، ثم بقى مدة بلا عمل إلى أن أعيد زمن إسماعيل باشا إلى نظارة قلم الترجمة ، وانتخب عضواً بلجنة المدارس ، وتولى إدارة مجلة روضة المجالس ،

وعكف على الترجمة والتأليف حتى توفى سنة ١٢٩٠ هـ. تاركاً لمصر كتباً ورجالا هم أركان النهضة الحديثة.

وقد ألف وترجم رفاعة بك غير ما تقدم كتباً تزيد على عشرين كتاباً، أهمها ترجمة جغرافية (ملطبرون) والتعريبات الشافية لمريد الجغرافية، والمرشد الأمين فى تربية البنات والبنين.

وترجم القانون المدنى الفرنسى، وكتاب هندسة (ساسير)، ورواية تلماك، وكتاب مناهج الألباب المصرية، وله كتب شتى فى الأدب وعلوم العرب، وآخر ما ألفه نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز؛ وكان فى ترجمته وتأليفه ينتحى أحياناً طريق السجع، واضطر لإيجاز ما يكلفه من الترجمة أن يستعمل بعض الألفاظ التركية أو العامية الشائعة فى زمنه.

عبد الله فكرى باشا

هو الكاتب الشاعر الأديب عبد الله فكرى باشا أحد أركان النهضة الأدبية فى الديار المصرية.



عبد الله فكرى باشا

كان أبوه محمد بليغ أفندى ضابطاً بالجيش المصرى وهو ابن الشيخ عبد الله أحد علماء الأزهر .

ولد سنة ١٢٥٠ هـ . وتوفى والده فى سن الحادية عشرة ، فكفله بعض أقاربه فعلمه القرآن ، وبعث به إلى الأزهر فأكب على تعلم علومه مشتغلاً أيضاً باللغة التركية ، واستُخدم من أجلها مترجماً العربية والتركية فى عدة مناصب آلت إلى نقله إلى حاشية سعيد باشا ثم إسماعيل باشا ، فعهد إليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من أمراء بيت الملك .

ثم تقلب فى جملة مناصب آخرها نظارة المعارف سنة ١٢٩٩ هـ . وبقى بها حتى زمن الثورة العرابية فسقط مع الوزارة ، واتهم فى الثورة فقبض عليه ، ثم اتضحت براءته فأطلق ورد إليه معاشه ، بعد أن استعطف الخديوى توفيقاً بقصيدة طويلة وتوفى سنة ١٣٠٧ هـ .

وكان فكرى باشا كاتباً بلغياً سلك فى كتابته طريقة كتاب القرن الرابع كالبديع الهمذانى والخوارزمى من التزام السجع القصير . القليل التكلف للمحسنات البديعية فى أكثر رسائله الصادرة عن القصر والنظارات . وبذلك يقول فيه المرحوم الشيخ حسين المرصفى مدرس الأدب والعربية بدار العلوم : « لو تقدم به الزمان ، لكان فيه بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان » . ويعدّ عبد الله فكرى من واضعى الاصطلاحات والألفاظ الديوانية المصرية الحديثة ، وبعضها مقتبس من اصطلاح دولة المماليك .

وله شعر وسط فى الجودة . ومن كتابته ما كتب به وصاية بشخص . قال بعد الديباجة :

رافع هذا الرقيم ، إلى حمى المقام الكريم ، يذكُرُ أن مسألته طال فيها المدَى وبقى فى انتظارها على مثل رءوس المدَى . ويشكو من الفقر المُدقع . والضر المضْجع ، ما أحرج صدره ، وأخرج عنه صبره . وأشرف به على اليأس . والاستسلام لمخالب البأس ، لولا أمل مولاى يُبنى على حوْبائه . وينشرُ تذكاره ميْتَ رجائه ، وله فى سيدى ثناءٌ يبارى نفحات الأزاهر . ويبقى على صفحات

الدهر الداهر. ثم هو بقية بيت حفظت الأيامُ نسبَه ، وإن أضاعت حوادثها نَشَبَه ، وهو أولى من تعطف عليه عواطفُ كرمه ، وتنعطف إليه جياد هممه ، وأرجو أن يحقق مولاى فى تلك الشيم الكريمة ما أمّله ، وأهدى من الثناء أتمّه وأكمله .

على مبارك باشا

هو أبو المعارف المصرية العالم المؤرخ المؤلف المترجم المربى العظيم على بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم ، مصلح العلم والإدارة بالديار المصرية ومؤسس دار العلوم ودار الكتب المصرية .



على مبـــارك باشا

ولد سنة ١٢٣٩ هـ . بقرية برنبال الجديد من مديرية الدقهلية وكان والده الشيخ مبارك من أهل الفقه والعلم ببلده ، فضاق به العيش فانتقل إلى مديرية الشرقية وشغل بالمعاش عن تربيته بنفسه ، فكان يرسله إلى معلم قاس يتعلم عليه القرآن الكريم فحفظه وهرب من المعلم لقسوته وضربه ، وأخذ يتعلم الكتابة على بعض كتاب المراكز والقرى ويفر من قسوة هذا إلى ظلم ذاك ، حتى عثر

فى بعض خرجاته بتلاميذ ذاهبين إلى مدرسة أبى زعبل فصحبهم ودخل المدرسة .

ثم اختير من جملة تلاميذها لمدرسة قصر العينى وسنه ١٢ سنة ؛ ودرس الرياضة فبرع فيها فانتخب طالباً بمدرسة الهندسة ؛ فأكمل فى خمس سنوات درس فن الهندسة ؛ وأرسل إلى أوربة سنة ١٢٦٠ هـ . ليتمم دراسته بها ؛ فمكث نحو أربع سنوات درس فيها فن الهندسة والحرب ثم عاد إلى مصر ضابطاً بالجيش ، قدّم لعباس باشا الأول مشروعاً بنظام المدارس المصرية فأعجبه وعهد إليه فى رياسة ديوانها . وألف بعض الكتب الدراسية ، فكان أول من نظم المدارس المصرية ؛ وفى زمن سعيد باشا وُشِيَ به إليه فساء حظه وُبعِثَ إلى البلاد العثمانية فى الحملة التى وُجهت لمحاربة روسيا . فعاد منها بعد أهوال . وبقى يعتزل الخدمة طوراً ويخدم آخر . ويتجر أحياناً ويعلم أخرى . حتى كان زمن إسماعيل باشا فألحقه بحاشيته . وتقلد عدة مناصب هندسية جرى على يده فيها عظيم الأعمال .

ثم عُين سنة ١٢٨١ هـ . وكيلاً لديوان المدارس وسافر إلى فرنسا لمهمة فأحسن أداءها وأنعم عليه برتبة الباشا (الميرميران) وتزاحمت عليه المناصبُ . فكان مديراً للسكك الحديدية وناظراً للمعارف وللأشغال وللأوقاف والقناطر الخيرية ، فقام بذلك فى آن واحد خير قيام .

ومن أعماله العظيمة إنشاء دار الكتب . وإنشاء مدرسة دار العلوم ؛ ليوفق بين طلبة العلم القديم وطلبة العلم الحديث ؛ ويحسن تعليم العربية ، فجاءت هذه المدرسة بأحسن ما يطلب منها . ومنها تجديد مدينة القاهرة وأمهات مدن القطر بإنشاء شوارعها وميادينها العظيمة ؛ وإنشاء كثير من الترع والجسور ، كترعة الإبراهيمية والإسماعيلية وبقى يتقلب فى النظارات ووكالتها حتى جاءت الثورة العرابية فكان من شيعة توفيق باشا ؛ ثم قلد نظارة المعارف وغيرها ، حتى اعتزل الأعمال قبل وفاته ؛ وتوفى سنة ١٣١١ هـ .

وله مؤلفات جليلة : منها الخطط التوفيقية فى عشرين جزءاً ، وكتاب علم الدين . وكتاب نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر . وكتاب الميزان فى الأقيسة والأوزان ، وكتاب الهجاء والمسامرات وغيرها .

الشيخ محمد عبده

هو المصلح الكبير ، والمجتهد الخطير ، والكاتب البليغ ، والخطيب المصقع ، الأستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده ، أحد أركان النهضة العربية ، ومؤسسى الحركة الفكرية .



الشيخ محمد عبده

ولد بإحدى قرى مديرية الغربية ، ونشأ بين أسرته بمحلة نصر من مديرية البحيرة ، وترك بلا تعليم حتى ناهزت سنُّه العاشرة . ثم رغب فى التعليم فحفظ القرآن الكريم ، وطلب العلم بالجامع الأحمدى . ثم انتقل إلى الأزهر ونبغ فى علومه .

ولما قدم مصر السيد جمال الدين الأفغانى سنة ١٢٦٨ هـ . وأعاد إلى مصر دراسة الفلسفة وعلوم الحكمة والكلام بعد نضُوب مَعينها عدة قرون . لزمه المترجَمُ هو وطائفة من نابغى الأزهر كانوا يُعَدُّون ألسنة الفصاحة وأئمة الحركة الفكرية . وكان الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه ، وأحرصهم على ملازمته والاستفادة منه ، ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ . واختير سنة ١٢٩٥ هـ . مدرساً للأدب والتاريخ العربى بدار العلوم ومدرسة الألسن ، ثم فصل منها ولزم بلده إلى أن أشير على رياض بك باختيار المترجم لإصلاح لغة الوقائع المصرية . ثم صار رئيس تحريرها ، وفى هذه المدة جعله رياض باشا مراقباً على كتابة الجرائد وتحريرها .

وحدثت عقب ذلك الثورة العرابية ، فاشترك فيها ونُفى من مصر فذهب إلى سورية وتولى التدريس بمدارسها ، ثم انتقل إلى أوربة فالتقى بالسيد جمال الدين بباريس فأنشأ جريدة العروة الوثقى ثم عاد إلى مصر ورضى عنه الخديو توفيق باشا فجعل قاضياً بالمحاكم الأهلية ، وبقى مدة طويلة مثالا للعدل إلى سنة ١٣١٧ هـ . فأسند إليه منصب إفتاء الديار المصرية ، وتولى التدريس بالأزهر وما زال كذلك حتى توفى سنة ١٣٢٣ هـ . وكان رحمه الله من خير مَن ظهر فى مصر من شيوخ العلم منذ قرون ، ويعتبر باجتهاده فى كثير من مسائل العلم من أئمة الدين ، كما يعتبر بكتابته البلغية من فحول الكتاب . وله القدم الراسخة فى كتابة الجدل ، والنقد ، ولم يترك الشيخ كأستاذه كثيراً من المؤلفات ، لكثرة مشاغله بالمناصب العلمية والإدارية ، ولمناهضة الخصوم له أكثر حياته . ومن مؤلفاته : رسالة التوحيد ، وشرح نهج البلاغة ، وشرح مقامات بديع الزمان . وأملى تفسير سورة البقرة وآل عمران والنساء بطريقة لم يسلكها مفسر

فى انطباقها على مقاصد الإسلام ، وكتب تفسير جزء عم وجزء تبارك وله رسائل بليغة . منها ما كتب به من مصر إلى بعض الأصدقاء الفضلاء قال فيه :

تناولتُ كتابك ولم يذكرْ منى ناسياً ، ولم ينبه لذكرك لاهياً . فإنى من يوم عرفتك لم يغب عنى مثالك ، ولا تزال تتمثل لى خلالك ، ولو كشف لك من نفسك ما كشفَ منها لى لفتِنتَ بها ولُحقّ لك أن تتيه على الناس أجمعين ، ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها ، لتزينها بالتواضع ، وتُجملها بالوَدَاعة ، ولتسعى إلى ما لم يبلغه ساع ، فتكون قُدْوةً لإخوانك فى علوْ الهمة ، وبذل ما يعزّ على النفس فى نفع الأمة ، زادك الله من نعمه ، وأوسع لك من فضله وكرمه ، ومتّعنى بصدق ولائك ، وجعلك لى عوناً على الحق الذى أدعو إليه ، ولا أحيا إلا به وله . والسلام .

الشيخ حمزه فتح الله

هو الشيخ الوقور ، اللغوى الحجة التقى حمزة فتح الله المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية .

ولد رحمه الله بثغر الإسكندرية سنة ١٢٦٦ هـ . (١٨٤٩ م) ونشأ بها ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم فى سلك طلبة العلم بجامع الشيخ إبرهيم باشا ، ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف ، وأمعن فى قراءة الأدب واللغة ، وقَرَض الشعر وحرر الرسائل وحفظ الغريب . ثم عاد إلى الإسكندرية واختير (فى منتصف العقد الثالث من عمره) محرراً فى إحدى الصحف التونسية ، فكث هناك حوالى ثمانى سنوات اكتسب فيها الدربة على كتابة الصحف السياسية ، ثم عاد إلى مصر فوجد نار الفتنة العرابية مستعرة فانضم إلى حزب الخديو توفيق ، وكتب وخطب فى تأييده ، وعهد إليه بعد ضرب الإسكندرية فى إصدار صحيفة تكون لسان حال الخديو وتهدئ الخواطر ، وبعد أن انتهت الفتنة العرابية استخدم فى وزارة المعارف ومكث بها زهاء ثلاثين سنة متنقلاً بين التفتيش والتدريس ، حتى كان فى سنة ١٩١٠ م مفتشها الأول للغة العربية ، وفى غضون تلك المدة ندبته الحكومة مرتين لحضور مؤتمر المتعربين ممثلاً لها لما

لما فيه من الثقة ، ولما له من غزارة المادة ، وسعة الاطلاع . ثم أحيل إلى المعاش .

واستمر مشتغلا بمدارسة العلم حتى بعد أن كف بصره ، ولم يثنه عن ذلك إلى مفاجأة الموت فى فبراير سنة ١٩١٨ م .

علمه وأعماله — كان الشيخ أكرم الله مثواه كثير القراءة فى كتب اللغة والأدب والحديث شديد الحفظ والذكر قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر إلا روى فيها شعراً أو مثلاً أو قصة . وكان فكه المحاضرة ، صحيح العبارة يحوكها على سنن العربية الفصيحة ، وهو أملأ من شاهدناه باللغة والأدب والصرف .

عهد إليه بالتدريس فى دار العلوم فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين . كالجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى . وأظهر ما كان ذلك فى مواهبه الفتحية

أسند إليه تفتيش اللغة العربية فى مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها ، فرأى المجال فسيحاً لتخليصها من أدران العامية ، وأوضار الدخيل . وفساد التراكيب ، وعجمة الأساليب . فأخذ يرشد المعلمين إلى ما يعثر عليه من ذلك فى كتابة التلاميذ ، ويتحفهم بمرادفه تارة ويرشدهم إلى المظانّ أخرى . فتنبه بذلك الغافل ، ودقق المتساهل ، واتهموا أنفسهم فى كل كلمة ، وحاسبوها على كل جملة . وعكفوا على مراجعة معجمات اللغة بعد أن طال هجرها ، ووقفوا عند نصوصها ناسجين على منوال الشيخ (من الوقوف عند السماع دون العمل بالقياس) بل تغالى بعض المفتونين منهم ، وتعدوا طورهم ، فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة فى اللغة ، ولو وجدت فى شعر فحول الأدباء من أهل القرون الأولى ، ولعلهم لم يعرفوا من اللغة أكثر من طريقة الكشف فى معجماتها على ندرة المطبوع منها ، فلقى المؤلفون والأدباء وبلغاء الناس منهم بلاء عظيماً وعَنَتاً مَقيتاً .

أخلاقه : كان الشيخ حليماً رحيماً ، تقيًّا ورعاً ، لا تأخذه فى الله لومة لائم صالحاً مهذباً ، يميل إلى الصالحين من المعلمين ، ويحارب من يشاع

عنهم التهاون بشعائر الدين ، وربما سعى فى فصلهم من عملهم ؛ يعمل ذلك ولا غاية له إلاّ إحاطة النشء بسياج من الفضيلة حتى لا يتسرب إليهم الزيغ فى زمن قد كثر فيه أنصار الرذيلة ، وقلّ طلاب الفضيلة .

وكان جزاه الله خيراً يحب العرب والعربية ، ويرى أن الله قد خصهما بكل مزية . وأن جميع ما يتجدد من أنواع المدنية الحديثة قد سبق إلى نوعه العرب ، وأنّ لاسمه مرادفاً فى لغتهم ، يعرف ذلك من خالطه أو قرأ مواهبه .

مؤلفاته : مما عرف من مؤلفاته كتاب المواهب الفتحيه فى علوم اللغة العربية ، وباكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ، ورسالة فى التوحيد ؛ وأخرى فى الجبل ، وكتيب فى المفردات الأعجمية التى فى القرآن .

شعره وكتابته : كان بدوى الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه ، وتراكيبه وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريق شعر العلماء . ولم نر له شعراً مدوناً إلا قصيدته البائية التى اختتم بها مؤتمر العلوم الشرقية . المنعقد بأستكهلم . أواخر سنة ١٣٠٦ هـ ، سنة ١٨٨٩ م .

أما كتابته فيؤخذ مما عثر عليه منها أنه كان لا يلتزم فيها طريقة واحدة ، بل تارة تكون سهلة يكثر فيها السجع وإن لم يلتزم غالباً . وآونة تكون ضخمة الألفاظ غريبها عليها مسحة التعمل والتكلف ، وأكثر ما كان ذلك فى توقيعاته .

نموذج من شعره :

كم جامع بالثريا راضه سفر ... فوق الثرى بين أكوار وأقتاب

إن الثواء ثواء والقصور قبو ... ر العاجزين ولا إيراء للخابى

ومن بغى نيل مجد وهو فى دعة ... فقد بغى من صفاة در أحلاب

والمرء فى موطن كالدر فى صدف ... والتبر فى معدن والنبغ فى غاب

والسيف مثل العصا إن كان معتمداً ... وزامر الحىّ لا يحظى بإطراب

وأزهد الناس فى علم وصاحبـــه ... أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

نموذج من نثره :

ومن رسائله ما كتب به إلى السيد توفيق البكرى يمدحه :

إعادة العرَض يوم العرْض

مسألة كلامية ثارت فيها عجاجةُ الكلام ، بين علماء الكلام ، فمن إيجاز وإطناب ، فى سلب وإيجاب ، (وتعلم أنت أن الألفاظ أعراض سيَّالة) لكنى آمنت عياناً ، أن الله تعالى يحيى الموتى أعراضاً وأعياناً ، إذ كانت كتبك زيادةً فى البيان والبرهان ، وإن كان خبر المعصوم أوثقَ من الحسِّ فى النفس ، فأنشُدُ الله امرأ شيمته العدل ، والقول الفصل ، أليست كتبك هذه حجة للمُوجب دامغةً للسالب ؟ أليس ذلك البيان ، غاية شأو قُسُّ وسحبان ؟ أليس قصارى ابن العميد ، وحُمادى عبد الحميد ؟ وبعد فقد أعيد العرَض الذى هو الكلام فى الدنيا ففى الأخرى أحرى . فترانى يامليك البراعات وقَسْوَرَ تلكم الغابات ، أسيفاً على ضن الزمان بك إلى الآن ، فلو أن الله تعالى براك ، وخلقك فسواك ، حين استعر الخصام . فى هذا المقام ، لما اختلف فى شأنه اثنان ، ولا انتطح عنزان .

نموذج من توقيعاته : وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التى أرسلت إليه ليقرأها بعد أن ضرب على بعضها :

لم أرد بذلك الترميج إلا الرُّعوى على النشء ، فإن قُلاً مع حفظ المبنى وفهم المعنى خيرٌ من كُثْرٍ يُطَوِّح بهم فى موامى المُنْبَتّ .

باحثة البادية

هى المفكرة الكاتبة الشاعرة ، السيدة ملك حفنى ناصف .

ميلادها ونشأتها — ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦ م . ولما ميزت : أرسلها والدها إلى إحدى المدارس الأولية ، ثم إلى المدرسة السنية : فحصلت منها على شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م . (وهى أول سنة تقدمت فيها

الفتيات المصريات لنيل هذه الشهادة) ثم أتمت دراستها فى قسمها العالى ، واختيرت مدرسة فى إحدى مدارس البنات بالقاهرة .

وفى سنة ١٩٠٧ م . تركت التعليم العلمى بالمدارس ، واشتغلت بالتعليم العملى فى بيت زوجها .

أخلاقها وأعمالها : كانت مدة دراستها خير نموذج لقريناتها ، أخلاق سامية ، وسريرة صافية . ونفس أبية ، ومثابرة على العمل .

وكانت بعد زواجها تباشر أكثر أعمال بيتها بنفسها ، لا لسبب سوى أن تكون قدوة لغيرها من السيدات اللاتى يلقين حبال أمورهن على غواربها ، ويتركن بيوتهن إلى من لا يحسن القيام عليها . والتدبير فيها ، فيوقعن أزواجهن فى الفقر المدقع والبلاء الشديد . وكانت إذا فرغت من شئون منزلها ، عكفت على قراءة الكتب النافعة . وتعرّف أحوال السيدات وزيارة مدارس البنات ، بفحص مناهج التعليم بها . كل أولئك لتكوّن لها رأياً صحيحاً . وفكراً ناضجاً فى تربية البنات . وإصلاح حال الأمهات . وظلت تستسهل فى ذلك الصعب . وتستحلى المر .

وكان من رأيها فى تربية المرأة أن تباشر من أعمال الرجل ما لا ينافى الشرع الشريف . وألا تكون زينتها مَشغلة لها ولا عبئاً ثقيلاً ينوء به بعلها ، ولها فى ذلك خطب محافل نسوية كان لها تأثير فى عدول الكثيرات منهن عن جمودهن وأفكارهن القديمة . وكان بيتها مقصداً لزيارة كثير من السيدات الغربيات والشرقيات يستعن به فى الوقوف على مبلغ رقى المرأة المسلمة ، وما ينتظرن من شئونها المستقبلة . ولم يكن شىء من ذلك كله لينسيها مايجب عليها لزوجها وذوى قرباها . ومن يقع تحت نظرها ممن أجهدهم الفقر . وأعوزتهم الحاجة . وأشد ما كان برها لوالدها (أغدق الله عليهما رحمته) فكانت تألم الألم كله لألمه .

آثارها العلمية :

١ — كتابها الذى أسمته (النسائيات) وهو مجموع ما خطبته وكتبته (بالجريدة) خاصًّا بالمرأة .

٢ — حقوق النساء وهو كتاب لم يطبع بعدُ ، أنجزت منه ثلاث مقالات : الأولى فى الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية ، والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ، والثانية فى حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الأعمال العامة ، والثالثة فى حقوق المرأة المسلمة من جهة الانتخاب .

٣ — رسالة ضافية قدمتّها للمؤتمر المنعقد فى مايو سنة ١٩١١ م . بمصر الجديدة ضمنتّها آراءها السديدة فى وسائل ترقية المرأة المصرية .

ثم عاجلتّها الحمى الأسبانية سنة ١٣٣٧ هـ . فاحتضرت وهى فى ميعة شبابها ، ويانع عمرها ، فتركت بفقدها فى العالم النسوى المصرى فراغاً لم يشغل بعد .

كتابتها — إن الناظر فى كتاباتها المختلفة يرى عبارة سهلة صحيحة الألفاظ ، عربية الأسلوب ، خالية من تصنع السجع ، وتعمل البديع : قد عنى فيها بدلالتها على المعانى تمام الدلالة كما عنى فيها بنشر ألفاظ حديثة للمسميات التى تسربت إلى الشرقيات من المدنية الغربية ، وترى ذلك واضحاً فى كتابها النسائيات .

شعرها — قالت الشعر وهى فى الحادية عشرة من عمرها . وكان بدء أمرها فيه أن تقوله معارضة لما تحفظه فى المدرسة تارة جداً وتارة هزلاً ، ثم كان لها من حسن استعدادها وكثرة قراءتها ونبوغ والدها فيه خير معوان على تعبيد سبيله ، وتذليل أبيّه ؛ وأكبر ما كانت تتناوله من الأغراض غرض واحد ؛ وهو ترقية المرأة الشرقية . وشعرها حسن الديباجة جميل الأسلوب يعد فى الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر .

وهاك نموذجاً من نثرها وشعرها .

رسالة كتبتها من رمل الإسكندرية لصديقة لها هى :

عزيزتى السيدة بلسم :

أحييك ، ولولا برودة البحر لالتهبت إليك شوقاً ، ولولا تصبرى لطرتُ

إليك حبًّا ، وإنى لم ينسنى صفاء السماء صفاء ودِّكِ ولا رقة النسيم رقة حديثك ، إنما شجانى وذكرنى .ولم أكن ناسيةً .

عزيزتى :

ليتكِ كنْتِ معى ترينَ الطبيعةَ بجمالها : ترينَ البحر يزخَر كالرعد ، والأمواج تتلاطم زرافات ووحداناً . صفاء فى البحر ، وصفاء فى السماء ، كأنهما قلبانا . وتسمعين تغريد الطيور وحفيف الأشجار ، إنها لعمرك مناظر تلهى المرء ، ولكن هيهات لمثلى أن تلهو ، وهى تعلم ما يكنه الدهر وما يخبئه الليل والنهار . تقبلى منى أحرّ قبلاتى ، وأوفر أشواقى .

المخلصة ملك ناصف

ومن شعرها تخاطب المرأة المصرية :

سيرى كسير السحب لا تأنَىْ ولا تتعجلى
لا تكتسى أرض الشوا رع بالإزار المُسْبَل
أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمعضِلِ
ذهب الأئمة فيه بيـ ن محرم ومحلل
ويجوز بالإجماع منـ ـهم عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصرى أو طولى
فإذا جهلت الفرق بيـ ـنهما فدونك فاسألى
من بعد أقوال الأئمـ ـة لا مجال لمقولى
لا أبتغى غير الفضيـ ـلة للنساء فأجملى

الشعر

كانت حالة الشعر فى النصف الأول من هذا العصر لا تزيد شيئاً مذكوراً على ما كانت عليه فى العصر الماضى ، إذ كانت حكومة محمد على باشا فى أول أمرها تركية الصبغة ، وكان هو أميًّا لا يحل عنده الأدب محل العلم الذى عليه مدارُ تأسيس المملكة .

ولكن الشعر أخذ بعد ذلك فى الترقى ، وسارت مصر فى طريقه ، وانتشرت بينها العربية حتى زمن إسماعيل باشا ، وكان هو متأدباً وعصره غاصاً بالأدباء ، فتقدم الشعر فى عصره خطوات تمثلت فى شعر السيد على أبى النصر والشيخ على الليثى . ثم طفر طفرة إلى عظيم الشعراء البارودى .

ولم يزل للعلم والعلماء مع ذلك المقام الأول فى مصر ، حتى كان العصر الحاضر ونالت مصر بعض حاجاتها من العلم وكُتبه ، فهبّ أهله يتفكهون بالأدب وكتابته والتأليف فيه . ويستمعون الشعر ويحضرون المجامع العظيمة لإنشادة ، فأقبل الشعراء على نظمه فى كل أغراضه القديمة والحديثة ، ونَحَوْا به نحو الشعر الفرنجى ، من وصف المناظر الطبيعية ، وأحوال الوجدان والعواطف النفسية . وكثير من الشعراء بعد البارودى لم يحاكِ القدماء فى ندْب الديار ووصف الظعائن وحث المطايا ، مستغنياً عن ذلك بوصف القطار والكهرباء والمسرة والبرق . ويقول الآن(١) الشعر على هذه الطريقة مئات الشعراء فى مصر والشام والعراق ، إلا أن المصريين سبقوا السوريين بمراحل فى هذا العصر.

ومما يمتاز به شعرُ هذا الوقت خلوُّه من تكلف البديع والجناس ، والرجوع به إلى حالته القديمة الطبعية حتى صار شعر فحوله يشبه شعر أهل القرن الرابع والخامس .

نماذج من النظم — قال المرحوم السيد على أبو النصر :

بصادر آمالى ووارد خاطرى	كلِفْتُ فيانفسى الأبية خاطرى
ولا تجزعى أن هال خطب فربما	تدين الأمانى لامرئٍ غير قادر
وكونى على حمل الأذى مستعدة	فكم عادل أرخى العنان لجائر
ولا تشتكى الأيام إلا لمنصف	فلا خير فى الشكوى إلى غير ناصر
ومن لم يكن ذا همة هاشمية	أخافته فى الهيجا بروق البواتر

وقال المرحوم محمود صفوت الساعاتى يمدح الشريف على باشا بن عون ويعاتبه :

ترنو النجوم بلحظها البراق	والجو فى الإرعاد والإبراق

(١) أما قبل الآن أى زمن محمد على وسعيد وإسماعيل فكان يرمى إلى الأغراض القديمة كما ترى فى النماذج .

فإذا تبسمت البروق لغبطة | بكت السماء بدمعها المُهرّاق
عاملتمونى بالجفـــاء رويدكم | الورد ذو أوج بلا إحراق
مالى أراكم تنكرون مكانتى | الشمس لاتخفى مع الإشراق
قلدتمُ غيرى الجميل وقلتم | حسبُ المغرد زينة الأطواق
أسديتم الجدوى له وسددتمُ | طرُق الرجاء علىّ بالإطراق
إن لم يكن مثلى يسىء ومثلكم | يغضى فأين مكارم الأخلاق

وقال المرحوم السيد على الليثى فى الحكم :

كل حال لضـــده يتحول | فالزم الصبر إذ عليه المعوّل
يا فؤادى استرح فما الأمر إلا | ما به محكم القضاء تنزّل
قدرٌ غالب وسر الخفـــايا | فوق عقل الأريب مهما تكمل
رب ساع لحتفه وهو ممن | ظن بالسعى للعـــلا يتوصل

وقال المرحوم الشيخ شهاب يرثى إبراهيم باشا ويؤرخ وفاته سنة ١٢٦٤ هـ :

صبراً على ما قد مضى | إذ لا مخلص من قضا
كيف التصبر والمنـــا | يا ذات عضب منتضَى
أردَت بإبراهيم مـــذ | بلغ المقـــامَ المرتضى
وإليـــه آل الأمر فى | حكم (الإيالة) وانقضى
فمضى وقلت مؤرخاً | (الله يرحم من مضى)
١٢٦٤ هـ | ٦٦ ٢٥٨ ٩٠ ٨٥٠

الشعراء

شعراء هذا العصر كثيرون . وإنك لترى شعرهم منشوراً فى الصحف والمجلات ، وإنّ سابق حلبتّهم وقائدهم فى هذا العصر محمود سامى باشا البارودى وهاك ترجمته :

البارودى

هو رب السيف والقلم أمير الشعراء وشاعر الأمراء محمود سامى باشا بن



محمود باشا سامى البارودى

يسعى الفتى لأمور قد تضرُّ به　　　وليس يَعلَم ما يأتى وما يدع

يأيها السادر المزورُّ من صَلَف　　　مهلاً فإنك بالأيام منخدع

دع ما يريب وخذ فيما خلقتَ له　　　لعلَّ قلبك بالإيمان ينتفع

إن الحياة لَثوبٌ سوف تَخلَعُه　　　وكل ثوبٍ إذا ما رثَّ ينخلع

ومن قوله وهو آخر ما قاله :

أنا مصْدَرُ الكلم البوادى　　　بين المحاضر والنوادى

أنا فارسٌ أنا شاعرٌ　　　فى كل مَلحَمة ونادى

فإذا ركبتُ فإننى　　　زَيدُ الفوارس فى الجِلاد

وإذا نَطقتُ فإننى　　　قسُّ بن ُساعدة الإيادى

حفنى ناصف بك

هو القاضى الفاضل الشاعر الكاتب المصنف محمد حفنى بن الشيخ إسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف ، أحد أركان النهضة الأدبية بالديار المصرية .

ولد ببركة الحج من أعمال القليوبية سنة ١٣٧٢ هـ . يتيماً فقيراً ، فكفله خاله وجدته أم أبيه .

ولما ترعرع تعلم القرآن على معلم كان يفرط فى ضربه ففر ماشياً على قدميه إلى الأزهر ، حتى علمت جدته لأبيه بخبره ، فحملت له الزاد والمئونة . وجاور فى الأزهر عشر سنين ، جوّد فيها القرآن ، وحفظ المتون ، ودرس فقه الشافعى ، وعلوم اللسان العربى ، واشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما ، حتى أصبح من شعراء الأزهر المعدودين ، وحج فى أثناء ذلك . ثم كان أول الناجحين من الطلبة المقبولين فى دار العلوم ، وبقى أولهم حتى خرج من المدرسة . ثم اختير مدرساً وضابطاً لمدرسة الخرس والعميان ، فأتى فى تعليمهم بالعجب العجاب . ثم نقل إلى النيابة كاتب سر للمرحوم شفيق بك منصور يكن ؛ فاستعان به فى تحرير جميع كتبه باللسان العربى . واختير فى الوفد الذى ندب لحضور مؤتمر علماء الشرقيات بمدينة ويانة (فينا) ؛ فلم يقبل بمحاضر جلسات المؤتمر سوى رسالته (مميزات اللغة العربية) فطبعت فى مجموعة المؤتمر . ثم نقل مدرساً للإنشاء والبلاغة والمنطق وآداب البحث والمناظرة بمدرسة الحقوق ،

فقام بتعليمها خمس سنين نبغ على يده فيها أكثر نابغى العصر من الوزراء والمستشارين وكبار المحامين . وفى أثناء ذلك كلفته نظارة المعارف مع آخرين تأليف سلسلة كتب سهلة لتعليم النحو والصرف والبلاغة ، فألف خمسة كتب لم يزل العمل فى التعليم جارياً عليها وعم بها النفع فى مصر وغيرها . ثم نقل إلى القضاء الأهلى ، فمكث يترقى فى درجاته مدة عشرين سنة كان فى خلالها مثال العدل والنزاهة . ونقل من وكالة محكمة طنطا الأهلية مفتشاً أول للغة العربية بوزارة المعارف ، ولم تكن تزيد المدة الباقية من أمد خدمته القانونى على أكثر من ثلاث سنوات ، خدم فيها اللغة العربية ، وفن التعليم خدمة لا يزال يذكرها المدرسون والطلبة بالثناء عليه والإعجاب به . وأحالت عليه الوزارة مع مؤلفَىْ هذا الكتاب تطبيق رسم المصحف الشريف الذى طبعته على رسم الإمام عثمان ابن عفان (رضى الله عنه) وضبط أئمة العربية فأحيل على المعاش فى أثناء هذا العمل ، وأتمه مع رفاقه بعد ، فكان أعظم عمل قامت به دولة إسلامية لخدمة المصحف الكريم منذ ستمائة سنة ، ووقع على آخر تجربة مطبعية منه قبل موته بأيام ، وتوفى صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩ م . ودفن يوم الأربعاء بالقرافة (مقبرة الإمام الشافعى) .

خلقه وعلمه وأدبه

كان رحمه الله من أطيب خلق الله حديثاً ، وأرقهم فكاهة ، وأملحهم نادرة ، وأحضرهم جواباً ، مع دعابة فيه . وقلَّ أديب من أدباء العصر ا لحاضر

لم يرو عن حفنى ناصف نكتة أدبية ، أو نادرة فكاهية ، أو جواباً حاضراً مسكتا . وكان مع ذلك إذا حضر مجلس الأزهريين فكأنه أكبر شيخ فيهم لغة وفقهاً وفهماً لكتبهم ومنظوماتهم ، وإذا حضر مجلس المتعلمين على نظام الأوربيين فكأنه (فيما عدا اللغة الأجنبية) أحد المتخرجين فى باريس .

أما شعره فلم ينكر الأدباء عليه أنه أبو الطبقة التى نشأت بعد طبقة البارودى وعبد الله باشا فكرى ، وكل من نبغ بعد ممن انتهت إليهم الرياسة فى الشعر فعليه تعلم ، أو له قلد ، حتى أصبحوا شعراء هذا الزمان .

وأكثر شعره من نوع السهل الممتنع الكثير الملح المطربة ، والنكت الأدبية المعجبة ، حتى فى المراثى : لتمثلها فى صورة جدية بديعة .

وحفنى بك ممن تم على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة البديعة المسجوعة الكثيرة التورية (التى سميناها طريقة القاضى الفاضل) إلى طريقة الترسل الحالية .

ويشاركه فى ذلك الشيخ محمد عبده . والشيخ عبد الكريم سلمان ، وإبراهيم بك المويلحى ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد . وله فى كلتا الطريقتين رسائل بليغة .

ومن شعره يخاطب أحد الرؤساء :

أحييتَ آمالى وكنت أمتها ... من طول ما لاقيتُ من إخوانى
أدلى بإخلاصى لهم وأذود عن ... أعراضهم بجوارحى ولسانى
محضتهم ودى فلما أيسروا ... كانت بداية أمرهم نسيانى
حسبى من الدنيا صديقٌ ثابت ... فردٌ فكنْهُ ولا احتياج لثان

وقال قطعة تكتب على باب دار سعادة أحمد باشا تيمور فى دعوة :

زوروا الذى بجميلكم ... قبل الزيارة يعترف
واسعَوْا لأحمد إنه ... عن شكركم لا ينصرف

وقال تاريخاً يكتب على قبر عريان بك :

لقد هوى فى أفق هذا المكان ... بدرُ العلا عريان فخر الزمان

ومذ أتى الجنــــات أرخته عريانُ أضحى فى ثياب الجنان
سنة ١٨٨٨ م

وقال أيضاً :

أنقضى – معى إن حان حينى – تجاربى وما نلتها إلا بطول عناء
ويحزننى أن لا أرى لىَ حيـلةً لإعطائهـا من يستحق عطائى
إذا ورّث المثْرون أبناءهم غِنىً وجاهاً : فما أشقى بنى الحكماء !

وقال عندما أعلن بالإحالة إلى المعاش قبل انتهاء مدة خدمته بعشرين يوماً :

برّزت فى سحر البيـا ن وشاب فيه مفرقى
وقضيت عمرى فى البلا غة سابقاً لم ألحق
وخدمتُ ديوان المعـا رف مخلصاً بتشوق
والآن أذّن بالرحيـ ل مؤذن لم يُشفق
عشرون يوماً قد بقـ ين وبعـدها لا نلتقى
فتبلغى يا نفس بالمـ فروض للمسترزق
فات الكثير من الحيـا ة وقلّ منها ما بقى

كتبه ومؤلفاته : وللمرحوم حفنى بك غير كتب النحو والبلاغة الخمسة ، كتاب مميزات اللغة ، وكتاب حياة اللغة العربية (دروس الأدب بالجامعة المصرية) ، وكتاب القطار السريع فى علم البديع ، ورسالة فى البحث والمناظرة ، ورسالة فى المنطق ، ورسالة فى الأصول ، ورسالة فى العروض والقوافى وكتاب الأمثال العلمية ، وكتاب بديع اللغة العامية ، وكتاب عامية الشام ، وكتاب عامية الصعيد ، ورحلته إلى الآستانة ، وديوان شعره ، وديوان رسائله ، وكتابه الذى ألفه مشتركاً مع مؤلفى هذا الكتاب فى رسم المصحف وضبطه .

وأكثر مؤلفاته لم تطبع ، وبعضها ضاع أثناء تفتيش أوراق أولاده بعد وفاته فى الفتن الأخيرة . رحمه الله وجزاه عنا خير ما يجزى مخلص لأمته وعامل على إحياء لغته . آمين .

ملحق[١]
يشمل الموضوعات التى زيدت
فى منهاج الأقسام الثانوية بالمعاهد الدينية

السنة الثانية

إلمامه بحياة العرب فى الجاهلية وما كان لهم من أخلاق وعادات

العرب أمة سامية ، قديمة العهد ، بعيدة الذكر ، طائرة الصيد ، تاريخها مجيد ، ومجدها تليد ، وبأسها شديد ، وحضارتها قديمة ، ومدنيتها سابغة ، وقدمها فى الفضائل راسخة . يشهد لذلك ما تركته من الأعمال الخالدة ، وما خلفته من الآثار الشاهدة . وما فتحته من المدائن الكبيرة ، ومصرته من الأمصار الجامعة وما سنته فيها من ضروب النظام ، وعادل القوانين .

سل بلاد اليمن وما كان فيها من الجنان الفيحاء، والرياض الغناء ، والقصور الباذخة ، والسدود الفخمة ، والمصانع الضخمة ، والمعاقل الحصينة ، وما شاكل ذلك مما لا يكون إلا عن مدنية عريقة ، وحضارة أصلها ثابت — انتقل إلى مصر وانظر آثار العرب فيها ، وما كان منهم من إصلاح بيت المال ، وتنظيم طرق الإرواء ، إلى غير ذلك مما يشهد لهم بالبراعة ، والفوق فى الصناعة ، ارجع إلى القرآن الكريم ، فى وصف عاد وثمود ، واتخاذهم مصانع للخلود ، وتدبر ما كان من سياحة ذى القرنين أحد الأذواء ملوك اليمن ، التى طاف فيها بمشرق الشمس ومغربها ، يطمئن قلبك ، ويثلج صدرك ، بما كان لهؤلاء من العزة والسلطان .

أما أخلاقهم فحدث عنها ولا حرج ، فإن لهم من الأخلاق الفاضلة ، والمزايا النادرة ، ما لم يوجد مثله فى أى أمة من الأمم ، وكأن الله جبلهم على

---

(١) ملخص من مذكرات مصطفى عنانى لطلبة دار العلوم ١٩١٥ — ١٩٢١

ذلك ليُعِدَّهم لِنُصرة دينه الحنيف، وملته السَّمحة، فما من فضيلة من الفضائل السامية إلا والعربى ابن بجدتها وأبو عُذْرتها، وله فيها القِدْح المعلَّى والنصيب الأوفى. فإذا ما ذكر الوفاء بالوعد، والتمسك بالعقد، فالعرب هم ناسجو بُرْدَته، وناظمو قلادته، وهل أغلى من النفس، أو أعز من الولد، فى سبيل المحافظة على العهد، وفى قضية السموءل مع امرئ القيس، وحاجب بن زُرَارَة مع كسرى، وشَريك ابن عمرو مع النعمان، ما يغنى عن البيان.

أما السخاء والكرم، والجود والندى، فما ظنك بأقوام يؤثرون الضيف على النفس، ويقدمونه على فِلْذات أكبادهم، ويوقدون النار على التلاع فى الليل البهيم، استجلاباً للغريب النازح، والفقير الجائع، ولا تزال أخبار حاتم الطائى، وكعب بن مامَة، وأضرابهما ماثلة فى الذهن، شاهدة للعرب بالفضل.

وإنك لا تدرك الشجاعة على وجهها، ولا تعرفها حق معرفتها، إلا إذا عرفت تاريخ العرب وأخبارهم، وعرفت وقائعهم وأيامهم. وحرب البسوس، وداحِس والغبراء، من الأدلة الناصعة والبراهين القاطعة.

وإن سألت عن العفة أين عُشها الذى فيه نشأت، ومنه دَرَجَت، علمت أن العرب مسكنها على الحقيقة، وما سواها مجاز، وقد قال قائلهم:

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى　　حتى يوارى جارتى مثواها

وهل أتاك نبؤهم فى إباء الضَّيم، وعزة النفس، وعلوّ الهمة، وما كان لهم فى ذلك من العجائب؟ وأنت إذا تتبعت الحروب الطاحنة، والغارات الشعواء فى بلادهم علمت أن موقد نارها، ومدير رحاها، إنما هو الاحتفاظ بشرف النفس، والتمسك بالكرامة، وفى قول عنترة ما يرشدك إلى أى مكان وصلوا:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة　　بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم　　وجهنم بالعز أطيب منزل

ومن أخلاق العرب خلق هم قطب رحاه، ولهم غايته ومبتداه، وقد قصر عليهم قصر إفراد، فلا يشركهم فيه أحد، ولا ينازعهم فيه منازع، ذلك

هو النجدة ، وإن فى شعرهم ونثرهم لدلائل لا يأخذها العد ، ولا يأتى عليها الإحصاء . قال قُريط بن أُنَيف :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووُحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندُبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

وقال حميد بن ثور الهلالى :

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ... ما بين ملجم مهره أو سافع

وهل يعرف التاريخ الحَمِيَّة لغيرهم ، والتفانى فى المحافظة على الحرَم لمن سواهم ؟ اللهم لا . إن ذلك وقف عليهم ومميز من مميزاتهم ، ولد معهم ، ونما فيهم حتى امتزج بدمائهم ، ونزل منهم منزلة الروح من الجسد ، وآثارهم فى ذلك أشهر من نار على علم .

ومن أدل الصفات عليهم وألصقها بهم الحرية فى القول والعمل ، والصراحة فيهما ؛ فكما أن بلادهم لا تخفى عليهم شيئاً مما فيها ، لبسطة أرضها ، وصفاء جوها ، فهم كذلك لا يحرجون بإظهار ما تكنه صدورهم ، وإبراز ما استتر فى ضمائرهم ، ولو أدى ذلك إلى حتفهم وإزهاق نفوسهم : تلك سجيَّة فيهم غير محدثة ، وطبيعة غير منتَقِلة .

وإنك ليملكك العجب ، ويستولى عليك الدَّهَش إذا قُصَّت عليك آثارهم فى الذكاء ، وأخبارهم فى أصالة الرأى ، وصدق الحس ، ولعلك لست فى حاجة إلى شرح ما لهم فى الفصاحة ، ولطف الذوق ، ودقة التعبير عما فى الضمير ، لما تراه من وَفرة أشعارهم النادرة المثال ، وخطبهم العزيزة المنال ، يستوى فى ذلك شيبهم وشبَّانهم ، ورجالهم ونساؤهم ، ولم لا يكون كذلك وهم العرب ! واللفظ دليل على المعنى . هذا إلى اشتهارهم بالمحافظة على الجوار ، والذود عنه بأرواحهم ، فكم من دماء أريقت ، ونفوس أزهقت ، وحرب استعرت نارها ، واشتد أوَارها مدافعة عن الجار ، وصيانة له من أن تمتد إليه يد قاهرة ، أو تصل إليه قوة قاسرة . تلك الأخلاق الفاضلة ، والسجايا الطاهرة ، قُلٌّ من كُثر ، وقطرة من بحر ، وغَيْض من فَيْض .

على أنك تعلم أن الكمال لله وحده ، فالعرب (وإن سبقوا إلى ما سبقوا إليه) لهم هنات كانت سبباً فى تشتت شملهم ، وتفريق جمعهم ، وهدم عروش مدنيتهم .

فقد تغالوا فى كثير من أخلاقهم حتّى خرجوا بها عن الحد المقبول ، ووصلوا بها الطرف المقوت — وإذا اشتد البياض صار برصاً —

تغالَوا فى الحمية ، وعزة النفس ، والغيرة على الحرَم ، فأداهم ذلك إلى وأد البنات خشية العار ، واتقاء الفقر والإقتار .

تغالَوا فى الشجاعة حتّى صارت تَهوّراً ، فجعلوا يسطون على الضعيف متى أمكنتهم القدرة ، وسنحت لهم الفرصة .

تغالوا فى الفطنة والذكاء ، فأدّاهم ذلك إلى التكهن والتنبؤ ، وادعاء معرفة الغيب ومشافهة الجن والتحمل عنهم :

فإن شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن

هذه نبذة يسيرة من أخبار العرب ، أتينا بها لتكون على بينة من أمرهم إجمالاً . ولتلاحظ تلك الأخلاق فى أشعارهم وخطبهم ، ولتكون عوناً لك على فهم مقاصدهم ومراميهم — ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق — .

المعلقات » كلمة عامة عنها

المعلقات هى القصائد السبع التى اختارها حماد الراوية من أمتن قصائد العرب فى الجاهلية ، وأمدها قافية ، وأجزلها لفظاً ، وأحسنها أسلوباً ، وأدقها وصفاً ، وألطفها تشبيها ، وأكثرها انطباقاً على حال العرب ، ووصف مرافقهم وشرح أحوالهم وأعمالهم وعقائدهم .

قد اختلف الرواة فيها وفى أصحابها ؛ وأشهر الأقوال أنها هى : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) لامرئ القيس . و (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) لطرفة ابن العبد . و (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) لزهير بن سلمى . و (عفت الديار محلها فمقامها) للبيد . و (ألا هبى بصحنك فأصبحينا) لعمرو بن كلثوم .

و (هل غادر الشعراء من متردم) لعنترة. (وآذنتنا ببينها أسماء) للحارث بن حلزة، وقد عدها التبريزى عشراً، فزاد : (يا دار مية بالعلياء فالسند) للنابغة الذبيانى. و (ودع هريرة إن الركب مرتحل) للأعشى . و (أقفر من أهله ملحوب) لعبيد بن الأبرص وهناك خلافات أخرى لا طائل تحتها . واختلف الباحثون فى سبب تسميتها بالمعلقات، فمنهم من قال: سميت بذلك لأنها علقت بالكعبة ، ومنهم من قال : إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه ، وأثبتوها فى خزائننا . ومنهم من أنكر التعليق بالكعبة ألبتة ، ومن هؤلاء المنكرين أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٨٣ هـ . فقد قال فى شرحه على المعلقات ، وأما من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة .

وخالفه فى ذلك أحمد بن عبد ربه فى عقده ، وابن رشيق فى عمدته ، وابن خلدون فى مقدمته ، وعبد اللطيف البغدادى فى خزانته ، فإنهم جميعاً قالوا بتعليقها ، ومنهم من كان معاصراً لأبى جعفر ، وهاك عبارة البغدادى : (إن العرب كانت فى الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض ، فلا يعبأ به أحد ، ولا ينشده أحد ، حتى يأتى مكة فى موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه رُوى وكان فخراً لقائله ، وعلق على ركن من أركان الكعبة) .

ولا نرى مانعاً من التعليق بالكعبة ، فإن للشعر مكانة عند العرب لا تعدلها مكانة ، ومنزلة لا توازيها منزلة ، فلا بدع أن يعلقوا فى الكعبة — وهى عندهم ما هى — ما حاز منه إعجابهم ، وملك عليهم أسماعهم ، وسحر عقولهم ، وبهرهم لفظه ومعناه ، وأسلوبه ومغزاه ، لينتشر فى القبائل ذكره ، ويشيع بين الناس أمره ، وفى هذا تكريم للشاعر وتشريف لقبيلته، وإعلاء لقدره ، وتفخيم لشأنه .

ومما يستأنس به لذلك التعليق أن له نظائر سابقة ، وأخرى لاحقة ، فقد روى التاريخ أن قريشاً حين تآمروا على قطيعة بنى هاشم كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة ، تعظيماً لأمرها ، وتفخيماً لشأنها ، وأن الرشيد حين

كتب العهد بالخلافة من بعده لابنيه الأمين والمأمون ، أمر بتعليق هذا العهد فى أستار الكعبة ، لينال بذلك هيبة ونفاذاً ، ويزداد الناس له خضوعاً وإذعاناً .

السنة الثالثة

أبو حمزة الخارجى

هو المختار بن الأزدى ثم السُّلَمى من أهل البصرة كان يوافى مكة فى موسم الحج كل عام ، يدعو إلى الخروج على الخليفة القائم مروان بن محمد ، ويندد بآل مروان جميعاً ، ولم يزل يختلف كل عام إلى الموسم ، فلما كان عام تسع وعشرين ومائة ، ذهب للحج فى نحو ألف رجل ، وبعد تمام الحج خاف والى مكة منه ومن رجاله فأخلى له مكة فدخلها بغير قتال ، ثم قصد إلى المدينة لما علم أن أهلها يتأهبون لقتاله ، فدخلها كذلك وصارت إلى طاعته ، ثم رجع أبو حمزة إلى مكة ، وخلف على المدينة قائداً من قواده ، ثم إن مروان بن محمد انتخب من عسكره أربعة آلاف واستعمل عليها عبد الملك بن عطية ، فاستردوا من أبى حمزة المدينة ثم مكة ، وقتل أبو حمزة وصلب مع من قتل من أصحابه .

خطابته : كان أبو حمزة من خطباء الخوارج ، وتكاد تكون خطبهم جميعاً كلمة رجل واحد فى صلابتها وشدة أسرها ، وصراحة مرادها ، فلا مواربة ولا مداراة .

والجزالة وصف صادق لكل ما يصدر عن هؤلاء القوم ، إذ كانوا جميعاً عرباً آثروا خشونة البادية ، ورضوا بشدة عيشها ، وعكفوا على التعبد بتلاوة القرآن ، فكثر احتجاجهم بآيه ، والاقتباس من حِكَمه .

نماذج من خطب أبى حمزة :

دخل مكة فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال بعد أن ذكر الخلفاء الأربعة :

١ — أما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظِّنَّة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون

كتب العهد بالخلافة من بعده لابنيه الأمين والمأمون ، أمر بتعليق هذا العهد فى أستار الكعبة ، لينال بذلك هيبة ونفاذاً ، ويزداد الناس له خضوعاً وإذعاناً .

السنة الثالثة

أبو حمزة الخارجى

هو المختار بن الأزدى ثم السُّلَمى من أهل البصرة كان يوافى مكة فى موسم الحج كل عام ، يدعو إلى الخروج على الخليفة القائم مروان بن محمد ، ويندد بآل مروان جميعاً ، ولم يزل يختلف كل عام إلى الموسم ، فلما كان عام تسع وعشرين ومائة ، ذهب للحج فى نحو ألف رجل ، وبعد تمام الحج خاف والى مكة منه ومن رجاله فأخلى له مكة فدخلها بغير قتال ؛ ثم قصد إلى المدينة لما علم أن أهلها يتأهبون لقتاله ؛ فدخلها كذلك وصارت إلى طاعته ؛ ثم رجع أبو حمزة إلى مكة ، وخلف على المدينة قائداً من قواده ، ثم إن مروان بن محمد انتخب من عسكره أربعة آلاف واستعمل عليها عبد الملك بن عطية ، فاستردوا من أبى حمزة المدينة ثم مكة ؛ وقتل أبو حمزة وصلب مع من قتل من أصحابه .

خطابته : كان أبو حمزة من خطباء الخوارج ، وتكاد تكون خطبهم جميعاً كلمة رجل واحد فى صلابتها وشدة أسرها ؛ وصراحة مرادها ، فلا مواربة ولا مداراة . والجزالة وصف صادق لكل ما يصدر عن هؤلاء القوم ؛ إذ كانوا جميعاً عرباً آثروا خشونة البادية ، ورضوا بشدة عيشها ، وعكفوا على التعبد بتلاوة القرآن ، فكثر احتجاجهم بآيه ، والاقتباس من حِكَمه .

نماذج من خطب أبى حمزة :

دخل مكة فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال بعد أن ذكر الخلفاء الأربعة :

١ — أما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظِّنَّة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون

الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها فى غير أهلها ، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف فقال: إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها ؛ تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله . . . .

٢ — ومنها فى وصف أصحابه :

يا أهل الحجاز أتعيرونى فى أصحابى وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً . أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة . وأطلاح سهر . فنظر الله إليهم فى جوف الليل . منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن . كلما مر أحد بآية ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . . .

عمران بن حطان

هو عمران بن حِطَّان يكنى أبا سماك . وهو شاعر فصيح من شعراء الشُّراة ودعاتهم والمقدَّمين فى مذهبهم وكان من القَعَدة . ذكروا أنه كان قبل أن يدين بالخروج . راوية للحديث مشتهراً بطلب العلم . أدرك صدراً من الصحابة فروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث .

قالوا : وكان سبب تعلقه بهذا المذهب أنه تزوج امرأة من الشُّراة من عشيرته وقال : أردها عن مذهبها إلى الحق . فأضلته هى وذهبت به . فلما اشتهر بمذهبه طلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، فطلبه عبد الملك فهرب إلى عمان . وظل يتنقل إلى أن مات فى تواريه . وفى هذه الحالة يقول :

حللنا فى بنى كعب بن عمرو ... وفى رِعل وعامر عوثبان

وفى جَرْم وفى عمرو بن مر ... وفى زيد وحى بنى الغـدان

شعره

شهد له بالشعر فحول الشعراء ، فقد اجتمع الشعراء عند عبد الملك فقال لم أبق أحد أشعر منكم ؟ فقالوا : لا ، قال الأخطل : كذبوا يا أمير المؤمنين قد بقى من هو أشعر منهم ، قال : ومو هن ؟ قال : عمران بن حطان ، قال : وكيف كان أشعرهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادق ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا ، قال عمران :

لقد زاد الحياة إلىّ حبـًّا ... بناتى إنهن من الضعاف
ولولا ذاك قد سوّمت رمحى ... وفى الرحمن للضعفاء كاف

وبلغ من شهرة شعره بين الناس أن كان كل خارجى يقول الشعر يخاف على شعره أن ينسب إلى عمران .

وعمران هذا هو الذى هجا الحجاج حين علم أنه تحصن من غزالة الحرورية ، وأغلق قصره لما دخلت عليه الكوفة هى وشبيب ، فقال :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... رَبْداء تجفل من صفير الصافر
هلاّ برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت غزالة قلبـه بفوارس ... تركت مدابره كأمس الدابر

وهو الذى مر بالفرزدق ينشد شعراً والناس حوله فقال :

أيها المادح العباد ليحظى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل المقسم العواد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيـه ... وتسمى البخيل باسم الجواد

فقال الفرزدق : لولا أن الله شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شرًّا . وهو القائل يمدح عبد الرحمن بن ملجم بقتله على بن أبى طالب :

يا ضربة من كريم ما أراد بهـا ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر فيه ثم أحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا
لله در المرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربتـه ... مما جناه من الآثام عريانا

وقد عرف عمران بأنه لم يكذب فى شعره قط ، فقالت له امرأته يوماً : ألم تزعم أنك لا تكذب فى شعرك ؟ قال : بلى ، فقالت : أرأيت قولك :

وكذاك مجزأة بن ثو ر كان أشجع من أسامة

أيكون رجل أشجع من الأسد ؟ قال : نعم ، إن مجزأة بن ثور فتح مدينة كذا والأسد لا يقدر على ذلك .

وشعره كما ترى فى صلابة شعر الخوارج وتدفق عاطفتهم ، وصراحتهم التى لا تعرف المداراة ، وأنفتهم التى لا يمكن أن تبارى ؛ وفيه مع هذا الكبرياء خضوع للحق ، وخشوع لله ، واستمساك بالرأى .

وهو من الوجهة البلاغية جزل ؛ لأن قائليه بدْو لم يألفوا الحضر ، ولا سكنوا إلى النعيم ، بل قضوا أيامهم فى الحروب وأهوالها ، والزهد وحمل النفس عليه ، وكله يدور حول الترغيب فى الموت ، والاعتزاز بالمعتقد والترهيد فى الدنيا .

السنة الرابعة

مجالس الوعظ والقص والمناظرة

مجالس الوعظ :

خلق الله الشيطان ، عدوا للإنسان ؛ يُحرّضه على ارتكاب الآثام ويُغريه بتلَمُّس الشهوات ، والانغماس فى حمأة الرذائل ، وهجر الأخلاق الفاضلة ، والشيم الكريمة ، يستمر يحرضه ويُغريه . ويحضه ويمنّيه ، حتى يقطع الصلة بينه وبين ربه ، ويفتح له أبواب النار ، فيهوى فيها وبئس القرار (الشيطانُ يَعِدُكمُ الفقرَ ويأمرُكمْ بالفَحْشاءِ ، واللهُ يَعِدُكُم مغفرةً منه وفضلاً) .

لهذا كان لا بد للإنسان من خطيب واعظ يبين له خطأه ، ومنذر يظهر له حاله ، ولا بد أن يكون قوىّ التأثير . شديد الإقناع ، يملك على السامع قلبه ، ويستأثر بلبه ، يضع المواعظ حيث تثمر ، والنُّذُر حيث تردَع ، ولقد كثر هؤلاء الوعاظ فى الدولة العباسية حيث انتشر الترَف فى أرجائها ، وعمت المدنية نواحيها ، واختلط بالأمة العربية من اختلط بها من الأمم ذات

الحضارات العتيقة ، والمدنيات القديمة ، وفشا فيها الاستهتار بالدين ، وارتكاب المحرمات ، وعدم الخضوع للوازع الديني .

وقد اتخذ هؤلاء الوعاظ المساجد أماكن لوعظهم ، ومجالس لزجرهم ، ثم توسعوا في ذلك حتى وعظوا في الطرق ، والأسواق ، والأندية ، وحتى دخلوا منازل الأمراء وقصور الملوك والسلاطين ، وكان لهم في ذلك وقائع مشهورة ، ومواقف مأثورة ، فكثيراً ما شافهوا الملوك بالمواعظ الرادعة . وواجهوهم بالنذر الزاجرة . وقرعوا أسماعهم بكلمة الحق سافرة ، وإنك لتجد الواعظ يملأ سمع الخليفة بمواعظه القارسة . وزواجره الرادعة . فينخلع قلبك إشفاقاً عليه ورحمة له ، ولكنك لا تلبث أن ترى الملك قد دمعت عيناه ، ورق قلبه ، وعطف على الواعظ . وحمد الله على وجوده يؤدي واجبه ، لا يرهب جانب أمير ، ولا يخاف سلطة رئيس . (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

والوعاظ في الدولة العباسية كثيرون .

نموذج من الوعظ :

قال المنصور للأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧ هـ . وقد بعث إليه : لم تبطئ عنا ؟ قال : وما تريد منا ؟ قال : آخذ عنكم ، وأقتبس منكم ، فقال له : مهلاً فإن عروة ابن رُوَيم أخبرني أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر الله له ذلك ، ومن جاءته فلم يقبلها كانت عليه حجة يوم القيامة ، مهلا ، فإن مثلك لا ينبغي أن ينام ، إنما جعلت الأنبياء رُعاة لعلمهم بالرعية ، يجبرون الكسير ، ويسمنون الهزيلة ، ويردون الضالة . فكيف من يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم . . . . . إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك ، إلى داود عليه السلام (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وأوحى إليه : « يا داود إذا أتاك الخصمان فلا يكن لأحدهما على صاحبه الفضل ، فأمحوك من ديوان نبوتي » ، واعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، فكيف بمن تقمصه . . . . .

مجالس القص

وأما القص فهو ضرب من ضروب الخطابة ، ترتاح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، لما فيه من الحديث الجميل ، والسِّير المنعشة ، والأخبار المفيدة ، والمغازى والفتوح ، ولأنه يحمل الموعظة بين ثناياه فتظهر لينة الملمس ، لطيفة المدخل ، سهلة القبول .

وقد كثر القاصُّون فى الدولة العباسية ، وسنترك الكلام فيهم للجاحظ ، فاستمع ما يقوله عنهم فى البيان والتبيين : قال : ومن القصاص (موسى بن الأسوارى) وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته فى الفارسية ، فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين — واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد ، أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسوارى — ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ، ثم عثمان بن سعيد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى . . . . ثم قص فى مسجده (أبو على الأسوارى) ستًّا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات ، فكان يفسر آية واحدة فى عدة أسابيع . . . وكان هو يحفظ ما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث الكثيرة ، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك وكان (يونس بن حبيب) يسمع منه كلام العرب له يحتج به ، وخصاله المحمودة كثيرة .

فأما (صالح المرى) فإنه يكنى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس ، فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند (مرحوم العطار) قال له مرحوم : هل لك أن تأتى قاصًّا عندنا فتتفرج

بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه ، فأتاه على تكرّه كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقه ، وسمع تلاوته للقرآن ، وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة ، وحدثنا قتادة عن الحسن ، رأى بياناً لم يحتسبه ، ومذهباً لم يكن يدانيه ، فأقبل سفيان على مرحوم فقال : هذا ليس قاصًّا ، هذا نذير .

مجالس المناظرة

والمناظرة لون من ألوان الخطابة أيضاً ، وقد قدمنا لك أن خلفاء الدولة العباسية بذلوا كل ما لديهم من جهد وقوة ، ومال وجاه ، فى سبيل إنهاض العلم ، واشتداد أواصره ، واتساع دائرته ، وقد كان لتغاليهم فى مكافأة العلماء والمؤلفين ، والشعراء والمترجمين ، وتقريبهم منهم ، وقبولهم شفاعاتهم ، أثر واضح أشعل فى نفوسهم نار الغيرة والمنافسة ، فشرعوا يتحاورون ويتنافسون ويتناظرون ، وكانت لهم فى ذلك مجالس شتى ، شهدها الملوك والأمراء ، والعلماء والوزراء ، وربما سالت بسببها الدماء . وذلك إذا كانت المناظرة مرتبطة بالعقيدة متصلة بالإذعان ، كالمناظرة فى خلق القرآن ، التى أثارها المأمون واستباح فيها الأذى لعظماء العلماء وساداتهم ، وتبعه فى ذلك المعتصم ، ثم ابنه الواثق من بعده . ومن هذه المناظرات التى كانت تقوم بين متشددى الحنابلة ، المتمسكين بأهداب الفلسفة ، وقد كان للعامة نصيب منها يؤول بها إلى نزاع وجلاد ، وكفاح ونضال ، لا يقف عند الدليل والبرهان ، بل ينتهى بالقتال والنزال.

وقد كثرت مجالس المناظرة فى المساجد الجامعة ، كالحرمين الشريفين ، والمسجد الأقصى ، ومسجد بنى أمية بدمشق ، ومساجد البصرة والكوفة ، ومساجد مصر : كالجامع الأزهر وابن طولون ، وفى الأسواق العامة : كالمربد بالبصرة ، والكُناسة بالكوفة ، والعقيق بالمدينة . وهاك نموذجاً منها :

قال حماد بن إسحاق ، عن أبيه : كنا عند الرشيد فحضر الأصمعى والكسائى فسأله الرشيد عن بيت الراعى :

قتلوا ابن عفان الخليفة مُحرِماً ودعا فلم أر مثله مقتولا

فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعى وتهانف ، فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال والله ما أحرم بالحج ولا أراد أيضاً أنه دخل فى شهر حرام ، كما يقال أشهر أو أعوم إذا دخل فى شهر أو عام ، فقال الكسائى : ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للإحرام ! ! قال الأصمعى : فخبرنى عن قول عدى ابن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يمتع بكفن

أى إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئاً محرماً يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : أنت يا أصمعى ما تطاق فى الشعر :

إلمامة بحالة اللغة العربية فى بلاد الأندلس

نبذ فى تاريخ الأندلس السياسى

(٩٢ — ٨٩٧) = ٨٠٥

فى سنة ٩٢ للهجرة افتتح موسى بن نُصير وعامل الوليد بن عبد الملك على أفريقية مولاه طارق بن زياد جزيرة الأندلس ، فصارت بذلك عمالة أموية ، يولى عاملها من قبل الخليفة تارة ومن الوالى بالقيروان أخرى ، وبقيت تحت سلطانهم إلى سنة ١٣٨ أى (٤٦) عاماً تولى الإمارة فيها (٢٠) عاملاً ، وانقضى جل هذه المدة فى فتح وجهاد ، وقتال وجلاد ، وباقيها فى خلاف شديد ونزاع مبيد ، وفتن داخلية ، أشدها ما كان بين اليمانية المضرية ، وهم السواد الأعظم من سكانها .

وفى سنة ١٣٨ للهجرة أتى عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ومولاه بدر هذه البلاد (فارًّا من عسف العباسيين ، وبغيهم على أشراف الأمويين وأعوان دولتهم ، والتنكيل بمن يظفرون به من أبناء الخلفاء ، والتضييق ونصب الحبائل لهم فى كل صقع وواد) .

فأسس فى جزيرة الأندلس دولة أموية عربيه ، لتقوم مقام دولتهم بالمشرق التى بنى العباسيون على أنقاضها ملكهم الفخم ، وسلطانهم الضخم ، وساعده على ذلك عزيمة صادقة ، وشيعة أموية ، وفتن مستحكمة بين القحطانية والعدنانية ، من جراء تولية الإمارة ، وتملك مقاليد الزعامة . واستمرت تلك البلاد خاضعة لهم ، إلى سنة ٢٤٢ أى (٢٨٤) سنة تولى فيها من الأمراء والخلفاء (١٥) رجلاً ، قطعت فيها الدولة من الحضارة والغضارة والرقى الحسى والمعنوى شوطاً طويلاً ، وسارت فيه إلى أبعد غاية وأقصى مدى .

ثم ضعف سلطانهم ، (سنة الله فى خلقه) فاستقلت أطرافها ، وتغلب فى كل جهة منها متغلب من العرب والموالى والبربر ، وتقسموا ألقاب الخلافة فيما بينهم : فمن مقتدر إلى معتضد ، ومن مستعين إلى معتمد ، حتى كثرت الألقاب ، وتعددت الخلافات فذهبت بهجتها ، وقلت روعتها ، وقال فيها شاعرهم :

مما يزهدنى فى أرض أندلس	تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها	كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وهؤلاء هم المسمون فى تاريخ البلاد (ملوك الطوائف) ، وقد كانوا (على كثرتهم) يفاخر كل منهم جاره ، ويسعى فى الفوق عليه بترقية بلاده ، واتساع رقعتها ، وبسط نفوذه على مجاوريه بالقتال الدائم ، والنزاع المستمر ، مما سهل للعدو طريق الوصول إليهم ، والتغلب عليهم . ودامت دولتهم إلى سنة ٤٨٤ أى (٦٢) سنة .

ومن أشهر ملوكهم : بنو عباد بإشبيلية ، وبنو الأفطس ببطليوس ، وابن ذى النون بطليطلة ، وبنو هود بسرقسطة ، ولبيب العامرى بطرطوشة ، والمنصور المعافرى ببلنسية .

ومن ذلك الحين كانت الجزيرة إقليماً تابعاً للبرابرة سلاطين المغرب ، وأول من عمل منهم على إخضاعها لحكمه وإدخالها تحت سيطرته الملثمون (بناة مراكش وسلاطينها) فإنهم جاءوا إليها بدعوة من أحد ملوك الطوائف (المعتمد

ابن عباد) للإغاثة من الأسبان الذين أخذوا يستردون البلاد والحصون ، ويتحكمون في الأمراء كما يشاءون ، ثم بدا لهم بعد الانتصار واستتاب الأمن أن يستبدوا بالملك وحدهم فكان لهم ما أرادوا ، وحدث بينهم وبين الإسبان بعد ذلك وقائع عدة استردوا فيها كثيراً من المدن والبلاد والمعاقل والقلاع ، وتقوضت دولتهم من بلاد الأندلس بعد أن داموا فيها (٦٢) سنة .

ولما قامت دولة الموحدين سنة ٥٤٢ شرعت تناوئ الملثمين ثم تغلبت عليهم واستولت على مراكش وبلاد الأندلس ، واسترجعت كثيراً من أمصارها وقلاعها وكانت وقائعها مع أعداء البلاد مقرونة بالظفر مصحوبة بالنصر إلى أن ضعف أمرهم ، وسكن ريحهم ، وتغلب عليهم عدوهم من بنى مَرين ، فذهبت دولتهم . وشالت نعامتهم ، وخفت صوتهم ، وانتهى أمرهم سنة ٦٢٩ ، أى (٨٤) سنة .

ثم ظهر فى الأندلس سنة ٦٢٩ آخر دولة وهى دولة بنى الأحمر (وكان مقرها غرناطة) فاستبدوا بالملك وثاروا على ابن هود المتغلب بشرق الأندلس ، وكان مقره (سرقسطة) . واستمرت رحى الحرب بينهم دائرة . ولظى نارها يشتعل ، وعدوهم يلقى بأسهم بينهم ، وينتهز الفرص لخضد شوكتهم . وإضعاف قوتهم ، وسلب بلادهم من أيديهم ، يستعمل فى ذلك كل حيلة ودهاء ، وكياسة وذكاء ، حتى آل الأمر فى سنة ٨٩٧ إلى ذهاب سلطان المسلمين من هذه البلاد . وطموس آثارهم . ودرس معالمهم . وإزهاق روح لغتهم ، ومحق حضارتهم وتعاليمهم .

وبعد أن كانت الأندلس قرارة الأدب والدين ، ومنبع العلم واليقين ، ومتنزه جميع المسلمين ، ومهد الحضارة ، والمثل الأعلى فى العمارة ، ومحط الرحال ، وملتقى الآمال مدة ثمانية قرون ، أصبحت (والأمر لله) وليس بها إلا ما يفتت الكبد ، ويفت فى العَضُد ، ويبعث الأسى ، ويديم الشَّجَى . ويسيل العبرات ، ويهيج الحسرات ، والحكم لله العلى الكبير .

حالة اللغة العربية فى بلاد الأندلس

٩٢ — ٨٩٧

انتشرت اللغة العربية فى بلاد الأندلس ، وانبثت فى جميع أرجائها ونواحيها بسرعة قلما تتهيأ لغيرها أو تتفق لسواها ، كان ذلك لأن الدين يحملها على جناحيه فتهبط معه أينما هبط ، وتترسم خطاه أنى سار .

وساعد على ذلك عرب خلص رحلوا إليها من جميع القبائل اليمانية والمضرية كما رحل إليها قوم من أهل مصر والشام والعراق ، وهؤلاء يحملون رايتها ويعملون على بسط نفوذها ، لما فى ذلك من إظهار سؤددهم ، ونشر دينهم وتعاليمهم وحمل الناس على محاكاتهم ، ولا عجب فهم سادة البلاد والقابضون على أزمتها ، والمتصرفون فى أعمالها (والناس على دين ملوكهم) .

ومما حمل السكان على انتهاج طريقها والاهتمام بتعلمها ما كان من سهولتها ، وضبط قواعدها ، وكثرة معلميها ، وما رأوه من التسامح والإغضاء من أهلها ، فقد كانوا (على أنفتهم) يدمجون فيهم بالمصاهرة كل من تمسك بدينهم وتعرف لغتهم ، لا يبالون بأصله ، ولا يهتمون بحسبه ، ولقد كان لأمراء الأندلس وخلفائهم وسلاطينهم فى ترقية شئون اللغة وإعلاء كلمتها أثر جليل وعمل صالح ، ظهر فى بذلهم النفيس لتربية ملكة اللغة فيهم ، والتمكن من أساليبها ، وامتلاك نواصى آدابها ، وتحرير رقاب عباراتها ، ونشر المساجد والمدارس والحض على التعليم والتعلم ، وحث الأدباء على منافسة أهل المشرق ، وإذكاء جذوة الغيرة فى نفوسهم وإثارة الحمية فى قلوبهم ، بإغداق النعم عليهم ، وتقريبهم منهم ، وتوليتهم مهام أمورهم ، وأرقى مناصبهم ، حتى بعثهم ذلك على مباراة المشارقة والجرى معهم فى مضمار الإجادة ، وأنت خبير بأن المشارقة هم أصحاب الملك الكبير ، والسلطان العظيم ، وورثة العرب الفصحاء فى شعرهم ونثرهم ، والفرس والرومان واليونان فى حضارتهم وعلومهم ، وبلادهم كعبة القاصد ، ونجعة الرائد ، ومحط رحال العلماء ، ومهبط الكتاب والشعراء ،

بل قبلة الإسلام ومجتمع جميع الأنام ، فاطلع علماء الأندلس على ثمرات عقولهم ونتائج كدهم ، تارة بالأخذ عن كتبهم ، وأخرى بالذهاب إلى بلادهم فى أثناء رحلتهم للحج ، أو لقصد طلب العلم ، أو للضرب فى الأرض لطلب الرزق ، ثم عادوا إلى بلادهم عود الشمس بعد الأفول ، والغيث بعد المحول ، فنشروا فيها علومهم وآدابهم ، وعنوا بغرسها فى نفوس شبابهم وتحبيبها إليهم ، فلقنوهم منذ نعومة أظفارهم النثر الفاتن ، والشعر الساحر ، فشبوا وقد تذوقوا حلو الكلام ، وتسهل لهم حزنه ولان لهم صعبه ، وانقاد لهم أبيه ، هذا إلى ما بذله أولئك الخلائف والأمراء من مساعدة العلم وأهله ، وتحبيب العلماء والمغنين والأدباء فى استيطان بلاد الأندلس ، وبعث التجار فى سائر الأقطار ، لإعداد نفيس الكتب وغريب المؤلفات . ولقد بلغ من ولوعهم بترقية بلادهم فى العلوم والفنون أن بذلوا حر الأموال لتظهر المؤلفات فى بلادهم قبل ظهورها فى بلاد مؤلفيها ، ومن ذلك كتاب الأغانى للأصفهانى ، وشرح مختصر ابن عبد الحكم للأبهرى ، وقد عقد المقَّرى فى نفح الطيب أبواباً للوافدين إلى بلاد الأندلس والنازحين عنها ، فارجع إليه إن شئت .

وما حمل الأمويين على هذه العناية إلا طمعهم فى استرداد ملكهم الضائع . ومجدهم القديم ، وإشادة دولة فتية قوية غنية ، يقوضون بها عرش خلافة العباسيين الذين غلبوهم على أمرهم ، وشتتوهم من بلادهم ، وقد علموا أن حياة الدول لا تكون إلا بالعلم ، فرفعوا عماده ، وأعلوا مناره ، ويسروا سبله وسهلوا أسبابه .

ولم تكن حال اللغة فى بلاد الأندلس سائرة على سنن واحد ، بل كانت تتغير أحوالها ، وتتبدل صفاتها ، تبعاً لما تتقلب فيه الأمة من سراء وضراء ، وسعادة وشقاء ، وبداوة وحضارة ، وقوة وضعف ، وتبعية واستقلال — فقد كانت فى الصدر الأول من الفتح (وهو زمن يقرب من نصف قرن) تشابه كثيراً حالها عند بنى أمية بالمشرق : عبارة سهلة بريئة من التصنع والتعمل ، يغلب عليها الترسل ، ويمحى فيها تصنع البديع بأنواعه ، تحوك فى الصدر ، وتعمل فى النفس ، تكاد أغراضها تنحصر فى أنواع المعيشة وحماية الدين ، والحث

على إعلاء كلمته ونشر تعاليمه ، والحض على بذل المهج فى حماية البلاد ، والمحافظة عليها من العدو الواقف لها بالمرصاد ، تغلب البدوية على خيالها ، وإن ظهر فى بعض الأحايين مجلوًّا فى معارض الحضارة .

وفى زمن بنى أمية وملوك الطوائف (وهو قريب من ثلاثة قرون ونصف) عمت اللغة السكان ، على اختلاف الأجناس والأديان ، حتى ترجم بها القسوس التوراة وغيرها من الكتب الدينية ، وليس بعد ذلك دليل على الشيوع والانتشار وسارت فى هذه المدة شوطاً طويلا ، وقطعت مسافة بعيدة ، وخطت خطوات واسعة ، وخلعوا عليها نضرة بلادهم ، ورقة هوائهم وسلالة أخلاقهم ، وأدمجوا فيها دقيق نكاتهم وظريف مجونهم ، وجميل ابتكارهم ، وجليل اختراعهم ، حتى صارت عنوانهم الدال عليهم ، ومرآتهم التى ترى فيها محاسنهم .

واتسعت أغراضهم حتى كادت (لا تحصى) فمن كتب إخوانية : إلى عهود سلطانية ، ومن أعمال إدارية ، إلى أمور صناعية وزراعية وتجارية ، ومن تدوين علوم ، إلى مناظرة خصوم . أما الوصف فحدث عنه ولا حرج ، فقد وصفوا السماء وزُهرها ، والرياض وأزهارها ، والنواعير وأصواتها ، والسحب وأنواعها . والأنهار وأشكالها ، والدواب وضروبها ، والوقائع وأهوالها ، والقصور وسعتها ، والطيور ورُواءها ، والخمر وندمانها . والحضارة وأسبابها ، والملاهى على تباين طرقها وتخالف آثارها ، وإن شئت فقل : وصفوا كل شىء وقع تحت حسهم وصفاً دق خياله ، ورقت عبارته ، ففاقوا فيه السابقين وأتعبوا به اللاحقين ، يستوى فى ذلك شيبهم وشبانهم ، ورجالهم ونساؤهم — وفى نفح الطيب من ذلك ما يملك سمعك ، ويستأثر بجملتك وتروقك عبارته ، وتستهويك صناعته ، ويدعوك إلى حفظه ، ويعاونك على القول ورصفه .

ولم يكن همهم العناية بالترجمة من الكتب الأجنبية لشغفهم بلغة العرب وآدابها ، ولتعصبهم للدين وعلومه ، وبغضهم للأجانب لتوتر العلاقات بينهم ، وتربص الإيقاع بهم ، على أن الأجانب المجاورين لهم لم يكن لهم نفوذ فى دولتهم وسيطرة عليها ، كما أنه لم تكن لهم مدينة معروفة ، وحضارة مشهورة ، كما كان

ذلك فيمن خالط العباسيين من الفرس وغيرهم ، على أن ما ترجم فى الشرق من العلوم والفنون قد نقل إليهم فيما بعد .

ولقد كانت معانى اللغة وتصوراتها خالية من الغموض ، بعيدة من التعمق فى الفكر ، متجافية عن الطرق النظرية ، والتدقيقات الفلسفية ، وإن اختلفت صورها ، وتعددت منازعها ، تبعاً لسعة الحضارة وتنوع مناحيها ، تكثر فيها الطرف اللذيذة ، والتحف المشوقة ، والنكات المضحكة : من أمثال ما ينثره الجاحظ فى أثناء كلامه ، يطلب به تجديد نشاط القارئ . وسرور السامع .

أما خيالها فدقيق التمثيل واضح التصوير ، خلعت عليه الملاحة أثوابها ، وأعارته الرشاقة حليها وملابسها ، دوح حسنه بالبدائع مثمر ، وماء رقته من السلاسة يقطر ، وماذا نقول فى خيال بلادُ الأندلس مصدره . وأهلها هم حاكته .

ولقد تأنق الأندلسيون فى عباراتهم ، فاختاروا لها سهل الألفاظ ، وسلس التراكيب ، وبديع الأساليب . والتزموا فيها السجع الخفيف الروح ، العذب المساغ ، القصير الفواصل .

وفى زمن المرابطين والموحدين ملوك مَرَّاكُشَ يوم أن كانت الدولة تابعة لهم دب فى اللغة دبيب الوهن والضعف ، وسرى فى جسمها سم التأخر والانحطاط . وذهبت نضرتها . وقلت بهجتها . لكثرة الفتن الداخلية والحروب المستمرة . ولأن الرؤساء من البربر قلما تهزهم العبارات الرائقة والأبيات الحكيمة ، فأخذت اللغة تتدهور حتى كاد يقضى عليها لولا أن تداركها الله ببنى هود وبنى الأحمر ، فانتشلوها من وهدتها . وأنعشوها من عثرتها ، وأيقظوها من رقدتها ، واستعادوا لها شيئاً من سالف مجدها . ولكن مدتهم وإن امتدت إلى قرنين ونصف لم تؤثر فى اللغة التأثير المبتغى ، ذلك الفتن فى تلك المدة قد انبثت فى أرجاء البلاد ، وتطلع العدو إلى التغلب عليها ، وعض على ذلك بالنواجذ ، وعقد عليه الخناصر ، وما زال يتحين غفلة أهلها ، ويوقع بأسهم بينهم ، حتى شتت شملهم ، ومزق أحزابهم ، وفرق كلمتهم ، واستولى عليهم ، وأصبحوا أثراً بعد عين .

لغة التخاطب

كانت بلاد الأندلس صدر الفتح الإسلامى مؤلفة من ثلاثة شعوب كبيرة : الشعب الأول العرب ومنهم الأمراء والرؤساء والثانى البربر وأغلبه من الجند الفاتحين ، والثالث سكان البلاد الأسبانيون . فكانت لغة التخاطب فى تلك الجزيرة متنوعة تبعاً لهؤلاء : فاللغة الفصيحة للعرب وخاصة البربر ، والوطنية للأسبان . والبربرية أو العربية غير الفصيحة لعامة البربر .

ثم تحولت الحال بكثرة الفتوح وشدة الاختلاط بالمعاشرة والمصاهرة ، فاستقام لسان البربر واقترب من الفصيح . وأسلم كثير من أهل البلاد وتعلم العربية . وبرع فيها ونثر بها ونظم وألف وعلّم . وتزلف الناس لرؤسائهم ، إذ المغلوب مولع بتقليد الغالب . ففهموا العربية ونبغوا فيها . وكتبوا بها وخطبوا وشعروا ودوّنوا . فانتشرت فى البلاد . وسار ذكرها فى كل واد . حتى احتكرت الحوار فى الشعوب الثلاثة . وكلما اقترب أولئك من اللسان العربى اقترب هو من ألسنتهم . فدخله شىء من التصحيف والتحريف . والزيغ عن سنن الأعراب وتغير المبانى . وإن بقيت أساليبه حافظة لشكلها العربى . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ظاهراً فى لغة العلماء والأدباء . وخاصة الخلفاء والأمراء والمعلمين والمؤلفين . لأنهم أخذوا أنفسهم بمعرفة قواعد اللغة ودرس كتبها . والتفاخر بحفظ عقائلها وجمع شواردها . والتباهى بالاستكثار من النثر والنظم بها . ولأنهم اختاروا حِذْق اللغة شعاراً لهم . يدل على كرم أصلهم وشرف نجارهم . وأنهم سادة البلاد وأشرافها .

بيد أن ذلك لم يدم كثيراً بعد ذهاب بنى أمية وملوك الطوائف : إذ سال سيل العامية المؤلف من الشعوب الثلاثة . فما خص بل عم . وعدا على النثر كما سطا على النظم ، وشمل المتكلمين بالعربية حتى المدرسين والأدباء . فنظموا بها الموشحات والأزجال . ودرسوا بها العلوم والفنون . واتحد فى التخاطب الملوك والسُّوقة ، وكثر سواد المتكلمين بها ، ولم يمنع سيلها الجارف ما كان من بنى هود وبنى

الأحمر وتعصبهم لإحيائها ، والمحافظة على أهلها وإجلاء الأجانب من بلادها .

والأندلسيون مع تأخرهم عن المشارقة فى النظم باللغة العامية قد فاقوهم وأربوا عليهم ، فقد نوعوا أوزان الموشحات وافتنوا فى أساليبها ، وأكثروا من الزجل وأوزانه ، وأحلوهما محل الفصيح ، واستعملوهما فى كل أغراضه . أما المشارقة فإنهم لم يزيدوا على المواليا ولم يكثروا منه ولم يرج لديهم .

هذا وإن الناظر فى أزجال الأندلس وموشحاتها يرى ألفاظاً سهلة وتراكيب رقيقة ، وأخيلة أنيقة ، مما يدل على أن لغتهم العامية كانت راقية نامية .

وأنت ترى أن هذه الأزجال والموشحات لا تكون معياراً مضبوطاً لقياس اللغة العامة للبلاد : ذلك لأن لغة الأدب العامة فى كل صقع وجهة تخالف لغة المحادثة ، والسر فى ذلك أن القائمين بهذا النوع هم المتعلمون وفحول الأدباء والشعراء ، وأمثال هؤلاء يتسرب إلى عاميتهم كثير من اللغة الفصيحة .

وفى وصف حال اللغة يقول أبو على البغدادى صاحب الأمالى :

لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمرّ به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات فى العبارات وقلة الفهم ، بحسب تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هى منازل من العلم محاصة ومقايسة ، فقلت إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت فى أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم ، فسأحتاج إلى ترجمان فى هذه الأوطان ، قال ابن بسام : فبلغنى أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجيب من أهل هذا الأفق الأندلسى فى ذكائهم . ويتفطن عنهم عند المباحثة والمناقشة ، ويقول لهم إن علمى علم رواية وليس علم دراية ، فخذوا عنى ما نقلت ، فلم آل لكم أن صححت هذا ، مع إقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات والأخذ عن الثقات .

وقال أيضاً يصف حال اللغة العامة فى عصره :

والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، مع أن كلامهم الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبين أبى على المشار إليه بعلم النحو فى عصرنا ،

الذى غرّبت تصانيفه وشرّقت ، وهو يقرأ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى فيه على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعًى عندهم فى القراءات والمخاطبات والرسائل .

الخطابة

أهل الأندلس أصحاب بداهة ، وعارضه ونباهة ، وحفظ رواية ، وفكر ودراية . إن نثروا بهروا ، وإن نظموا سحروا ، وإن خطبوا أعجبوا ، وإن كتبوا أطربوا ، يدهشك ارتجالهم ، كما يبهرك إعدادهم ، وقد ساعدهم على الافتنان فى القول وامتلاك أزمة الفصاحة (ولا سيما الخطابة) ما اجتمع لديهم من الأسباب التى ساعدت على نهوضها ، وعملت على رقيها ، واتساع أغراضها ، وازدياد النابغين فيها .

فقد كان الولاة الفاتحون للبلاد من العرب الفصحاء ، البلغاء الأبيناء ، وأكثر جنودهم ممن يؤثر فيهم الكلام الجزل ، والقول الفصل ، وكان خصمهم الألد داخل البلاد ، واقفاً لهم بالمرصاد ، يصاولهم فى كل بلد وواد . فلذلك كانوا أحوج إلى الخطابة من المعصم للكف ، والفارس للسيف . إذ هى المحضاء الذى يلهب نار الحمية فى قلوبهم ، ويذكى جمرة الغيرة فى نفوسهم ، ويبعث فيهم روح الأمل ، ويقطع عنهم غائلة اليأس ، ويحببهم فى بذل المهج ، ويغريهم بنيل الشهادة ، فيستميتون فى الذود عن حياضهم ، والدفاع عن أعراضهم .

وقد كانت عباراتها فى أثناء هذه المدة سهلة التراكيب ، واضحة المعانى قليلة الاستعارات ، تتجافى عن تعمقات الفلاسفة ، وتخيلات الشعراء ، يقل فيها السجع ، ويكثر الترسل ، وتكاد تنحصر أغراضها فى الدفاع عن الدين ، والحض على الجهاد ، والصبر على منازلة الحوادث وملاقاة الكوارث ، ومقارعة الخطوب . ولما حدثت الفتنة آخر مدة الولاة بين المضرية واليمنية كان التناصر للعصبية والتعصب للقبيلة من أكبر وأهم مقاصدها .

وفى دولة بنى أمية وملوك الطوائف كثرت العلوم والفنون . وعنى الناس بدرسها والمناظرة فيها ، وزخرت بحور الحضارة وكثرت مناحيها . وتنوعت ألوانها ، فتعددت أغراض الخطابة تبعاً لتعدد أغراضها وكثرة دواعيها ، حتى قيلت فى كل غرض قيلت فيه فى المشرق ، ولا سيما حين استحكام حلقات النزاع بين أهل البلاد وتفرقهم شيعاً كل يناضل عن كيانه ويدافع عن حياته .

ومما زادها إحكاماً وأهلها إقبالاً : تولى العظماء والأمراء . والمبالغة فى إكرام من يجيدها ، حتى أضافوا القضاء إلى الخطابة . وجعلوا لفظ الخطيب من ألقاب التعظيم والتشريف ، فنبه بذلك شأنها . وكثر مرتجلها . وأغرى الناس بالحفاوة بها ، والعلماء بالنبوغ فيها . ولا غرابة . فمن تنقاد له اللغة الفصيحة فى المحادثة والشعر الرقيق على البداهة ، فهو على ارتجال الخطابة أقدر ، وهى له أطوع . ولا سيما عندما شعر أهل البلاد بالبلاء الذى أحدق بهم والخطر الذى دهمهم . خطر العدو الذى سال سيله الجارف . فلم يقف أمامه قوة ولا حول ، ولا طول ولا صول .

وقد كانت عباراتها فى هذه المدة يغلب عليها السجع الخالى من التكلف ، وتكثر فيها الاستعارات الرقيقة ويوجد فيها كثير من خصائص الكتابة . وكانت ملكتها تامة عند كثير من الأدباء والعلماء والملوك والأمراء . حتى عدت من ألزم أوصافهم وأعظم مناقبهم .

وبعد هذه المدة ضعف شأنها ، وانحط قدرها ، لغلبة العجمة على أهل البلاد ، بل على الملوك والأمراء ، فظهرت فيها الصنعة . وغلب عليها التكلف ، والتزم فيها السجع الممل . وذهبت ملكة الارتجال من أهلها ، فصارت لا تقال إلا بعد تبييت وإعداد . وفى جمعة أو إملاك .

وكثيراً ما كانوا يستعيضونها بالرسومات التى يرسلون بها إلى الناس فى مواقف الخطابة ، كما ترى ذلك واضحاً فى كتابات لسان الدين بن الخطيب .

وإن القارئ فى مؤلفات الأندلس كالقلائد والمعجب والمطمح والنفح والإحاطة يرى كثيراً من الخطباء الذين وصفهم هؤلاء المؤلفون بكل ما ينبغى

أن يوصف به الخطيب البارع : من جودة العبارة ، وشدة تأثيرها ، والقدرة على ارتجالها ، مع ثبات الجأش ، وقوة القلب . ثم إذا بحثت بعد عن خطب لأولئك لم تجد فى هذه الكتب إلا نتفاً يسيرة جاءت منثورة فى أثناء كلامهم ، لا تشفى غلة الباحث ، ولا يمكنك أن تستدل بها تماماً على حال الخطابة . ولعل السر فى هذا أن أولئك المؤلفين أرادوا التفاخر بأهل بلادهم فاختاروا من الكلام ما كان لفظه عذباً رشيقاً ، وخياله بارعاً أنيقاً ، وهذا لا يجتمع على الوجه الذى ينبغى إلا فى الرسائل والشعر . فأكثروا من ذكرهما وبالغوا فى سردهما .

أما الخطب فلما كان الغرض منها أن تصل إلى القلب بدون معاناة فهم ، ولا معالجة بعقل . وكانت لا تقال إلا فى المجامع العامة ، والأندية العظيمة ، ومثل هذه تجمع بين الطبقات المختلفة فى الفصاحة والبلاغة . كان من المحتم على الخطيب أن ينتحى فيها جانب السهولة . ويترك طريق التعمل والتأنق ، حتى يملك أسماع الحاضرين ويستولى على نفوسهم . وبدهى أن الخطابة الارتجالية إلى السهولة أقرب . وعن الصنعة أبعد . أو أنهم رأوا أن الخطابة قد جمع كثير منها فى دواوين خاصة ، وأشهر أمرها بين الناس ، فاستغنوا بجمعها عن ذكرها فى كتبهم .

أو أن هؤلاء الخطباء كانوا شعراء وكتاباً أيضاً كما ترى ذلك فى تراجمهم ، فاختار المترجمون أن يثبتوا لهم من الشعر والرسائل ما يكون مقاساً لنبوغهم ، ومعياراً لرقيهم . ويتركوا الخطب .

أما عدم وصول شىء منها إلينا ، فلعل سببه إبادة تلك الدواوين فيما أباده الأسبان وأحرقوه من كتب العلم والدين والأدب ، أيام إغارتهم على المسلمين ، تلك الإغارة التى كانت نتيجتها مهاجرة أهل البلاد وامّحاء سلطانهم منها .

على أن ندرة الخطب لا تصلح دليلاً لفقد الخطابة أو ضعفها ، فهذا قس بن ساعدة الإيادى خطيب العرب بلا مدافع ، لم نجد له إلا خطبة واحدة كان الرسول الأمين هو السبب فى بقائها ، وهذا سحبان بن وائل الذى خطب مرتجلاً من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنح

ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ وهو الذى قال له معاوية : أنت أخطب العرب ، فلم يقبل ، وقال : والعجم والجن والإنس ، لم نجد له إلا بعض سطور ينازعه فيها بعض الأعراب .

الكتابة فى الأندلس

كان لأهل الأندلس عناية تامة باقتفاء آثار أهل المشرق ، فقد حاكوهم فى كثير من شئونهم الخاصة والعامة ، فتشبهوا بهم فى مدائنهم وعمائرهم وقصورهم ومنتزهاتهم ، حتى استعاروا لها أسماءها . وقلدوهم فى دواوينهم ونظامهم ورسومهم وكتب علومهم ، وكانوا فى عملهم هذا تارة يلحقون ، وأخرى يتخلفون ، وآونة يسبقون ، وعلى هذه الحال كانت كتابتهم .

فى مدة الولاة وصدر بنى أمية كانت كحالها فى الدولة المروانية : الأمير هو الممل ، وليس للكاتب إلا أن يخط بيده ، وكانت خالية من الزخرف ، جزلة الألفاظ متينة التراكيب ، بدوية الأساليب . موجزة العبارات ، واضحة المعانى ، وكانت أغراضها محدودة ، إذ لم يزخر بعد بحر الحضارة ولم يتسع مداها .

وفى مدة زهو الأموية وملوك الطوائف تناولت أغراضها كل أغراض أهل المشرق بل زادت عليها ، فقد كتبوا فى التنصل والاعتذار ، والعتاب والافتخار ، والمدح والذم ، والشوق والوصف (وهو عماد كلامهم) والجد والهزل ، والتهانى والتهادى ، والرثاء والاقتضاء ، والمناظرة والمنافرة ، والاستزارة والشكوى ، والوصية والعناية ، وفى العقود والعهود ، إلى غير ذلك مما تراه منثوراً فى كتبهم .

أما العبارة الأندلسية فقل فيها ما شئت ، من ألفاظ قاسمت الصباح تنفسه ، والسحر نفثه ، والشمس ضوءها ، والنجوم تلألؤها ، ومن معان تكاد تظهر من المبانى ، وتتحلى بها لبات الغوانى ، ومن أساليب اكتسبت رقة الماء ، ولطف الهواء ، وقد وشحت بتشبيهات كالنسيم غبّ المطر وتنفس الأنوار وقت السَّحَر والنرجس الغض والورد الندىّ ، والأقحوان المنور ، وتحلت باستعارات تستعير منها الأنهار عذوبتها ، والطيور سجعها ، والعذارى حليها والرياض نوْرها ، ولن تجد لهم رسالة تخلو من الاستعارات والتشبيهات ، وأكثر ما يكون

ذلك بالسماء ونجومها ، والجداول ومائها ، والطيور وهديلها ، والسحب وأشكالها والرياض ونضرتها ، والخمر وندمانها ، يدمجون ذلك فى أثناء كلامهم ، بل يستطردون إليه استطراداً . بعثهم عليه حال بلادهم ، ورقة هوائهم ، وصفاء أجوائهم ووفرة محفوظهم .

وقد اختاروا السجع القصير الفواصل . لرنته فى السمع . وتأثيره فى الطبع . ولما فيه من النظام وجودة التقسيم . وتغالوا فيه حتى أربوا على المشارقة ، فلا ترى لهم رسالة إلا والسجع قد عمها ، وانبث فى كل فصولها . بل ولعوا به ، فألفوا به الكتب . ودونوا التواريخ . ولم يتزل لهم فيه قلم . ولا كبا لهم جواد ، بل أتوا به فى ذلك كله أرق من النسيم . وأشرق من المحيا الوسيم . وألصق بالنفس . وأطبع فى القلب . وأملك للسمع .

ولما فى بلادهم من حسن التنسيق . وجمال المناظر . غلب عليهم الخيال الشعرى . فظهر جلياً فى رسائلهم . فإذا ما قرأت رسالة خلت أنك بين غصن آس . وظبى كناس . أو روضة قد أينعت ثمارها . ودوحة قد تهدلت أغصانها ، أو سماء تحلبت أشداقها . وأودية سال سيلها . أو أنك تسمع خرير ماء ، وتصفيق هواء . أو تغريد بلابل . وترجيع عنادل .

ولقد كتبوا على هذه الطريقة الرسائل الضافية فى الجد والهزل ، والكتب السابغة فى الموضوعات الخيالية . كما كان شأنهم فى المناظرة والمفاخرة ، بين حيوان وحيوان . وبلد وبلد . وأداة وأداة ، وأول مناظرة بين السيف والقلم كان مطلع شمسها من المغرب لا من المشرق .

وقد عنوا بشحن أذهانهم بالأبيات العذبة . والحكم الرائعة ، والأمثال السائرة ، والتشابيه العقم . فإذا ما كتبوا استعادوا من السيل تدفقه ، ومن البحر انحداره ، فسالت قرائحهم ، فأطالوا وأطنبوا ، وأكثروا من حل الأبيات وسردها ، وبثوا الأمثال ، ونشروا التشابيه . ولجوا إلى الوقائع والقصص ، حتى كان الإطناب من أخص أوصافهم ، ومن أدل الأشياء على كتابتهم ، والإسهاب الغالب عليهم فى التشبيهات والاستعارات والاستطرادات فى الأوصاف

لا فى المقدمات . والموجز من رسائل الأندلس قليل نادر .

١ — ولقد منحوا أنفسهم الحرية فى اختيار المبدأ والختام ، ولم يلتزموا شيئاً من ذلك فيما يكتبونه للعلماء والأمراء ، والسلاطين والخلفاء ، والقضاة والخطباء . وفى العقود والعهود . والكتب العامة والخاصة ، والإخوانية والسلطانية .

٢ — ولم يعبثوا بالتورية وأقسامها ، والجناس وأنواعه ، والاستخدام وطرقه . بل تركوا ذلك يأتى فى كلامهم عفواً بلا قصد . وقد استعمل بعضهم نوعاً منه ورّى فيه بمصطلحات العلوم . وأسماء السور وعظماء الرجال والشعراء ، فغث كلامه وسمجت عبارته .

٣ — ولم يهتم الأندلسيون فى رسائلهم بما كان يهتم به أدباء المشرق من الحفل بالألقاب وأنواع الدعاء . وتحديدهم لكل ذى مرتبة لقباً خاصًّا ، ودعاء كذلك . بل لقبوا بما شاءوا . ودعوا بما جادت به خواطرهم .

وكان من عاداتهم فى السلطانيات والإخوانيات أن يستعملوا خطاب المواجهة فيقولون لك وعليك . ومنك وإليك .

ثم أخذت الكتابة بعد هذه المدة يتقلص ظلها . ويذهب رواؤها . ويظهر فيها التكلف . وتمحى خصائصها شيئاً فشيئاً . فذهب منها الاستكثار من التشبيه البديع . والاستعارات الفائقة . وقلت السلاسة النادرة . والسجع القصير الفواصل . وصدر بعض الرسائل السلطانية بالألقاب الخاصة والرسوم المحدودة ، وبقى فيها السجع الطويل الفقرات والإطناب الممل . ومن الأغراض التى ظهر فيها الإطناب واضحاً رسائل الشكوى والاستشفاع برسول الله صلى الله عليه وسلم والأولياء والصالحين وأولى السطوة من السلاطين . كما كان ذلك فى رسائل لسان الدين ابن الخطيب ، التى كان يرسلها مع الحجاج لتقرأ عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستغيث فيها مما حل بأهل الأندلس من علو الدين المتغلب على المسلمين ، يستمطر بها الرحمة ويرجو المعونة ، وذهب خطاب المواجهة ، وحل معه الخطاب مع ميم الجمع . ومع هذا كله بقيت الكتابة وفيها آثار الجمال والرونق ، حتى استولى العدو على البلاد ، وانتقل كثير من أهلها إلى بلاد المغرب ، فكان منهم الكتاب المشهورون والشعراء المتقدمون .

نماذج الكتابة الأندلسية

كتب بدر مولى عبد الرحمن الداخل له وقد هجره لدالّته عليه :

« أما كان جزائى فى قطع البحر ، وجَوْب القفْر ، والإقدام على تشتيت نظام مملكة ، وإقامة أخرى ، غير الهجر الذى أهاننى فى عيون أكفائى ، وأشمتَ بى أعدائى . وأضعف أمرى ونهيى ، عند من يلوذ بى ، وبتر مطامع من كان يكرمنى ويَحْفِدُنى على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا بنى العباس لو حصلتُ بأيديهم ما بلغوا بى أكثر من هذا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وكتب الوزير الكاتب أبو المطرّف بن الدباغ فصلاً من تعزية :

« من أىّ الثنايا طلعت النوائب ، وأى حِمىً رتعت فيه المصائب ، فواهاً لحشاشة الفضل أرصدَها الرّدى غوائله ، وبقية الكرم جر عليها الدهر كَلاَ كلَه . ويا حسرتا للجنّة المواهب كيف سُجِّرت ، ولشمس المعالى كيف كُوِّرَت . ويا لهفى على هَضْبة العلم كيف زلزلت ، وحدّة الذكاء والفهم كيف فُلّلت . فإنا لله . أخذاً بوصاياه ، وتسليماً لقضاياه » .

وكتب على التطيلى إلى ابن عبد الصمد السرقسطى يستدعيه إلى مجلس أنس :

« أنا — أطال الله بقاء الكاتب سراج العلم ، وشهاب الفضل — فى مجلس عبقَت تُفاحه ، وضحكت راحه ، وخفقَت حولنا للطرب ألوية ، وسالت بيننا للهو أوْدية . وحضرتْنا مُقلة تسأل منك إنسانَها ، وصحيفة فكن عنوانَها ، فإن رأيت أن تجعل إلينا القصْد لنحُل بك فى جنة الخلد ، صَقَلْتَ نفوساً أصداها بعدك ، وأبرزتَ شمساً أدْجاها فقدك » .

وكتب أديب الأندلس أبو بحر صفوان يخاطب الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على ، برسالة طويلة ، أتى فيها على مناظرة بين بلاد الأندلس ، وأيها أحق أن تكون مقر الأمير .

فما جاء على لسان حمص : « أنا مصر الأندلس ، والنيل نَهرى ، وسمائى التأنس والنجوم زَهرى ، إن تجارَ يتم فى الشرف ، فحسبى أن أفيض فى

ذلك الشرف، وإن تبجّحتم بأشرف اللَّبوس، فأىّ إزار اشتملتموه كشَتَنْبوس، إلى ما شئت من أبنية رحاب، وروض يستغنى بنضرته عن السحاب، قد ملأت زهراتى وهاداً ونجاداً، وتوشح سيف نهرى بحدائق نجاداً، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق، الآن حصحص الحق ».

وقال أحمد بن عبد ربه فى فرش كتاب الخطب من العقد الفريد :

« قد مضى قولنا فى الأجوبة. وتباين الناس فيها بقدر عقولهم، ومبلغ فِطَنهم. وحضور أذهانهم. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقهم فى الخطب، التى يُتخير لها الكلام. وتفاخرت بها العرب فى مشاهدهم. ونطقت بها الأئمة على منابرهم. وشهرت بها فى مواسمهم. وقامت بها على رؤوس خلفائهم، وتباهت بها فى أعيادهم ومساجدهم. ووصلتها بصلواتهم. وخوطب بها العامة، واستُجزلت لها الألفاظ، وتُخُيِّرَتْ لها المعانى ».

الشعر فى الأندلس وأسباب نهضته

كان الشعر مدة الولاة وصدراً من بنى أمية يشابه كثيراً حاله فى الدولة المروانية : عبارة جزلة. ومعان واضحة. وأساليب بدوية. وخياله فيه شىء من رونق الحضارة. ومن أهم أغراضه التشوق إلى الأوطان. والحث على الجهاد، وفتح البلاد. والدعوة إلى العصبية.

وفى مدة زهو الأمويين وملوك الطوائف. رقت ديباجة الشعر. وسحر خياله. وتألق ضوءه. وتفجرت أنهاره. ونضجت ثماره. وسلسلت تراكيبه، وتنوعت أساليبه. تنوع ألوان الأزهار فى مختلف الأشجار. وتعددت فنونه وأغراضه. وكان الوصف واسطة قلادتها. وغرة جبينها. وولع بها الخلفاء والأمراء. والفقهاء والوزراء. والصناع والتجار. والعالم والعامى، والعربى والعجمى. والإماء والحرائر. والشيب والشبان. حتى صار ملهج لسانهم، ومربع أنسهم. ومرتع لهوهم. ومنبع بدائعهم. ومصدر روائعهم. ومثير دفائنهم. ذلك لأن القوم من أصل عرنى. فقد فطروا على الشعر وأولعوا به،

يهزهم منه ما دق نظامه، وصقلت أطرافه، ودبجت حواشيه ورق خياله، وأمدتهم بلادهم بما وسع مدى الخيال أمامهم وأورثهم التفنن فيه : من سماء صافية الأديم، ساطعة الكواكب، ضاحية الشمس، ومن رياض وجنان، وغوان حسان، وولائد وقيان . وأرض خضراء، وأودية فيحاء، وأنهار متدفقة، وبحار زاخرة، وسفن ماخرة، وجبال شامخة، وقصور باذخة، ونعيم وزخرف، وحضارة وترف، واتساع ملك، وضخامة سلطان، وجاه واسع، وعز سابغ، ورقة ومجون، وخلاعة وهزل، وخمر وندمان، وبهجة ذات ألوان — وضاعف حب الشعر فى نفوسهم ما كان من حفل الملوك به والأمراء، والسادة والعظماء، ونظمهم قلائده. وحفظهم شوارده، وأخذهم أولادهم به، وحثهم على التمسك بأهدابه . والاعتصام بعراه . وإغداقهم على أهله العطايا الجزيلة . والهبات الوافرة . حتى كثر المتكسبون به . ورفه حالهم . وانقطعوا إلى الملوك والخلفاء، والقواد والأمراء . ومن أهم الأسباب التى ساعدت على نهوض الشعر وكثرة الشعراء تقليد الملوك لكثير من مجيديه (وإن انحطت بيوتهم) المناصب العالية، والدرجات الرفيعة . حتى اتخذوهم بطانة وندماء . وأنصاراً ووزراء . وحتى أسلموا إليهم قياد أمورهم، ووكلوا إليهم مهام شئونهم . فاستسفروهم إلى الأعداء بل استنابوهم فى جميع الأشياء . أضف إلى ذلك شدة شغفهم بمحاكاة أهل الشرق . فى استكثارهم من الشعراء والمغنين . وإجزال الصلات لهم . والمسامرة معهم . ونظمهم للشعر . وتمكنهم من نقده، فقد حاولوا أن يحاكوهم فى ذلك كله . حتى اتخذ بعضهم داراً لإنشاء الشعر خاصة . يحضرها الملك ويؤمها الشعراء يوم الاثنين من كل أسبوع . لينشدوا ما جادت به قرائحهم، وليكون التنافس أداة لتحريك عقولهم، وإذكاء نار الاختراع فى نفوسهم، فينمو عديدهم . ويكثر مجيدهم . وكثيراً ما كانت الملوك تتنافس فى اصطفاء الوزراء المفلقين فى الشعر . البارعين فى الكتابة، حتى بلغ بهم هذا التنافس إلى أن دسوا الدسائس للإفساد بين بعض النابغين وملوكهم . ليظفروا بهم . فيحوزوا قصب السبق.

ثم أخذ حال الشعر يتغير . وظله يتقلص، ولا سيما فى دولة المرابطين

والموحدين ، وإن كان فيهم من الملوك من يفهم الشعر ويثيب عليه .

وفى مدة بنى الأحمر أورقت أغصانه وأثمرت ، ولكن ثمرتها لم تنضج لكثرة الفتن الداخلية ، وتغلب العدو على البلاد وانقراض أهلها .

وإليك كلمة موجزة فى أغراض الشعر وفنونه ، ولفظه وأسلوبه ، ومعانيه وأخيلته ، وأوزانه وقافيته ، مدة زهو الأندلس :

(أغراضه) : لم تخرج أغراض الشعر الأندلسى عما كانت عليه فى المشرق ، وإن تنوعت بعض التنوع تبعاً لما اقتضاه الحال .

ذلك لأن علم أهل الأندلس وأدبهم ومدنيتهم وصلت إليهم من المشرق ، إما بنقلهم لها بالتعلم فيه . وإما لانتشارها فيهم بانتشار الوافدين منه . وإما باقتباسهم لها من كتبه التى كانوا يبذلون النفيس فى اقتنائها . فقد نقل إليهم فيما نقل جل دواوين الشعراء . وهى مفعمة بأغراض الشعر المتعددة : من نحو فخر وحماسة . ومدح وهجاء . وتهنئة ورثاء . ووصف خمر وندمان ، ونساء وغلمان . ورياض وجنان . وعبث ومجون . وتصوف وزهد . وحكمة وفلسفة ، فحاكوهم فى ذلك كله . فكانوا فى بعضها لا يشق لهم غبار . وظفروا من بعضها الآخر : بما ظفر به الفرزدق من نوار . وغلب عليهم الوصف بأنواعه ، ورثاء الممالك الزائلة . والمدن والبلدان . والاستغاثة والاستنجاد بالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام وكبار الصالحين . وأولى القوة من السلاطين . ونظم العلوم والفنون . والهزل والمجون . والسر فى نبوغهم فى الوصف أن حسن مناظر بلادهم . وكثرة انتشار الجمال بأرضهم . وتوافر أسباب الخلاعة واللهو لديهم ، أغراهم بجودته والتوسع فيه . والاهتمام بأمره . حتى أحلوه محل النسيب ، وصدروا به القصائد الضافية .

والمطلع على شعرهم يرى أنهم قد وصفوا الرياض وأشكالها . والأشجار وأقسامها . والأزهار على اختلاف ألوانها . والثمار على تعدد ضروبها . والطيور وأسرابها . والأنهار ومدها . والبحار وأمواجها . والبرك وماءها . والخضر وأنواعها ، إلى غير ذلك من المناظر الطبيعية .

ووصفوا أيضاً السحب وتراكمها ، والرعود وأصواتها ، والبروق ولمعها ، وقوس قزح وألوانها ، والأمطار وماءها وبردها ، والسماء ونجومها ، والشمس وشروقها وغروبها ، والشفق وألوانه . وغير ذلك من الحوادث الجوية .

وتفننوا فى وصف الأساطيل البحرية والجيوش البرية ، والمعارك الدموية ، وكل ما يختص بالحرب ونشوبها ، لكثرتها فى بلادهم أول أمرهم وآخر مصيرهم ، وبالغوا فى وصف الحضارة ونعيمها ، فوصفوا القصور الفخمة ، والمصانع الضخمة ، والتماثيل الجميلة ، وفوارات المياه ، إلى غير ذلك من جليل ودقيق ، وحسن وقبيح ، وحسى وعقلى ، وصفاً يشهد ببراعتهم ، ويدل على تمام ذوقهم ، وكمال استعدادهم ، وكان وصفهم واضحاً مفصلاً ، مرتباً منسقاً ، وعنواناً على مدنيتهم ، ومعياراً لحضارتهم ، ورسماً جلياً لآثار نعيمهم .

أما رثاء الممالك والبلدان والمدن فذلك لكثرة ما كان يختطفه العدو منها ، وهم بها بين ريحان وراح ، وأنس وأفراح ، فيصبحون وقد عمهم الشقاء ، وحالفتهم البأساء ، فيندبون أوقاتهم السالفة ، وأيامهم الذاهبة ، ودولهم الزائلة . ومن أشهر قصائدهم فى ذلك قصيدة ابن عبدون يرثى دولة بنى الأفطس التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

وقصيدة صالح الرندى التى يرثى بها الأندلس ومطلعها :

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

وأما الاستنجاد والاستشفاع فذلك لما حل بالبلاد من الضعف ، وظهر فيها من تغلب العدو القاسى الذى لا يرحم الصغير ، ولا يوقر الكبير ، ولا يبالى الغنى ولا الفقير ، فضجوا بالشكوى إلى من يعينهم على عدوهم ، ويدفع غائلته عنهم . ومن أشهر قصائدهم فى ذلك قصيدة الوقشى البَلَنْسِى ، يستنجد فيها بأحد ملوك الموحدين ومطلعها :

أبت غير ماء بالنخيل ورودا ... وهامت به عذب الجمام برودا

وقصيدة لسان الدين بن الخطيب التى يخاطب بها ملك المغرب من بنى مرين وأولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

ووصفوا أيضاً السحب وتراكمها ، والرعود وأصواتها ، والبروق ولمعها ، وقوس قزح وألوانها ، والأمطار وماءها وبردها ، والسماء ونجومها ، والشمس وشروقها وغروبها ، والشفق وألوانه . وغير ذلك من الحوادث الجوية .

وتفننوا فى وصف الأساطيل البحرية والجيوش البرية ، والمعارك الدموية ، وكل ما يختص بالحرب ونشوبها ، لكثرتها فى بلادهم أول أمرهم وآخر مصيرهم ، وبالغوا فى وصف الحضارة ونعيمها ، فوصفوا القصور الفخمة ، والمصانع الضخمة ، والتماثيل الجميلة ، وفوارات المياه ، إلى غير ذلك من جليل ودقيق ، وحسن وقبيح ، وحسى وعقلى ، وصفاً يشهد ببراعتهم ، ويدل على تمام ذوقهم ، وكمال استعدادهم ، وكان وصفهم واضحاً مفصلاً ، مرتباً منسقاً ، وعنواناً على مدنيتهم ، ومعياراً لحضارتهم ، ورسماً جليًّا لآثار نعيمهم .

أما رثاء الممالك والبلدان والمدن فذلك لكثرة ما كان يختطفه العدو منها ، وهم بها بين ريحان وراح ، وأنس وأفراح ، فيصبحون وقد عمهم الشقاء ، وحالفتهم البأساء ، فيندبون أوقاتهم السالفة ، وأيامهم الذاهبة ، ودولهم الزائلة . ومن أشهر قصائدهم فى ذلك قصيدة ابن عبدون يرثى دولة بنى الأفطس التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وقصيدة صالح الرندى التى يرثى بها الأندلس ومطلعها :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وأما الاستنجاد والاستشفاع فذلك لما حل بالبلاد من الضعف ، وظهر فيها من تغلب العدو القاسى الذى لا يرحم الصغير ، ولا يوقر الكبير ، ولا يبالى الغنى ولا الفقير ، فضجوا بالشكوى إلى من يعينهم على عدوهم ، ويدفع غائلته عنهم . ومن أشهر قصائدهم فى ذلك قصيدة الوقشى البَلَنْسِي ، يستنجد فيها بأحد ملوك الموحدين ومطلعها :

أبت غير ماء بالنخيل ورودا وهامت به عذب الجمام برودا

وقصيدة لسان الدين بن الخطيب التى يخاطب بها ملك المغرب من بنى مرين وأولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقصيدته التى أرسلها إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومطلعها :

إذا فاتنى ظل الحمى ونعيمه   فحسب فؤادى أن يهب نسيمه

وأما نظمهم العلوم والفنون ، فلأن القوم لكثرة ممارستهم للشعر سهل عليهم تعليقه ، فنظموا العلوم ليسهل عليهم حفظها ، وليكون أثراً باقياً بعدهم ومزية لبلادهم ، فنظموا كثيراً من العلوم ، كالنحو ورسم الحروف والقراءات والفقه والتاريخ ، إلى غير ذلك .

ومن أول هذه المنظومات أرجوزتان فى العروض والتاريخ لابن عبد ربه ، ومنها ألفية ابن مالك ، واللامية والرائية للشاطبى فى القراءات ورسم المصحف .

ومما لم يخضع لهم من الأغراض أبيه ، ولا أنس لقائدهم نافره ، الشعر المشتمل على الحكم البارعة ، التى سارت مسير الأمثال ، كشعر المتنبى وأبى تمام وصالح بن عبد القدوس ، أو على الأغراض الفلسفية كشعر أبى العلاء المعرى ، أو على الوعظ والتزهيد كشعر أبى العتاهية . وسبب هذا واضح : لأن الأول والثانى يحتاجان إلى علوم الفلسفة ، وهم لم يحفلوا بها مدة زهوهم ، ولا أعاروها التفاتهم ، ولما يحتاج إليه نظم هذا النوع من كد الفكر ، وهم يحبون من الشعر ما يأتى عفواً وسهلاً .

أما الزهد والتصوف فلأن بلادهم بلاد أنس وسرور ، وعجب وخيلاء ، لا بلاد تصوف وزهد .

وقد عنى بعض علمائهم بالتصوف والزهد والحكم ، ونثروا فيها ونظموا ، وذلك مثل محيى الدين بن العربى وأبى عثمان التجيبى ولسان الدين بن الخطيب .

(لفظه وأسلوبه) كانت ألفاظ الشعر فى الأندلس عذبة رقيقة ، وأساليبه طلية رشيقة ، ولا سيما ما كان منها فى الغزل والشكوى من الدهر وصروفه ، تقرأ القصيدة الضافية مدة زهو الأندلس ، فلا تحتاج إلى معجم لشرح كلمة ، كما أنك لا تكد فكرك لفهم تركيب ، بل تقرأ الألفاظ فتأتيك معانيها أرسالاً ، وإذا تتبعت كثيراً من قصائدهم رأيت أساليبها توصل المعانى إلى الآذان بدون استئذان ، وتعلق بالقلب بدون الكد ، يمقتون ازدحام المعانى وحشدها ،

وتحميل الألفاظ منها فوق طاقتها ، كما يمقتون الاستكثار من البديع حتى لا تضيع المعانى فى خلاله ، أما استعاراتهم وتشبيهاتهم فلا يضارعهم فيها مضارع ، ولا يشاكلهم فيها أحد .

معانيه وأخيلته

(معانيه وأخيلته) كانت معانى الشعر واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء ، وذلك لقلة المشتغلين منهم بذلك ، ولأن أكثرهم يميل إلى عدم الصنعة والتكلف ، حتى كثر فيهم المرتجفون للشعر الحسن . وقد ألم ابن ظافر فى كتابه بدائع البداثه بشىء من ذلك .

وكانوا كثيراً ما يلمحون إلى الحوادث الجلَّى ، والوقائع الكبرى . ولا سيما ندب الممالك الزائلة والبلاد الساقطة فى يد العدو .

وكان الخيال هو الغالب على معانيهم . لما علمت من ولوعهم بالوصف لاستكمال أسبابه : من أمور طبيعية . وحوادث جوية . واتساع نعيم وزخرف . على أنه هو مادة الشعر ، بل هو الشعر كله .

أوزانه وقافيته

(أوزانه وقافيته) لم يجمد الأندلسيون على ما ورثوه من أوزان الشعر العربى والمواليا بأنواعها . بل زادوا عليها وتفننوا فيها أيما تفنن . واخترعوا ما يسمى بالموشحات والأزجال .

نماذج للشعر الأندلسى

الوصف :

قال صاعد مرتجلاً يصف وردة لما يستتم فتح ورقها . وكانت أهديت للمنصور أبى عامر :

أتتك أبا عامر وردة ... يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر ... فغطت بأكمامها رأسها

ولابن سفر يصف المد والجزر فى نهر أشبيلية :

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطبه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزءاً فضم من الحياء إزاره

ولأندلسى فى وصف الديك :

إذا صاح أصغى سمعه لأذانه ... وبادر ضرباً من قوادمه الإبْطا
كأنَّ أنو شروان أعلاه تاجه ... وناطت عليه كف مارية القُرطا

وقال صالح الرّندى فى مقص :

ومصطحبين ما اتّهما بعشق ... وإن وُصفا بضم واعتناق
لعمر أبيك ما اجتمعا لشىء ... سوى معنى القطيعة والفراق

وقالت حمدة بنت زياد الوادى آشية :

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

الغزل : لأبى عبد الله محمد البَطَلْيَوْسِي :

غصبوا الصباح فقسموه خدودا ... واستنبهوا قُضُب الأراك قدودا
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم ... فتقلدوا شهب النجوم عقودا
واستودعوا حدق المها أجفانهم ... فسبَوْا بهن ضراغماً وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنَّة والظبى ... حتّى استعانوا أعيناً ونهودا
صاغوا الثغور من الأقاحى بينها ... ماء الحياة لو اغتدى موردا

وقال أحمد بن عبد ربه :

يا لؤلؤاً يسبى العقول أنيقـــاً ... ورشاً بتقطيع القلوب رفيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... درًّا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهـــه ... أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ... ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

المجون : لابن غرقلة :

لنا طبيب شاعر أعور ... أراحنا من طبه الله
ماعاد فى صبحة يوم فتى ... إلا وفى باقيه رثّاه

ولبعضهم وقد أهدى طاقية :

خذها إليك هدية ... ممن يعز على أناسك
اخترتها لك عندما ... أضحت هدية كل ناسك
أرسلتها طاقية ... لتنوب فى تقبيل راسك

الزهد : ولابن مفوز :

أعن أخاك فى الذى ... يأمله ويرتجيه
فالله فى عون الفتى ... ما كان فى عون أخيه

ولأبى بكر بن الجزار :

إياك من زلل اللسان فإنما ... عقل الفتى فى لفظه المسموع
والمرء يختبر الإناء بنقره ... ليرى الصحيح به من المصدوع

الرثاء : قال أحمد بن عبد ربه يرثى ولده :

بليت عظامك والأسى يتجدد ... والصبر ينفد والبكا لا ينفد
يا غائباً لا يرتجى لغيابه ... ولقائه — دون القيامة — موعد
ما كان أحسن ملْحَداً ضَمِنْتَه ... لو كان ضم أباك ذاك الملحد
باليأس أسلو عنك لا بتجلد ... هيهات أين من الحزين تجلد

ولأبى بحر بن عبد الصمد يرثى المعتمد بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخرّ على تربه ولثمه .

ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عوادى
لما خلت عنك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً ... وتخذت قبرك موضع الإنشاد

السنة الخامسة

إجمال لحياة الآداب فى مصر أيام الدولة الفاطمية والأيوبية

الدولة الفاطمية[1]

٣٥٨ - ٥٦٧

تنسب الدولة الفاطمية إلى عبيد الله المهدى ، الذى ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، من فاطمة الزهراء . وكان عبيد الله قد هرب من العباسيين إلى المغرب فأقام بها دولة . ولما عظمت شوكة خلفائها اتجهت أنظارهم إلى مصر ، فافتتحها مولاهم جوهر الصقلى ، ومهد لهم بها ملكاً اتسعت رقعته ، حتى شمل حكمهم بلاد المغرب إلى البحر الأخضر والشام وبلاد الحجاز واليمن ، وحتى دخلت بغداد فى حوزتهم . وخطب بها لبعض خلفائهم . وقد زادت موارد مصر فى أيامهم وكثر الرخاء بها . وعمت المسرات أهلها . واشتهر خلفاؤهم بالسخاء والبذل . فى كل ما من شأنه تفخيم أمر الدولة . وإظهار أبهتها : ؛ وقد تمثل ذلك فى الجود الذى كانوا يغدقونه على الشعراء والعلماء وعامة الشعب . فى المواسم والأعياد التى كانوا يقيمونها . وإنك لتكاد تشعر من كثرتها أن العام كله ينقضى بين اللهو والطرب . وتوزيع الهبات ومد الموائد للناس ، غنييهم وفقيرهم .

وقد كان لهذا الجود والترفيه عن الناس أثرهما . فقد صارت مصر دوحة تغرد فيها بلابل الشعراء ، مسبحة بمحامد هؤلاء الخلفاء . كما رحل إليها العلماء من كل مكان ، فبثوا علومهم . ونشروا تآليفهم . وصارت مصر موئل طلاب العلم . يقصدونها من الأندلس . والمغرب . والمشرق . بل من بغداد نفسها .

ومن مآثر هذه الدولة فى العلم - بعد بنائهم الأزهر - اهتمام خلفائها باقتناء الكتب . وأول من اتخذ المكاتب منهم العزيز بالله ؛ وقد كان بخزانة كتبه نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين للخيل . منها نسخة بخط المؤلف ،

(١) راجع ص ٢٧٦ فهناك خلفاء الدولة الفاطمية .

وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى اشتّروا نسختها بمائة دينار ، وكان بها ثلاثة آلاف وأربعمائة مصحف بخطوط منسوبة محلاة بالذهب .

وما زال الخلفاء يتبارون فى العناية بأمر الكتب ، حتى كانت عند انتهاء دولتهم ألفى ألف مجلد . والحاكم بأمر الله أول من سن إنشاء دور الكتب العامة ، فإنه أنشأ داراً عامة للناس ، وجعل عليها قوّاماً وخداماً ، ووقف عليها أوقافاً ، وكان الناس يجتمعون فيها للبحث والمناقشة . وانتساخ ما يريدون من كتبها .

الشعر فى عهد الفاطميين

الشعر فى عهد الفاطميين : لا شك أن كثرة الشعراء دليل على قيام دولة الشعر ونفاق سوقه ، فإن الشعراء لا يكثرون إلا حين يكثر الجود عليهم . ويعظم من ولاة الأمر الاهتمام بشأنهم ، والتاريخ يحدثنا عن كثرة الشعراء فى هذه الدولة حديثاً عجيباً . فقد ذكروا أن يعقوب بن كلّس لما توفى وقف على قبره مائة شاعر . رثوْه وأجيزوا جميعاً . كذلك ذكروا أن الشعراء كانوا قد أمروا مدة الخليفة الحافظ لدين الله أن يختصروا ما ينشدون أمام الخليفة . فقال أحمد بن مفرج :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً   لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

والله لا بد أن تجرى سوابقنا   حتى يبين لنا من مدحك الأثر

فأمروا بالعودة إلى ما كانوا عليه .

وقد كان للصالح بن رزيك شعراء اختصوا به وبآل بيته . حتى عقد لهم صاحب خريدة الدهر باباً خاصاً . وكذلك فعل غيره من المؤلفين . وقد ذكر المقريزى فى كلامه على المنظرة التى كانت تطل على بركة الحبش . التى أنشأها الآمر بدين الله ما يمثل لنا صورة من عناية هؤلاء الخلفاء بأمر الشعراء قال :

فى هذه المنظرة طاقات وعليها صور الشعراء . كل شاعر واسمه وبلده . وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المدح . وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب . فإذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً . وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده . . .

ومن شعراء هذه الدولة : أبو على تميم بن معد المتوفى سنة ٣٦١ هـ . والرشيد ابن الزبير المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . والجليس بن الحباب (٥٦١ هـ) . وابن قلاقس الإسكندرى المتوفى سنة ٥٦٧ هـ . وأبو الصلت أمية . وظافر الحداد المتوفيان سنة ٥٢٩ هـ . ومحمد بن قادوس المتوفى سنة ٥٥١ هـ . وكثير غيرهم :

أمثلة من شعرهم :

قال تميم بن المعتمر يذكر نيل مصر :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى   والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيم كصبغ الدجا   أضحك على وجه الأرض لما بكا
وانظر لماء النيل فى مده   كأنه صُندل أو مُسكا

وقال تميم بن معد يشكو حرمانه من الخلافة :

أما والذى لا يملك الأمر غيره   ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً   لإعلانها عندى أشد وآلم
وبى كل ما تشكو العيون أقله   وإن كنت منه دائماً أتبسم

وقال أبو الصلت أمية يهون على نفسه أمر الرحلة وفراق الوطن :

إذا كان أصلى من تراب فكلها   بلادى وكل العالمين أقاربى
ولا بد لى أن أسأل العيش حاجة   تشق على شم الذرا والغوارب

وقال الرشيد بن الزبير فى رجال لم يحمد خلقه :

لئن خاب ظنى فى رجائك بعدما   ظننت بأنى قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتنى كل منة   ملكت بها شكرى لدى كل موقف
لأنك قد حذرتنى كل صاحب   وأعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى

وقال ابن قلاقس فى جارية سوداء . وهو معنى غريب :

رب سوداء وهى بيضاء معنى   نافس المسك عندها الكافور
مثل حب العيون يحسبه النا   س سواداً وإنما هو نور

وكانت أغراض الشعر عندهم كما كانت فى بغداد نفسها . وكان الشعر فى هذه المدة سهل الألفاظ . سلس الأسلوب . بعيداً عن التعمل والتكلف . تقل فيه المعانى الدقيقة . والاستعارات العميقة .

الدولة الأيوبية
٥٦٧ - ٦٤٨ هـ

قامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الفاطمية ، وقد كانت دولة قوية أكسبت مصر فخاراً عظيماً فى السياسة لصلابتها فى حرب الصليبيين ، الذين أساءوا إلى الشرق كله بإغاراتهم المتوالية ، فكانت وطأتهم شديدة على بلاد الشام ، وقد رد الله عن مصر كثيراً من عدوانهم ، بما هيأ لها من هؤلاء الملوك العظام ، الذين حموا بيضتها وصانوا عزتها ، ولم يكن فضلهم على الأدب والعلم بمصر بأقل من فضلهم فى السياسة ، فقد كان يوسف صلاح الدين (رأس هذه الدولة) هو وبقية ملوكها وأمرائها علماء أدباء . يحتفلون بالعلم والأدب ، ويكرمون أهلهما إكراماً شديداً . وقد روى عنهم فى ذلك ما لم يرو مثله فى كثرته عن غيرهم .

ذكروا أن صلاح الدين كان يستحسن الأشعار الجيدة . ويرددها فى مجالسه . وكان كتاب الحماسة من محفوظه . كما ذكروا عنه فى العلم أنه رحل بولديه إلى الإسكندرية لسماع الحديث من الحافظ السِّلَفِيّ . ولم يعهد ذلك فى ملك بعد الرشيد . كما ذكروا عن الملك الكامل بن العادل أنه كان محبًّا للعلم والعلماء . وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء . يشاركهم فى مباحثهم ، ويسألهم عن المواضع المشكلة فى كل فن . وهو معهم كأحدهم .

ومن تقريب هؤلاء الملوك للعلماء والأدباء . أن صار القاضى الفاضل وزيرهم . وهو رجل بَرَزَ فى صناعة الإنشاء . وله فيها غرائب مع الإكثار . وكذلك عماد الدين الأصفهانى . وهو شاعر مجيد . وكاتب بارع . ومؤلف معروف الفضل .

وفى أيام هذه الدولة نشط العلم نشاطاً عظيماً ، واستحدث إنشاء المدارس ، وحبس الأوقاف على مدرسيها وطلبتها ، ليضمن منشئوها استمرار التعليم بها . فعمت المدارس القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرها من عواصم البلاد .

الشعر فى الدولة الأيوبية

الشعر فى الدولة الأيوبية :

كان جود الأيوبيين كثيراً ، فقد مدح شاعر صلاح الدين بقوله :

الله أكبر جاء القوس باريها ورام أسهم دين الله راميها
فكم بمصرعلى الأمصارمن شرف باليوسفين فهل أرض تدانيها
فبابن يعقوب هزت جيدها طرباً وبابن أيوب هزت عطفها تيها

فأعطاه ألف درهم :

وقد قصده الشعراء من شرق وغرب فمدحوه . وكان يلقون منه كل تكريم . وكذلك كان الشأن فى بقية ملوك هذه الدولة ؛ ولم يكن الباعث للشعراء على مدحهم هو كثرة ما يغدقون عليهم من العطايا فحسب . بل كانت شجاعة هؤلاء الملوك وذيادهم عن الإسلام ؛ وخضدهم لشوكة الصليبين ، أكبر دافع لهم على ذلك . وكان الفرح بالنصر . يغرى الشعراء بالقول ، ففى أيام الملك العادل أخذ النصارى مدينة دمياط ؛ فلما أخرجهم منها كان يوماً مشهوداً ؛ أنشد فيه راجح الحلى :

هنيئاً فإن السعد أضحى مخلداً وقد أنجز الرحمن بالنصر موعداً
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنـــا مبيناً وإنعاماً وعزًّا مؤيداً

ولم يقف الشعراء عند المدح يوم الانتصار ؛ بل قد حرضوا الملوك على الفتح فمن ذلك قول أبى الفضل بن حميد الحلبى يخاطب صلاح الدين :

يا ابن أيوب لا برحت مدى الدهـ ـر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مرآك وَلْهَى ولَهَ الصب ريعَ بالهجران

وجملة القول أن الشعر وجد له فى عهد هذه الدولة سبباً جديداً ، دفع الشعراء إلى قول الشعر بعاطفتهم؛ فكان قويًّا فياضاً بالحماسة ، ممتلئاً بمعان جديدة ، هى الفرح بالظفر ، ونصرة الإسلام ، واعتزاز الوطن ، وذلك كله من أثر الحروب الصليبية ، وما حركت فى الناس من عاطفة دينية ووطنية ، وكان شعرهم سهل العبارة . خفيف الروح ، خالياً من التكلف ، بارع النكتة ، جميل الأسلوب ، لطيف التشبيه ، حسن الاستعارة . ومن شعراء هذه

الدولة : عماد الدين الأصفهانى (٥٩٧ هـ) . وابن سناء الملك (٦٠٤ هـ) ، وابن مماتى (٦١٦هـ) . وابن النبيه (٦١٩ هـ) . وابن الفارض (٦٣٢ هـ) . وابن مطروح (٦٤٩ هـ) . والبهاء زهير (٦٥٦ هـ) ، وغيرهم . ولأكثرهم دواوين مطبوعة فارجع إليها .

أمثلة من شعرهم :

قال ابن مطروح وكتب بها إلى لويس التاسع ملك فرنسا — وكان قد أسر وجعل بدار تسمى دار ابن لقمان . بالمنصورة . فتم الصلح بين النصارى وبين شجرة الدرّ على إطلاقه فى نظير تركهم دمياط ؛ فلما خلص لويس من الأسر فكر فى العودة إلى قتال المصريين :

قل للفرنسيس إذا جئتــه ... مقال صدق من قؤول نصيحْ
آجرك الله على ما جرى ... من بين عباد بشرع المسيحْ
أتيت مصر تبتغى ملكهــا ... تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى أدْهمٍ ... ضاق به عن ناظريك الفسيحْ
وكل أصحابك أودعتهــم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
وفقــك الله لأمثــالهــا ... لعــل عيسى منكم يستريحْ
إن كان باباكم بذا راضيــاً ... فرب غش قد أتى من نصيحْ
دار ابن لقمان على حالهـــا ... والقيد باق والطواشى صَبيحْ

وقال ابن النبيه يمدح الملك العادل :

له راحة فى السلم تجنى جنانها ... ويوم هياج الحرب توقَد نارُها
به دمر الله الفساد وأهــله ... به ملة الإســلام عال منارُهـا
فلا زالت الأفلاك تجرى بنصره ... ولا زال عنه قطبها ومدارها

الخطابة فى الدولتين الفاطمية والأيوبية

نشطت الخطابة فى صدر الدولة الفاطمية يوم أن كان الخلفاء القائمين بها ، وكانت ألفاظها جزلة ، ومعانيها قوية ، وأسلوبها متيناً ؛ ثم انحطت حين ضعف الخلفاء عن القيام بأعبائها ، واعتمدوا على ما كان يُعِدّه لهم

صدور كتابهم ، وتكاد تكون الخطابة فى هذه المدة مقصورة على خطب الجمع والأعياد والمواسم ، أما الخطابة فى الدولة الأيوبية فقد كان من دواعيها إثارة نخوة المسلمين ، وبعث حميتهم واستنهاض هممهم للدفاع عن دينهم ، والذود عن بلادهم ، غير أنها لم تكن من القوة والبلاغة على قدر دواعيها ، فقد كانت على ما كانت عليه أواخر الدولة الفاطمية : عبارات سهلة ، ومعان عادية وأكثر ما كانت الخطابة فى المساجد أيام الجمع والأعياد .

الكتابة فى الدولتين الفاطمية والأيوبية

كانت الكتابة فى الدولة الفاطمية سائرة على النظام الذى كان لها فى الدولة العباسية أيام ابن العميد وابن عباد ، ثم خطا بها القاضى الفاضل خطوة أخرى ، فأثقل قيودها . وزاد أعباءها ، بما أضافه إلى الطريقة القديمة . من الاهتمام بالبديع ، والمغالاة فى التورية والجناس ، فكان ذلك سبباً فى انحطاط الكتابة بعده ، إذ كان أكثر الكتاب قليلى البضاعة . فلم يتسن لهم أن ينسجوا على منواله ، فكثر السجع المتكلف ، والتورية والجناس . وأنواع البديع الأخرى ، غير أنها كانت نابية عن مواضعها ، قلقة فى أماكنها ، واستمرت الحال على هذا المنوال مدة الدولة الأيوبية — وقد قدمنا لك طريقة ابن العميد وابن عباد والقاضى الفاضل فارجع إليها .

المدارس فى مصر

ولى محمد على مصر وليس فيها من المدارس إلا الأزهر ، وعدد من الكتاتيب ، لتعليم القراءة والكتابة ، وتحفيظ القرآن الكريم .

فاهتم بإنشاء المدارس ، وابتدأ بمدرسة الطب ، ثم أنشأ المجلس الأعلى للمعارف ، فجعل ينشر المدارس فى طول البلاد وعرضها ، وجعل لغة التعليم الأساسية اللغة العربية. فلم تمض مدة طويلة حتى كان بمصر ٤٦ مدرسة ابتدائية.

أما المدارس الثانوية والعالية والخصوصية ، فقد كثرت وتنوعت ، وكان

لكل علم مدرسة : من ذلك مدرسة للطب الإنسانى ، والطب البيطرى ، والصيدلة والهندسة ، والبحرية ، والصناعات ، والمحاسبة واللغات ، والموسيقى ، وكانت الحكومة تنفق على تعليم الطلبة ، وعلى أكلهم وكسوتهم ، وإسكانهم فى دورها ، وبلغ عدد التلاميذ فى تلك المدة (٢٠) ألفاً .

وفى أيام عباس باشا الأول وسعيد باشا أغلق بعض هذه المدارس ، وفترت حركة التعليم نوعاً ما .

وفى مدة إسماعيل باشا وثب التعليم وثبة طويلة ، فقد كثرت المدارس ، وتعددت أنواعها وأغراضها ، وكان بعضها تابعاً للحكومة وبعضها للأهالى أو للأجانب ، والكل يلقى من إسماعيل باشا عطفاً ورعاية حسية ومعنوية .

وقد أنشئ فى هذا العصر ، مدارس للتدبير المنزلى ، وللخدمات ولبنات الأشراف وغيرها .

وفى أيامه زادت مدارس التعليم العالى : مثل الحقوق . والمعلمين ، ودار العلوم . وفى عصر توفيق وعباس والسلطان حسين أخذت النهضة العلمية تتئد فى سيرها وتتغير مناهج المدارس تبعاً للأحوال السياسية . ورغم ما اعتراها من التضييق كثر عددها وعدد المتعلمين بها .

وفى مدة المغفور له أحمد فؤاد اتسع نطاق المدارس . وكثر عدد المتعلمين والمتعلمات . وفرض الدستور التعليم الإلزامى . فزاد عدد المدارس الإلزامية زيادة عظيمة ، وكثرة المدارس الحكومية والأهلية . واتسعت المدارس العالية . وعدلت مناهجها . وكثر طلابها . وأنشئت الجامعة الأزهرية ، والجامعة الملكية .

وفى عصر الملك فاروق أخذت هذه المدارس على اختلاف أحوالها تتهيأ للوثوب والنهوض . ويزيد عددها . ويتنوع أشكالها ، ويكثر المتعلمون بها ، ويعم التعليم الإلزامى كل البلاد .

الأزهر الشريف

هو أول مسجد أسس بالقاهرة ، أنشأه جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى .

وما تم بناؤه فى رمضان سنة ٣٦١ هـ. حتى صار مصلى القوم ، وموضع تلاوتهم ، ودار علومهم .

ولقد كان منذ نشأته موضع عناية الفاطميين ، يتعهدون أهله بالبر والإحسان ، ويغدقون عليهم العطايا والهبات ، ويتسابقون إلى إصلاحه ، ويذهبون إليه بأنفسهم للصلاة والوقوف على حالة أهله .

ولما انتقلت مصر إلى الأيوبيين سنة ٥٦٧ هـ . عمل صلاح الدين الأيوبى على إنشاء المدارس الإسلامية ، ورتب فيها العلماء والطلبة ، وحذا حذوه خلفاؤه الأيوبيون من بعده ، حتى كثرت المدارس فى القاهرة ، وأهلت بعلماء اللغة والدين ، وانتقلت حركة التعليم المزدهرة من أبنية الجامع الأزهر إليها ، وأقفر جانبه .

ومضى قرابة قرن تولى مصر بعده الظاهر بيبرس البندقدارى فجدد من شبابه ، وأعاد إليه حياته العلمية سنة ٦٦٥ هـ ، وسار على نهجه ملوك وأمراء ، جعلوا كل عنايتهم الإغداق عليه وعلى أهله ، فوسعوا مساحته ، وبنوا أروقة لطلبته ، فكانت نهضة مباركة ، رفعت شأن العلم ، فاتجهت أنظار العالم الإسلامى إلى القاهرة ، وخصوصاً بعد سقوط بغداد ، وإتلاف ذخائرها العلمية ، إذ أصبحت مصر — والأزهر جامعتها — المثابة الوحيدة والكعبة المنشودة التى يقصدها العلماء والطلاب .

ذلك شـــأن الأزهر حتى تولى مصر محمد على ، فجعله موضع عنايته ، ومحل رعايته ، احترم علماءه وقربهم منه ، واختصهم بمشورته ، واختار منهم النواة الأولى لبعثته الطبية ، وأوفد أحد أبنائه ، (رفاعة بك) إلى فرنسا لينهل من علمها ، فكان شيخ المترجمين وإمام المؤلفين .

واتبعه رجال من أسرته اهتموا بإصلاح الأزهر وزيادة مرتباته ، وتنظيم دروسه ، وإنشاء قوانينه ، وتوسيع رحابه ، نخص بالذكر منهم الخديوى إسمعيل ، والملك أحمد فؤاد والملك فاروق الأول .

كان النظام يسير عليه الأزهر منذ نشأته نظاماً سهلاً يكاد يكون فطرياً ،

أساسه التقوى ، وقوامه احترام الدين ، يدخل الطالب الأزهر مختاراً ، ويختلف إلى من أراد من العلماء ، ليتلقى العلم عنه ، ويظل فى طلبه ما شاءت له قدرته ، حتى إذا أنس من نفسه علماً كافياً ، استأذن أساتذته ، وجلس إلى التدريس حيث يجد مكاناً ، وعرض نفسه على الطلبة ، فإن ألفوه على علم التفوا حوله ، وأجازه شيخ الأزهر ، وإلا انفضوا عنه فعاد إلى الطلب .

ولم يكن للأزهر قانون يقيد طلبته بنظام معين ، بل يجلسون فى رحابه حلقات يتلقون علوم الدين واللغة ، حتى كثر الطلاب ، وتنوعت العلوم وتقدمت الدراسة ، وهنا مست الحاجة إلى قوانين وأنظمة تنظم ذلك . وأول قانون للأزهر وضع فى عهد إسماعيل سنة ١٨٧٢ م ، وكانت رياسة الأزهر مسندة إلى الشيخ محمد المهدى العباسى ، فنظم طريقة نيل العالمية ، ومواد امتحانها ، وترتيب الناجحين فيها .

وفى سنة ١٨٩٦ شعر الإمام الشيخ محمد عبده بنقص فى علوم الأزهر ودراسته ، فعمل على إتمام ذلك ، واستصدر قانوناً قسم علومه وحددها وراعى فيها مقتضيات عصره ، وتوالى على الأزهر أنظمة منها نظام سنة ١٩١١ م ، الذى انتقل بالأزهر إلى مرحلة أخرى زادت فيها مواد الدراسة ، وبين اختصاص شيخ الجامع الأزهر ، وأنشأ المجلس الأعلى ، وهيئة كبار العلماء ، وشيوخ المذاهب ، وجعل لكل معهد مجلس إدارة يرعى شئونه . واستمر الأزهر خاضعاً لهذا القانون وما أدخل عليه من التعديل ، حتى اقتضت إرادة الملك فؤاد أن يجعل للأزهر نظامة يكفل لطلابه ثقافة واسعة ، تتمشى مع روح العصر ، ويساير كبرى الجامعات ، على ألا يتعارض ذلك مع رسالته الدينية والعربية ، فكان قانون سنة ١٩٣٠ م ، الذى قسم الأزهر إلى ابتدائى ومدته أربع سنوات ، وثانوى ومدته خمس سنوات ، ثم قسم العالى إلى كليات ثلاث : كلية اللغة العربية ، وكلية الشريعة ، وكلية أصول الدين . ثم مرحلة التخصص ، وهى قسمان : تخصص فى المهنة للتدريس أو القضاء أو الوعظ ، وتخصص فى المادة ينقطع الطالب فيها لدراسة علم بعينه

خمس سنوات . وفى سنة ١٩٣٦ تولى مشيخة الأزهر الإمام المصلح الشيخ محمد مصطفى المراغى للمرة الثانية فنظر إلى هذا القانون نظرة الناقد البصير فأقام معوجه ، ورتق فتقه ، وأتم ما بدأه فى مشيخته الأولى ، واستصدر فى سنة ١٩٣٦ م ، قانون الأزهر الجديد الذى نهض بتلك الجامعة تلك النهضة المباركة ، التى نرجو أن تؤتى ثمارها الناضجة .

الجامعة المصرية

كان الغرض المهم من التعليم فى مدارس الحكومة مدة الاحتلال تخريج موظفين فى دواوين الحكومة ومصالحها . وقد عملت وزارة المعارف فى هذه المدة على إضعاف التعليم وجعله يرمى إلى حفظ المناهج لا إلى فهمها . وإلى تخريج رجال يفعلون ما يؤمرون . ثم عمدت إلى إضعافه بطريقة أنكى من سابقتها . وهى تعليم مواد الدراسة باللغة الأجنبية بدل العربية . فضج المفكرون من هذا . وأشفقوا من سوء عاقبته . واجتمع نفر من عقلائهم (فى منزل سعد زغلول) وفكروا فى إنشاء جامعة تكون غير خاضعة لوزارة المعارف . وتكون حرة فى إدارتها . وفى اختيار موادها . ولغة تدريسها ونظام دراستها . وتبرعوا لهذا المشروع الجليل بشئ من أموالهم . وكانت رآستها للأمير أحمد فؤاد .

وتوالت بعد ذلك التبرعات . وأهمها ما تبرعت به الأميرة فاطمة أخت الملك أحمد فؤاد رحمها الله . وفى يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ احتفل بافتتاح الجامعة . وفى سنة ١٩٢٥ بعد نيل مصر استقلالها . انضمت الجامعة إلى الحكومة لزوال ما يخشى منه . وهى الآن سائرة فى طريقها تؤدى رسالتها . وعما قريب نغنى بها عن الجامعات الأجنبية . وتشتمل الجامعة الكليات الآتية : الآداب . والحقوق . والطب . والعلوم . والزراعة . والهندسة ، والتجارة .

المجمع اللغوى الملكى

رأى الملك أحمد فؤاد ، أن مصر فى حاجة ماسة إلى مجمع لغوى يضم بين جدرانه أساطين اللغة العربية ومن يهمهم أمرها ، يكون من عملهم السهر على إحياء اللغة ، والبحث عن دفائنها ، والكشف عن كنوزها . وتنقيتها مما التصق بها من الدخيل والعامىّ ، ومدها بما يزيدها رواجاً وانتشاراً : من المفردات والمصطلحات التى تسهل على المترجم ترجمته . وعلى المؤلف عمله . وتغذيتها بما تحتاج إليه من اللغات الأخرى بعد تهذيبه وصقله . والعمل على وضع معجم يجمع شتاتها ويؤدى أغراضها . ويفى بحاجات أهلها . والنظر فى إطلاق قواعدها المقيدة . وتقييد قواعدها المطلقة . إذا كان فى ذلك إحياء لها . وسد لحاجتها الملحة إلى اللغات الأجنبية . ومنع لسيل الدخيل المتدفق عليها . إلى غير ذلك من الأغراض الشريفة .

وقد صدر المرسوم الملكى بإنشاء هذا المجمع فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ . وبتعيين أعضائه فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ . وعددُ أعضائه عشرون منهم الرئيس . بعضهم من أفاضل المصريين وبحاثيهم . وبعضهم من الأقطار الشقيقة العربية ؛ ومن المتعربين الذين أولعوا بتعرف اللغة . ولهم فيها بحوث شتى . وكان أول اجتماع للمجمع فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ .

وقد أخرج لنا المجمع ثلاثة مجلدات أودعها عصارة أفكار هؤلاء العلماء ، ونتيجة بحوثهم ، وزبدة آرائهم . والمأمول أن تنتفع به الأمة العربية جمعاء .

وقد سبق هذا المجمع ثلاثة مجامع . كان يرأس أولها السيد توفيق البكرى شيخ السادة الصوفية ، وثانيها صاحب الفضيلة المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر سنة ١٩١٧ ، وثالثها صاحب العطوفة إدريس راغب ، وقد كنت عضواً فى ثانيها ، وثالثها .

محمد حافظ إبرهيم

هو الشاعر الشهير . والكاتب الكبير ، والمؤلف القدير ، والراوية البصير ، والفكه المنقطع النظير .

ولد بديروط (١٨٧١) م . ونشأ بالقاهرة ، وتوفى والده وهو صغير فقام على تربيته وتأديبه خاله ، وتثقف فى المدارس الابتدائية والثانوية والحربية ، وعين بالسودان ، وهناك قاسى مصاعب شتى ، ومتاعب جمة . فنقل إلى إلى القاهرة ثم أحيل إلى التقاعد . وفى سنة ١٩١١ م . عين بدار الكتب الملكية ، واستمر بها إلى أن أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٣٢ م . وتوفى بعد ذلك بقليل .

وقد كان دمث الأخلاق . كثير المواساة لأصحابه . شديد الحدب على أمثاله ممن شملهم البؤس . وعمهم سوء الحال . كريماً . سمحاً . جواداً . متلافاً ، ذا دعابة ظريفة . ونوادر طريفة . تدل على خفة روحه وسلامة ذوقه ، ودقة حسه ، وكان يحسن إلقاء النوادر . ويجيد إنشاد الشعر .

شعره : كان لما يحفظه من الشعر الكثير المختار أثر واضح فى شعره . فقد كان جزل الألفاظ ، متين التراكيب . فخم الأسلوب . نقى الديباجة . جميل الرونق ، لشعره روعة فى النفس. وحوك فى الصدر . يميل إلى تنقيح العبارة وتهذيبها ، والاحتفال بتجويدها وتنسيقها ، أكثر مما كان يميل إلى جانب المعنى ، واشتهر بشكوى الزمان ، والقول فى السياسة والاجتماع . ومظاهر الحياة المتنوعة ، ونقد مرذول العادات ، ومستهجن التقاليد والمواضعات . وساعده على إحكام ذلك حافظة قوية ، وذاكرة شديدة . واطلاع واسع .

أما كتابته فكانت عبارات مختارة ، يقتبسها تارة من أشهر عبارات النابهين من الكتاب فى العصور الراقية ، ويحاكيها وينسج على منوالها أخرى ، هذا إلى غزارة مادة ، ووفرة اطلاع ، ورجاحة عقل . ولطف حس ، وسلامة ذوق ، يهتدى به إلى نسج أدق التراكيب ، وأروع العبارات .

ومن كتبه ذات العبارة الرصينة ، والأسلوب القوى — البؤساء — وسطيح ، وقد حذا حذوه كثير من الشعراء والكتاب فى اختيار العبارات الرائعة ، والأساليب الشائقة .

ومن شعره :

من لى بتربية النساء فإنهـــا ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتـهـــا ... أعددت شعباً طيب الأعراق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرُجْن حيث أردن . لا من وازع ... يحذَرن رِقبته ، ولا من واق
كلا ولا أدعوكمُ أن تسرفوا ... فى الحجب والتضييق والإرهاق

* * *

فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا ... فالشر فى التقييد والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها ... فى الموقفين لهنّ خير وثاق

ومن قصيدة طويلة فى حريق ميت غمر :

سائلوا الليل عنهمُ والنهـــارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأ ... م وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتـــداعى وأســـقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومُرِ النـــار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى ... هذه النار فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يمشى يميناً ... ورمتهم والبؤس يمشى يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم فلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا

ومن كتبه ذات العبارة الرصينة ، والأسلوب القوى — البؤساء — وسطيح . وقد حذا حذوه كثير من الشعراء والكتاب فى اختيار العبارات الرائعة ، والأساليب الشائقة .

ومن شعره :

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرُجْن حيث أردن . لا من وازع ... يحذَرن رِقبته ، ولا من واق
كلا ولا أدعوكمُ أن تسرفوا ... فى الحجب والتضييق والإرهاق

* * *

فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا ... فالشر فى التقييد والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها ... فى الموقفين لهنّ خير وثاق

ومن قصيدة طويلة فى حريق ميت غمر :

سائلوا الليل عنهمُ والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأ ... م وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومُرِ النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى ... هذه النار فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يمشى يميناً ... ورمتهم والبؤس يمشى يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم فلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا

أحمد شوقى

هو الشاعر الأشهر ، ذو الخيال الرائع ، والفكر الخصيب الممتع ، زعيم الشعراء وأميرهم ، وإمام النهضة الحاضرة وقائدها ؛ قال الشعر صغيراً ونبغ فيه ، وافتن فى أرجائه ومناحيه . نظمه فى كل غرض فأعجب . وعارض كبار المشهورين فأطرب . وتوّجه بقصصه المشهورة . التى أربى بها على السابقين ، وأعجز بحسن سبكها اللاحقين ، وقد دان له شعراء عصره ، ووفدوا إليه من الأقطار العربية النائية . وكرّموه وبايعوه . وفى ذلك الحفل العظيم يقول صديقه ووزيره حافظ :

أميرَ القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وكان رحمه الله يعنى العناية كلها بمعانيه . ولا يحفل كثيراً بأساليبه ومبانيه ، فكنت ترى له المعانى الجديدة . والأفكار الدقيقة . فى عبارات يبذه حافظ فيها ويفوق عليه بها ، فكانت رياسة الشعر بينهما . ولكل منهما أنصار . ولما عاد من منفاه بأسبانيا فخمت عبارته . وصفت ديباجته . ورقت ألفاظه . وراع أسلوبه وأربى على حافظ فى مزيته .

ولقد سألت حافظاً رحمه الله عن سر هذا فقال : كان شوقى قليل البضاعة فى الشعر العربى ، واسع الاطلاع على الشعر الإفرنجى . فلما كان فى منفاه بالأندلس عكف على قراءة دواوين فحول الشعراء . وكشفَ كنوزها ، وعلّقَ عيونها ، فأصبح جامعاً للمزيتين ، حائزاً للفضيلتين .

ولشوقى نثر يغلب عليه الخيال ، والسجع الذى لا تكلف فيه ولا تعمل ، وقد أودع بعضه كتابه المطبوع (أسواق الذهب) وهو على الحقيقة شعر منثور وقول مأثور .

ولد شوقى بالقاهرة ، ونشأ بها ، وتعلم بمدارسها الابتدائية والثانوية والعالية ، وكان لأسرته اتصال بالقصر فعين بالمعية السنية ، ثم أرسل إلى فرنسا لإتمام دراسة الحقوق والآداب ، ولما عاد إلى مصر إلى المعية واستمر بها حتى نفته

السلطة الأجنبية إلى أسبانيا ، ثم عاد إلى مصر بعد أن وضعت الحرب أوزارها ونشر السلام ألويته ، يقول الشعر مخلصاً جاهداً ، يبذل فى سبيل ذلك عقله وماله وجاهه ، حتى وافته منيته سنة ١٩٣٢ م . وقد ترجم حياته بقلمه فى صدر ديوانه الشوقيات .

ومن شعره مخاطباً توت عنخ آمنون :

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولـة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا
فؤاد أجل بالدستور دنيـا وأشرف منك بالإسلام دينا

وقال يصف قصر أنس الوجود وقد كادت المياه تغرقه :

قف بتلك القصور باليم غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضاً سابحات به وأبدين بضّا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضّا
رب نقش كأنما نفض الصـا نع منه اليدين بالأمس نفضا
ومحاريب كالبروج بنتهـا عزمات من عزمة الجن أمضى

ويقول لأبى الهول :

كأن الرمال على جانبيك وبين يديك ذنوب البشر
كأنك فيهـا لواء القضـاء على الأرض أو ديدبان القدر

ومن قوله فى الإسلام :

من عادة الإسلام يرفع عاملاً ويسوّد المقـدام والفعّالا
ظلمتـه ألسنة تؤاخذه بكم وظلمتوه مفرّطين كسالى

الشيخ على يوسف

زعيم الصحافة المصرية ، وكبير كتابها ، وعلم من أعلامها ، ولد ببلصفورة من أعمال مديرية جرجا سنة ١٢٨٠هـ . وبعد أن حفظ القرآن بها . انتقل إلى أخواله فى بنى عدىّ ، وهناك شرع فى تلقى مبادئ العلوم ، ثم ارتحل إلى الأزهر

وبرع فى العلوم النقلية والعقلية ، وكانت أكثر عنايته بالشعر والأدب والكتابة فى الصحف والمجلات ، وانتهى أمره بأن أنشأ مع بعض إخوانه مجلة الآداب ، ثم صحيفة المؤيد ، ثم اختص بها بعدُ . وبهمته وحسن عنايته كانت أكثر الصحف الإسلامية انتشاراً ، وأعظمها رواجاً ، وكانت منزلته عند المسلمين فى كافة بقاع الأرض لا تعد لها منزلة أخرى ، لأنهم كانوا يجدون فيه أكبر مدافع عن الإسلام والمسلمين على اختلاف منازعهم ومساكنهم ، فذاعت بذلك شهرته ونال الحظوة الكبرى لدى الخديوى عباس ، واستمر مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، محبباً لدى الأمراء والعظماء ، لقرباً لديهم إلى أن توفى سنة ١٩١٣ م .

وكانت عبارته من السهل الممتنع : يتحامى السجع ، ويبتعد عن التكلف والتعمل ، ويتدفق فى كتابته كالبحر الزاخر ، وكان شديد الذكاء ، سريع الخاطر ، وقد شاهدناه وهو فى وسط زائريه يحادثهم ويحادثونه ، يكتب المقال العظيم ويرسله إلى المطبعة توّادون أن يراجعه ، فيخرج كأحسن ما يعنى بهالناس فى كتاباتهم . وكانت له قوارص شديدة ، وعبارات لاذعة ، وتهكمات بارعة ، يهديها إلى الوزراء إذا أحس منهم ميلاً عن الطريق السوى أو انحرافاً عن السلطة الشرعية .

وكان قوى العزيمة ، شديد الشكيمة ، صعب المراس ، وكان بينه وبين أصحاب المقطم عداء شديد ، ومناقشات حادة ، لاختلافهما فى المبدأ ، هو ينصر السلطة الشرعية ، وهم يعاونون الاحتلال ، وكان له النصر فيها غالباً .

وكانت صحيفة المؤيد ميداناً لتسابق أقلام الفحول من المصريين : كسعد زغلول ، وأحمد الحسينى ، ومحمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، واللقانى ، وسمير ، وحفنى ناصف ، وقاسم أمين ، وفتحى زغلول ، ومصطفى كامل ، والمنباوى .

وكتب المرحوم السيد على يوسف يصف ليلة ماطرة فى عزبة الزيتون :

... فلما جاءت السحب بوبلها الغزير ، استيقظنا من النوم على دوى الرعد القاصف ، وبريق البرق الخاطف ، وخرير الماء ينزل من السقف ،

ونزلت منه قطرات زادتنا قلقاً ، وخصوصاً على الأطفال ، ولو اقتصر على هذا الحال لقال سكان العاصمة نحن كابدنا أشد من العناء هولا ً ، ولكن الذى فوجئنا به بعد ذلك فأرانا الموت ألوانا ، هو أن السيل انقض كأنما هو النيل يفيض من أحد الشلالات الكبرى ، وصار صدى خريره يرسل لنا النذير وراء النذير ، ودوىّ سقوط المنازل واحداً بعد آخر ، يكاد يصعق منا القلوب ، فلم نجد بداً من أن نهجر مأوانا ، ونلجأ إلى الحديقة لنعتصم بسياج من أشجارها ثم تحققنا عندئذ أن اندلاق السيل قد وصل إلى جنوب الحديقة ، فجرف السور دفعة واحدة من الشرق إلى الغرب ، وهو لا يقل عن مائة متر ، وتدفق تيار السيل فى عرض الحديقة كلها حتى قطعها إلى الشمال فى علو نحو متر ماء ، فما استتم خروجنا من محيط المنزل حتى امتلأ ماء وأتلف كل شىء فيه .

المنفلوطى

هو الكاتب المجيد ، والشاعر المبدع ، السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، ولد بمنفلوط سنة ١٨٧٦ فى أسرة معروفة بالعلم ، موسومة بالشرف ، تعلم بالأزهر وعنى بدراسة الأدب ، وملازمة دروس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وكثر اختلاطه بكبار الأدباء ، فقال الشعر الرائع ، وأبدع فيه ، ثم عدل عن الشعر إلى الكتابة ، وأعد نفسه لها بقراءة كثير من القصص الممتعة ، المكتوبة بالعبارات الرائعة . ثم عكف على الأغانى فاختار أصفى عباراته . وأكثرها حوكاً فى الصدر ، وقرعاً للسمع ، ثم كتب بطريقته هذه كثيراً من المقالات فى الصحف ، فكانت تشرئب لها النفوس ، وترتاح إليها العقول . لما فيها من التراكيب المختارة ، والأساليب الرقيقة . وكتابه النظرات هو زبدة هذه المقالات ونتيجة هذه الدراسات الطويلة .

ولما ولى المرحوم سعد نظارة المعارف عينه محرراً عربياً بها . ثم نقله معه إلى الحقانية . ثم عين فى إدارة (البرلمان) وتوفى بها سنة ١٩٢٤ م .

وكان رحمه الله كثير الانقباض عن الناس ، ترى عليه آثار الحزن والكآبة

رغم نضرة شبابه ، وجمال هندامه ، شهماً عفيفاً ، شديد الثقة بالله تعالى فى عسره ويسره ، وشدته ورخائه .

كتابته : قدمنا لك كيف استعان على النبوغ فى الكتابة ، ودعك الآن من عباراته الرائعة ، وأسلوبه الجذاب ، وانظر إلى ميزته الفذة ، وهى قدرته على تصوير النفس الحزينة والقلوب المتألمة ، وشرحه ذلك شرحاً يسيل الدموع ، بل يذيب القلوب . وقصارى القول أن أسلوبه فى النظرات والعبرات وبعض الروايات قد رق إلى المنتهى ، وارتقى إلى الذروة . حتى احتذاه المحتذون ، وقلده المقلدون . وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى فى رواية الشاعر :

الشاعر يرى الجمال فى كل شىء يتناوله سمعه وبصره ، حتى فى الزهرة الذابلة ، والنَّبْتَة الحائلة[1] ، والنحلة الطائرة . والفراشة الحائمة[2] . وفى مدارج النِّمال[3] . وأفاحيص[4] القطا[5] . والنُّؤْى[6] المتهدم . والجدث البالى والشبح المخيف . والخيال الرائع . وفى الضفدعة على شاطئ البحر . والدودة فى باطن الصخر . فهو من خياله الواسع فى نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى .

أنت كالطائر السجين فى قفصه . فمزق عن نفسك هذا السجن الذى يحيط بك . وطر بجناحك فى أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح . وتنقل ما شئت فى جنباته[7] وأكنافه[8] . واهتف[9] بأغار يدك الجميلة فوق قمم جباله ، ورءوس أشجاره . وضفاف أنهاره . فأنت لم تخلق للسجن والقيد . بل للهتاف والتغريد .

عبد الكريم سلمان

هو الكاتب الكبير . والمصلح الجليل . الشيخ عبد الكريم بن حسين بن سلمان .

---

(١) المتغيرة الذابلة (٢) التى تدور حول الناس (٣) جمع مدرج وهو مدب النمل.
(٤) جمع أفحوص وهو الموضع الذى تبيض فيه القطاة (٥) جمع قطاة طائر كالحمام
(٦) الحفرة حول الخيمة لينحدر إليها السيل (٧) نواحيه
(٨) جوانبه (٩) ارفع صوتك

ولد (بجنبواى) من قرى البحيرة ، ونشأ بها وتعلم فيها مبادئ القراءة والكتابة ثم رحل إلى الأزهر ، واجتمع فيه بالشيخ محمد عبده ، وتوثقت بينهما أواصر الصداقة ، وروابط المحبة ، وعرى الإخاء ، وتلقيا معاً كثيراً من دروس السيد جمال الدين ، وكان نزاعاً إلى الأدب والكتابة فى الصحف والمجلات ؛ واشتهر بذلك بين إخوانه وأقرانه . ثم عين محرراً فى الوقائع المصرية مع أصدقائه سعد زغلول والشيخ محمد عبده ، ثم عين عضواً بالمحكمة الشرعية ، وله فيها إصلاحات مشهورة ، ثم ترك العضوية لأمور سياسية ، وكان عضواً فى مجلس الأزهر ، فكان الساعد الأقوى ، والمساعد الأكبر لصديقه الشيخ محمدعبده ، فى كل ما تم على يديه من إصلاح الأزهر ، وفى سنة ١٩١٧ وافته منيته .

وكان رحمه الله كريم الأخلاق . لطيف المجلس ، حلو النادرة ، حسن المعاشرة ، وفيًّا لإخوانه ولأصحابه ، كثير السعى فى مساعدة المحتاجين ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم . فتراه يمضى كل نهاره وجانباً من ليله يطرق الوزارات ، ويمر على منازل الرؤساء والوزراء ، لمساعدة البائسين . ومعاونة المعوزين .

كتابته : اشتهر بالخروج على القديم من الكتابة ، وكسر أغلالها وقيودها . والرجوع بها إلى أطوارها القديمة الراقية ؛ وكان يبغض المبالغة والتهويل . ويميل إلى الحجة والإقناع . دأب الذين درسوا على جمال الدين ، وقد كان محيطاً بأساليب كتاب عصره ؛ فكان يعرف من كتابة الطالب فى موضوعات الإنشاء الصحيفة التى اعتاد قراءتها ، وقد شاركته كثيراً فى تصحيح الإنشاء فى بعض الامتحانات ورأيت أن فراسته لا تخطئ . وله كتابات فى أمور شتى . وقد قدمنا لك نموذجاً منها فى نماذج الكتابة .

الشيخ عبدالعزيز جاويش

هو الكاتب الكبير ، والمربى القدير ، والمصلح الشهير والوطنى الغيور .

ولد بالإسكندرية ونشأ بها ، وتعلم مبادئ العلوم بأحد جوامعها ، ثم ارتحل إلى الأزهر وقد صلب عوده واشتد أزره ، فارتوى من أعذب مناهله ، وتملأ من

علومه هو وصديقه وصديقنا الحميم الشيخ حسن منصور رحمهما الله تعالى ، ثم دخلا دار العلوم مرحاً . فكان غفر الله له ، المثل الأعلى للنشاط والجد والاستقامة والغيرة على الدين والدفاع عنه . ولما أتم الدراسة عين مدرساً بمدرسة الناصرية ، ثم بعثته وزارة المعارف إلى إنجلترا لإتمام ثقافته . ولما عاد عين مفتشاً فى وزارة المعارف ، ثم سافر إلى إنجلترا مرة أخرى لتدريس اللغة العربية بكلية (كمبردج) . وبعد عودته عين مفتشاً فى الوزارة ، ثم تركها ضنًّا بشرفه ، وتمسكاً بكرامته . وقام بتحرير جريدة اللواء ، وكانت له فيها مقالات سياسية مشهورة . وحملات على كبار الوزراء معروفة .

وكانت كتابته تشعل نار الوطنية فى نفوس الشباب . وتلهب عقولهم ، وتملؤهم حماسة وقوة . ثم رحل إلى أوربة غاضباً ساخطاً . ومكث زمناً طويلاً ينافح عن دينه ووطنه . وكانت أكثر إقامته فى ألمانيا وتركيا . ثم أراد الله أن يعود إلى مصر . فعاد إليها متعباً مكدوداً . ولكنه كان فتِىّ العزيمة . قوى الشكيمة . وقد رأت وزارة المعارف أن تنتفع بعلمه وعزمه وتجاربه . فأسندت إليه مراقبة التعليم الالزامى فى بدء أمره . وقد كنت مساعداً له فى هذا العمل ، كما كنت شريكاً له مدة التلمذة والتدريس والتفتيش . واستمر فى تلك الوظيفة عاملا مجدًّا مخلصاً . حتى وافته منيته سنة ١٩٢٨ م .

وكان رحمه الله شجاعاً جريئاً . رءوفاً رحيما ، سمح النفس . طيب القلب ، باشّ الوجه باسم الثغر . شديد الحياء ، كثير الصراحة . قوى الغيرة على دينه ووطنه . مخلصاً لإخوانه ، بارًّا بهم ، وفيًّا لهم ، يتوجع لآمهم ، ويرثى لمصابهم ، وكثيراً ما كان يستدين لجبر فقرهم ، وسد عَوَزهم ، وله فى ذلك وقائع مشهورة ، وحوادث مشكورة .

وكان رحمه الله على دماثة أخلاقه ، ورقة طباعه يثور لأقل شىء يتوهم أن فيه غضًّا لكرامته ، أو نيلا من شرفه .

كتابته :

كان يحفظ مقامات الحريرى ويفهما ، ويترسم خطاها فى كتابته

أول أمره ، وكثيراً ما كان يشكو لنا فى أثناء الدراسة من تغلب السجع والغريب عليه ؛ ولكن قوة عزيمته وسعة اطلاعه ، وحدة ذكائه ، ساعدته على سرعة التغلب على ذلك ؛ فرسم لنفسه خطة يحسده عليها كثير من كتاب عصره ، فقويت عبارته فى غير جفاء ؛ ولانت فى غير ضعف ؛ وغاب عنها السجع والغريب . وأصبحت كتابته مضرب المثل فى رصانة العبارة وقوتها ، وجمال أسلوبها . وبراعة حججها . ونصاعة أدلتها ؛ وشدة تأثيرها فى النفوس ، وعملها فى القلوب . وقد كانت له قوارص شديدة ، وقوارع أليمة ، وتهكم لاذع ، يظهر ذلك جلياً فى مقالاته التى كان يكتبها فى اللواء أول أمره وآخر عهده .

وهاك مثالاً من كتابته :

كتب المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش من مقال اجتماعى طويل :

وليحذر المتبرجات فإنهن أخوات الشياطين . أولئكم اللاتى يكثرن من الخروج ، ويزاحمن الرجال فى الطرق ، والحوانيت . والمتنزهات — أولئكم اللاتى يخرجن ببراقع كأنها العنكبوت ؛ لا تستر من وجوههن إلا الحياء ، ولا من نفوسهن إلا العفاف . يخرجن بجلابيب هفَّافه ، على ملابس شفافة ، لا تحجب من الجسم إلا ما تحجبه الكأس من الخمر . يخرجن وكأن تحت رءوسهن قطعاً من الجبس ، ألبستها الصناعة صور الوجوه الإنسانية ، يمشين فحدث ما شئت . عن التثنى والتكسر ، والتهادى والتبختر ، ثم حدث عما يكون من الإشارة بالحواجب . والغمز بالعيون ، والهمس بالشفاه ، وهكذا مما يشاء لهن شياطينهن ، وخبيث نفوسهن .

الخطب فى الوقت الحاضر

خطباء الوقت الحاضر فى مصر لا يتأتى عددهم ، ولا يتسنى إحصاؤهم . فالمحامون والقضاة ، وأعضاء النيابة والعلماء والمدرسون ، وأعضاء مجلسى النواب والشيوخ ، وطلبة دار العلوم والجامعتين الأزهرية والمصرية ، خطباء ، وكثير من هؤلاء يخطبون على البديهة والارتجال . وقد سمعنا وقرأنا فى الصحف

كثيراً من خطبهم ، التى تدل على رسوخ قدمهم فى الخطابة وعلو كعبهم فيها .

وهاك نماذج منها :

من خطبة للمرحوم سعد يشكر فيها شيوخ الأمة لتكريمهم إياه فى حفلة شائقة :

أيها السادة شيوخنا العظام ، أشكر حضراتكم على هذه الحفلة المملوءة وقاراً ، وعلى هذا التكريم الجامع لأسباب البهجة والسرور . وأشعر فى نفسى بخجل شديد ، عندما أتصور أن شخصى الضعيف هو موضوع هذا الاحتفال الشائق ، وأنى المعنى بمدح خطبائكم ، والمقصود من ثنائكم ، اعتقاداً منى أنى دون ما تصفون ، ولا شك فى أنكم إنما تغرفون لى من بحار فضلكم ، وأنكم تنظرون إلى بالنظرة العاطفة . لا بالنظرة الكاشفة ، جزاكم الله أحسن الجزاء ، وأقدرنى على أن أستحق هذا الثناء .

قطعة من الدروس الملكية التى ألقاها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى رمضان سنة ١٣٥٦ :

أسباب الخلاف :

وقد يكون من الحق أن نعرض هنا لبيان شىء من أسباب الخلاف الذى يقع بين أتباع النبى الواحد فى فهم دينهم ، فنقول :

إن الخلاف يحدث أولا من تعدد الآراء بسبب تعدد الأفهام ، وقد يكون ذلك عن حسن نية وإخلاص طوية فى حب الوصول إلى الحق ، وبعد أن توجد الآراء المتعددة ، يعتقد كل فريق أنه على حق ، ثم قد يلوح الحق فى جانب ، فيكبر على بعض المخالفين فى الرأى أن يرجع عن رأيه إلى رأى غيره ، مع قيام الدليل على خلاف رأيه ، وقد تكثر هذه الحال وتشتد بعد أن يوجد للرأى أتباع وأنصار ، ويكون التمسك بالرأى شديداً لدى الأنصار بعد أن يموت صاحب الرأى ويبقى المقلدون . . . . .

ومن خطبة له فى يوم الجمعة ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ على منبر الأزهر :

إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه ، وتأول فيه المتأولون ، لا يحتمل

هذه البوائق ، ولا هذا الإلحاد ، ولا هذه الإباحية الجامحة ، ولا هذه الشهوات التى لا تقف عند حد ، وإنما يحتمل مدنية فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم ، يحتمل التمتع بزينة الله وما هيأ لعباده من طيبات ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .

هذا هو الإسلام أيها المؤمنون . فسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وأنقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة ، واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام .

ومن خطبة لمحمد محمود فى دائرته الانتخابية فى مارس سنة ١٩٣٨ :

حضرات السادة الأفاضل :

أحييكم تحية صادرة من أعماق قلبى ، وأشكركم شكراً جزيلاً على حفاوتكم بى هذه الحفاوة المنقطعة النظير ، التى لم أكن أتصور أن تكون بهذه الروعة البالغة ، قدمت إليكم كرشح فى الانتخابات ، يريد أن يرجو أهل دائرته انتخابه هذه المرة كما انتخبوه فى الماضى . وليذهب إليهم فى دورهم ليقدم إليهم واجب الشكر على ما أولوه من ثقة عظيمة فى الانتخابات الماضية ، ولأقدم لكم عذرى على تقصيرى فى زيارتكم قبل الآن .

ولكن عندى عذراً شرعياً لعلكم تقبلونه منى ، وهذا العذر اعتلال الصحة ، فأتعشم أن تقبلوه ، وتولونى هذه الثقة الغالية كما عودتمونى دائماً . وأعدكم بعد ذلك أنى سأعود إليكم لأشكركم فى دوركم .

ومن خطبة محمد حسين هيكل باشا فى ساحل سليم بروج لانتخاب صديقه عبد المجيد إبراهيم فى مارس سنة ١٩٣٨ .

إخوانى :

إذا تحدثت لكم هذا الحديث عن نائبكم ، فإننى أتخذه عنواناً للنواب الآخرين الذين يشاركونه مبادئه القويمة ، فأريد منكم أن تسألوا الآخرين أين

منكم رجل كمحمد محمود ومبادئ كمبادئه ؟

والواقع إذا ذكرت المبادئ فمبادئ نائبكم هى المثال الذى يجب أن يحتذى ، فهى تنطوى أولاً على النزاهة . نزاهة القلب واليد والنفس ، النزاهة فى الإخلاص للملك والوطن ، ثم التجرد عن الأغراض والغايات .

والرجل النزيه عادل بطبعه . لا يعرف كيف يظلم ، بل يُظلم هو إذا كان فيه عدل ومساواة للناس جميعاً . وهو يحب الخير للناس ويحبهم أكثر مما يحب نفسه .

هذه هى المبادئ التى يجب أن تتصف بها كل وزارة تريد أن تخدم وطنها خدمة حقة . فإذا فكر واحد من الوزراء والنواب والمتعرضين للخدمة العامة على وجه العموم . فى خدمة نفسه أولا اعتبر خائناً لواجبه ولأبناء وطنه أما الوزير الذى يكون جديراً بهذا الاسم فهو من يضحى بنفسه . ويجود بروحه عند الضرورة . يوم يقتضى الواجب منه التضحية بنفسه أو بماله .

ومن خطبة للأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى فى تكريم الدكتور هيكل فى مارس سنة ١٩٣٨ :

كنت أعرف شاباً على شىء من اليسار فيه دعابة . وكان حاضر النكتة . فأجر أطيانه على العادة لبعض الفلاحين . ولم يمض غير قليل حتى علا إيجار الأرضين ، وارتفعت طوعاً لذلك أثمان مطالب الحياة . وفى هذه الأثناء أنعم على صاحبنا برتبة البكوية . فدعا بالمستأجر وآذنه بفسخ الإجارة . فدهش الرجل وقال له : وكيف ذلك ؟ قال : إنما استأجرت من محمد أفندى . أما أنا الآن محمد بك . فابحث لك يا أخى عن محمد أفندى وضع يدك على أرضه . واصنع بها ما أنت صانع . الدكتور هيكل هو بلا شك . صديقى سابقاً يوم كان الدكتور هيكل فقط ! ويوم كان الدكتور هيكل بك أيضاً . ولو أقيمت له يومذاك حفلة تكريم لهرولت إليها هرولة الصديق لتكريم الصديق . أما اليوم فكيف لى بصداقة (المعالى) وكيف (للمعالى) بصداقتى !

ولن أستطيع إليها الصعود　　　ولن تستطيع إلىّ النزولا

وكيف لى بالاشتراك فى تكريمه وقد فصلت بيننا هذه (المعالى) ، وأمسى المرتقى علىّ جد صعب وجد مخيف !

على أننى تحت ضغط إيثارى القديم له ، وإكبارى لشخصه فى الزمان الطويل ، قد راجعت نفسى ، وما زلت بها حتى خرج لى من هذه المراجعة أن صاحب المعالى الدكتور هيكل وزير الدولة ، ما زال ولن يزال هو الدكتور محمد حسين هيكل صاحبنا القديم !

ومن خطبة طويلة للأستاذ عبد القادر المازنى فى تكريم الدكتور هيكل

كنت أوثر أن أكتفى من المشاركة فى هذا الاحتفال بالتشريف والإصغاء ، والتصفيق لأسباب شتى ! لا أدرى أيها أقوى ، ولكنى أسرد لكم ما فطنت إلى أنه دار بنفسى منها : والرأى لكم فيها ، ويغرينى بذكرها أنه لا يخلو من فائدة : فمن ذلك أن المشاركة الصامتة ، تنظمنى فى سلك الوجهاء ، وتحشرنى فى زمرة الكرام الذين يتفضلون مثلكم بتشجيع الأدب والأدباء ، ومنها أنى خشيت أن يقال زميل قديم يثنى على زميله ، ولن أثنى والله إلا بالحق ، وإن رأسى لعلى كفى والرزق على الله ، ولكن الناس ظنونهم شكول ، وما يعنينى أن يظنوا بى أنا ما يشاءون . ولكنه يعنينى الإنصاف ، وأن لا يجور فرع على أصل ، ومنصب عارض على أدب باق . وخفت كذلك أن يقال وزير يرجى ويخشى ، ولهذا كان التكريم ، ومن أدرى الناس أن أكثر دعائى اليوم أن يغنينى الله من خير الوزراء ويقينى شر ضعفهم ؟ على أنه لم يزد شيئاً بالوزارة ولست أراها غيّرته عن عهدى به ، وليست الوزارة جاهاً أو ربحاً ، وإنما هى تبعات ثقيلة لا يستخف بها إلا من ليس كفؤاً لها ، وما كان هذا التكريم لمنصب قلده ، أو رتبة منحها . بل لأدب لا تختلف قيمته أو تتفاوت تبعاً للمنازل التى ينزلها صاحبه فى حياته العامة .

ومن خطبة طويلة للدكتور أحمد ماهر فى مارس سنة ١٩٣٨ فى حفلة انتخابية :

إخوانى :

أشكركم شكراً جزيلاً لتفضلكم بالحضور فى هذا الجمع العظيم ، لسماع

كلمات إخواننا وكلمتنا فى تأييد حضرة أمين سعيد ، ولكنى قبل أن أتكلم فى الموضوع الذى أريد أن أتحدث فى شأنه إليكم ، أستسمح الأب سرجيوس فى إبداء ملاحظتين على ما قاله ، فأما الملاحظة الأولى فإنها تتعلق بزعيمنا العظيم الكبير سعد زغلول ، لأنه أشار فى كلمته إلى أن لسعدنا الكبير مواقف ، كان يحاول أن يستبد بالرأى فيها . فليسمح لى أن أقول إن هذه العبارات قيلت عن سعد وأشيعت عنه ، ولكن لمحاربته لا للحقيقة أؤكد لكم أنى وقت أن سافر سعد إلى أوربة للسعى لتحقيق ما نرجوه من استقلال ، لم أكن قد جلست معه حتى ذلك الوقت ، ولم أكن أعرفه حق المعرفة ، فلما عاد فريق من الوفد مختلفين معه فى الرأى ، كان مما قيل عنه إنه مستبد برأيه ، ولم يكن فى استطاعتى أن أتحقق من صحة هذه الدعوى . فكان لنا أن نعتقد احتمال صحتها ، ولكن كنا نجيب هؤلاء الإخوان بأنه حتى إن صح ذلك ، فإن الواجب يحتم التفاف الجميع حوله حتى تنتهى تلك المهمة الشاقة التى نعمل لها جميعاً ، والتى لا يمكن أن تنجح بغير هذا التضامن .

ومن خطبة للمرحوم مصطفى كامل باشا :

أيها السادة : إنكم باجتماعكم اليوم هذا الاجتماع الوطنى ترفعون كثيراً من مقام الوطنية المصرية ، وتخففون من آلام مصر العزيزة ، التى قاست وتقاسى أشد العذاب ، على مشهد منكم يا أعز بنيها ونخبة أنجابها . فكل اجتماع وطنى تذكر فيه مصر ويطالب بحقوقها ، ويعلن أبناؤها إخلاصهم لها ، هو فى الحقيقة مرهم لجراحها ، ودواء لدائها . فاذكروها ما استطعتم ، فإن فى ذكراها ذكرى آلامها ، وذكرى الآلام تجر حتماً إلى ذكر عوامل الشفاء ، اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة وهى على سرير المرض والعناء ، اذكروها بآلامها . وإن كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها ، اذكروها ، فإنكم ما دمتم مقدرين لمصائبها ، عارفين حقيقة آلامها ، دام الأمل وطيداً فى سلامتها ودام الرجاء . اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار فى داره ، والداء فى شخص أمه ، ويهمل النار ويهمل الداء .

فهرس

كتاب الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه

صفحة

صفحة